

الموسوعة في الشاملية في تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

المجلد السادس والأربعون

دار الفكر
الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥ هـ

الموسوعة الشامية في تاريخ الخز والصلبية

التاريخ الكبير
تصنيف
متى بارس
(١٢٣٥-١٢٧٣ م)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

الجزء أربعون

(١)

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

التاريخ الكبير
تصنيف
متى بارس

القسم الأول
(١٢٣٥-١٢٤٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

سلفت بي الإشارة من قبل إلى متى باريس وكتابه في التاريخ الذي أوصل به كتاب «ورود التاريخ» إلى أحداث سنة ١٢٧٣، ومثلما هي معلوماتنا ضئيلة جداً كانت عن صاحب ورود التاريخ هي كذلك عن متى باريس، فهو قد كان مثل سلفه من رهبان دير القديس ألبان، وهو شهر بلقب الباريسي إما لأنه ولد في باريس، أو لأنه تعلم في باريس، ولم يشبه متى سلفه، ولا معاصريه من الرهبان حيث لم يسع لنيل المراتب الرهبانية، مع أنه امتلك المؤهلات وكان عالي الثقافة، ويبدو أنه صرف اهتمامه كله نحو التاريخ وكتابته، وقليلاً هو الوقت الذي صرفه لدراسة الكتاب المقدس وكتابة تعليقات عليه، لاهوتية أو سوى ذلك، وسعى دوماً إلى إعادة النظر بما كتبه في التاريخ تنقيحاً وتصحيحاً وإكمالاً.

ولقد صنف متى «التاريخ الكبير» الذي تقدمه اليوم إلى القارئ العربي للمرة الأولى، وهذا الكتاب جاء تكملة لعمل روجر ويندوفر، وهو معه يصوران أوضاع انكلترا وفرنسا بشكل رئيسي منذ ما قبل سنة ١٠٩٥ حتى ١٢٧٣، أي ما يقارب القرنين من الزمان، أو بكلمة أخرى معظم سنوات قرني الحروب الصليبية، ولقد كانت فرنسا وانكلترا هما اللتان أسهمتتا أكثر من غيرهما من بلدان أوروبا في أحداث الحروب الصليبية، وطبعاً كما سوف يلاحظ القارئ أن روجر ويندوفر ثم متى باريس لم يقصرا اهتماميهما على فرنسا وانكلترا، بل شملاً بذلك أوروبا كلها، وأن يمتلك الإنسان صورة أوروبا خلال قرني الحروب الصليبية فيه فائدة جلية، ومع صورة أوروبا أحوال الأرض المقدسة ومجريات الحروب الصليبية في الشرق، فلقد تطورت فكرة حمل الصليب، وكان للبابوية ورجال اللاهوت الدور

الأعظم في تطوير عقيدة الصليبية والضمانات الممنوحة لحملة الصليب، ولم تعد الحملات الصليبية مقتصرة ضد المسلمين، بل شملت جميع خصوم كنيسة روما، وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ظلت الروح الصليبية متوقدة ضد المسلمين في الشرق، وكان بود البابوية مواصلة إرسال الحملات، لكن أعاقها الصراعات الداخلية التي تفجرت في كل من فرنسا وانكلترا، حيث كان النظام الاقطاعي يعاني من مشاكل كبيرة، وقد ازدادت المطالب بالمزيد من الحريات العامة وتحديد صلاحيات الملوك، وتوفر صراع مستمر بين الكنيسة وبين التاج، وكانت بذور القوميات قد بدأت تنمو، وتوفرت الأجواء نحو الاتجاه إلى إقامة الحكومات الوطنية إن لم أقل القومية، وكانت نفقات الحملات الصليبية عالية جداً وثقيلة، وفرصة دائمة للاستمرار بفرض الضرائب والمكوس، يوماً لصالح التاج، ويوماً آخر لصالح الكنيسة، ولكن أكثر شيء لصالح البابوية، هذا ويلاحظ أن النهضة الثقافية كانت ضعيفة والعقلية الغيبية هي السائدة لكن توفرت مواجهات جديدة صعبة وتمردات ضد صيغة التثليث والعلاقات بين الأتانييم، ومع ذلك ظلت سلطات البابوية مطلقة وقوية جداً، وتخيف كل انسان بفرض العقوبات الكنسية، ولذلك كانت البابوية تتدخل بالشؤون الداخلية لكل واحدة من دول أوروبا، وعانت الإدارة البابوية من الفوضى، ومن فعالية الرشوة، وسوء القضاء، وهذا أيضاً عانت منه العروش في فرنسا وانكلترا فالملوك منذ ريتشارد الأول ومعاصره فيليب أغسطس باتوا عديمي الخبرة، لابل أحياناً عديمي الوجود، واحتكر المستشارون السلطة، ولذلك لم تتوقف الصراعات السلطوية، وظلت القلاع لها دورها، ولاشك أن الحروب الصليبية كانت لها تأثيراتها على فنون بناء القلاع وتحصيناتها، وعلى التسليح.

هذا في الغرب الأوروبي، أما في بلاد الشام والجزيرة ومصر، فقد شكلت الدول الأيوبية عبئاً ثقيلاً على أهل البلاد، حيث انشغل الأيوبيون

بصراعتهم الداخلية، وتمنوا جميعاً لو أن القدس زالت من الوجود، لذلك كانوا يعرضون تسليمها إلى كل قائد حملة صليبية صغرت أو كبرت، ودفعت دمياط الثمن الباهظ في الدفاع عن مصر وعن القدس.

ومن مزايا كتابينا توفر كميات كبيرة من الوثائق البالغة الأهمية، والتواصل برواية أخبار الأحداث بصدق ودونما تصنيع، مع شيء من العاطفة الانكليزية، هذا وكنا قد ذكرنا أننا لانعرف الكثير عن حياة متى باريس، وبالفعل لاندري بالتأكيد السنة التي توفي فيها، ولعلها كانت سنة ١٢٧٣م التي توقف فيها عن متابعة التأريخ.

هذا وكتب متى كتاباً آخر بالتاريخ حول ملكي ميرشيا Mercia الأوفين Offas وعن حياة ثلاثة وعشرين من رعاة دير القديس ألبن، واختصر أيضاً التاريخ الكبير بكتاب عرف باسم «التاريخ الصغير»، وأضاف فيما بعد بعض الإضافات إلى هذا الكتاب، وسلف أن ذكرت الجهود الكبيرة التي بذلتها في سبيل الحصول على نسخة من كتاب متى باريس، الذي طبع منذ مائة وخمسين سنة، وبكتاب تاريخ متى باريس، أكون قد دنوت كثيراً من الفراغ من المصادر غير العربية الأساسية.

ولإنني إذ أتوجه بالحمد إلى الله تعالى على عونه وتوفيقه، ألتمس منه جلّ وعلا المزيد من العون والتوفيق، والصلاة والسلام على نبيّنا المصطفى وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ / ١٠ - أيار ٢٠٠١ م

سهيل زكار

وهكذا رددنا على الحسد، وفرغنا من ذلك.

«وأعدّ يابرايثي Prythee الكاتب قلمك وجهزه،

وتحرك ثانية ودر في فلكك الخاص بك»

وفي الوقت نفسه، تسلم الملك ضريبة الهايد، أي ماركين عن كل هايد hide من أجل زواج أخته ايزابل، فقد دفع الملك أثناء زواجها إلى الامبراطور، في مدة قصيرة من الزمن ثلاثين ألف مارك، إلى جانب زينة الامبراطورة، والتاج الذي كان غالي الثمن كثيراً.

الانتقام الذي أخذ من أجل موت رتشارد الايرل مارشال

وفي حوالي ذلك الوقت تبجح هنري كليمنت Clement وكان كاهناً، قدم رسولاً من النبلاء الايرلنديين، وتفأخر بشكل غير حكيم، بأنه كان السبب في وفاة الايرل رتشارد المارشال، الذي قال عنه بأنه كان خائناً، وعدواً دموياً للملك، ولجميع المملكة، فقتل الرجل بشكل مهين في لندن، حيث كان الملك، واتهم غيلبرت المارشال بموته، لكنه قدم براهين وافرة على براءته.

وكلف في الوقت نفسه الملك هنري الثالث أسقف كارآيل، واستخدمه لابرهم معاهدة زواج مع ابنة ايرل ووركستر، وأن يقدم تعهده، وكذلك تعهد الملك حول هذه المسألة، لكن الملك غير فيما بعد رأيه، نتيجة تهديد صدر عن الملك الفرنسي، أنه إذا ما أصر، سوف يجري حرمان والدها، وقد تزوجت فيما بعد من ألفونسو، ملك قشتالة، من أجل جمالها.

الفتاوى الغريغورية الجديدة

وفي هذه الآونة أيضاً، شاهد البابا غريغوري التاسع التداخل المتعب للفتاوى والمراسيم البابوية، فأمر بهم فاختصروا، وجمعوا في إطار صغير، ومن ثم أمر بقراءتهم بشكل مهيب ودقيق مسؤول، ونشرهم في جميع أنحاء

العالم، وبدأت هذه الفتاوى المعروفة باسم الغريغورية نسبة إلى مصنفها بالجملة التالية: سلام الملك، إلخ، وقد بدل بعض خصوصياتهم، من ذلك على سبيل المثال، أن بعض الأشخاص غير المؤهلين ينبغي عدم تسلمهم موارد أسقفية ولاهوتية، من دون أن يحصلوا أولاً على ترخيص بالكفاءة من الكرسي الرسولي، ولأنه عرف أن كثيراً من المنافع تحصل لبلاط روما، من أجل الحصول على الشيء نفسه، بالطريقة نفسها كما هو الحال من قانون انوسنت، في سبيل أن يحمل ترخيصاً ما منافع أكثر من آخر.

ربا الكورسينيين

سيطر في هذه الأيام وانتشر الأذى المرعب للكورسينيين Caursines إلى درجة أنه كان من الصعب وجود أي إنسان في جميع انكلترا، خاصة بين الأساقفة الذي لم يقع في شباكهم، حتى الملك نفسه كان مداناً لهم بمبلغ من المال لا يمكن تعديده، لأنهم طوقوا المحتاجين وقت عوزهم، وموهوا رباهم تحت مظهر التجارة، وتظاهروا أنهم لا يعرفون أن كل ما أضيف إلى الأساس هو ربا، مهما كان الاسم الذي دعي به، لأنه كان من الواضح أن قروضهم ليست موجودة في طريق المعونات، بقدر أنهم كانوا لا يقدمون يد المساعدة إلى الفقراء لا سعا فهم، بل لخداعهم، وليس لمساعدة الآخرين في جوعهم، بل ليزيدوا من شرارتهم، مشاهدين أن «الدافع يدمغ عملنا نفسه».

الشكل الذي ربط فيه الكورسينيين المقترضين منهم

إلى كل من سوف يرى الكتابات الحالية —رئيس رهبان وراعي دير— صحة في الرب— ليكن معلوماً من قبلكم، بأننا قد تسلمنا قرضاً في لندن، من أجل تسوية مسائل تتعلق بنا وبكنيستنا، من فلان، ومن علان، من أجلهم أنفسهم وشركائهم، سكان وتجار مدينة— مائة وأربعة ماركات من نقود استيرلينية جيدة وقانونية، وكل مارك مقدر بحساب صرف ١٣ شلنغ

و٤ بنس استيرليني، وفيما يختص بالمائة وأربعة ماركات، نحن نعلن باسمنا وباسم كنيستنا، أننا من دون تنازل أو اعتراض، بأنهم دفعوا إلينا بالكامل، وننكر كلياً وجود أي استثناء بالمال، في أنه لم يجر تعديده، أو في أن المال المذكور لم يتم تحويله لاستخدامنا، ولاستخدامات كنيستنا، وأن المائة والأربعة ماركات استيرليني المتقدم ذكرهم، في الصفة والعدد المتقدم ذكره، بأن يحسب للتجار المذكورين، أو لواحد منهم، أو لوكيلهم المحدد، الذي سوف يجلب معه هذه الرسائل الحالية، في عيد القديس بطرس وفينكولا Vincula أي في اليوم الأول من شهر آب، في الهيكل الجديد، في لندن، في سنة ألف ومائتين وخمس وثلاثين لتجسيد ربنا، ونعد بميثاق شرعي، ونربط أنفسنا، باسمنا، وباسم كنيستنا، بأننا سوف ندفع ونسدد بشكل كامل، ونضيف زيادة على ذلك هذا الشرط، وهو أن هذا المال إذا لم يدفع ولم يسدد، في المكان والموعد المتقدم ذكرهما، كما قيل، فإننا نعد أننا منذ ذلك الوقت، وفي موعد هو دائماً قبل انتهائه، ونربط أنفسنا بالميثاق نفسه، بأن ندفع وأن نقدم إلى التجار المتقدم ذكرهم، أو إلى وكيلهم المحدد، في كل شهرين، عن كل عشرة ماركات، مارك واحد عن المال المذكور، وذلك تعويضاً للخسائر، وهي الخسائر والنفقات التي يمكن أن يتحملها هؤلاء التجار أو يتلقوها، وبناء عليه من الممكن المطالبة بالخسائر والنفقات والأساس بشكل فعال، حسبها ورد الذكر أعلاه، والنفقات هي نفقات تاجر واحد، مع فرس واحد، وخادم واحد، حيثما سيكون التاجر حتى يجري الدفع بالكامل لجميع ماتقدم ذكره، والنفقات التي صرفت، أو سوف تصرف من أجل استرداد المال نفسه، سوف تسدد، وتعاد إلى التجار أنفسهم، أو إلى واحد منهم، أو إلى وكيلهم المحدد، وبالنسبة للذي سوف يعوض عن الخسائر، والفائدة والنفقات، إننا نعد التجار المذكورين أننا سوف لن نحصيه أو نحسبه بالنسبة لأساس الدين المذكور، وأن لاحتفظ بالدين المذكور تحت حجة التعويضات المتقدم ذكرها، مراغبة لإرادة التجار المتقدم ذكرهم، تجاوزاً للشرط المتقدم ذكره، وفي سبيل تنفيذ جميع

الشروط المتقدم ذكرها، وأنا سوف ننفذها ونفي بها بكل تأكيد، وسوف نراعيها مراعاة كاملة، ونحن نربط أنفسنا، وكنيستنا، وخلفاءنا وجميع سلعنا وسلع كنيستنا المتحركة، وغير المتحركة، اللاهوتية والدينية، الموجودة الآن لدينا، أو التي سوف توجد من الآن فصاعداً، أينما كانوا وحيثما وجدوا، لصالح التجار المذكورين وورثتهم حتى يجري دفع كامل لجميع المتقدم ذكره، الذي إذا كان على شكل بضائع، نحن نعترف بتسلم ذلك منهم بوساطة تأجير مشكوك فيه، ونحن نوافق على وجود المتقدم ذكره في جميع الأماكن، وأمام أي محكمة، وأن نقوم بالتخلي عن كل المتقدم ذكره، بالنسبة لأنفسنا، وبالنسبة لخلفائنا، من كل من الجانب الشرعي والمدني، امتيازات كل من الكهنوت والبلاط القضائي، ورسالة القديس أدريان Adrian وكل عرف، وقرار، وجميع الرسائل، والتعهدات، والامتيازات المحصلة أو التي سوف يتم الحصول عليها من الكرسي الرسولي، لصالح ملك انكلترا، ولجميع شعب مملكته، وقانون De du- abus dieties ومنفعة الدفع الكامل، ومنفعة استئناف المرافعة وإعادة الاتهام، ورسائل المنع الصادرة عن ملك انكلترا، وجميع الاستثناءات الأخرى، حقيقة وشخصية، التي يمكن أن تعترض ضد هذه الأداة أو الفعل، ونحن نعد بمراعاة هذه الأشياء كلها باخلاص، وشهادة على هذه القضية التي نعتقد أنها صحيحة، نقوم بتثبيت خاتمنا على الكتابة الحالية، عمل في اليوم الخامس من Elphege في سنة النعمة ١٢٣٥ م».

هكذا كانت الروابط التي لا يمكن الخلاص منها، التي ربط بها الكورسينيين المقترضين منهم، وهم عن جدارة حملوا اسم كورسينيين، لأننا إذا أردنا أن نتعامل مع كلمة «كوسور» Causor نجد معناها ليغش، ومعنى كلمة Gapio ليأخذ، ومعنى ursine أي فظ، فهم أولاً أثاروا المحتاجين واستدرجهم بكلمات ناعمة ومعسولة، ولكن في النهاية طعنوهم بالصميم بما يشبه الرمح، وبناء عليه، وبسبب أن كلماتهم

المكتوبة كانت بارعة جداً، ومأخوذة من كتب القانون، وهي متصلة لها قرابة بمخادعات مرافعات الاستئناف، يعتقد كثير من الناس بأن هذه الأعمال والصفقات لم تحدث من دون موافقة بلاط روما وفقاً لكلمات الانجيلي: «أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم» [لوقا: ١٦/٨]، حتى اليهود عندما شاهدوا هذا النوع الجديد من الربا، وقفوا بين المسيحيين يسخرون من سبتنا، ليس من دوق استحقاق.

ايشار بلاط روما للكورسينيين

ورأى في هذا العام نفسه، روجر أسقف لندن، وكان رجلاً متعلماً وتقياً، أن الكورسينيين كانوا يقومون بشكل مكشوف، بمضاعفة أموال الربا لديهم من دون حياء أو خجل، ويبارسون أقذر حياة، ويضايقون رجال الدين بمختلف أنواع الأذى، ويكدسون أكواماً من الثروات، من الأعداد الذين أرغموا على الخضوع إلى نير ظلمهم، فثار بغضب وبإباء عنيف، وأشعل بغيرة قضية العدالة، وبناء عليه وصمهم بالهرطقة، وأنهم الذين نأوا بأنفسهم عن العدل، وهم يثمنون خلال أرواحهم، وأن عليهم القيام بالتكفير عن أفعالهم الأثيمة، ونظروا إلى هذا الانذار نظرة استخفاف وضحكوا منه وازدروه، لابل إنهم هددوا، وبناء عليه سلح الأسقف نفسه بأسلحة العدل، وشرع بحملة تكفير ضدهم جميعاً، وبإجاز وحزم، أمرهم بأن يغادروا على الفور مدينة لندن، التي كانت حتى ذلك الحين محررة من ذلك الطاعون، ولكي لا تتلوث أسقفيته بمثل هذا الدنس، غير أنهم امتلأوا بالتشامخ، ووثقوا بالحماية البابوية، وحصلوا من بلاط روما من دون ضياع للوقت أو صعوبة على قرار، بأن الأسقف المذكور، صار الآن شيخاً كبيراً، وضعيفاً، ومخرفاً، ويتوجب نفيه بشكل قاطع إلى مناطق نائية فيما وراء البحار، وصدر قرار من قبل القضاة الذين كانوا أصدقاء للكورسينيين، ومختارين بناء على رغبتهم، بوجوب أن يمثل الأسقف أمامهم، للإجابة على ما اقترفه من ذنب تجاه تجار البابا، ولكن الأسقف

اختار أن يكون مثل سام، في أن يغطي عورة أبيه، وأن لا يكون مثل حام يقوم بعرض هذه العورة وكشفها، فوضع نهاية سلمية لهذا الاضطراب الذي أثاره، وتظاهر باخفاء الذي وقع، وأوكل أمره وقضيته إلى حماية القديس بولص، الذي عندما كان يعظ حول العدالة الصحيحة والشديدة كتب مايلي:

«وإذا ما بشركم ملاك بعكس هذه الأشياء، فليكن آثماً» [غلاطية: ٨/١].

وقاحة بعض الرهبان الفرنسيين

وفي هذه الآونة نفسها، دخل بعض الرهبان الفرنسيين، وكذلك بعض الذين انضموا إلى طائفة المبشرين، إلى أراضي ديرة أحد النبلاء، وهم غير مراعيين لاختصاصهم، ولتعليمات نظامهم، وجاء دخولهم تحت حجة القيام بواجباتهم بالوعظ، وتظاهروا بأنهم على نية المغادرة في اليوم التالي بعد الفراغ من الوعظ، غير أنهم بقيوا وأشادوا مذبحاً من الخشب، ووضعوا عليه حجراً مكرساً، كانوا قد جلبوه معهم، وأقاموا بشكل خفي تآمري، وبصوت منخفض قداساً، لابل إنهم تلقوا اعترافات كثير من أتباع الأسقفية، مما شكل تحدياً وتجاوزاً للكهنة، وقالوا بأن لديهم التفويض من البابا بتلقي الاعترافات من المؤمنين، الذين يستحون من عملها لكهنتهم، أو يأبون عملها، لأن الكهنة اقترفوا الذنوب نفسها، أو أنهم كانوا يخشون فعل ذلك لأن الكهنة كانوا مخمورين، وإلى هؤلاء أعطى الفرنسيين تحليلاً، بعدما فرضوا تكفيراً عليهم، وأرسلوا في الوقت نفسه مراقباً إلى البلاط الروماني بكل سرعة، ليترافع من أجل قضيتهم ضد رجال الدين، الذين كانوا مقيمين في منطقتهم، وحصلوا على إذن بالبقاء هناك مع بعض المنافع الإضافية وإذا حدث وكانوا غير راضين بهذا، فإنهم انفجروا بإهانات وتهديدات، شاتمين كل طائفة، باستثناء طائفتهم، وأكدوا أن جميع البقية هم بين الذين قضي عليهم بالادانة، وأنهم سوف لن يوفروا نعال

أقدامهم حتى يبددوا ثروات خصومهم، مهما كانت ضخمة، وبناء عليه تنازل إليهم رجال الدين في كثير من النقاط، وتخلوا لتجنب مؤامرات هؤلاء وعدوانيتهم وهم في قوتهم، لأنهم كانوا المستشارين والرسل لدى النبلاء، لابل أكثر من هذا، كانوا أمناء سر لدى البابا، ولذلك حصلوا على كثير من الخطوة المدنية، ووجد بعضهم — على كل حال — أنفسهم معارضين في بلاط روما، فتراجعوا لأسباب بديهيّة، وغادروا مبتعدين بحالة اضطراب، لأن الخبر الأعظم قال لهم وهو ينظر إليهم نظرة غضب:

«مامعنى هذا يا إخواني؟ إلى أي مدى أنتم ذاهبون؟ أولم تتخذوا عقيدة الفقر وتتخذوها عن طواعية، وأنكم سوف تسافرون في البلدات والقلاع والمسافات البعيدة، حسبما يقتضي الحال، حفاة، غير متباهين، من أجل التبشير بكلمة الرب بكل تواضع؟ وأولم تقوموا الآن باستئناف اغتصاب هذه الممتلكات لأنفسكم، ضد رغبات أصحاب هذه الاقطاعات؟ ويبدو أن ديانتكم قد أخذت تتلاشى إلى أبعد الحدود وهي في طريقها إلى الموت، وأن عقائدكم باتت مدحوضة»، ولدى سماعهم بهذا، غادروا وأخذوا يتصرفون بأنفسهم بلطف أكثر، مع أنهم كانوا من قبل قد تحدثوا بشموخ وغطرسة، ورفضوا أن يقادوا بموجب ارادة الآخرين، مع أنهم كانوا في بيوت ليست بيوتهم.

وجرى في هذا العام الاستيلاء على قرطبة — وهي مدينة مشهورة في اسبانيا — من قبل ملك قشتالة، وذلك بعد قتله لأخي أمير المؤمنين، وتمزيق جيشه وتفريقه.

موت روبرت فتز — وولتر وروجر دي سومريك

وفي العام نفسه، مع اقتراب ميلاد ربنا، غادر طريق الجسد روبرت فتز — وولتر، الذي كان باروناً من أصل شهير، وصاحب سمعة عالية، في البراعة في السلاح، وفي العام نفسه أيضاً، أخذ روجر دي سومريك Su-

meric وهو في زهرة الشباب، من بين الناس، وكان رجلاً فريداً في فصاحته، ومن أصل محترم، وصاحب قوة متميزة، وفي هذا العام أيضاً، أرسل الامبراطور جلاً إلى الامبراطور، كعلامة على مواصلة تقديره.

زواج الملك هنري من إليانور ابنة كونت بروفانس

سنة ١٣٢٦ لتجسيد الرب، التي كانت السنة العشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في وينكستر في عيد الميلاد، وقد احتفل بذلك العيد بفرح، فقد كان في ذلك الوقت ينظر بتشوق إلى عودة رسله الخاصين، الذين بعث بهم إلى بروفانس، إلى ريموند كونت تلك المقاطعة مع رسائل تتضمن تفكيره العميق واهتمامه الكبير في التعاقد زواجياً مع ابنته إليانور، وكان الكونت المذكور من أصل مشهور، وكان شجاعاً في المعركة، إنما بسبب استمرار الحروب، قد بدد تقريباً جميع المال الذي امتلكه، وكان قد تزوج من ابنة توماس، كونت سافوي المتوفى، وأخت أميدوس Amadeus الكونت الحالي، وكانت سيدة ذات جمال مدهش، كان اسمها بيترايس Beatrice وأنجبت هذه السيدة من الكونت المتقدم الذكر ابنتين لهما جمال عظيم، وكان اسم الكبرى مرغريت، وهي التي تزوجت من لويس ملك فرنسا، حسبما حدثنا كاهن اسمه جون دي غيت Gates وقد طلب ملك انكلترا الآن بوساطة الرسل المذكورين الزواج من الابنة الصغرى، وكانت سيدة شابة، ذات مظهر رشيق، ومن أجل الحصول على هذه الخطوة، كان قد أرسل بشكل سري رتشارد، رئيس رهبان هورل Hurle مقدماً، وقد تمكن باخلاص وبمتابعة بإنهاء القضية، وإثر عودة رئيس الرهبان، وإخباره الملك بالنتيجة، قام الملك بمعاودة مراسلة الكونت، بوساطة بعض الرسل الآخرين، وهم:

هيوج أسقف إيلاي، وروبرت أسقف هيرفورد، والراهب روبرت دي ساندفورد Sandford مقدم فرسان الداوية، واستقبل هؤلاء الرسل من قبل كونت بروفانس، لدى وصولهم بأعظم تشريف واحترام، وتسلموا من

يديه ابنته إليانور، من أجل أن تتحد مع ملك انكلترا وبه تقترن، ورافقها أيضاً «خالها» وليم الأسقف المنتخب لبلنسية Valentia وكان رجلاً متميزاً، وأيضاً من قبل كونت شامبين، وكان من أقرباء الملك الانكليزي، ولدى معرفة كونت نافار أنها سوف تسافر خلال أراضيها، خرج مسروراً لاستقبالها، ورافق الراكب بمثابة دليل خلال ممالكه، أثناء رحلة استمرت خمسة أيام وزيادة، كما أنه بدافع من كرمه الطبيعي، دفع جميع النفقات لكل من الخيول والمرافقين، وضم الراكب أكثر من ثلاثمائة عسكري خيال في الحاشية، دون أن نحسب العدد الكبير من الذين تبعوهم، ولدى وصولهم إلى حدود فرنسا، حصلوا، ليس فقط على أمان العبور، بل على ممر تشريفي خلال تلك البلاد، تحت رعاية الملك الفرنسي وملكته، أخت السيدة، التي كانت على وشك الزواج من الملك الانكليزي، وأيضاً من قبل بلانشي، أم الملك، وقد أقلعوا من ميناء ساندويش (الأقوم: قوانتافيك Quentavic أو ويسانت Wissant)، وأخذوا الطريق بأشعة منشورة إلى دوفر، حيث وصلوا بعد عبور سريع، وذلك قبل أن يتوقعوا ذلك، وبعدما نزلوا إلى اليابسة بسلام، انطلقوا نحو كانتبري، وقد استقبلوا من قبل الملك، الذي اندفع إلى ما بين أذرع الرسل، وبعدما رأى السيدة، واستحوذ عليها، تزوج منها في كانتبري، وعمل الاحتفال في الرابع عشر من كانون الثاني، وأقام الاحتفال ادموند رئيس أساقفة ذلك المكان، يساعده الأساقفة الذين قدموا مع السيدة، وذلك بحضور النبلاء الآخرين وأساقفة المملكة، وفي التاسع عشر من كانون الثاني، ذهب الملك إلى ويستمنستر حيث جرى احتفال مهيب غير عادي، في اليوم التالي، الذي كان يوم أحد، وفي ذلك الاحتفال كان الملك متوجاً وكانت إليانور متوجة ملكة، وعلى هذا تزوج هنري الثالث في كانتبري، أما الاحتفال بالعرس فجرى في لندن، في ويستمنستر، وكان ذلك يوم عيد القديس فايان Fabian والقديس سيباستيان Sebastian.

الاحتفالات أثناء زواج هنري الثالث

لقد اجتمع هناك أثناء احتفالات عرس الملك حشد كبير من النبلاء من الجنسين، مع أعداد كبيرة من رجال الدين، وكذلك جمهور كبير من الناس، وأنواع كبيرة من الممثلين، إلى حد أن لندن، على الرغم من اتساعها الكبير، استوعبتهم بصعوبة، وكانت المدينة كلها مزينة بالأعلام والرايات، والأكاليل، والمعلقات، والشموع، والمصابيح، مع ابداعات رائعة، وعروض غير عادية، وكانت جميع الطرق منسقة من الوحل والأوساخ، والعصي، ومن كل شيء مؤذي.

وخرج سكان المدينة أيضاً، لاستقبال الملك والملكة، وكانوا يرتدون ثياب الزينة، وتنافسوا واحد مع الآخر محاولين الاسراع بخيولهم، وفي اليوم نفسه عندما غادروا المدينة قاصدين ويستمنستر، ليأرسوا واجبات الساقي للملك (وهي وظيفة قديمة عائدة إليهم بموجب امتياز قديم، أثناء التتويج)، ساروا إلى هناك وهم يرتدون ثياباً حريرية، مع أردية معمولة بالذهب، مع غيارات ثمينة، وقد امتطوا خيولاً غالية، تلمع باللجم الجديدة والسرج، وقد ركبوا على شكل عساكر، واصطفوا بأرتال، وحملوا معهم ثلاثمائة وستين قدحاً من الذهب والفضة، وكان يسير أمامهم حملة الأبواق والنفر الملكية وهم ينفخون بها، وهكذا جعلت هذه المسيرة الاحتفالية الرائعة، كل انسان يراها، يصاب بالدهشة، وقام رئيس أساقفة كانتربري، بموجب الحق الخاص به، بممارسة واجب التتويج، وسط المهابة المعتادة وتولى مساعدته أسقف لندن كعميد، وأخذ الأساقفة الآخرون أماكنهم تبعاً لمراتبهم، وبالطريقة نفسها وقف رعاة الديرة، وكان على رأسهم —بموجب امتيازهم— راعي دير القديس ألبان (لأن ب. ألبان بحكم كونه رائد شهداء انكلترا، كان المقدم على جميع شهداء انكلترا، وبناء عليه كان راعي ديره المقدم على جميع رعاة الديرة في المرتبة والمقام) لأن الامتيازات الأصلية لتلك الكنيسة قد رسمت ذلك، وأدى النبلاء أيضاً

واجباتهم التي جعلتها الامتيازات القديمة والعادات عائدة إليهم أثناء تنويع الملوك، وبالطريقة نفسها أدى بعض سكان بعض المدن بعض الواجبات العائدة إليهم بموجب امتياز أجدادهم، فقد حمل ايرل شيلستر سيف القديس إدوارد، الذي اسمه Curtun أمام الملك، كعلامة على أنه كان ايرل ذلك القصر، وأن لديه حق السلطة في تقييد الملك وردعه إذا ما اقترف خطيئة، وكان مع الايرل قسطلان شيلستر، وهو الذي أبقى الناس بعيداً بعضا عندما كانوا يضغطون نحو الأمام بطريقة فوضوية، وحمل المارشال الأعظم لانكلترا، الذي هو ايرل ييمبروك عصاً أمام الملك، وأخلى الطريق أمامه في كل من الكنيسة، وفي قاعة الوليمة، ونظم المائدة وجلس الضيوف حول المنضدة، وحمل حجاب الـ Cinque Ports الطيلسان فوق الملك، محمولاً فوق أربعة رماح، ولكن الادعاء بهذا الواجب لم يكن كلياً من دون خلاف، وزود ايرل لستر الملك بطست فيه ماء ليغسل يديه قبل الطعام، وقام ايرل وارني Warrenne بواجب حامل كأس الملك، وحل بذلك محل ايرل آرونديل، لأن الأخير كان مايزال شاباً، ولم يعمل فارساً بحزام بعد، وكان المعلم ميكائيل بيليت الساقى ex officio وكان الايرل هيرفورد هو الذي مارس واجبات مارشال حاشية الملك، وشغل وليم بوشامب وظيفة موزع الصدقات، وأعد المسؤول عن عدالة الغابات الكؤوس على المائدة، على يمين الملك، ومع أنه قابل بعض المعارضة، فإنها سقطت إلى الأرض، ووزع سكان لندن الخمرة في جميع الاتجاهات، في كؤوس ثمينة، وتفوق الذين كانوا من وينكستر في أعمال الطبخ للاحتفال، وشغل البقية أماكنهم المتنوعة، وذلك وفقاً للقوانين القديمة، أو حاولوا فعل ذلك، ولكي لا تتعكر أجواء الاحتفالات الزفافية بأية خلافات، باستثناء امتياز أي واحد، علق البت بأشياء كثيرة أنياً، وترك ذلك إلى فرصة أكثر مواءمة، وعيّن مكتب مستشار انكلترا وجميع المكاتب المرتبطة بالملك واستحوذ عليها في الخزينة، ولذلك فإن المستشار، والحاجب، والمارشال، ومفوض الجيش، أخذوا مقاعدهم هناك

بموجب حقوق مكاتبهم، وذلك مثلما فعل البارونات، وذلك تبعاً لتاريخ خلقهم، في مدينة لندن، حيث عرف كل واحد مكانه، وكان الاحتفال رائعاً، مع ألبسة سرور ارتداها كل من رجال الدين والفرسان الذين كانوا حضوراً، ورش راعي دير ويستمنستر الماء المقدس، وتولى الخازن دور، نائب العميد، فحمل طبق القربان المقدس، ولماذا عليّ وصف جميع هؤلاء الأشخاص الذين خدموا بشكل جليل في كنيسة، وفقاً لمقتضيات واجباتهم؟ ولماذا عليّ وصف وفرة اللحوم والأطباق على المائدة، وكميات لحوم الطرائد، وأنواع السمك، والأصوات المبهجة لرجال الطرب، وسرور الخدم؟ فكل ما هو موجود في العالم، وكان بإمكانه الاسهام في توفير السرور والأبهة كان هناك، قد جلب وجمع من كل جهة من الجهات.

هطول ثقیل للأمطار

وفي تلك الآونة، ولمدة شهرين وأكثر، أي في كانون الثاني، وشباط، وجزء من آذار، تساقطت أمطار ثقيلة متواصلة، لم يشاهد مثلها، ولم يسمع بمثلها في ذاكرة أي إنسان، وفي حوالي أيام عيد القديس سكولاستكا Scholastica «١٠-شباط»، عندما كان القمر جديداً، ازدادت مياه البحر كثيراً بسبب أن نهر تورنتس Torrents صبّ فيه، وصارت جميع الأنهار، خاصة التي تصب في البحر، سبباً في تحويل جميع المخاضات بجعلها لا يمكن عبورها، فقد تدفقت المياه وفاضت من على الطرفين، وأخفت الجسور، فلم تعد تشاهد، وحملت معها كل طاحون وسد، وغمرت الأراضي المزروعة، والمحاصيل والمروج، والسباخ، وكان بين الوقائع غير المعتادة، أن نهر التيمس، فاض فوق حدوده المعتادة، ودخل إلى قصر ويستمنستر الكبير، حيث انتشرت المياه، وغطت المساحة كلها، وصار بإمكان قوارب صغيرة أن تطفو هناك، وذهب الناس إلى بيوتهم على ظهور الخيول، وشقت المياه طريقها بالقوة إلى الأقبية التي كان من الصعب نضح

المياه منها وتصريفها، وأعطت علامات هذه العاصفة التي ظهرت قبلها براهين على تهديداتها ومخاطرها، لأنه في يوم عيد القديس داماسوس Damasus « ١١ - كانون الأول » سمع رعد، وفي يوم الجمعة التي جاءت بعد حمل القديسة مريم « ٨ - كانون الأول » شوهدت شمس زائفة إلى جانب الشمس الحقيقية.

وصول رسول إلى انكلترا من عند الامبراطور

وعند الانتهاء من احتفالات الزفاف، غادر الملك لندن، وذهب إلى ميرتون، حيث جمع النبلاء لسماع رسالة وصلت مؤخراً من الامبراطور، ولمناقشة شؤون المملكة، لأن رسلاً قدموا مباشرة من عند الامبراطور إلى الملك، مع رسائل تسأله، أن يرسل من دون تأخير أخاه رتشارد إيرل كورنوال Cornwall الذي أخبار براعته انتشرت بالطول وبالعرض، ليشن حرباً على ملك فرنسا، كما أنه وعد، أن يرسل على سبيل المساعدة، جميع قواته الامبراطورية، في سبيل مساعدة الملك الانكليزي، ليس فقط لاسترداد ممتلكاته القارية، بل بعد استردادهم، لتوسعة ممتلكاته السالفة، وعلى هذا أجاب الملك والنبلاء الذين اجتمعوا هناك، بعد مناقشات كاملة، بأنه سوف لن يكون سليماً وحكيماً، إرسال واحد مايزال شاباً يمثّل هذا العمر إلى خارج المملكة، وتعريضه لتقلبات الحظ المشكوك فيها والمخاطر الحرب، ولا سيما هو وحده ولي العهد الموجود للملك وللمملكة، وكانت جميع الآمال معقودة حوله بعد الملك، ولأن الملك، وإن كان متزوجاً، هو ليس لديه أولاد، والملكة زوجته كانت ماتزال صغيرة، وليس معروفاً بعد هل ستكون منجبة أم عقيمة، لكن إذا كان موافقاً لسموه الامبراطوري، استدعاء أي رجل شجاع آخر يختاره من بين نبلاء المملكة، لهذه الغاية، فإن الملك وجميع أصدقائه ورعيته موافقون على هذا الطلب، وسوف يقدمون له جميع المساعدات التي هي بإمكانهم، ولدى تسلم الرسل هذا الجواب، عادوا لإخبار مولاها.

بعض القوانين الجديدة التي عملها هنري الثالث

وفي الوقت نفسه، عمل الملك هنري الثالث، بعض القوانين الجديدة، من أجل انقاذ روحه وتحسين أوضاع المملكة، وكان دافعه المؤثر عليه روح العدالة والتقوى، وقد أمر بمراعاة هذه القوانين وتطبيقها بلا استثناء في جميع أرجاء مملكته.

وتعلقت هذه القوانين بالمقام الأول، بأوضاع الأرمال، اللاتي كن بعد وفاة أزواجهن، يحرمن من صداقهن، ولم يكن بإمكانهن الاستحواذ على ذلك، وعلى بائنة كل واحدة منهن من مرافعة أو ادعاء، وقد رسم أن كل من يحرمن بالقوة من صداقهن ومن منازلهن التي كانت بحوذتهن عند وفاة أزواجهن، ينبغي بعد ذلك للأرامل أن يسترددن فيها بعد استرداد صداقهن بالمرافعة القضائية، ووقتها يحكم على الفئة المغتصبة بالظلم والاعتصاب وعليهم التعويض عن الخطأ والقيام بالاصلاح نحو الأرمال المذكورات، ودفع الثمن الكامل للصدّاق الذي هو حق كل واحدة منهن، وذلك من يوم وفاة الزوج إلى يوم استرداد الممتلكات بواسطة القضاء ومع هذا سوف يكون المغتصبون تحت رحمة الملك، وأيضاً سوف تكون الأرمال من الآن فصاعداً يمتلكن الحرية بالحصول على جميع القمح الناتج عن أراضيهن، والصادر عن صداقهن، وكذلك من الأراضي الأخرى، والاقطاعات المكرّاة، باستثناء الخدمات المستحقة إلى مواليهن من صداقهن ومن الاقطاعات المكرّاة الأخرى، وكذلك كل من سيحرّم من اقطاعيته المكرّاة الحرة، وسوف يسترد الاستملاك بالاستيلاء على ملكية منتزعة جديدة أمام رجال العدالة، أو أنه قام بانتزاع الملكية بموافقتهم، وعندما يستحوذ المنتزع للملكيات من خلال العمدة، إنه إذا كان المستولي قد استولى عليهن بعد المرور بدائرة رجال العدالة، أو من خلال الدائرة نفسها، وسوف يدان بذلك، فإن المغتصبين جميعاً سوف يعتقلون، ويحبسون بسجن مولانا الملك، حتى يجري تحريرهم من قبله، إما بفدية، أو

بأي شكل آخر، والشكل التالي للدانة هو الذي ينبغي أن تجري مراعاته بالنسبة إليهم: عندما يقدم مشتكون إلى المحكمة الملكية، فإنهم سوف يحصلون على مذكرة من الملك ستكون حاوية على براهينهم على الاغتصاب للملكية التي تولاها مغتصب، وبالمذكرة سوف يؤمر العمدة بأن يأخذ معه مراقبي مرافعات التاج، وموظفين قانونيين آخرين، وأن يذهب بشخصه إلى الملكية المكتراة أو المرعى، الذي حوله عملت الشكوى، وأن يقوم بحضورهم، بوساطة المحلفين أولاً، وبوساطة الجيران الآخرين، ورجال القانون، أن يقوم بحضور هؤلاء وبوساطتهم ببحث دقيق حول القضية، وإذا ماتم الاكتشاف وجود اغتصاب كما ورد الذكر أعلاه، فوقت ذلك يسرون بالاجراءات، وفقاً للمواد القانونية المعلنة من قبل، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلسوف يكون أصحاب الشكاية تحت رحمة الملك، وسوف تذهب الفئة الأخرى بدون مسؤولية، والشيء نفسه سوف يعمل بالنسبة لقضية أولئك الذين سوف يستردون ممتلكات باستيلاء موت أسلافهم، فإن الشيء نفسه سوف يعمل أيضاً في قضية جميع الممتلكات الاقطاعية المستردة بوساطة القضاة في بلاط الملك، وأيضاً حيث هناك لدى عدد من نبلاء انكلترا فرسان مقطعين، واقطاعاتهم الحرة ممتلكات صغيرة في عزبهم، وقد اشتكوا أنهم لا يستطيعون الإيفاء بما عليهم بالنسبة لما يتعلق بفضلة عزبهم، مثلاً بالنسبة للخسارة، والغابات، والمراعي، وبناء عليه حتى يمكن للفارس المقطع أن يمتلك الكفاية، بما هو متوائم مع أراضيه المكتراة، فقد تقرر ومنح أن مقطعين من هذا النوع، من أي واحد كان، سوف يحضرون ملكية منتزعة جديدة قد استحوذوها، ويعرضوها أمام رجال العدالة، فلسوف تجري الموافقة عليها وأنهم صار لديهم مرعى كاف، متوافقاً مع أراضيههم المكتراة، وذلك مع مدخل حر، ومخرج من أراضيههم المكتراة إلى ذلك المرعى، وأن يكونوا راضين بالشيء نفسه، وكذلك أولئك الذين جرى تقديم شكاويهم الماثلة، فهؤلاء سوف تتم ترصيتهم، بحصولهم على رغبتهم بالنسبة لقضية أراضيههم الخاسرة، وللغابات،

والمراعي، لكنهم إذا ما قالوا بأنهم لم يستحوذوا على مرعى كاف، أو مدخل ومخرج كافيين، فوقتها يجري التدقيق بالحقيقة من قبل المقومين، وإذا ما اكتشف من قبل المقومين، وجود أية عوائق كانت، كما تقدم القول، فوقتها سوف يتسلم ممتلكات بعد الفحص الذي يجريه المحلفون، وبناء عليه على إخلاصهم، وعلى أيمانهم، يمكن للمشتكين أن يحصلوا على مراعي كافية، ومدخل حر، ومخرج، على الشكل الموضح أعلاه، وسوف يبقى المغتصبون تحت رحمة الملك، وسوف يدفعون ثمن الخسائر، كما اعتادوا أن يدفعوا من قبل هذا التنظيم، ولكن إذا تبين للمقومين بأن المشتكين لديهم مراعي كافية ومدخل حرة كافية ومخرج، كما قيل من قبل، لسوف يسمح للفئة الأخرى أن تعمل ما هو صحيح بالبقية، وسوف تغادر بهدوء، ومنح أيضاً من قبل مولانا الملك، مع موافقة النبلاء، أنه منذ ذلك الحين، سوف لن تتراكم الفائدة ضد قاصر منذ وقت وفاة سلفه، الذي هو ورثه، حتى يصل إلى السن القانوني، إنما على هذا الأساس لا يجوز تأخير دفع الرأسمال الأساس، وكذلك فيما يتعلق بالذين اقترفوا اعتداءات في حدائق أو حظائر، جرى نقاش حول قضيتهم، لكن لم يتخذ قرار حول الأمر، لأن النبلاء طالبوا بأن يمتلك كل واحد منهم سجنه، لسجن المتجاوزين الذين يجري اعتقالهم في حدائقهم وحظائرهم، غير أن الملك لم يمنحهم ذلك، ولذلك بقي هذا الأمر كما كان من قبل.

كتابة أرسلت إلى البابا حول

أصل محمد (صلى الله عليه وسلم) وشرائعه

وفي هذا الوقت نفسه، أرسلت رسالة إلى صاحب القداسة البابا غريغوري التاسع من بلدان الشرق، من المبشرين الذين كانوا يرتحلون في تلك المناطق، وعندما نشرت للعالم، وحوث الحديث عن العقيدة الزائفة، وعن... محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الاسلام فإنها أثارت الكراهية والسخرية من قبل الجميع، وهذه الأشياء قد عولجت من قبل في مكانها

المناسب، في أخبار سنة ستمائة، عندما بدأ الوباء المحمدي.

ويصر السراسنة على أنهم عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى ساره «١»، لكن والحق يقال ينبغي أن يقال لهم الهاجريين نسبة إلى هاجر، واسماعيليين نسبة إلى اسماعيل، الذي أنجبهم إبراهيم من أمته هاجر، ومن اسماعيل ولد أبناؤه:

قيذار، نابت، يشجب، يعرب، تيرح، ناحور، مقوم، أد، أدد، عدنان، معد، نزار، مضر، الياس، مدركة، خزيمة، كنانة، النضر، مالك، فهر، غالب، لؤي، كعب، مرة، كلاب، قصي، وعبد مناف، الذي كان لديه ولدين هما: هاشم، وعبد شمس، وأنجب هاشم الذي هو واحد من الاثنين: عبد المطلب، وأنجب عبد المطلب: عبد الله، الذي منه ولد محمد (صلى الله عليه وسلم)، الذي يعدّ نبي السراسنة.. وقد خلف محمد (صلى الله عليه وسلم) في مملكته وفي أوهامه الخطاب (كذا) وخلف الخطاب عمر، وهو الذي كان معاصراً لكسرى، الذي قتله هرقل، الامبراطور الروماني.

الممارسات التي نشأ فيها محمد (صلى الله عليه وسلم)

وهذا الرجل، الذي اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم)، عند موت أبيه عبد مناف، تولى العناية به رجل اسمه أبو طالب، وقد صار وصياً عليه، ورباه، وكان رجلاً يرعى الأوثان في مكان اسمه الكعبة، وأيضاً بيت الله، وعندما وصل إلى سن الشباب، أصبح يعمل لدى امرأة اسمها خديجة ابنة خويلد، التي أعطته أتاناً لخدماته، وليجلب بضائع إلى مناطق آسيا، التي كانت هي تتسلم ثمنها، وأخيراً تصادق مع هذه المرأة وتزوجها، وقد ارتفع شأنه بذلك كثيراً، وبدأ يتشامخ، وسعى لأن يجعل نفسه حاكماً على كل القبائل مرو على شعبه، وفي الحقيقة كان سيدعي لنفسه أنه الملك عليهم، لولا

١ - أصل الكلمة هو التصحيف المعتاد لدى النقل من لغة إلى أخرى، لكلمة «شركة ثمود».

أن بعضهم الذين كانوا أكثر نبالة وقوة منه شخصياً قد عارضوا هذا المغتصب، وعند ذلك أعلن عن نفسه أنه نبي بعث من عند الله، وأن على جميع الناس الإيمان بكلماته، ولم يكن العرب الجاهلين والفقراء قد رأوا من قبل نبياً، ولذلك آمنوا به، وكان هناك أيضاً واحداً مرتداً، قد وقع بالهرطقة، وكان محروماً كنسياً، وقد دعا إلى العقيدة نفسها، وكتب عقيدته، وجذب محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى صداقته جميع قطاعي الطرق واللصوص الذين أمكنه جمعهم، ومركزهم في أماكن سرية على الطرق من أجل سرقة التجار وهم على طريقهم من آسيا، وكان في أحد الأيام قادماً من مدينتي اليمن والشام، فوجد على الطريق جملاً، كان ملكاً لرجل اسمه «أبي جهل ابن هشام»، فاستولى عليه على الفور، وهرب إلى مدينة مكة، غير أن سكان ذلك المكان، لم ينظروا إليه كنبي، فأهانوه، وطرده من مدينتهم كمُدعي، وكرهوه كسارق وسالب للمسافرين، ثم إنه ذهب إلى مدينة في الصحراء، كان شطر من سكانها يهود، والشطر الآخر كفار، ووثنيين، وفقراء، وأناس جهلة، وهناك بنى مع أصحابه معبداً فيه نشر عقائده المزيفة إلى الناس البسطاء، وبعد هذا أرسل واحداً من أتباعه اسمه حمزة بن عبد المطلب Gadimelic مع أربعين جندياً، لنهب التجار الذين كانوا يرتحلون مع مبالغ كبيرة من المال، والتقى هؤلاء الرجال بأبي جهل بن هشام (الذي كان محمد «صلى الله عليه وسلم» قد استولى على جملة)، وكان برفقته ثلاثمائة رجل من مدينته، ولدى رؤية هؤلاء هرب اللصوص الذين أرسلوا من قبل محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذا يدل على أن هذا النبي المزيف لم يستطع أن يتنبأ مسبقاً بهذه الحادثة ليحترس ضدها، لأنه لم تكن لديه روح النبوة، ولذلك فإن السراسنة يكذبون عندما يقولون بأنه كان لديه دائماً عشرة ملائكة معه، كانوا يتولون خدمته في كل شيء.

وفي مناسبة أخرى أرسل محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا، رجلاً اسمه عبيدة Gabeit ابن الحارث Alcharith مع أربعين عسكرياً، لجمع

الأسلاب، وقد هوجم هؤلاء من قبل مركز Abizechem ابن حفص Nubar مع أصحابه، وقد هزم هؤلاء اللصوص وفرقوهم بعدما قتلوا بعضاً منهم، ومامن واحد من ملائكة محمد (صلى الله عليه وسلم) قد ساعدتهم، ومجدداً أرسل محمد (صلى الله عليه وسلم) في المناسبة الثالثة، واحداً من أتباعه اسمه عبد الله بن جحش... [إكتفيت بما تقدم كنموذج وحذفت الباقي لعدم الفائدة، وللتشويه الشديد الذي لحق بالأسماء، وللزيف الواضح].

هرطقة الباترينيين والبوغارينيين

وحصل في هذه الآونة الهرطقة الذين يعرفون باسم الباترينيين Pat- erinians والبوغارينيين Bugarians الذين يسكنون في مناطق ماوراء الألب، والذين أفضل أن أقف صامتاً تجاه آثامهم وأن لا أذكرها، حصلوا على أرضية قوية حتى أنهم تجرأوا على تهديد نقاوة الإيمان في مناطق فرنسا وفلاندرز، لكن بفضل نشاط وإدارة ومتابعة الواعظين من الفرنسيين، والمبشرين، واللاهوتيين، وبشكل خاص واحد من المبشرين اسمه زوبرت (الذي كان لقبه بوغري Bugre وكان قد تحول من ذلك الإيمان ولبس رداء المبشرين) وكان قد عرف باسم مطرقة الهرطقة، فبفضله انحسرت أوهامهم، وجرى الكشف عن آثامهم وفضحه، وقد رفض عدد من الجنسين التحول إلى الإيمان الصحيح، فأمر باحراقهم، وهكذا أحرق خلال شهرين أو ثلاثة أشهر خمسين انساناً، وهم أحياء.

نشوب خلاف بين الامبراطور وبين الرومان

واشتعل في هذه الآونة غضب الامبراطور ضد الايطاليين، إلى درجة، أنه لإزدياده وحقنه يومياً تفجر على شكل حقد شديد لا يمكن اصلاحه، ولذلك تقدم بشكاوى كثيرة حول صلفهم إلى صاحب القداصة البابا،

مؤكداً ومصرّاً على أن تشامخ الذين يكرهونه هو الذي يسيطر دوماً، وسأل البابا أن يقوم مع مساعدة جميع البلاط الروماني، في أن يعطي اهتمامه كله، لإعادة إقامة سلام مشرف بينه وبينهم، أو أن يقدم إليه مساعدة فعالة، حتى يتمكن بوساطة استخدام السلاح من تدجينهم واخضاعهم، وانزالهم إلى وضعهم المعتاد بالطاعة، وكما أن البابا قد طلب منه تقديم مساعدة إليه، وعد الامبراطور بتقديم المساعدة إلى الكنيسة الرومانية، عندما تجد نفسها في ضائقة ومحتاجة إليها، ولذلك وجدت الكنيسة نفسها في وضع حرج، ولم تعرف كيف تقرر التصرف، واشتكى الامبراطور بحدة كبيرة من مدينة ميلان التي كانت حاضنة الهراطقة وحامية المتمردين ضد الامبراطورية، ولكي يحارب ذلك المكان، حشد في المكان نفسه جيشاً كبيراً، وقد سجن ابنه هنري، الذي اتهم بالخيانة ضد أبيه، في سجن مضيق عليه.

عقد مؤتمر في لندن

اجتمع في العام نفسه، في ٢٨ نيسان نبلاء انكلترا في مؤتمر عقد في لندن، للبحث في شؤون المملكة، وكان الذي سبب دهشة كبيرة إلى الجميع أن الملك اتبع نصيحة الأسقف المنتخب لبلنسية Valentia بدلاً مما كان عليه، برفضها، فقد بدا للنبل أن مواضعه العامة تستحق الازدراء، ولذلك غضبوا من الملك واتهموه بالتقلب، وقالوا فيما بينهم:

«لماذا لا يحمل هذا الأسقف المنتخب نفسه، ويذهب إلى مملكة فرنسا، بما أن الملك الفرنسي قد تزوج من الأخت الكبرى لملكنا، وذلك من أجل أن يدير المملكة الفرنسية، كما يفعل هنا، وبسبب أن ابنة أخته هي ملكة تلك البلاد؟»، وكانوا غاضبين جداً، وذهب الملك في اليوم الأول من المؤتمر إلى برج لندن، وبذلك أعطى سبباً كبيراً لعدم الرضا، لكثيرين حول هذه القضية، وقد شعروا بأحاسيس غير موائمة وليست مفيدة، ولذلك لم يذهب النبلاء لافردياً ولا جماعياً إلى برج لندن إلى الملك، خوفاً منهم من أن يقبل بالنصيحة الشريرة، وأن يثور غضبه عليهم، وقد أذرتهم كلمات

هوراس Horace:

«لأن علامات أقدام هذه الحيوانات تشير نحو عرينك

مامن أحد منهم، بقدر مايمكنني الرؤية، قد عاد ثانية».

ومع هذا فإن الملك ضبط نفسه بعواطف الحكمة، فذهب من البرج إلى قصره، لبحث هناك حول المسائل الملحة للمملكة، بشكل أكثر مواءمة مع نبلائه، وقد وصل إلى قرار يستحق الثناء، وهو وجوب صرف جميع عمد المناطق، وينبغي تعيين آخرين مكانهم، لأنهم فسدوا بالرشوة، وابتعدوا عن طرق الصدق والعدل، ولذلك أحل الملك محلهم رجالاً امتلكوا المزيد من الأراضي الاقطاعية المكثرة، وكانوا أغنى، ومن أصل أكثر نبالة، ومن الذين لن تدفعهم الحاجة إلى اشتهااء الهدايا، كما أنهم لن يكونوا عرضة للفساد، كما أنه جعلهم يقسمون أنهم لن يقبلوا أية عطية، ما لم تكن على شكل طعام أو شراب، وفقط بشكل معتدل وليس متطرفاً، ولن يقبلوا هدية أية أرض بمثابة جائزة، فيها تتعرض العدالة إلى الفساد، وإلى هذا المؤتمر أرسل ملك سكوثلندا رسالاً خاصين، طلبوا من الملك بإلحاح الامتيازات العائدة إلى مولاهم، أي إلى ملك سكوثلندا المذكور، حيث قالوا بأن لديهم صكاً، وعندهم شهادات عدد كبير من النبلاء، ولكن وضع القرار حول هذه القضية في الوقت الحالي جانباً، وتأجل البت فيه، وفي الوقت نفسه، لأن الملك لم يكن بإمكانه إعادة إقامة سلام بين أخيه الايرل رتشارد، ورتشارد سيوورد، قام بنفي الأخير من المملكة، قائلاً بأنه يؤثر تحمل غضبه وليس غضب أخاه، وقام أيضاً، لدهشة الكثيرين بعزل مستشاريه من وظائفهم، وهم:

· رالف فتز — نيقولا، قهرمان قصره، وعدد كبير آخر من كبار رجالات حاشيته، كما أنه طلب أيضاً على الفور استرداد خاتمه من أسقف شيبستر، الذي كان مستشاره، مع أنه قام بواجبات وظيفته من دون ملامة، مبرهنًا

على أنه عمود مدهش للصدق في البلاط، وعلى كل حال رفض المستشار تنفيذ ذلك، ورأى أن عنف الملك قد تجاوز حدود الاعتدال، وقال بأنه لا يمكنه التنازل عنه بأي حال من الأحوال، لأنه تولى مسؤولية هذا العمل بموجب موافقة عامة من المملكة، ولذلك لا يمكنه الاستقالة من دون الحصول على الموافقة نفسها.

وفي تلك الآونة نفسها أيضاً، أرسل الامبراطور رسلاً إلى الملك، يطلب مبلغاً كبيراً من المال، كان الملك قد وعده به مع أخته.

معركة حوربت في سكوتلندا

وفي حوالي الوقت نفسه، احتشد عدد من النبلاء ومن الرجال الأشداء من مختلف مناطق الغرب، وخاصة من غالوي Galloway وجزر الانسان، ومن أجزاء من ايرلندا، وجاء احتشادهم بناء على مبادرة من هيوج دي لاسي، الذي كانت ابنته قد تزوجت من آلان صاحب غالوي، المتوفى أخيراً، وقد اتحدوا مع بعضهم من أجل هدف استرداد غالوي واعادتها إلى الابن الشرعي لآلان المتقدم ذكره، ولكي يزيلوا بالقوة، الخلع الذي عمله لتوه ملك اسكوتلندا، الذي وزع الميراث بين البنات الثلاث لآلان، اللاتي يعود إليهن الميراث بموجب الحق الشرعي، وبناء عليه إنه من أجل إعادة النظر بذلك التوزيع أو إلغائه، ولكي يعيدوا الأراضي إلى توماس المتقدم الذكر، أو إلى ابن توماس، الذي هو أخو توماس، أو على الأقل إلى واحد من تلك الأسرة، هب أصحاب هذه الدعوة من المقدمين إلى السلاح، وانفجروا يمارسون العنف، ويسعون إلى تحرير أنفسهم من سلطة الملك، ولكي يجلبوا محاولاتهم إلى النتيجة المرجوة، دخلوا في معاهدة من نوع غريب، وذلك بوساطة عمل تقوي غريب، هو عائد إلى عادة شاذة لأجدادهم، حيث قام جميع هؤلاء البرابرة ومقدميهم ورجال العدالة لديهم بسحب الدم من العرق القريب من القلب، وصبوا ذلك الدم في كأس كبير، ثم حركوه ومزجوه، وبعد ذلك شرب كل واحد منهم تلو الآخر

جرعة منه، كعهد على أنهم سوف يكونون منذ ذلك الوقت متعاهدين بعهد لا يمكن فصمه، وبما أن معاهدتهم هي معاهدة قرابة في السراء والضراء، حتى لو كلفهم ذلك رؤوسهم، لذلك أثاروا الملك والمملكة للإقدام على الحرب، فأحرقوا بيوتهم وبيوت جيرانهم، حتى إذا ما وصل الملك سوف لن يجد لاماوى ولاطعاماً من أجل جيشه، وتورطوا في أعمال الاغتصاب والاحراق، وكدسوا الأذى فوق الأذى، ولدى سماع ملك الاسكوتلنديين بهذا جمع قواته من جميع الجهات، وزحف من أجل اللقاء بهم، وانقلب خط الحرب ضد الغالويين وأرغموا على الفرار، وطاردتهم القوات الملكية بحد السيف، وقتلت عدة آلاف منهم، والذين أخذوا أسرى وهم أحياء، من قبل الملك وجنوده، واجهوا موتاً مهيناً، دون أية فرصة لفداء أنفسهم، وقد ألقى بعضهم بأنفسهم على رحمة الملك، فألقيوا بسجون ضيقة، حتى يتمكن من التشاور حول الذي ينبغي فعله بهم، وقد قام — ليس من دون مسوغ جيد — بحرمانهم وورثتهم من موارثهم، وبعدما نال الملك هذا النصر، حمد الرب ومجده، الذي هورب الجيوش، وأصغى إلى مشورة جيدة، فبعث رسالة إلى روجر دي كوينسي Quincy إيرل وينكستر، وجون بالاول Balial وويليم ابن إيرل ألبمارك، حيث بما أنهم كانوا متزوجين من بنات آلان أوف غالوي، يمكنهم الآن، بعد القضاء على الاضطراب، الاستحواذ بسلام على الحقوق العائدة إليهم، ووقعت المعركة في شهر نيسان، وكان حظ الحرب لصالح ملك الاسكوتلنديين.

اضطراب في المملكة الفرنسية

في الربيع من العام نفسه، ثار كثير من النبلاء في عصيان، لانشاب الحرب ضد مملكة فرنسا، لأن غضبهم قد أثر بسبب أن فرنسا، التي هي ملكة الممالك، كانت تحكم بمشورة امرأة، والتحق رجال من ذوي المراتب العليا، ويتمتعون بالشهرة، وكانوا مدربين منذ صغرهم على استخدام السلاح، بالعصيان، وتحالف ملك نافار، وكونت شامبين، وكونت لي

مارشي، وكونت بريتاني، وعدد كبير آخر من النبلاء، فيما بينهم، بعهد ويمين ومعاهدة.

موت وليم دوبني

وفي هذه الآونة أيضاً، في السادس من أيار، أنهى وليم دوبني -Dau-beny الأكبر حياته في سن متقدمة، وكان فارساً شجاعاً، وشهماً، وقد حُبي بجميع السمات النبيلة، وقد خلفه ابنه وليم، الذي كان وريثه الشرعي، والذي سار على نهج أبيه في كل مجال.

الاستيلاء على قرطبة وابرام سبتة هدنة

وهاجم في هذا العام نفسه، سكان جنوى، يساعدهم البيازنة، والمرسيلين، وملك أراغون، بشكل مفاجيء مدينة فخمة في اسبانيا اسمها سبتة Cepta وكانت بيد المسلمين، وكانت تلحق منذ زمن طويل كثيراً من الأذى والضرر بالغزاة المذكورين، وبسبب الخوف من العدد الكبير من أعدائهم، وبسبب الهجوم المفاجيء للأعداء، استسلم أهل سبتة إلى سلطة الأعداء، وعملوا هدنة محدودة الوقت، اشترطت أنه إذا لم يقدم مولا هم ملك افريقيا الذي يعرف عادة باسم أمير المؤمنين، أو لم يرسل إليهم مساعدة فعالة خلال ثلاثة أعوام، هم سوف يستسلمون طواعية ومن دون أية مصاعب ويسلمون المدينة كلها إليهم، كما اشترط أنه في الوقت نفسه يمكن لملك أراغون ولحفائه في أية وقت خلال الأعوام الثلاثة أن يبنوا بسلام برجاً، وأن يحصنه حسبما يريد، وذلك على جسر، كانوا قد استولوا عليه قبل الإعداد لهذه الهدنة، ثم جرى بعد ذلك الاستيلاء على مدينة قرطبة، وبما أن سبتة كانت قد احتلت منذ أمد، فقد ارتفعت آمال المسيحيين، واستبد الرعب بالمسلمين، وبشكل خاص بملك افريقيا.

أعجوبة

ظهرت في تلك الآونة، في شهر أيار، وعلى مقربة من دير اسمه روشي

Roche في الجزء الشمالي من انكلترا أيدي فرسان مسلحين بشكل جيد، ويمتطون خيولاً ثمينة، مع رايات، وترسة، ودروع وسوابغ، وخوذ، وكانوا مزينين بتجهيزات عسكرية أخرى، وقد خرجوا من باطن الأرض، ثم اختفوا وبعد ذلك ظهروا مجدداً، وقد استمر هذا المشهد لعدة أيام، وجذب انتباه الذين نظروا إليه وشاهدوه، ودهشوا تجاهه وتمتعوا، وركب هؤلاء الفرسان على شكل صفوف وأرتال، واشتبكوا أحياناً بالضراب، وتبارزوا أثناء المنازلات، وقصفوا رماحهم وحطموها إلى قطع صغيرة أثناء الصدام، وقد رآهم السكان وشاهدوهم، لكن ذلك كان عن بعد وليس من قريبهم، لأنهم لم يتذكروا أنهم شهدوا مثل هذا المنظر من قبل، وقال كثيرون بأن الواقعة لم تكن من دون مهابة خاصة بها، وكانت هذه الواقعة أكثر وضوحاً في أيرلندا وعند حدودها، حيث ظهروا وكأنهم كانوا قادمين من المعركة، وقد جروا خيولهم خلفهم، وكانوا معقورين منهكين، ومن دون ركاب، وكان الفرسان أنفسهم مجروحين بشدة وملوثين بالدماء، والذي كان أكثر ادهاشاً هو أن اثر سيرهم ظهر على الأرض وعلى الحشائش النامية وعلى حركاتها واهتزازاتها، وكثير من الناس عندما رأوا هذا المشهد هربوا مذعورين من أمامهم، وأحملوا أنفسهم إلى الكنائس وإلى القلاع، معتقدين أن المسألة لم تكن وهماء، بل معركة حقيقية، ووصلت أخبار هذه الوقائع إلى علمنا بعد عدة سنوات من وقوعها، وذلك من خلال تقرير ورواية صحيحة عن الحادثة تم الحصول عليها من أيرل غلستر، ومن شهادات عدد كبير من الأشخاص.

الملك يسعى إلى إلغاء بعض المنح التي عملها

وفي العام نفسه نال بطرس ريفول وستيفن سيغريف، اللذين أتينا على ذكرهما من قبل أعلاه الخطوة لدى الملك، وفي هذا العام أيضاً، في اليوم الثامن من حزيران، اجتمع نبلاء انكلترا في ويستمنستر، بحضور الملك، عندما حاول هذا الأخير، بوساطة ترخيص من البابا، إلغاء بعض المنح

التي عملها لبعض منهم قبل أن يعقد زواجه، على أساس أنه هو نفسه غير قادر على المنح، من دون رضا البابا، الذي إليه — كما قال — تعود حقوق منح الامتيازات في المملكة، وقد اندهش كثيرون تجاه هذا، وقالوا بأن الملك يسعى أكثر من قدرته، أو أكثر من واجبه، ليضع المملكة موضع العبودية، أو أن ينزلها إلى آخر أحوال الضعف.

بعض النبلاء الانكليز يحملون الصليب

وحمل في هذه الآونة الايرل رتشارد، أخو الملك، وايرل غ. G وجون ايرل شيستر ولنكولن، وايرل سالسبري، وغ. G دي لوسي، أخوه، ورتشارد سيوورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، الصليب وأمر الايرل رتشارد، على الفور بقطع أشجار أحراشه وبيعها، وقد بذل جهده بمختلف الوسائل التي توفرت لديه لجمع المال لدعم حجه، وليس بعد وقت طويل من هذا. وبوساطة سيمون دي مونتفورت ايرل ليستر، و[كما قيل] بطرس دي ريفول، نال رتشارد سيوورد بشكل غير عادل، غضب الملك، واعتقل، ووضع في السجن، لكن مالبث بعد ذلك أن أطلق سراحه بالسهولة نفسها.

مذبحة اليهود

وفي هذه الآونة، وقعت مذبحة كبيرة لليهود، في القارة، وبشكل خاص في أسبانيا، ونتيجة لذلك فإن اليهود الموجودين على هذا الجانب من البحر، خوفاً منهم من أن يعانون وفق الطريقة نفسها، قاموا فقدموا إلى الملك هدايا مالية، وبناء عليه أصدر أمراً، أمر بإعلانه بوساطة المنادين، بأنه لا يجوز لأي انسان عمل أي ضرر، و التسبب بأية مضايقة لأي واحد من اليهود.

هدية الامبراطور

في هذا العام، في حوالي عيد القديس بندكت، أرسل الامبراطور هدايا لطيفة إلى ملك انكلترا، تضمنت ثمانية عشر حصاناً ثميناً، وثلاثة بغال

محملة بالحرير مع هدايا غالية أخرى، كما أرسل أيضاً بعض الخيول الغالية والأشياء المرغوبة إلى الايرل رتشارد، أخي الملك.

جفاف طويل وتضرر الحاصلات الزراعية

في صيف هذا العام، وبعد شتاء ممطر إلى أبعد الحدود، كما تقدم الذكر، حدث جفاف مستمر ترافق مع حرارة لا يمكن احتمالها تقريباً، وجاء ذلك بعد الأمطار، واستمر لمدة أربعة أشهر وأكثر، ولذلك جفت البحيرات والمستنقعات إلى قعرها، وانفلقت الأرض، وتشققت كثيراً، ولم يرتفع نمو القمح في كثير من الأماكن إلى أكثر من قدمين.

تهدة النبلاء الفرنسيين

وفي العام نفسه، ومع اقتراب انتهاء الصيف، تقدم نبلاء فرنسا، الذين انشغلوا في اضطرابات تلك المملكة، ببعض العروض للسلام، واستقبلوا في حظوة الملك، وفي هذه الآونة أيضاً قام بعض النبلاء في انكلترا، من الشجعان لكن المتهورين — الذين لاندري بأية روح أغويوا — بالتآمر مع بعضهم والدخول في تحالف لعين، من أجل نهب انكلترا، مثل لصوص وعصابات ليلية، وأصبحت نواياهم — على كل حال — معروفة، وكان رئيس التآمر، واحداً اسمه بطرس بفر Buffer وكان عمله بواباً لدى الملك، وجرى اعتقاله، وبوساطته أمكن اتهام البقية، وجرى نصب آلة مرعبة اسمها المشنقة في لندن، من أجل تعليقهم عليها، وبالفعل جرى تعليق اثنين من زعماء التآمر، وكان ذلك بعدما اشتبكاً بمبارزة فردية، وكان أحدهما قد قتل بالمبارزة، وقد شنت ورأسه مفلوق، وعلق الثاني وهو حي، وقد لفظ روحه التعيسة على المشنقة نفسها، وسط نحيب الجماهير التي احتشدت.

خلاف بين سكان أورلين ورجال الدين

وفي العام نفسه، في حوالي أحد الشعانين، نشب خلاف مؤسف بين

رجال الدين والسكان في مدينة أورلين Orleans كان قد تأصل وتطور بوساطة صراخ شجار امرأة، وازداد الهياج وتضاعف إلى حد أن بعض العلماء، والشباب المشهورين من أسر نبيلة قد قتلوا في المدينة، من قبل أهل البلدة، وكان بين هؤلاء حفيد كونت لي مارشي، وحفيد كونت شامبين، وملك نافار، وقريب بالدم لكونت بريتاني، وقريب بالدم للبارون النبيل إيركنوولد Erkenwuled دي بوروبون، وآخرين كثر، وقد أغرق بعض هؤلاء في نهر اللوار، وقتل بعضهم الآخر، وقد نجا بعضهم بصعوبة حيث أخفوا أنفسهم في كهوف، وكروم، وأماكن سرية، وبذلك نجوا من الموت، ولدى سماع هذا من قبل أسقف المدينة، غضب كثيراً وعظمت غيرته على العدل، فخرج من المدينة، فحرم كنسياً جميع المقتربين لهذه الجريمة، وألقى قراراً بالحرمان من شراكة المؤمنين على المكان كله.

ولدى سماع النبلاء المتقدم ذكرهم — أيضاً — بمقتل أقربائهم، هاجموا المدينة، وجعلوا كثيراً من سكان المدينة طعمـة للسيـف، دون انتظار لإجراءات المحاكمة، كما أنهم قاموا وسيوفهم تقطر دماً بقطع رؤوس الذين كانوا على الطريق عائدين من بعض الأسواق، وسلاهم محملة بالتجارا، ولم تتوقف هذه الفتنة حتى أقامت الوصاية الملكية — بناء على طلب الطرفين — مصالحة بينهما، وبذلك هدأ الهيجان، وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، وضعت عدة مدن ومقاطعات من المملكة الفرنسية تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وكان بينهم: الرايم Rheims وإيميان Amiens وبوفيا Beauvias وأماكن أخرى، وقامت الانشقاقات الدينية بينهم، وصدرت عن أسباب مختلفة.

الخلاف الذي تفجر في اكسفورد

ونشب في العام نفسه خلاف بين رجال الدين وبين سكان اكسفورد، وبصعوبة، وبعد وقت طويل، مال ذلك الصراع نحو الهدوء بوساطة تدخل الملك، والنبلاء، والأساقفة، ورجال آخرون من ذوي المناصب

والسلطة، واستردت الجامعة وضعها السالف.

وفي شهر آب من العام نفسه، غادر جون أسقف ووركستر، وتوماس أسقف نورويك هذه الحياة، وفي حوالي الوقت نفسه مات هنري أوف كرويلاند Croyland وكان رجلاً من أسرة مشهورة، وكان معروفاً بسبب تقواه، وجاء موته بعدما أدار كنيسة كلها مع الأبنية التي أعاد عمارتها، وذلك لقربة خمسين عاماً.

شكوى ملك اسكتلندا

ومضى في العام نفسه الملك، بناء على نصيحة نبلائه، إلى يورك، للتشاور معهم، ولعمل ترتيبات من أجل تسوية الخلاف بينه وبين الاسكندر، ملك اسكتلندا، الذي تطور الآن إلى كراهية، لأنه بدا للرجال العقلاء الذين عرضوا أحداث المستقبل على ميزان العقل، أنه من الحماقة بالنسبة لمملكة انكلترا، المحاطة من كل جوانبها بالأعداء في القارة، أن تقوم بتوليد الكراهية الداخلية سرّاً، وكان سبب هذا الخلاف — كما قيل — هو مايلي:

لقد طالب ملك اسكتلندا بشكل متواصل بكونتية نورثامبرلاند، التي أعطاه إياها الملك جون بمثابة حصة زواج، لدى اقترانه بابنته جوهانا Johanna وأعلن أنه يمتلك لتأكيد ذلك صكاً، وشهادات عدد كبير من الأساقفة، ورجال دين من ذوي المراتب، وكذلك إيرلات وبارونات، وأعلن أنه من غير اللائق، وعملاً مقيتاً إزالة الذي تفوه به الملوك، وإلغاء ميثاق عمل بين شخصين لهما مثل تلك المكانة السامية، وأضاف أيضاً أنه مالم يقيم الملك الانكليزي بإعطائه بشكل سلمي، ماهو واضح أنه حقه، ومبرهن على ذلك بالمنطق، فلسوف يطلب ذلك بحد السيف، وكان يشعر بالطمأنينة، بوجود صداقة سرية — مع وجود ريبة — مع اللويلين، وحلفائه، وبتحالفه ومصاهرته مع غيلبرت مارشال، الذي تزوج من أخته مرغريت، التي كانت سيدة جميلة جداً، وكانت عداوة دوله القارية أيضاً،

في حالة تأمر ضده، وعلاوة على ذلك، كانت قضيته عادلة، وقد تبرهن ذلك بصكوك الملوك الماضين.

وبعد مناقشات طويلة من على الطرفين، قام ملك انكلترا، في سبيل السلام، ومن أجل حماية مملكته، فبذل كل ما في طاقته، فمنح ملك الاسكوتلنديين مورداً قدره ثمانين ماركاً من بعض المناطق الأخرى في انكلترا، وذلك من أجل أن لا تكون حدود مملكته في المناطق الشمالية غير عرضة للخرق، وأثناء انتظار الفريقين تسوية القضية بما يرضي الجانبين، انتهى المؤتمر، وبقي الجميع في تلك الساعة بسلام.

وفي تلك الآونة أنهى فيليب دوبني حياته بموت حميد، وكان فارساً نبيلاً، مكرساً للرب، وشجاعاً في القتال، وجاءت وفاته بعدما قاتل في سبيل الرب، في عدة حجات في الأرض المقدسة، وفيها مات ونال دفناً مقدساً في الأرض المقدسة، وهو ما كان اشتاق إليه طويلاً، عندما كان حياً.

الدعوة إلى حملة صليبية

وعمل في هذا العام، بناء على مذكرة من البابا، تبشير مهيب في كل من انكلترا، وفرنسا، تولاه رهبان طائفتي المبشرين والفرنسيكسان، مع رجال دين آخرين مشهورين، ولاهوتيين، وقساوسة، وقد منحوا إلى الذين سوف يحملون الصليب تحليلاً كاملاً من الذنوب، التي تابوا منها بصدق، وعملوا اعترافاً، وتجول هؤلاء الوعاظ بين المدن، والقلاع، والقرى، واعدوا الذين سيحملون الصليب الكثير من الفرج في القضايا الدنيوية والمنافع، من ذلك مثلاً:

الفائدة سوف لن تتراكم عليهم وضدهم من قبل اليهود، وحماية من قداسة البابا لكل موارد وممتلكاتهم، وقدموا عهداً بتأمين الضروريات من أجل رحلتهم، وهكذا أثاروا عدداً كبيراً من الناس، لتقديم العهد بالقيام بالحج.

وأرسل البابا فيما بعد أيضاً، المعلم توماس، وكان من الداوية، وصديقاً مقرباً منه، وبعث به إلى انكلترا، مع ترخيصه للقيام بتحليل أولئك الصليبيين، الذين اختارهم، واعتقد أنهم مناسيين، وذلك من خلال عهودهم بالحج، ولدى تسلمه المال منهم، قدر أنه صار بإمكانه أن ينفق في سبيل فائدة قضية الأرض المقدسة، ورفع شأنها، وعندما رأى الصليبيون هذا، دهشوا تجاه نهم البلاط الروماني الذي لا يعرف الحدود، وشعروا بقرارة أنفسهم بالغضب، بسبب أن الرومان سعوا هكذا بوقاحة لافراغ حوافظ نفودهم بكثير من الخيل، لأن الواعظين أضافوا، أنه إذا ما قام أي واحد، سواء أحمل الصليب أم لا، وأنه سوف يكون غير قادر بشخصه على القيام بمثل هذه الرحلة المتعبة، عليه أن لا ينسى الاسهام بقدر ما تسمح له امكانياته وممتلكاته، من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وهو إذا فعل ذلك سوف يتمتع بالغفران المتقدم ذكره، لكن هذه الأشياء كلها جعلت سامعيها متشككين، ذلك أنهم قالوا:

«هل سيرهن تحليلنا بأنه صادق ووفي؟» وهذا ما حدث وكان، لأن البابا شعر بالغضب ضد الشعب، فعمل حرباً، وجمع الأموال واستخرجها، وجبى العشر من جميع البلدان، وكدس مبلغاً من المال لا يحصى من أجل الدفاع عن الكنيسة، لكن السلام مالبث أن أقيم، وأصبح هو والامبراطور أصدقاء، أما المال فلم يسترد قط، وهكذا باتت التقوى لدى الكثيرين عرضة للضعف يومياً، واضمحلت ثقتهم وزالت.

استعدادات الامبراطور لقهر إيطاليا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، منع البابا، برسائله الرعوية، الامبراطور بشكل دقيق من غزو إيطاليا، لأن الامبراطور، كان قد قام في الصيف بحشد جميع القوات الامبراطورية التي أمكنه حشدتها، لمقاتلة الايطاليين الصلفين، وبشكل خاص سكان ميلان، لأن تلك المدينة كانت الحاوية لجميع الهراطقة، والـ Paterines والـ Luciferians والـ Pub-

licans والأليبيين، والمرابين، وقد بدا للامبراطور أن الإشارة عليه بخطة القيام بمساعدة الأرض المقدسة بحضوره شخصياً، مع مثل جيش الرب الكبير هذا، مشورة فاسدة، لأنه لا يجوز أن يترك خلفه مسيحيين مزيفين، كانوا أسوأ من المسلمين، وعلاوة على ذلك كان عجب الامبراطور بلا حدود، من أن يقوم البابا بتقديم الخطوة للميلانيين بأي شكل من الأشكال، أو أن يظهر بحال من الأحوال مقدماً الحماية إليهم، وبما أنه بدا بالنسبة إليه أنه أصبح ليس أباً للأتقياء بل عصاً للأشقياء، قام الامبراطور بلطف وحكمة، وتعامل مع مثل ذلك الأب المقدس لأنه بابا فرد عليه كمايلي:

جواب الامبراطور إلى البابا

«إيطاليا هي ميراثي، وهذا معروف من قبل كل الدنيا، وأن أطمع بممتلكات الآخرين، وأن أهمل ممتلكاتي، فذلك معناه إثم وذنب عظيم من قبلي، مثلما يفعل الايطاليون بشكل خاص، ولا سيما أهل ميلان، فهؤلاء قد أثاروني، وليس لديهم احترام مناسب لي، بأي طريقة من الطرق، علاوة على ذلك أنا مسيحي، وإنني وإن كنتُ عبداً حقيراً للمسيح، انني مستعد لاختضاع أعداء الصليب، وبما أن كثيراً من الهرطقات، لم تتفجر فقط في إيطاليا، بل نمت وغلظ أمرها، وبدأ السوس يخنق القمح، في جميع مدن إيطاليا، وخاصة في ميلان، لذلك بات أن تزحف لاختضاع المسلمين وأن تبقي هؤلاء من دون عقوبة، كمن يمسح الجرح، حيث دخل الفولاذ محدثاً ضرراً بليغاً، كما أن ذلك يعني احداث ندبة بشعة، وليس المعالجة، ومجدداً إنني وحدي، وأنا بشر ولهذا لست قادراً على القيام بمثل هذه المهمة العظيمة، التي هي اخضاع أعداء الصليب وذلك من دون قوة كبيرة لتساعدني، لأن أعدادهم كبيرة جداً وهم أيضاً أقوياء، ومرة ثانية، أنا وحدي ليست لدي الكفاية للقيام بأعباء مثل هذه القضية المرهقة، من دون كميات ضخمة من المال، ولقد قررت استخدام ثروة المنطقة المذكورة من

أجل تقديم العون إلى المصلوب، والانتقام له، لأن إيطاليا مليئة بالسلاح، والثروات، كما يعرف جميع العالم».

الامبراطور يزحف في إيطاليا للاستيلاء على ميلان

ولدى سماع البابا هذه المناقشة المنطقية العميقة، ولكي لا يبدو أنه معارض في هذه المناقشات الجدلية، تظاهر بإعطاء موافقته، وأن بإمكان الامبراطور عبور الجبال والدخول إلى إيطاليا وفقاً لغرضه، وقد وعد قداسته — من دون تراجع، وبقدر ما يستطيع أن يقدم له مساعدته الأبوية في كل أمر ضروري، وتشجع الامبراطور بهذا، فجمع بموجب مرسوم امبراطوري جميع القوات التي كان يمكنه حشدتها، ودخل إلى إيطاليا، تتبعه كتلة كبيرة من العساكر، وشعر الميلانيون بالخوف — وحق لهم أن يخافوا — من غضبه المرعب، فبعثوا إلى البابا يطلبون نصيحته، والمساعدة الفعالة منه، وبعدما تسلم البابا منهم مبلغاً كبيراً من المال مع وعد بالمزيد، أرسل إليهم كثيراً من التفريج والمساعدة، مما شكل ائذاءً للامبراطور، وبدأ هذا أمراً لا يصدق، ومعاكساً لموقف كل انسان، وعجبوا أنه في وقت الحاجة تحول الأب إلى عراب، ثم خرج سكان ميلان منها، وزحفوا من مدينتهم في قوة كبيرة، وصل تعدادها إلى نحو خمسين ألف رجل مسلح، وساروا ومعهم علمهم — الذي سموه Carruca أو Canochium للتصدي للامبراطور، وأرسلوا إليه رسالة، بأنهم كانوا جاهزين لمقاتلته، ووصل في هذه الآونة فارس من انكلترا اسمه بلدوين دي فيري Vere أرسله ملك انكلترا إلى الامبراطور ليعدّ لبعض الأعمال السرية المتعلقة بالملك المذكور والامبراطور، وحول هذه القضايا أعطى فيما بعد إلى مستمعيه معلومات كاملة.

وعندما سمع الامبراطور بأن الميلانيين قد خرجوا بمثل تلك الوقاحة للقتال ضده، قدّر على الفور بأنهم شعروا بهذه الجرأة اعتماداً على مساعدة آخرين، وليس اعتماداً على أنفسهم، وبعدما جرى تقدير القضية في مؤتمر

مع نبلائه، جرى الاتفاق مع التهليل من قبل الذين كانوا حضوراً من جانب الامبراطور، من العالي إلى الداني، على وجوب حمل السلاح من دون تأخير لمحاربة هؤلاء الغوغاء الميلانيين، الذين تجرأوا مثل جرذان خرجوا من جحورهم، لإثارة مولاهم ودعوته إلى الحرب مع محاولة تجريب منازل قوتهم مع القوى الامبراطورية، وعندما علم الميلانيون بهذا القرار، توقفوا قليلاً، وقام واحد من شيوخ المدينة، الذي اعتمد على رأيه الجميع ليتكلم، فتحلق الآخرون من حوله، فخاطبهم قائلاً:

«أصغوا إليّ، يا أهل المدينة النبلاء، إن الامبراطور على مقربة منا في قوة كبيرة ومع جيش عظيم، وهو، كما هو معلوم لدى العالم أجمع، مولانا، وإنه إذا ما حدث هذا الصراع المؤلم، سوف يصدر عنه ضرر لا يمكن ترميمه، لأننا إذا ما كنا المنتصرين في الصراع، فلسوف ننال الملامة مع نصر دموي على مولانا، لكن إذا ما غلبنا نحن، فلسوف يدمر اسمنا وسمعتنا، واسم شعبنا وسمعة مدينتنا إلى الأبد، ولسوف نكون مهانين بين جميع الشعوب، وبما أنه من جميع الجوانب أمر مهين وخطير أن نزحف مسافة أطول بطريقة عدوانية، أرى إنها خطة حكيمة في أن نعود إلى مدينتنا، حيث أنه إذا ما اختار الهجوم علينا، فلسوف يكون أمراً شرعياً بالنسبة لنا، أن نصد القوة بالقوة، وسواء أسمح لنا بأقامة سلام معه، أو أرغمنا بالخروج من ديارنا بالقوة، سوف تكون مدينتنا مصانة وسوف يبقى اسمنا الجيد وسمعتنا الطيبة دونها تشويه»، وقبل جميع البقية بهذه الخطة، وعملوا بموجبها، وكان ذلك مشهداً باعثاً على السرور للامبراطور، ودون أن يظهر من جانبه خوف أو رعب، قام بمطاردة المنسحبين، واستعد للحصار، وأثناء وقوع هذه الأحداث أثرت خلافات في المقاطعات الرومانية، إما بوساطة تأمر الكنيسة الرومانية أو بوساطة أعداء الامبراطور، وتولى ذلك دوق النمسا، وفي سبيل القضاء على هذه الخلافات الداخلية جرى ارسال رسائل ورسائل بكل سرعة إلى الامبراطور تشرح له الوضع المنذر الجديد، وتستدعيه

للعودة على الفور، ولذلك رفع الامبراطور الحصار، الذي كان قد أعد له، وعاد إلى ألمانيا، ولدى سماع سكان ميلان بهذا، استولوا بالقوة على بعض القلاع التي كان الامبراطور قد استولى عليها، وأسروا حاميات هذه القلاع، ثم أعدموا جميع الفرسان والجنود التابعين للامبراطور، وعندما سمع الامبراطور بذلك، غضب غضباً عظيماً، وحق له أن يغضب، ولذلك صبّ جام غضبه المشروع على مقترف هذا الاثم، وعاقب دوق النمسا بحرمانه من جميع مراتبه، وأراضيه، وقلاعه، ومدنه، وبصعوبة بالغة أبقى على حياته ومنحه إياها، وعلى هذا بدا أن الانتقام الذي نزل به الآن عادلاً بسبب الجريمة التي اقترفت من قبله ضد الملك رتشارد أثناء عودته من الأرض المقدسة، ومع ذلك بدت حتى في هذا الوقت غير كافية، كما يقول النبي:

«الرب ينتقم بشدة من الأشرار وإن جاء ذلك متأخراً» و«يلاحق الأبناء بجرائم الآباء حتى الجيل الثالث، والرابع».

وفي هذا العام، في حوالي أيام عيد القديس ميكائيل، عاد بلدوين دي فيري إلى أنكلترا، وكان رجلاً مستقيماً، ومخلصاً، وفصيحاً، وجلب جواب الامبراطور إلى الملك، وقدم رواية كاملة حول جميع هذه القضايا، إلى كل من اختار الاصغاء إليه.

وفي تلك الآونة أيضاً، عاد بطرس، أسقف وينكستر، من القارة، وهو محروم من جميع قواه الجسدية بسبب المرض، وقريباً من ذلك الوقت أيضاً، وبالتحديد في يوم الاثنين التالي لذلك العيد، نزلت أمطار ثقيلة في الأجزاء الشمالية من أنكلترا، إلى درجة أن الأنهار والبحيرات فاضت فوق حدودها المعتادة، وسببت كثيراً من الدمار، بتدمير الجسور، والطواحين، والممتلكات الأخرى على مقربة من الشواطئ.

ومات في العام نفسه، في السادس عشر من آب، توماس دي بلندفيل

Blundeville أسقف أوف نورويك، ومات في حوالي الوقت نفسه وليم أوف بلي Bleis أسقف ووركستر، وهنري دي ساندفورد أسقف أوف روكستر، ومات أيضاً توماس راعي دير ايفهام Evesham في هذا العام، وخلفه رتشارد رئيس رهبان هيرل Hurle.

عواصف ريح عنيفة وفيضانات مدمرة

في اليوم التالي لعيد القديس مارتن، وفي ثمانية ذلك العيد، حدث هيجان كبير للبحر بشكل مفاجيء في الليل، وهبت ريح عاصفة عنيفة، سببت فيضانات للأنهار، وكذلك للبحار، وفي بعض الأماكن، خاصة على الساحل، ساقطت السفن وأبعدتها عن موانئها، وفصلتها عن مراسيها، وأغرقت عدداً كبيراً من الناس، وأهلكت قطعاناً من الأغنام، وأسراباً من الماشية، واقتلعت الأشجار من جذورها، ورمت البيوت وهدمتها، وأفسدت السواحل، وارتفع البحر لمدة يومين وليلة بينهما، وهذا حال لم يسمع بمثله من قبل، ولم يعرف البحر المدّ والجزر كما هو معتاد، بسبب أنه أرغم «كما قيل» بقوة الرياح المعاكسة، وشوهدت أجساد الذين غرقوا، وهي مرمية غير مدفونة، في كهوف تشكلت بوساطة البحر، وعلى طول الساحل وعلى مقربة منه، وعند وسبيتش Wisbeach والقري المجاورة، كانت هناك أعداد لانهاية لها من المخلوقات البشرية قد هلكت، وفي إحدى البلدات، ولم تكن مكتظة السكان، عهد بحوالي مائة جثة إلى القبور، في يوم واحد، وفي ليلة أمسية عيد الميلاد، ثارت أيضاً عاصفة ريح قوية جداً، صاحبها رعود، وأمطار غزيرة جداً، وقد هزت الأبراج وبقية الأبنية، وحولت اضطرابات الأنواء الطرقات والبحار، إلى مواضع لا يمكن عبورها، وهكذا في هذا العام، في أيام موسم الاعتدالات تولت الرياح مرتان متكررتان اجتياح انكلترا، محدثة أضراراً لا يمكن تعويضها، وفي الحقيقة، يبدو أن الرب، قد أرسل —بسبب ذنوب العباد— هذا الطوفان، كسوط عذاب إلى الأرض، ولينفذ التهديد الموجود في الانجيل

قوله:

«سوف يكون فوق الأرض عذاب للأمم، مع ارباك، وسوف يزجر البحر مع الأمواج».

**ملك انكلترا يستخرج ضريبة جزء من ثلاثة عشر جزئاً
من الممتلكات المتحركة في جميع أرجاء المملكة**

في عام ١٢٣٧ لتجسيد ربنا، الذي كان هو العام العشرين لحكم الملك هنري الثالث، عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، ومن هناك بعث بمذكرات إلى جميع أرجاء المقاطعات الانكليزية، أمرفيها جميع النبلاء العائدين لمملكة انكلترا، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان المعينين، والاييرلات، والبارونات، أمرهم جميعاً بالاجتماع من دون عذر أو تخلف، في ثمانية عيد الغطاس في لندن، لتدبير الشؤون الملكية، والقضايا المتعلقة بالمملكة كلها، ولدى سماع النبلاء هذا، أطاعوا على الفور دعوة الملك، وبناء عليه، في يوم عيد القديسة هيلاري، قدمت حشود لاعدّها ولاحصر، أي كل جماعة نبلاء المملكة، إلى لندن، وتوجهوا نحو القصر الملكي في ويستمنستر للاستماع إلى رغبات الملك، وبعدما أخذ الجميع مقاعدهم، وقف هناك في وسطهم واحد اسمه وليم كيل Kaele وكان مقرباً من الملك، ورجلاً مستقيماً، وبارعاً بشرائع الأرض، وقد عمل بتمثابة وسيط بين الملك والنبلاء، وقد أباح لهم برغبة الملك وبنواياه، حيث قال:

«مولاي الملك يود اخباركم أنه مهما كان الذي عمله حتى الآن، إنه منذ الآن فصاعداً، سوف يقوم من دون تردد، باخضاع نفسه إلى نصيحتكم جميعاً، بحكم كونكم رعاياه الطبيعيين والمخلصين، واعلموا أن الذين تولوا حتى الآن إدارة شؤونه، وكانوا مسؤولين عن خزينته، قد قدموا إليه حسابات غير صحيحة عن الأموال التي تسلموها، ونتيجة لذلك إن الملك

لا مال لديه الآن، ومن دون المال، في الحقيقة الملك مهجور كتيب، وبناء عليه إنه بكل تواضع يطلب مساعدة منكم بالمال، على أساس تفاهم أن المال الذي يمكن أن يجمع بوساطة ارادتكم الطيبة، سوف يجري الاحتفاظ به، حتى يصرف في سبيل الحاجات الضرورية للمملكة، تحت الاشراف الرشيد لأي واحد منكم تختارونه لهذه الغاية»، ولدى سماع النبلاء المجتمعين لهذا الكلام، كانوا جميعاً غير متوقعين أي شيء من هذا القبيل فتمتموا منز عجين بشكل كبير، ورددوا:

[ضاع كل مستمع في دهشة رهيبة

والتفت إلى وجه جاره محققاً]

وقال كل واحد منهم للآخر:

[هزت الجبال في مخاضها الأرض

فولدت فأراً حقيراً].

ثم إنهم ردوا مغضبين، بأنهم ظلموا وضغط عليهم من كل جانب، وغالباً ما وعدوا، وكانوا الآن جزئاً من عشرين، ثم بعد ذلك جزئاً من ثلاثة عشر، وبعد ذلك جزئاً من خمسة عشر، من أملاكهم، وأعلنوا بأنه سوف يكون مسيئاً إليهم، ومضراً بهم، السماح بمثل هذه السهولة أن يضلل الملك، الذي لم يقدّر بصدق واحد من أعداء المملكة، أو بإخافة أي واحد منهم حتى وإن كان الأدنى بينهم، والذي لم يستطع قط زيادة أراضيه، بل إنه بالحري أنقصها، ووضعها تحت نير الحكم الأجنبي، لاستخراج المزيد المزيد من المال، وذلك بالغالب، وبوساطة الكثير من الحجج، من رعاياه الطيبين، وكأنهم عبيد، أو من أدنى الحالات، وذلك في سبيل ائذائهم، ومنفعة الأجانب، وعندما سمع الملك هذا، رغب في تهدئة عدم الرضا العام ووعد مقسماً أنه سوف لن يقوم ثانية بإثارة النبلاء أو اغضاب أعيان المملكة، عن طريق الحاق الأذى بهم وفق هذه الطريقة،

على شرط أن يدفعوا له جزءاً من ثلاثة عشر جزءاً من الممتلكات المتحركة في انكلترا، وأن يقدم هذا الجزء الآن إليه من أجل الاستخدام الحالي، لأن المبلغ الكبير من المال الذي كان لديه قبل وقت قليل، قد أرسله إلى الامبراطور — كما ذكر — من أجل زواج أخته، وكان أيضاً الذي أنفقه أثناء زواجه هو، قد أنهك إلى حد كبير امكاناته المالية.

وعلى هذا ردوا بكل صراحة، بأن الملك قد فعل هذا كله، من دون نصيحة رعيته التابعة له، وهكذا ينبغي عدم مشاركتهم بالعقوبة، لأنهم أبرياء، ولا علاقة لهم بالجريمة، ثم إنهم انسحبوا إلى مكان خاص للتشاور حول إطاعة طلب الملك، ولتزويده بما هو محتاج إليه، ولمناقشة نوع وكمية المساعدة التي طلبها، وفي الوقت الذي كانوا فيه منعزلين من أجل هذا الغرض، قال غيلبرت باسيت للملك على مسمع من الجميع، ويحذر أقل مما ينبغي أن يفعله في كلامه:

«مولاي الملك، أرسل واحداً من رفاقك ليكون حاضراً أثناء مؤتمر باروناتك»، وعندما قال هذا كان جالساً على الجانب الأول من الملك، مع عدد صغير من الأشخاص بينهما، وفي رد على هذا الكلام قال رتشارد بيرسي، الذي كان موجوداً في مؤتمر النبلاء، ولم يكن يفتقد إلى المسوغ لغضبه: «مالذي قلته، يا صديق غيلبرت؟ هل نحن أيضاً أجانب، ولسنا معدودين وسط أصدقاء الملك؟» وشعر غيلبرت بالملامة بوساطة هذا الكلام غير الطيب والمفاجيء، وهكذا امتد المؤتمر بوساطة مناقشات متراكمة لمدة أربعة أيام.

الشروط التي على أساسها جرى منح الملك جزءاً من ثلاثة عشر جزءاً من الممتلكات المتحركة

وكان الملك خائفاً جداً، ورغبة منه في الحصول على المشاعر الطيبة للبارونات، وعلى المصالحة معهم أخضع نفسه منذ ذلك الوقت فصاعداً،

لنصيحة أتباعه ورعاياه الطبيعيين، وذلك على عكس ما كان قد فعل من قبل، علاوة على ذلك، بالنسبة إلى التقرير الذي أفاد، بأنه كان يسعى بوساطة ترخيص حصل عليه من البابا إلى إلغاء المنح التي أعطاهم إياها من قبل، وأكدها بوساطة صك، بالنسبة لهذا، قال الملك إنه زيف، وإذا ما كان شيئاً من هذا القبيل قد اقترح إليه، فقد أعلن أن ذلك بلا فعالية وأنه هو شخصياً قد تخلص كلياً عن مثل هذا الهدف، وإلى جانب هذا قام بملاحم هادئة، وبمبادرة منه شخصياً، فوعد أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً سوف يرمى من دون عذر أو تردد امتيازات الصك العظيم، نحو جميع رعاياه التابعين له في مملكته، ولأنه بدا أنه غير متحرر تماماً من قرار الحكم الذي تفوه به رئيس الأساقفة ستيفن مع جميع أساقفة انكلترا، ضد جميع الخارقين للصك المتقدم ذكره، وهو الصك الذي قام هو شخصياً بخرقه إلى حد بعيد، لهذا كله أمر بنشر قرار الحكم المذكور، وبتجديده ضد جميع المخالفين للصك المذكور والخارقين له، ولذلك بات هو نفسه لا يمكنه من خلال أي حقد أو تفكير شرير، القيام — ولو صدفة — بخرقه، لأنه لو فعل وخرقه، سوف يصبح أكثر تورطاً، وتحت طائلة ذلك القرار، ونتيجة لعمله هذا، وبوساطة كلماته تمكن من إرضاء قلوب المستمعين إليه، وتصالحهم معه شخصياً، وتقرر أيضاً أنه سيكون عملاً قاسياً جداً وخشناً، الإقدام في ذلك الحين على عزل مستشاري الملك، مهما كانوا أشراراً، ولهذا متنوا أعدادهم بإضافة بعض النبلاء الآخرين، ولذلك عينوا وأضافوا: إيرل وارني، ووليم فيرار، وجون فترز — غيوفري، وكما فعل الملك من قبل في ويندسور، جعلهم يقسمون أنهم سوف لن يحيدوا عن طريق الصدق، بأية وسيلة من الوسائل أو بالهدايا أو بأي شكل من الأشكال، بل سوف يقدمون إلى الملك نصيحة جيدة، وكل ما هو لمصلحة المملكة، وعلى أساس هذه الشروط، جرى منح جزء من ثلاثة عشر جزءاً من الممتلكات المتحركة في المملكة، إلى الملك، لإعادة تزويد خزينته، باستثناء أنه أبقى — على كل حال — لكل واحد، فضته وذهبه، وخيوله وأسلحته، التي سوف تكرر في سبيل

الصالح العام، وكان سوف يجري جمع الجزء من الثلاثة عشر جزئاً، في أرجاء كل كونتية وفق الطريقة التالية، وحسب الشكل التالي:

سوف يجري اختيار أربعة فرسان موثوقين، إلى جانب كاهن واحد، سوف يجري تعيينه من قبل الملك، وسيقوم هؤلاء الفرسان مع الكاهن بتأدية قسم بالتابعة للملك، وأنهم سوف يتولون جمع المال، وسيضعون هذا المال بعد جمعه في أحد الديرة، أو في بيت مقدس، أو قلعة، وبذلك إذا ماسعى الملك إلى التراجع عن وعوده، سوف تعاد ممتلكات كل انسان إليه، وسوف يجري توزيع صحيح، وكان أول من وافق على هذا رئيس أساقفة كانتبري، وأساقفته، وكهنته، وعلى شرط أن الجزء من ثلاثة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة في المملكة، قد منح إلى الملك، وأن يجمع من جميع أرجاء المملكة بشكل عام، أي من كل أسقف وفارس تبعاً لقطاعية بارونيته، وغالباً ما أضيف إلى الشروط، شرط أن يقوم الملك وقتذاك، ومن ذلك الوقت فصاعداً، برفض نصيحة الأجانب — الذين كانوا دوماً أصدقاء لأنفسهم، وليس للمملكة، وبددوا الثروات بشكل عام بدلاً من زيادتها — وكذلك برفض النصائح غير الطبيعية، وأن يلتزم بنصائح أتباعه ورعاياه الطبيعيين، وعندها ارفض الاجتماع، وانتهى المؤتمر، ولكن ليس قبل كثير من الغضب السري، وإثارة لعدم الرضا، لأنه بصعوبة كبيرة أمكنهم تحويل عقل الملك للأخذ برأيهم السليم، واقناعه بمسايرة نصيحة الذين منهم استحوذ على جميع مراتبه الأرضية، وعاد كل واحد إلى بلده وداره.

انتصارات المسيحيين في اسبانيا

جرى في العام نفسه، تكريس الكنائس والأساقفة في قرطبة، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، التي جرى الاستيلاء عليها — كما ذكرنا من قبل — يوم الثلاثاء من اسبوع الفصح، وقد ذكر لوكان Lucan بأنه قد ولد في تلك المدينة، وهو الذي قال:

«أعطيني قرطبة ميلادي»، وجرى الاستيلاء عليها من قبل ألفونسو الملك المسيحي العظيم لقشتالة، ولدى استسلامها للمسيحيين، تراكم السرور فوق السرور، وكذلك بالاستيلاء على جزيرة مايوركا الإسلامية الغنية، التي كانت مليئة بالقراصنة، وقطاع الطرق، وكانت بشكل خاص مضرّة جداً إلى التجار والحجاج الذي يسافرون بحراً بين بلدان أفريقيا وإسبانيا، وتحتوي هذه الجزيرة على اثنتين وثلاثين قلعة، ولزيادة سرورنا جرى الاستيلاء في السنة المنصرمة على مدينة بريانة، وعلى قلعة بنشكلة من قبل ملك أراغون، وبذلك تمكن بوساطة البراعة المتناهية من انجاز ما كان من غير الممكن انجازه بوساطة القوة، وهكذا أمكن خلال عامين الاستيلاء على مدينة قرطبة، وعلى جزيرة مايوركا، وعلى مدينة بريانة، وعلى قلعة بنشكلة، ومنحت هذه الأماكن كلها وتم التخلي عنها لصالح السلطات المسيحية في إسبانيا، ووضعت تحت سلطة الرب وتشريفاً لكنيسته المقدسة، وبناء عليه استعد شعبنا في ظل مؤشرات سعيدة لمهاجمة بلنسية، التي كانت أيضاً مدينة أخرى واسعة ومشهورة في إسبانيا، وبحكم محافظتكم على شجاعتكم وعلى آمالكم الطيبة، مع تذكر الأحداث الماضية، باتت مدينة سبته تحشى أيضاً سقوطاً مماثلاً.

للولين يسأل ملك انكلترا تأكيد معاهدتهما

أرسل في هذا العام للولين أمير ويلز، رسالة إلى الملك، حملها رسل خاصين، جاء فيها أن وقت حياته الحالية يتطلب منذ ذلك الوقت فصاعداً، التخلي عن كل الصراعات، وخوض غمار الحروب، وأنه ينبغي من أجل المستقبل التمتع بالهدوء والسلام، ولذلك قرر وضع نفسه وجميع ممتلكاته تحت سلطاته وحمايته، أي تحت الملك الانكليزي، وسوف يستحوذ جميع أراضيه منه بكل اخلاص وصدقة وسوف يدخل معه بمعاهدة لا يمكن إلغاؤها، وإذا ما كان الملك زاحفاً في أية حملة عسكرية، هو سيبدل غاية طاقته، كتابع ورعية له، لرفع شأن الحملة، بمساعدته بالعساكر،

والأسلحة، والخيول، والمال، وفي سبيل تأكيد هذه المعاهدة، وتصديقها، جرى إرسال أسقفي هيرفورد، وشيستر، بمثابة وسيطين للعمل على إنهاء مسألة المعاهدة المذكورة.

وقد قيل بأن سبب هذه المعاهدة، قد كان بسبب الشلل الذي أصيب به، فكان شخصياً غير قادر على التصدي للحملات الشديدة التي شنّها عليه ابنه غريفين Griffin والحرب التي كان قد أعلنها عليه، ووافق كثير من نبلاء ويلز على هذه المعاهدة، وثبتوها في الوقت الذي ثبتها فيه للويلين، وعارض بعضهم بشدة اتفاقاتهم، هذا ويحتاج اخلاص الويلزيين إلى اخلاص، وهم لا يظهرون رحمة عندما يمتلكون الحظ بأيديهم، وعندما يكون السعد صديقاً لهم، يقومون بتعذيب الذين يقعون بين أيديهم، ولكن عندما ينهزمون، إما يفرون، أو يذلون أنفسهم، ومثل هؤلاء الأشخاص، لا يمكن مطلقاً الوثوق بهم، لأن الشاعر يقول:

«إنني أخاف من الإغريق، حتى عندما يجلبون هدايا»، وقد قال الفيلسوف سينكا أيضاً: «لا يمكنك عمل أية معاهدة مع أي عدو».

زواج رتشارد إيرل غلوستر

وفي تلك الآونة نفسها، اشتعل غضب الملك مجدداً ضد إيرل كنت هيوبرت دي بورغ، بسبب أن رتشارد إيرل أوف غلوستر، وكان ما يزال صبيّاً، تحت رعاية الملك، قد تزوج سرّاً من مرغريت ابنة الايرل هيوبرت، من دون إذن الملك، أو موافقته، لأنه كان قد قرر — كما روي — أن يوحد الشاب المذكور، أي إيرل غلوستر، مع كونتيته، ومراتبه، ومع الفتاة الشابة، وبقرابة قريبة، مع وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي كان من أهالي بروفانس، وأمكن أخيراً تهدئة غضب الملك، بوساطة كثير من الناس، وكذلك بناء على إعلان هيوبرت أنه لم يكن واعياً للأمر، وأن ذلك لم يفعل من قبله، يضاف إلى هذا وعد الملك بمبلغ من المال.

وفي العام نفسه، تمّ بتدبير من الامبراطور فردريك ايجاد سيناتور [شيخ] جديد في روما، في سبيل أنه بوساطة براعة وسلطة اثنين من الشيوخ متحدين، من الممكن ضبط صلف الرومان، وبذلك تصبح المدينة أكثر سلاماً، ومن ثم يجري حكمها بأمان أعظم، وبسهولة أكبر من قبل مستشاريها.

صلف الاغريق نحو الكنيسة الرومانية ونحو امبراطورهم

وتفجر في هذه الآونة صلف الاغريق المعتاد، بالشكل المجنون، نحو الكنيسة الرومانية، ونحو مولاهم امبراطور القسطنطينية، وبذلك نالوا سخط البابا والكنيسة كلها، حتى بات الرأي، وتوفرت الرغبة في ارسال جيش الصليبيين ضدهم، لأن الامبراطور، قام حتى يتجنب غضبهم بالمغادرة إلى البلدان الغربية، ليطلب النصيحة والمساعدة من الكنيسة الرومانية.

البابا يستدعي كونت بريتاني إلى مجلسه

واستدعى البابا في هذه الآونة كونت بريتاني إلى مجلسه، مما أثار دهشة الكثيرين، حيث استغربوا اقدامه على استدعاء رجل مشهور جداً بأعماله الخيانية المزدوجة، ليتولى ادارة شؤونه الصعبة، لكن تبين أنه اختار ذلك الكونت وانتخبه دون سواه، لأنه كان رجلاً بارعاً جداً في فن الحرب، شجاعاً في القتال، ومن أسرة مشهورة، وهو انسان قد نال تجربة من خلال صراعات متوالية بالبحر والبر، ليعهد إليه بقيادة وإمرة الجيش الصليبي، وليضع تحت تصرفه المال لانفاقه في سبيل الاعدادات الضرورية من أجل زحف الصليبيين.

سقوط أمطار غزيرة وتدفقها

ومع اقتراب موعد حلول شهر آذار، وبالتحديد في يوم عيد القديس فالنتاين، عمت عواصف ثقيلة من المطر، وغمرت البلاد، وبتدميرها

لضفاف الأنهار، جعلت المخاضات والطرق غير ممكنة العبور لمدة ثمانية أيام متوالية، ومما يماثل ماحدث، من الممكن تصور حالات أخرى مشابهة، أي أن يقوم نهر التيمس في انكلترا، والسين في فرنسا، أثناء فيضانيهما بإزالة المدن، والجسور، والطواحين، وأن تنبع البحيرات في الأماكن الجافة من قبل، وتنتشر فوق امتدادات واسعة من البلاد، وإذا حدث ذلك سيكون خلال خمسة عشر يوماً، نتيجة للظوفان، من الصعب جداً، تمييز الطرق على الضفاف.

وليم الأسقف المنتخب لبلنسية يغادر انكلترا لكنه مالبث أن عاد

ورأى في هذه الآونة، وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي إليه عهد الملك كلية بمقاليد الحكومة ان النبلاء قد شعروا نحوه — ليس من دون سبب — بغضب عظيم ضده، ولذلك قرر المغادرة إلى بلاده، وعهد بأراضيه، وبمزارعه الغنية التي أعطاه الملك إياها، إلى هرون، ووضعها بين يديه، وكان يهودياً من يورك، على شكل رهينة، وتسلم منه، عن طريق الدين، تسعمائة مارك من النقود الاستيرلينية الجديدة، وحمل ذلك بيديه، ثم إنه وجه خطاه نحو دوفر، تحت أمان الملك، وعلى ظهور دواب التحميل أوعية مليئة بالذهب والفضة، وهدايا ملكية متنوعة، إلى جانب بعض الخيول الإسبانية القصيرة المرغوبة، وخيول عليها سرج ثمينة، وهكذا تمكن هذا الرجل بمكر وببراعة من تدبر الأمور، حتى أن الملك تخلى عن المثل الذي ضرب له من قبل الامبراطور النبل، وملك فرنسا الخريص، اللذان لم يسمحا لظهرهما بأن يداس عليهما من قبل زوجتيهما ومن قبل أقربائهما وأبناء بلديهما، فحرم من جميع أمواله، ومن كل ماله، فأصبح رجلاً محتاجاً، وسمح لهذا الأسقف أن يمزق مملكته إلى مزق، وبما أنه كان تحت نفوذ زوجته، سمح له، وفقاً لأوهى الحجج بالتهام نتاج أراضيه الخاصة، كما أنه سمح للأجانب من: بواتيين، وألمان، وبروفانسيين، ورومان، أن يسمنوا على الأشياء الطيبة في بلاده، وبإيذاء مملكته.

وذهب آنذاك أسقف بلنسية المنتخب المتقدم ذكره، إلى فرنسا، وبعدها قدم هناك احتراماته إلى الملك وإلى أخته، قام من دون تأخير بالانطلاق مسافراً بسلام، وسمح له بالمغادرة من دون أية هدايا، ثم إنه أرسل الهدايا التي جلبها معه من انكلترا إلى بروفانس، وهناك وزعهم مع بعض الخيول المحملة بمبالغ كبيرة جداً من المال، ثم إنه عاد خالي الوفاض إلى انكلترا، حيث استقبل بذراعين مفتوحين، من قبل الملك.

انتخاب وولتر كانتلوب وجون رئيس رهبان نورويك

بعدها غادر أسقفها ووركستر ونورويك الطيبا الذكرى الحياة، انتخب رهبان ووركستر المعلم وولتر دي كانتلوب Cantelupe ابن وليم دي كانتلوب، القوي والواسع الشهرة، انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وقد قبله البابا من دون أية مصاعب، وكرسه أسقفاً، وانتخب رهبان نورويك رئيسهم، وكان رجلاً متديناً ومستقيماً، واختاروه ليكون رئيسهم، لكن هذا الانتخاب مع أنه عمل بشكل صحيح، لم يرض الملك، وبسبب أعداء مضحكة، واعتراضات بعض الذين وقفوا ضدها، بقي لمدة طويلة محروماً من التكريس، لكن ليس من دون بعض الشكوك التي صدرت عن أخطاء مرتاب بها.

الأوضاع التعيسة لانكلترا

أثناء هذا الوقت كله، أخذت بقية حرارة الإيمان الصحيح بالموت والتلاشي، وتحولت بقايا نارها إلى رماد، وبدت وكأنها لم يعد فيها بصيص شرارة واحدة، لأن السيمونية كانت الآن تمارس من دون خجل، والربا بشكل مكشوف، واستخرجت الأموال من الشعب ومن الصغار بمختلف الحجج، وزالت الصدقات، وسحق كرم الكنيسة، وديس على الدين، وبات بدون قيمة، وباتت ابنة صهيون، كما كانت دوماً، من دون حياة، وعاهرة من دون خجل، وأقدم رجال أميون من الطبقة الدنيا، وهم

مسلحون بالمراسيم من الكنيسة الرومانية، واندفعوا متقدمين مع التهديد، واستأنفوا يومياً، على الرغم من الامتيازات المقدسة، التي نلناها من أجدادنا وأسلافنا المقدسين، وباشروا بنهب الموارد التي خلفها الرجال الأتقياء من العصور القديمة، من أجل الانفاق على رجال الدين، ولدعم الفقراء، ولتقديم الضيافة إلى الحجاج، وحصلوا على الفور على الذي طلبوه، وكان إذا ما لجأ إنسان من المتضررين أو المسلوبين إلى وسيلة الترافع للقضاء، أو الترافع باسم الامتيازات، قاموا على الفور بتعليقهم، وحرمانهم كنسياً، بوساطة بعض الأساقفة الآخرين، وذلك استناداً إلى التخويل والترخيص الممنوح من البابا، وبهذه الوسيلة، لكن ليس بوساطة الرجاوات، أو الطرائق الشرعية، بل بوسائل استخراج ملوكية عنيفة، سرقوا القوم السذج، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«يتسول الرجل في السلطة بسيف مسلول».

ولقد صار الحال الآن، أنه حيث كان فيما مضى رجال دين نبلاء وكرماء، وأوصياء على الكنيسة ورعاة لها، كانوا قد عودوا أنفسهم على جعلها مشهورة خلال جميع المناطق المجاورة، بوساطة اكرام المسافرين والعناية بهم، وبانعاش الفقراء، صار محلهم رجال منحطين، فارغين من الأخلاق، مليئين بالمكر، وكلاء للضامنين الرومان، وتولى هؤلاء الآن الاستيلاء على كل ما هو مفيد، وثمانين، ونقلوا ذلك إلى بلدان أجنبية، أي إلى سادتهم، الذين كانوا يعيشون على الإرث اللذيذ للمسيح، ويتباهون باستحواذهم على أملاك الآخرين، ثم كان أن شوهد حزن عميق من القلب، منه تبللت وجنات القديسين بالدموع، وسمعت التهديدات والشكاوى، وقد انفجرت عالياً، وتضاعفت، وقال كثيرون وهم يتنهدون:

«لقد كان من الأفضل أن نموت على أن نشاهد معاناة وآلام شعبنا، وقديسينا»، الويل لانكلترا، التي كانت من قبل رئيسة البلدان، وسيدة الشعوب، ومراة الكنيسة، وأساس الدين، هي الآن ملقاة تحت الجزية، وقد

داس عليها بالأقدام أناس وضعاء، وسقطت فريسة إلى أناس أخساء، لكن الذنوب المتنوعة للانكليز هي التي جلبت أسواط العذاب هذه وأنزلتها على أنفسهم، وذلك من خلال غضبه، الذي بسبب ذنوب الشعب، مكن المنافقين من الحكم، وجعل الطغاة يتولون السلطة.

موت جون بريين والراهب جوردان

في هذا العام انتزع من بيننا جون بريين المشهور، وصاحب الذكرى الخالدة، الذي كان من قبل ملك القدس، والذي كاد أن ينال السلطة الامبراطورية للاغريق، والذي كان من الممكن له أن ينهي حياته بشكل سعيد، وبسلام في ضوء الشمس، لولا أنه جلب على نفسه عداوة فردريك الكبير، امبراطور الألمان.

وفي هذا العام أيضاً، فيما بين الشتاء والربيع، غرق الراهب جوردان، رئيس طائفة الرهبان المبشرين، وكان رجلاً متميزاً بقداسته، وواعظاً مشهوراً، وجاء غرقه في العاصفة، عندما كان مبحراً على طول السواحل الجنوبية لبلاد المغرب، من أجل أن يربحهم للرب بوساطة وعظه، وجلب جسده إلى اليابسة، من قبل بعض الذين غرقت سفنهم، لكن الحظ انتشلهم من الموت، وجاء ذلك نتيجة جهد كبير ومخاطر، وعهدوا به إلى القبر بشكل مشرف وبطريقة معروفة، وعندما كانوا يتولون دفن جسده المقدس، شموا رائحة طيبة رائعة، صدرت عن ملابسه، وكذلك عن شخصه، واستمرت حلاوتها تطيب أيديهم لوقت طويل.

وحوالي ذلك الوقت نفسه جرى تطويب القديس دومينيك، وتسجيله في لائحة القديسين، وكان راهباً من طائفة المبشرين.

موت رتشارد ثاني أسقف لدرم يحمل ذلك الاسم

وفي تلك الآونة، وبالتحديد في الخامس عشر من نيسان، مات رتشارد، الأسقف الثاني لدرم، الذي حمل ذلك الاسم، وكان رجلاً صاحب تقوى

لا نظير لها، ومعرفة عميقة، وقد حكم بقوة ثلاث أسقفيات كنسية هي، أسقفيات: شيلستر، وسالسبري، وأخيراً أسقفية درم، التي ترأس عليها بكل ازدهار، وحررها من دين ثقل، جناه رتشارد الأول، الذي كنيته مارش، والذي كان متقدمه، وكان مبلغ المال الذي سدده الأسقف المذكور، أي رتشارد الثاني، ودفعه في سبيل تسوية الدين، قد أحصي بأنه تجاوز أربعة آلاف مارك، ومعزو أيضاً إلى الثناء الأبدي عليه، أنه حوّل كنيسة سالسبري، من مكان فارغ وجاف في جوار قلعة الايرل، إلى موقع موائم، وأرسى بمعونة بعض المهندسين المشهورين، الذين جمعهم من بلدان نائية، أساسات كبيرة، ووضع هو شخصياً الحجر الأول، لرفع شأن هذا العمل وفي سبيل تقدمه، لم ينفرد به الأسقف بل قدم له يد المساعدة عدداً كبيراً من النبلاء مع الملك أيضاً، ولهذا قال أحد الحكماء:

«قدم الملك المال، والبناء يديه،

والأسقف العون، وهكذا وقف البناء».

وإلى جانب هذا أوجد مؤسسة للراهبات في تارنت Tarent وأعطاهما إلى الملكة، وهناك اختار مكان دفنه، وعندما اقترب موعد مغادرته، ورأى الأسقف بأن الساعة قد اقتربت بالنسبة له للعبور من هذا العالم، قدم موعظة خاصة إلى جمع من الناس، وأخبرهم بأن موته بات وشيكاً، وفي اليوم التالي اشتد مرضه، فودعهم جميعاً، وسأل المسامحة من كل من أذنب بحقه، وجمع في اليوم الثالث أسرته، والذين كان مرتبطاً بهم، ليقدم لهم بشكل خاص الحماية، ووزع فيما بينهم مآراه من الضروري توزيعه، وأعطى إلى كل واحد استحقاقاته، وبعدما رتب أموره كلها، وأكمل أعماله كلها بتوزيع موائم وصحيح، قام بتوديع رفاقه واحداً واحداً، وأخيراً قدم الصلاة التعبدية لمنتصف الليل، وأنشد البيت التالي:

«سوف أتمدد أنا بسلام وسوف أنام»، فوقع نائماً بالرب بكل سرور، ثم

قام رهبان درم، بعدما استمدوا العون من عليين، بانتخاب رئيسهم توماس، وكان رجلاً متديناً ومستقيماً، وجعلوه أسقفهم والراعي لأرواحهم.

سبب عودة الامبراطور من إيطاليا

وفي هذه الآونة، وجد الامبراطور فردريك أن مؤمرات أعدائه قد سببت عودته إلى ألمانيا، وتركه لحملته التي كان عازماً عليها، وأن ذلك كان لغير صالح سمعته، لأنه كان قد أرغم على رفع الحصار، والانسحاب من ميلان، وقام بإجراء بحث لمعرفة من الذي تسبب له بهذه الإعاقة، فوجد أن دوق النمسا قد أثار فوضى داخلية في ألمانيا، وأنه كان السبب في إعاقته عن قصده، فهاجمه، وحرمه من أراضيه، ومن مراتبه، وثرواته.

الامبراطور يستدعي للاجتماع جميع أمراء المسيحية

وفي العام نفسه، استدعى الامبراطور فردريك بوساطة مراسلين خاصين، ورسائل امبراطورية أمراء المسيحية الكبار في العالم، للاجتماع في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، في فوكولور Vaucouleurs الواقعة على حدود — أو على مقربة من حدود — الامبراطورية والمملكة الفرنسية، وهدف الاجتماع هناك كان بحث القضايا الصعبة المتعلقة بالامبراطورية، والمتعلقة أيضاً بالمملكة، وبما أن الملك الفرنسي رعى مشاعر الشكوك حول هذا المؤتمر، توجه في الوقت المحدد إلى المكان المعين، يحيط به ويرافقه جيش كبير، كان قد حشده لتلك الغاية، وبذلك ضرب مثلاً مربعاً وخيئاً للآخرين، لأنه ذهب للبحث في مسائل السلام، وفق الطريقة نفسها التي يزحف بها عندما يريد قتال أعدائه، وقدم ملك انكلترا اعتذاراً منطقياً لعدم حضوره شخصياً، وبعث سفارة سلمية، تتألف من بعض الشخصيات الرئيسية للمملكة، فيها: رتشارد إيرل كورنول، أخيه، مع بعض النبلاء الآخرين، الموائمين للعمل في مؤتمر تحت توجيه رئيس أساقفة

يورك المبجل، وأسقف ايلاي، مع أشخاص آخرين موثوقين، جرى اختيارهم لهذه الغاية، ومع أن أسقف وينكستر، قد جرى اختياره قبل الآخرين، رفض باصرار الذهاب، لكن ليس من دون تقديم سبب معقول، حيث قدم التعليل التالي لتسويغ عدم ذهابه، فقد قال:

«مولاي الملك، لقد تقدمت مؤخراً بشكوى ثقيلة ضدي، ورفعتها إلى الامبراطور، حيث أخبرته، بأنني قمت مع بعض النبلاء الآخرين، بإحداث الاضطرابات في مملكتك، وسواء أفعلت هذا بعدل أو من دون عدل، الرب يعلم، غير انني واثق من أنني حافظت على ضميري في كل مجال، وإذا كانت كلماتك قد وضعت الآن بثقة تفوهت بها من فمك، وأودعتها في رسائلك، وأن تعلن أيضاً أنني صديق مقرب منك ومخلص لك، فهذا سوف يظهر كأمر معاكس، وسوف يسبب لنا معاً، وأنا وأنت بعض عدم الاستقرار، وسيسيء إلى سمعتك إلى درجة كبيرة، وبناء عليه، بسبب أن ذلك سوف يظهر مسيئاً لك، أنا لن أذهب بأي حال من الأحوال»، وبرأي كثيرين، أنه أعطى بهذا الرد تعليلاً كافياً عن نفسه، ولدى الفراغ من جميع الاستعدادات، وعندما باتوا جاهزين للاقلاع بهذه الرحلة، ووجهوا برسائل من الامبراطور، قال فيها بأنه لن يستطيع الذهاب إلى المؤتمر، آنذاك، كما سلف وله واقترح، لكن الذي لن يستطيع فعله وقتئذ، سوف —بمشيئة الرب— ينفذه في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، من العام المقبل، وهكذا عاد كل واحد منهم من دون القيام بأي شيء.

وفي هذا العام، في يوم العشاء الأخير، تولى أسقف هيرفورد تكريس القربان المقدس، في كنيسة القديس ألبان، وفي هذه الآونة أيضاً، أغلق جون سكوت، إيرل شيلستر حياته، وكان ذلك في حوالي أحد الشعانين حيث درس له السم بوساطة زوجته، ابنة للويلين، وتعرضت حياة أسقف لنكولن للوسيلة نفسها، ولكنه استرد بكل صعوبة من بوابات الموت، وفي العام

نفسه، في الأسبوع الذي حلّ قبل أحد الشعانين، كانت هناك عواصف شديدة، ترافقت مع سقوط برد، كان حجم البردة أكبر من التفاحة، فقتلت المواشي، وتبع ذلك تساقط الأمطار.

وصول أوتو النائب البابوي إلى انكلترا

وفي هذا العام أيضاً، في حوالي أيام عيد القديسين بطرس وبولص قدم المعلم أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان Tullian بمثابة مندوب بابوي، لكن لأي مقصد، فهذا لم يكن معروفاً، وجاء قدومه بناء على استدعاء من الملك دون معرفة النبلاء، وبناء عليه شعروا بغضب عظيم وسخط ضد الملك، وقالوا:

«يتولى الملك الآن منع جميع الشرائع، وقد حنث بعهده ووعوده، وبذل كل شيء عمله وألغاه، فهو قبل مدة وجيزة اتحد ذاتياً بالزواج من أجنبية، دون استشارة أصدقائه ورعاياه الطبيعيين، والآن استدعى بشكل سري نائباً بابوياً ليقوم بتغييرات في جميع أرجاء المملكة، فهو ما ان يفتح الطريق أمامه حتى سيسعى لاسترداد الذي أعطاه»، وهكذا وفقاً لهذا الأسلوب أخذت المملكة يوماً فيوماً، تماشياً مع كلمات الانجيل، تنقسم على نفسها، وتعيش في فوضى وباتت مهجورة مخربة بشكل رهيب، ويقال بأن إدموند رئيس أساقفة كانتربري، قد وجه اللوم إلى الملك لتصرفه وفق الطريقة التي عمل بها، وبشكل خاص لاستدعائه النائب البابوي، عارفاً بأنه قد كان قبل وقت طويل السبب في إلحاق أضرار كبيرة بالمملكة، وبإلحاق اجحاف عظيم بمكانته، ولكن الملك رفض نصيحته، وكذلك نصائح الآخرين من مستشاريه، ولم يرض بأي شكل من الأشكال الاقلاع عما نواه في عقله، ولذلك قدم المندوب البابوي المذكور بأبهة عظيمة، مع سلطان عظيم، وذهب الأساقفة والكهنة ذوي المكانة حتى الشاطئ لاستقباله، لابل أكثر من هذا صعد بعضهم على ظهور القوارب لتلقيه، واستقبلوه بالهتافات، وقد صوا إليه هدايا ثمينة، لابل حتى في باريس إلتقاء رسل عدد من

الأساقفة، وقدموا له أقمشة أرجوانية، وكؤوساً ثمينة، ولفعلهم هذا استحقوا عقوبة جماعية، بسبب كل من الأعطيات، والطريقة التي أعطيت بها، لأنه بالأقمشة ولونها أعطى ذلك مظهراً بأن مكتب النيابة البابوية، ووصول النائب البابوي يلقيان القبول، ولدى وصوله هو لم يتسلم جميع الهدايا التي قدمت إليه، بل بعضها فقط، والذي لم يأخذه أمر بحفظه من أجله، ثم قام بكرم فوزع المناصب الشاغرة والمنافع بين أتباعه الذين جلبهم معه سواء أكانوا مستحقين لذلك أم غير مستحقين، واستقبله الملك شخصياً عند شاطئ البحر، وحنى رأسه حتى ركبته، وبعد ذلك استقبله وسار معه وسائره حتى داخل البلاد، وجاء الأساقفة أيضاً، وكذلك رعاة الديرة، وقساوسة الكنائس الآخرين، استقبلوه بكل تشريف واحترام، بمسيرات وموسيقى أجراس، مع هدايا ثمينة، بقدر ماتوفر لديهم، وأكثر مما توفر لديهم.

رسالة فيليب الراهب الدومينيكانى إلى البابا

وفي هذا العام، وصلت أخبار سارة من الأرض المقدسة، بأن واحداً من قادة الهرطقة في المشرق قد تخلّى عن هرطقته وأوهامه، وتأثر بالروح القدس، فتحول إلى المسيحية بوساطة الوعظ المستمر والحث التبشيري للراهب فيليب، رئيس طائفة الرهبان المبشرين (الدومينيكان) في الأرض المقدسة، الذي قام من دون تأخير ببعث رسالة حول هذا إلى البابا، وإلى الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى البابا، ليعت السورور في نفسيهما، بهذه الأخبار المفرحة، ثم إن الراهب غودفري، كتب إلى جميع رؤساء رهبان طائفتي المبشرين (الدومينيكان) في انكلترا وفرنسا يخبرهما بهذه الواقعة بالكلمات التالية:

«إلى الأبوين المبجلين في المسيح، رئيسي طائفتي الرهبان المبشرين في فرنسا، وانكلترا، من الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى صاحب القداسة البابا، أمانى الصحة والبهجة في الروح القدس، ليكن معلوماً

لديكما بأن قداسته قد تلقى رسائل من الراهب فيليب، المسؤول الاقليمي في الأرض المقدسة، جاء بها مايلي:

إلى الأب الأعظم قداسة والمولى، وإلى غودفري، الذي هو بموجب الدعوة الربانية الحبر الأعظم، من الراهب فيليب، الرئيس الحقيق للرهبان المبشرين، طاعة صحيحة وتقوية في كل شيء:

مبارك هو الرب، الأب لمولانا يسوع المسيح، الذي هو في أيامنا، أب مقدس، الذي أعاد برحمته راعي القطيع، الذي كان تائهاً منذ وقت طويل، لأنه في أيامنا قد أرانا سنة من لطفه، وبدأ يملأ الحقول بالوفرة، ومثل ذلك أعاد إلى طاعتكم، وإلى الاتحاد بالكنيسة الأم، شعوباً قد ضلت منذ زمن بعيد، وابتعدت عن تلك الجماعة، ذلك أنه في هذا العام، قام بطيريك اليعاقبة في الشرق، وهو رجل صاحب علم وصاحب أخلاق، ومحترم في سنه، قد جاء مع جماعة كبيرة، من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والرهبان من شعبه، للتعبد في القدس، وله أوضحنا قواعد الإيمان الكاثوليكي، وبالتعاون مع النعمة اللاهوتية، أحرزنا تقدماً كبيراً، حتى أنه في أحد السعف، في الوقت الذي تنزل فيه بالعادة المسيرات من جبل الزيتون إلى القدس، وعد وأقسم أنه سوف يطيع الكنيسة الرومانية المقدسة، وأنه سوف يتخلى في الوقت نفسه عن جميع الهرطقات، كما أنه قدم إلينا اعترافه مكتوباً بالكلدانية (السريانية) والعربية بمثابة دليل أخير، وبالإضافة إلى هذا تبنى لدى مغادرته لباسنا الكهنوتي، وهذا الرجل رئيس على الكلدانيين، وعلى الميدين، والفرس، والأرمن، التي دمر أراضيهم التتار الآن واجتاحوها إلى حد كبير، وتمتد صلاته بعيداً حتى ممالك أخرى، إلى حد أن سبعين منطقة أخرى هي خاضعة له، فيها أعداد لا تحصى من المسيحيين يسكنون بمثابة عبيد للمسلمين ودافعين للجزية لهم، وذلك باستثناء الرهبان، الذين يعفونهم من الجزية، ووفق الطريقة نفسها فعل رئيسان للأساقفة، كان أولهما أسقف اليعاقبة في مصر، وكان الآخر أسقف

النساطرة في الشرق، وكان لها حقوق الرعوية على الناس الذين سكنوا في سورية وفينيقية، ونحن الآن أيضاً مرسلون بكل سرعة أربعة من الرهبان إلى أرمينيا، ليتعلموا اللغة، وذلك بناء على رجاء ملح ومستعجل من الملك والبارونات، وفيما يتعلق برجل آخر، هو رأس الذين فصلتهم الهرطقة النسطورية عن الكنيسة — والذي تمتد رعويته في أرجاء الهند العظمى، أي مملكة بريستر جون، والممالك الأخرى التي هي أقرب إلى الشرق — قد تسلمنا عدة رسائل منه، أخبرنا بها بأنه قد وعد الراهب وليم دي مونترفرات، الذي مع راهبين آخرين، كانوا يتعلمون تلك اللغة، ولذلك أقاموا بعض الوقت معه، أخبرنا بأنه سوف يكون مطيعاً، وأنه سوف يعود إلى صدر الكنيسة المتحدة، وأرسلنا أيضاً بعض الرهبان إلى مصر، إلى بطريرك المصريين اليعاقبة، الذين نأوا بالعادة بعيداً جداً، وضلوا أكثر من الموجودين في البلدان الشرقية، ذلك أنهم أضافوا الختان إلى ذنوبهم الأخرى، أي هم مثل المسلمين، ومنه سمعنا مثل ذلك بأنه يرغب بالعودة للاتحاد بالكنيسة، وأنه تخلص الآن عن جميع ذنوبه المتقدمة، ومنع الذين خاضعين له من الختان، ويتولى هذا الرجل السيادة ويخضع له:

الهند الصغرى، واثيوبيا، وليبيا، ومصر، والليبيين والايثيوبيين — على كل حال — ليسوا خاضعين للمسلمين، أما بالنسبة للموارنة، الذين يسكنون في لبنان، فقد كانوا قد عادوا منذ زمن طويل، وهم مابرحوا محافظين في طاعتهم للكنيسة، وفي الوقت الذي نجد فيه أن جميع هذه الشعوب خاضعة لعقائد التثليث وإلى ما نبشر به، فإن الاغريق لوحدهم مثابرون على التمسك بشروهم، وهم يعارضون في كل مكان، سراً أو علانية، الكنيسة الرومانية، وهم يدنسون قداساتنا وقرابيننا ويطلقون على كل طائفة غريبة عنهم اسم أشرار، أو هراطقة، وبناء عليه عندما رأينا مثل هذه البوابة العظمى مفتوحة أمامنا، وفي سبيل أن تنتشر حقائق الانجيل في الخارج، وجهنا اهتمامنا إلى تعلم لغات تلك الشعوب، ففرضنا ذلك على

كل جماعة ديرية، وبذلك أضفنا جهداً جديداً إلى الجهود القديمة، وهم الآن — بفضل نعمة الرب — يتكلمون ويبشرون بلغات جديدة، وخاصة بالعربية، التي هي الأكثر انتشاراً بين الناس، لكن يالأسف، حدث مع جميع هذا السرور، والبهجة الروحية، التي قامت بيننا، نتيجة لتحوّل الكفار، أن مزج الرب من أعماق قضائه، ذلك ببعض المرارة، بوفاة رئيس طائفتنا، إذا لم نقل بأن وفاته قد تحولت إلى حياة للكفار، لأننا سمعنا من كثيرين ممن كانوا هناك حاضرين، ورأوهم، بأن معجزات كثيرة قد شوهدت هناك، إلى حد أن الميت قد بشر بفعالية أعظم بالمعجزات، مما يستطيع الأحياء بالكلمات، مبارك الرب، من أجل جميع الأشياء، ولهذا أرسلنا ثلاثة مبشرين إلى هؤلاء المسلمين، حتى لانظهر أننا مفتقرون إلى نعمة الرب، وبناء عليه، إن عملك أيها الأب المقدس، هو التجهيز والامداد إلى الذين يجتمعون مع بعضهم، وأن تقدموا السلام إلى أولئك العائدين إلى الكنيسة، خشية أن يحدث فيسقطون من بين ذراعي الحاضنة، فيغدون عرجاناً بالقدمين، وبذلك يكون الحال أسوأ من ذي قبل، لأن بعضهم الآن يعارضون أكثر من ذي قبل الرعوية الممارسة عليهم، وأنا لا أتجراً على حبس انتباهك بالمزيد من الكلمات، فما هو ناقص وليس فيه كفاية، سيكون بإمكان الرهبان الحاملين لهذه الهدايا أن يرووه لك، هذا ومات إلى جانب الرئيس وأتباعه: الراهب جيرالد الكاهن، والراهب ايفان المتحول، وإليك يا يسوع المسيح كل الحمد والمجد، وشكراً، وشرفاً، وفضائلاً، وقوة، وعالملاً بلا نهاية، أمين، وداعاً، [وفعل هذه الأشياء كلها هذا الكاثوليكي الجديد، من خلال خوفه من التتار، فقد كان مرعوباً من عنفهم، ولأنه لم يكن قادراً على الحصول على المساعدة من الذين أمل بحمايتهم، لجأ هارباً إلى قربان المسيحيين، وبذلك تلقى مساعدة فعالة وسريعة، وفي أيام الرخاء تخلّى عن الإيمان نتيجة لضغط نبلائه — إقحام].

هرطقة النساطرة

وبما أنه كانت هناك اشارة إلى النساطرة أعلاه، اعتقدنا أنه من الموائم أن نقحم في هذا الكتاب رواية عن أوهامهم، ففي بلدان المشرق، هناك شعوب همجية تختلف تماماً عن الاغريق وعن اللاتين، ويعرف بعض هؤلاء باسم اليعاقبة، اشتقاقاً من اسم رئيس لهم ومعلم اسمه يعقوب، كان تلميذاً لبطريك الاسكندرية، وكان هذان الرجلان قد تعرضا منذ زمن طويل مضى لعقوبة الحرمان الكنسي من قبل ديوسكورس Dio-scorus بطريرك القسطنطينية، وطردا من كنيسة الاغريق، وهم الآن يسكنون في الجزء الأكبر من آسيا، وجميع المناطق الشرقية، وسكن بعضهم بين المسلمين، وآخرون متحالفون مع الكفار، المحتلين لمناطقهم، أي النوبة، القائمة على حدود مصر، حيث جزء كبير من أثيوبيا وجميع البلدان بعيداً حتى الهند، تحتوي — كما يؤكدون — على أكثر من أربعين مملكة، وكانوا جميعاً من قبل مسيحيين، ذلك أنهم تحولوا إلى العقيدة المسيحية، على أيدي الرسول متى مع الرسل الآخرين، لكن فيما بعد زرع العدو بذور خلافاته بينهم، فأصبحوا الوقت طويل مظلمين بالخطيئة المحزنة والتعيسة، يختنون أولادهم، من كلا الجنسين، مثل المسلمين غير مدركين أن نعمة التعميد، قد أزالوا أوهام الختان للجسد، وذلك مثلما تتساقط الأزهار، وتزول، عند التحول إلى فاكهة، الأمر الذي قال عنه بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية: «إن اختتتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» [٢/٥] وقال أيضاً: «لكن أشهد أيضاً لكل انسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس، قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تبررون بالناموس. سقطتم من النعمة» [٥/٣-٥]، ومن ذنوبهم الأخرى، ذنب ليس أدنى من الذنب المذكور أعلاه، هو أنهم يعترفون بذنوبهم، ليس إلى الكاهن بل إلى الرب وحده، حيث يضعون بعض البخور المحترق إلى جانبهم، وكأن ذنوبهم سوف ترتفع إلى الرب في الدخان، وخطيئة هؤلاء الأشقياء ليس من خلال

عدم فهم النصوص المقدسة، ومن ثم الهلاك بسبب سوء الفهم، فهم يخفون جراحاتهم عن الطبيب الروحاني، الذي عمله هو التمييز بين جذام انسان وجذام آخر، وبعد التفكير ملياً حول جريمة الختان، عليه أن يفرض التوبة، وذلك وفقاً للمفاتيح الممنوحة للكهنة والمعهود بها إليهم، بالقدرة على الحل وعلى الربط، وبشكل خاص الصلاة إلى الذين اعترفوا إليهم، وهكذا نجد في الانجيل أن الرب قال للمجدوم: «اذهب واعرض نفسك على الكهنة» وثانية قال جيمس: «اعترف بذنوبك ذنباً تلو الآخر»، وقال سليمان: «لا تستحي من الاعتراف بذنوبك»، ومجدداً إنه وفقاً للعهد القديم، يعترف الكاهن بذنوب الناس على رأس الأضحية، إنما كيف كان بإمكانه الاعتراف بذنوبهم، ما لم تكن معروفة، وقد اعترفوا بها إليه؟، ومرة أخرى في العهد الجديد، قال القديس بولص في جزء آخر إلى الرومان: «لأن الإنسان يعتقد بالقلب ما هو صحيح، ويعترف بالفم من أجل الخلاص»، ونقرأ عن يوحنا المعمدان: «لقد عمدوا من قبله، واعترفوا بذنوبهم» ذك أن الخجل، والشعور باللطف، والتواضع لدى الانسان المعترف هي الأجزاء الرئيسية للتوبة، ويصير الأشخاص —عرضة أكثر لاقرار الذنب— هم الذين لا يرون أنه عملاً صحيحاً أن ييؤوا بذنوبهم إلى الناس، لأنه قد كتب: «إن كل من يخفي ذنوبه لن يكون مستقيماً، لكن كل من يذنب ويعترف بذنوبه سوف ينال رحمة»، والخطيئة الثالثة للعاقبة المتقدمي الذكر، هي جهلهم البدائي، مثلما ذلك دليل على سوادهم، هو أن عدداً كبيراً منهم يكوون أولادهم، ويضعون علامات عليهم قبل التعميد، وذلك بالضغظ بحديدة محماة على جباههم، ويرسم بعضهم على أولادهم علامة الصليب إما على خدودهم، أو على جباههم، ذلك أنهم يعتقدون أنهم يتطهرون بالحديد المحمى، لأنه كتب في انجيل القديس متى بأن القديس يوحنا المعمدان قال عن المسيح: «هو سوف يعمدكم بالروح القدس وبالنار»، وإنه على كل حال لأمر واضح إلى جميع ذوي الإيمان الصحيح، أن إزالة الذنوب تكون بالنار الروحية، أي بوساطة الروح

القدس، وليس بالنار المرئية، لأن الرب أثناء نبوته، غالباً ما لام بني اسرائيل، وأنزل بهم لعنات مخيفة، لأنهم قلدوا الكفار، بأمرهم أولادهم بالمرور خلال النار، وجاء في سفر التثنية على لسان نبيه موسى: «خذ حذرك فلا تقلد آثام هذه الأمم، وينبغي أن لا يكون بينكم واحد يتولى تطهير ابنه أو ابنته بقيادتهما من خلال النار»، ومن الواضح إلى جميع المسيحيين، أنه لا ربنا ولا رسله، ولا أي واحد من الآباء المقدسين سمح بمراعاة هذه العادة في الكنيسة، كما أنهم لم يأمرؤا الناس بالاحترق وفق هذه الطريقة، ونحن قد رأينا علامات الحرق على أذرعة الذين يقطنون بين المسلمين، وكذلك بين اليعاقبة والسوريين، ذلك أنهم أنفسهم عرضوا بالساح لشارة الصليب بأن تطبع عليهم، ليميزوا أنفسهم عن المسلمين، باحترامهم لذلك الرمز المقدس، وعندما بحثنا بين الاغريق والسوريين وسألناهم لماذا يزدرون اليعاقبة، ولماذا طردوهم من جماعتهم، أوضحوا بأن السبب الرئيسي قد كان لأنهم انغمسوا في هرطقة ملعونة، وهي الأكثر شراً، بإعلانهم بأن هناك طبيعة واحدة وشخص (اقنوم) واحد في المسيح، والهرطقات من هذا النوع قد حرمت كنسياً وأدينّت في مجمع خلقيدونية، وأكد بعضهم وأصرؤا بشكل شرير، على أن المسيح بعدما اتخذ شكل انسان، لم يوجد في طبيعتين، بل الذي بقي فيه هو الطبيعة اللاهوتية فقط وكان الذي قدم هذه العقيدة الخاطئة هو يوتيجي Eutyches الذي كان راعي دير في القسطنطينية، هذا ويؤكد بعضهم الآن، بأنه من الطبيعتين كانت هناك طبيعة واحدة في المسيح، وكان هناك أسقفان من الاسكندرية، اسميهما: ثيوديوس وغالان، كانا مبدعي هذه الخطيئة، وإنه على كل حال لمن الواضح، أنه وفقاً لطبيعة الوجود الانساني، قد جاع يسوع المسيح، وعطش وتحمل الحاجة إلى أشياء أخرى، وعانى ألماً من الموت على الصليب، ولكن وفقاً للطبيعة اللاهوتية هو جلب الموت إلى الحياة، وقام بأعمال أخرى جيدة، كما قال عن نفسه: «كنت أنا قبل أن يكون آدم» و: «البداية أنا الذي أتكلم إليكم» وقال مرة أخرى: «أنا والأب واحد»،

ولكن في اشارة إلى طبيعته كإنسان قد قال: «الأب أعظم مني أنا» ومجدداً قال عندما كان الكأس يعبر بعيداً عنه: «إنها ليست إرادتي، بل إرادتك التي ستكون»، وبعدها قمت بعملية تقصص كاملة تماماً حول اليعاقبة المتقدم ذكرهم، عما إذا كانوا قد أعلنوا عن وجود طبيعة واحدة فقط في المسيح، لم أعرف هل أنكروا وجود غيرها من خلال الخوف من الافحام الجدلي، أو لسبب آخر، ولدى سؤالي لماذا يعلمون أنفسهم باصبع واحد، أجابوني بأنهم فعلوا ذلك بسبب اتحاد الجوهر اللاهوتي، ومع ذلك يشيرون في ثلاثة أماكن إلى الثالوث، أي اهتماماً منهم بالثالوث المقدس واتحاده، وهم يعلمون أنفسهم في أربعة أماكن، على شكل صليب، وكان السوريون (السرمان) والاغريق — على كل حال — مضادين لهذا، ولإظهار أهمية الوحدة، التي يؤمنون بها لوحدها أنها الموجودة في المسيح، يعلمون أنفسهم، ويرسمون عليها بإصبع واحد، ويستخدم بعضهم الكتابة الكلدانية (السرمانية)، وآخرون العربية، التي تعرف باسم الاسلامية، ويستخدم رجالهم العلمانيون كتابات أخرى ولغات، وذلك تبعاً لاختلاف شعوبهم وبلدانهم، لكن لغة رجال دينهم، التي يستخدمونها في الكتابات اللاهوتية، لاتفهمها الطوائف الدنيا، لأنهم وإن استخدموا اللغة العربية، إنها لاتشابه العربية الدارجة، لكنها لهجة خاصة بهم أنفسهم، لايفهمها السواد الأعظم من الناس.

تواضع النائب البابوي

ولقد تمكن النائب البابوي أوتو، الذي أشرنا إليه من قبل، بالسلوك بنفسه بشكل حكيم، وبلفظ وتواضع، وبرفضه إلى حد كبير، الهدايا الثمينة التي منحت إليه، وذلك على عكس العادة الجارية للرومان، تمكن بسلوكه الطيب من تهدئة مشاعر الغضب، التي تكونت ضده، وكذلك التي تكونت عند رجال الدين وعند النبلاء، وكانت مشاعر الكثيرين ضده قصيرة العمر.

تهدئة النبلاء

في المقام الأول، تولى النائب البابوي المذكور، تهدئة بعض النبلاء، الذين لسبب سري لم يجبهوه، ووقفوا ضده، وبوساطة قبلة منه ثبتهم بالإيمان، وكان هؤلاء:

بطرس أسقف وينكستر، وهيوبرت إيرل كنت، وغيلبرت باسيت، وستيفن سيغريف، ورتشارد سيوورد، وعدد كبير آخر، كانوا من قبل، لوقت طويل مضى معادين له، وهذه العداوة والكراهية قد وصلت إلى نهاية محزنة في مبارزات عقدت في بليث Blith في بداية الصوم الكبير لهذا العام، فيها واجه فرسان الجنوب، فرسان الشمال، وكانت النتيجة أن فرسان الجنوب تغلبوا على خصومهم، ووقع بعض الرجال من ذوي المراتب من على الطرف الآخر بالأسر، ونجم عن ذلك قتال نظامي بدلاً عن مباراة مبارزة، وفي هذه المنازلة ميّز إيرل بيغود نفسه بين الجميع، وبعد هذا هدأ النائب البابوي الغضب بين هؤلاء النبلاء، وكتب إلى جميع أساقفة انكلترا للالتقاء به في لندن، في ثمانية القديس مارتين في كنيسة القديس بولص، لسماع مذكرة البابا المانحة له والساندة إليه صلاحيات كاملة بالنيابة البابوية، وفي المكان نفسه للاعداد لخطط من أجل إصلاح الكنيسة الانكليزية، ولعقد مجمع بحضوره.

مقتل فرسان الداوية قرب دريساك

انتشرت في تلك الآونة أخبار محزنة، وعممت الأسى في الأرض المقدسة، فإثر وفاة سلطان حلب، انتهت الهدنة التي كانت معمولة بين فرسان الداوية والسلطان المذكور، فوقتها رغب الفرسان الداوية في توسعة أراضيهم في سبيل كرامة المسيح، لذلك أعدوا العدة للحرب، واقترحوا إلقاء الحصار على قلعة اسمها دريساك Guaseum واقعة إلى الجانب الشمالي من أنطاكية، ونصبوا مخيمهم هناك في سهل معشوشب قرب

القلعة، وعينوا وليم أوف مونتفرات، الذي كان من أوفرين Auverone وكان الوصي على أنطاكية، قائداً لهم، وعندما اقتربوا من القلعة المذكورة في تعبئة قتالية، شاهد ذلك بعض الأسرى الصليبيين الذين كانوا بين أيدي المسلمين، وكانوا بالأغلال، مع بعض المرتدين، ولدى اقترابهم صرخوا لهم قائلين:

«اهربوا أيها الرجال الأشقياء، لماذا أنتم مندفعون نحو دماركم؟ إنكم جميعاً ستموتون، ذلك أن أعداءكم جاهزون بأعداد لا تحصى لقتلكم، وذلك بأمر من سلطان حلب، الذي نصب كمائن لكم»، لكن الوصي على أنطاكية، وإن كان قد سمع ذلك، قد استخف بتحذيرهم، ودعاهم مرتدين وخونة، وقام كثير من فرسان الداوية، فقدروا فرص الحرب، ونظروا إلى العدد الصغير لقوتهم، وإلى الحشد الكبير لأعدائهم، فنصحوه بتجنب كمين العدو، حتى يتمكنوا تماماً من تقدير قدرتهم القتالية، وعلى هذا رد عليهم الوصي، بأنه لا يرغب بأن يكون معه مثل هؤلاء الناس الخنوعين، في صراع مشكوك فيه، ولا أن يشاركوا في نصر عظيم هو سيناله، ودعاهم باسم جناء مزيفين، وبهذه الطريقة المعاندة — مع أن عدداً قد تخلوا عنه — أثار العدو وحرضه على القتال، لكن الذي حدث هو أن المسلمين كانوا محتشدين ولذلك انقضوا عليه قبل أن يتوقع ذلك، ولذلك كان غير قادر على تحمل صدمة القتال، وخالف أنظمة الداوية بأن أدار ظهره وهرب، وهرب معه بعض الآخرين من أتباعه، الذين كانوا من قبل قد شجعوا البقية، وسقط في هذه المعركة أكثر من مائة من فرسان الداوية، وثلاثمائة من رجال القسي العقارة، دون أن نذكر المدنيين الآخرين، وعدد كبير من الجنود الرجالة، أما الذين قتلوا من التركمان، فكانوا حوالي الثلاثة آلاف، وفي هذا الصراع غير السعيد قتل فارس داوي من أصل انكليزي، كان اسمه رينالد دي أرغنتون Argenton وكان هو الحامل للعلم في ذلك اليوم، لكنه لدى سقوطه، مثله مثل الآخرين الذين سقطوا، ترك نصراً كان

هو الأكثر دموية إلى أعدائه، لأنه دافع عن العلم بدون كلل حتى قطعت ساقاه وذراعاه كما أرسل وصيهم وحده قبل أن يقتل حوالي ستة عشر من الأعداء إلى الجحيم في الأسفل، دون أن نحسب الذين جرحهم بشكل مميت، ووقع هذا الصراع البغيض في شهر حزيران.

إرسال ثيودوريك رئيس الاستبارية لمساعدة الأرض المقدسة

عند سماع الداوية والاستبارية الساكنين في البلدان الغربية بهذه المصيبة، أعدوا أنفسهم للانتقام لدماء إخوانهم التي سفكت في سبيل المسيح، وأرسل الاستبارية رئيسهم ثيودوريك، وكان ألماني المولد، وكان فارساً بارعاً جداً، وأرسل معهم مجموعة من الفرسان مع تابعين مأجورين، ومبلغ كبير من المال لمساعدة الأرض المقدسة، وبعدما فرغوا من جميع ترتيباتهم، انطلقوا من بيتهم في كلاركينول Clerkenwell في لندن، وساروا بنظام جيد، مع حوالي ثلاثين ترساً غير مغطاة، ومع رماح مرفوعة، وأمامهم علمهم، خلال وسط المدينة، نحو الجسر حتى ينالوا مباركة المشاهدين، وحنوا رؤوسهم مع قلنسواتهم نحو الأسفل، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات الجميع.

عودة الامبراطور إلى إيطاليا مع جيش كبير

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، قام الامبراطور بعدما قمع الاضطرابات التي تفجرت في ألمانيا، وتمكن من تهدئة جميع الفئات هناك، بالدخول إلى إيطاليا مع قوة كبيرة، وقرار بأن يستخدم جميع الوسائل للانتقام للأضرار المضاعفة، التي غالباً ما أنزلها به سكان ميلان، لأنه عندما عاد قبل وقت قصير إلى ألمانيا، أثناء حدوث الاضطرابات الداخلية، التي أثارها دوق النمسا من أجل دماره، ولدى سماع أهل ميلان بخبر تراجعه، قاموا وكأنهم يطاردون الامبراطور بحقد شديد، فقتلوا بشكل وحشي أتباعه، الذين وضعهم في القلاع التي نال تملكها في إيطاليا، وبذلك أثاروا

يومياً غضب الامبراطور، وبناء عليه، ولكي لا ينال تهمة عدم الطاعة، قام بمراسلة البابا مراراً وتكراراً، برسائل تضرع، وبعده رسل خاصين، فتوسل إلى البابا شخصياً بحكم كونه رأس الكنيسة، ليقدم له المساعدة في الحصول على ميراثه، وبانزال العقوبة بسكان ميلان، للأضرار المضاعفة التي ألحقوها به، ولاجتثاث الهرطقة من كل مدينة سيئة السمعة في إيطاليا، ولاسيما أن واجب كنيسة روما، إذا ما صمت البقية، أن تقف ضد وقاحة مثل هؤلاء الناس.

ولدى سماع البابا بهذا، تظاهر بإخفاء نفسه، وسار نحو روما، وكأنه كان هارباً من أمام الامبراطور، لأنه كان غير راغب — أو غير قادر — بمساعدته، واستقبله الرومان بسرور، متصورين أنه منذ ذلك الحين فصاعداً، لن يتخلى عنهم، ويسافر بعيداً، كما فعل من قبل، لأنهم وجدوا أنهم عانوا أثناء غيابه، الذي استمر حتى الآن عشرة أعوام، من خسارة كبيرة في المال.

الحرب بين الامبراطور وبين الميلانيين

ولدى سماع الميلانيين بقرب وصول الامبراطور، الذي أثاروه إلى غضب مسوغ، عملوا جميع الاستعدادات، التي أمكنهم عملها، من أجل الحرب، فقد زودوا أبراجهم بالموثون، وجع بهم بالسهام، وجهزوا بالسلاح الذين ليس لديهم أسلحة، ولذلك عندما صار الامبراطور قريباً مع جيشه الكبير، الذي قيل بأن تعداده قد تجاوز مائة ألف رجل، بالاضافة إلى المرتزقة المسلمين، وبعدما سار فصار على بعد زحف يوم عن المكان، خرج سكان المدينة مع حلفائهم من دون انذار، في صفوف قتالية، للتصدي له، ونصبوا مخيمهم حتى يتقرر يوم المعركة، وكان معهم حشد عدده حوالي خمسين ألف رجل، ونصبوا رايتهم حيث بدا الجيش أنه الأقوى، ولدى رؤية الامبراطور لهذا، جمع مستشاريه، وشجعهم بالخطبة الحربية التالية:

«انظروا كيف تجرأ هؤلاء الميلانيون الوقحون على الظهور أمامنا، وشرعوا يثارتني أنا الذي هو مولاهم وتحريضي على القتال، وهم كما ترون أعداء الاستقامة والكنيسة المقدسة، وهم يتحملون وزر ذنوبهم، اعبروا النهر — لأنه كان هناك نهر بينهما اسمه أوغليو Oglio — وانشر رايتي أيها الحامل لها، وارفعوا عاليًا نسري المنتصر، واشهروا أنتم يافرساني سيوفكم المرعبة، التي غالباً ما غمستموها في دماء أعدائكم، وأنزلوا انتقامكم بهؤلاء الجرذان، الذين تجرأوا في هذا اليوم على الخروج من جحورهم ليتنازلوا مع رماح الامبراطور الروماني».

ولم ينالوا أي تأخير، لأن الميلانيين انقضوا على الفور على العساكر الامبراطورية، وقاتلوا المسلمين بحماس، ذلك أنهم كانوا أول من تصدى لهم، وفي وقت قصير قتلوهم جميعاً، وعزموا على اقتراف مذبحه مماثلة ببقية الجيش الذي تصدى لهم، ولدى رؤية الامبراطور لهذا ومعه نبلائه الشجعان الذين لا يقهرون، ألقوا بأنفسهم كتلة واحدة على الأعداء، وبذلوا كل طاقتهم، فصدوا حملاتهم، وعندما رأى سكان المدينة — من الجانب الآخر — أنها مسألة حياة أو موت، تبادلوا تشجيع أحدهم الآخر، للمحافظة على شجاعتهم، وقاتلوا الأعداء بشجاعة أكبر، وغرزوا سيوفهم البراقة في أجسادهم، وحوّلوا الهجوم إلى معركة هي الأكثر دموية، فقد سقطت أعداد كبيرة من على الجانبين، وامتلاء الهواء بصراخ الجنود المتصارعين، وبأنين الذين كانوا يموتون وبتصادم الأسلحة، وبصهيل الخيول، وصراخ راكبيهم وهم يحثونهم على الاسراع، وغالباً ما علت أصوات قرع الحديد مثل الصواعق، وأخيراً، وبعد عدة حملات دموية من على الجانبين، أصبح الميلانيون، غير قادرين في ذلك اليوم على تحمل ثقل المعركة، والاستمرار بالقتال مدة أطول، لذلك تراجعوا نحو مدينتهم، عازمين على معاودة القتال في اليوم التالي، وبعثوا برسالة إلى الامبراطور، بأنهم سوف في الصباح الباكر من اليوم التالي يجربون بكل تأكيد حظ

الحرب، وهم وقتها سينالون النصر أو عدوهم، تبعاً لإرادة رب الحشود، حتى لا تبقى عقولهم معذبة مدة أطول بسبب التعليق أو التأخير.

ولدى سماع الامبراطور بهذا عقد مؤتمراً، وكان بحكمة وحذر يرغب في قمع غضب أعدائه، مؤثراً ذلك ومفضلاً له على متابعة القتال المشكوك به بشكل غير حكيم، وعلى أن يعهد بنفسه وبأتباعه المتعينين إلى حظ الحرب غير المؤكد، لأن مذبحه كبيرة وقعت بين صفوف النبلاء من على الجانبين، ستظل موضع نواح وبكاء لأجيال مقبلة، لكن الميلاينيون نالوا الحظ الأسوأ في القتال، لأن الامبراطور قد أخذ ثلاثة آلاف منهم أسرى، وذلك من مختلف مراتب أهل المدينة، وذلك إلى جانب قتل عدد لا يحصى من عامة الجند بحد السيف، يضاف إلى هذا، نصب كميناً بعد ذلك، فأسر ثلاثمائة من النبلاء، واستولى على رايتهم، واعتقل عمدتهم، ابن دوج البندقية، الذي هو بالحري سقط في المعركة، وقتل أيضاً كثيراً من النبلاء الآخرين، وسقط أسقفهم أيضاً، إما أثناء القتال، أو أخذ أسيراً، والحقيقة المؤكدة، هو أنه لم يترك أحداً، ليقدم أية رواية عنه.

وأمر الامبراطور منذ ذلك الحين باغلاق جميع الطرقات والمعابر حول المدينة، وبحراستها بدقة، وباغلاق المخارج والمداخل العائدة للتجار والفلاحين، بوضع حراس هناك ليلاً ونهاراً، وبهدم الجسور، وبحراسة الطرقات، وكانت الغاية من هذه الوسائل اضعاف قوى أعدائه الشائرين وتدجين وحشيتهم، وأصبح سكان المدينة الذين رفعوا كعبهم ضد الرب يائسين، ولا يثقون بالرب، فرفعوا المصلوب في الكنيسة من كعبه، وأكلوا الجسد في اليوم السادس من الاسبوع، وفي الصيام الكبير، وانغمس كثيرون في هذه المتاهة من اليأس في جميع أرجاء ايطاليا، وكانوا يشتمون ويجدفون، ومن دون احترام لوثوا الكنائس بالقاذورات، التي هي غير جديرة بالذكر، ولوثوا المذابح، وطردوا الموظفين اللاهوتين، واستولى وقتذاك الرعب والارتعاد على مدن ايطاليا، وجاءت أعداد من السكان إلى الامبراطور يقدمون هدايا ثمينة، لكي لا يتورطوا بفاجعة مماثلة، وسلموا أنفسهم

ومدّهم واستسلموا إليه، وأعطوه أيديهم اليمنى معاهدين، وتواضعوا متعظين بأمثلة الآخرين الذين عانوا وتألّموا، وهكذا تمكن الامبراطور قبل منتصف الصوم الكبير من احكام قبضته على جميع ايطاليا، وذلك إلى جانب بولونا Bologna وأربع مدن أخرى هي التي لم تمتلك الوسائل للمقاومة، وكان جميع رجال الدين في بولونا مرعوبين خائفين على أنفسهم، لأن الامبراطور كان قد أخبرهم في السنة الماضية وأمرهم بالمغادرة بسلام، وقد رفضوا طاعة أوامره.

سخط نبلاء انكلترا ضدّ الملك

في الوقت الذي كانت فيه هذه الوقائع جارية في مناطق ماوراء الألب، اعتمد الملك هنري الثالث على نصيحة شريفة، ووثق بها، على عكس ما قضى عليه واجبه، أو المنفعة له، فنأى بنفسه عن نصيحة رعاياه الطبيعيين، وأصبح متصلياً عنيداً ضدّ الذين يرغبون به الخير، وضدّ الذين يتطلعون نحو منفعة المملكة، فقد أدار شؤونها، مع اصغاء قليل، أو معدوم لنصيحتهم، وكان في سبيل أن يمتلك بعض الحجج الماكرة من أجل استخراج المال منهم، أعلن بناء على قسمه، في المؤتمر الذي دعا إليه النبلاء من مسافات بعيدة، بأنه كان معدماً بلا مال، وأنه كان في وضع كبير العوز، ولذلك التمس بكل إلحاح منهم أن يمنحوه جزءاً من ثلاثة عشر جزءاً من أموالهم وأملاكهم في جميع أرجاء انكلترا، حتى يمكن دعم كرامته، أي كرامة الملك، وكرامة المملكة بطريقة أعظم تشريفاً، ولكي توسع المملكة على أسس أكثر رسوخاً، وقد انزعج النبلاء كثيراً لدى سماعهم هذا، ورأوا كثيراً من الأجانب يسمنون على ممتلكاتهم، وقد ضعفت المملكة بسبب الفقر، وقد أحاقت بها مخاطر مضاعفة مراراً، وكان بعد كثير من المناقشات فيها تواضع الملك بنفسه، ووعد أنه منذ ذلك الحين فصاعداً سوف يلتزم بنصائحهم من دون تردد، وجرى منحه الجزء من ثلاثة عشر جزءاً من جميع الممتلكات المتحركة، لكن ذلك لم يكن من دون صعوبات كبيرة.

وصدر الأمر بعد ذلك بجمع هذا الجزء، وبتقدير ليس وفقاً للتقدير الملكي، بل وفقاً للتقدير العام، وأن لا يوضع في الديرة والقلاع، حسبما جرى الاعداد من قبل وتقرر، وأن لا ينفق بناء على تصرف النبلاء، لكن قام الملك من دون أخذ مشورة أي واحد من رعاياه الطبيعيين في مملكته، فأعطى المال إلى الأجانب لينقل إلى الخارج، وأصبح هو مثل انسان مسحور، إذا لم نقل إنه أصبح من دون عقل، ولذلك تفجرت الشكوى بين الناس، وازداد سخط النبلاء حماوة وشدة.

الايمل رتشارد يلوم الملك

وكان رتشارد، ايرل كورنول، وأخو الملك، أول من طلب الملك للاستجواب، ولأمه بحدة للخراب الكبير الذي لحق بالمملكة، وكان هو سببه، وأعلن أنه يقوم يومياً، بوساطة عذر جديد، بنهب نبلائه، وأتباعه من البارونات، من ممتلكاتهم، وكل ماأخذه منهم، وزعه بشكل غير معقول، بين هؤلاء الذين كانوا يتآمرون ضده، وضد ممتلكاته، وأضاف الايمل بأن الملك قد جمع موارد كبيرة، وجبى في أيامه مبالغ ضخمة من المال، وأنه لم يكن هناك لارئاسة أساقفة، أو أسقفية، باستثناء: يورك، وباث، ووينكستر، هي ليست شاغرة في أيامه، وذكر الشيء نفسه فيما يتعلق برعاة الديرة، والكونتيات، والبارونيات، والادارات، والوكالات الأخرى، ومع ذلك فإن خزينة الملك، التي يتوجب أن تحتوي قوة المملكة واستقلالها، لم تشعر قط بأية زيادة.

واستمر الملك في رفضه لنصيحته، وكذلك لنصائح رعاياه الطبيعيين الآخرين، وازداد من سيء إلى أسوأ في جنانه الذي شعر به، وألم به، وعهد بنفسه كلياً إلى إرادة الرومان، وبشكل خاص إلى النائب البابوي، الذي أرسل خلفه بشكل غير حكيم، حتى أنه ظهر وكأنه يعبد حتى خطواته نفسها، ذلك أنه أعلن أيضاً، أنه لا يستطيع بالعلن أو بالخفاء ترتيب أي شأن من شؤون المملكة، أو إحداث أي تغيير أو تبديل من دون موافقة مولاه

البابا، أو النائب البابوي، ولذلك من الممكن القول أنه لم يكن ملكاً، بل تابعاً للبابا، وبهذه التصرفات وأمثالها من المساوىء، أخرج الملك ونبد من قلوب نبلائه، وكان لديه أيضاً مستشارين رجالاً غير مشهورين، ولا يمكن الوثوق بهم، وقد قيل بأنهم كانوا المحرضين له على هذه الأفاعيل، ونتيجة لذلك كانوا مكروهين إلى أبعد الحدود من قبل النبلاء الانكليز، مع أن أصولهم جاءت من المملكة نفسها، وكان هؤلاء: جون إيرل لنكولن، وس. S. إيرل ليستر، وغ. G. وكان من رهبان الداوية.

النائب البابوي يسمّن نفسه على الأشياء الطيبة لانكلترا

وقدمت في الوقت نفسه، هدايا ثمينة إلى النائب البابوي، من خيول صغيرة لركوب السيدات، وأوعية جميلة، وملابس ناعمة ومضاعفة الحياكة، ومختلف أنواع جلود الحيوانات البرية، وأموال، ولحوم، ومشروبات، وعندما بدا لأسقف واحد، هو بطرس أسقف وينكستر، ووضح بأن النائب البابوي مزع على إمضاء الشتاء في لندن، أرسل إليه خمسين رأساً من الماشية، ومائة عبوة من القمح، وثمانية دنان من الخمرة الصافية ليدعم نفسه بها، وقدم له آخرون هدايا مماثلة، تبعاً لقدرتهم، وللوسائل التي توفرت لديهم، ولكن النائب البابوي لطّف الشره الروماني، ولم يقبل جميع الهدايا التي قدمت إليه، وقد تقبل بعض الهدايا وتسلمها عن رضا، وبملاحم مشرقة، واضعاً في ذهنه الملاحظة الفلسفية التي تعزى إلى افلاطون قوله:

«أن تتسلم جميع الهدايا التي منحت إليك، فذاك شره، وأن لاتسلم شيئاً، فذلك ازدراء، ولكن أن تتسلم بعض الهدايا، فتلك صداقة».

الملك يدعو كونت بروفانس إلى زيارته

وفي الوقت نفسه توسل الملك بحرارة إلى كونت بروفانس —والد الملكة— بالرسائل، وبالرسل المتتابعين، لكي يوافق فيقدم إلى أرض ختته،

وليحمل وهو عائد بعض ماله معه أثناء رجعته، ومن المعتقد أن المال الذي استخرجه الملك كجزء من ثلاثة عشر جزئاً، كان من أجل التوزيع عليه وعلى آخرين من مثل هؤلاء الناس، واقتنع الكونت بحب الكسب، وجاء بناء على الدعوة، ولم يعق بأي إغراءات أو هدايا من الفرنسيين، مع أن الملك كان متزوجاً من ابنته الكبرى، لكن قبل أن يصل إلى البحر، ثارت حرب داخلية في مناطق بروفانس، ولذلك عاد مسرعاً، ولدى سماع الملك هنري بذلك أرسل إليه ألف مارك ليعطي بها نفقات سفره، وليشتري تجهيزات عسكرية من فرنسا.

لقاء في يورك بين ملكي انكلترا وسكوتلندا

وكتب في العام نفسه الملك إلى نبلائه ليجتمعوا بحضرته وبحضرة النائب البابوي في يورك، في يوم عيد تمجيد الصليب المقدس، للبحث في بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالملكة، وتوجب على ملك سكوتلندا أيضاً القدوم إلى ذلك المكان لمقابلته، بناء على دعوة له من الملك ومن النائب البابوي، بغية الاعداد لشروط من أجل السلام بينهما، وأنه بفضل نعمة الرب يصبح من الممكن تسوية جميع الخلافات بينهما وإنهاؤها، وأن يكون كل واحد بينهما راضياً بتسليم ما هو حق له، وبعد وصولهما إلى هناك، تم الاتفاق على أن يتسلم ملك الاسكوتلنديين ٣٠٠ Librates acres ١٥, ٦٠٠ تساوي الأكره الواحدة حوالي الأربعمائة متر] من الأرض في مملكة انكلترا، دون السماح ببناء قلعة عليها، وعليه أن يقدم الولاء إلى الملك، كما يتوجب إبرام معاهدة تحالف بينهما، وأن عليه أن يقسم على العمل باخلاص نحو ملك انكلترا، وأن يحافظ على المعاهدة، وكان المرجو أنه بهذه الوسائل لإنهاء جميع الشكاوى والادعاءات من جانب ملك سكوتلندا، ولدى إلحاح النائب البابوي وتعبيره عن رغبته بالذهاب إلى مملكة سكوتلندا لفحص الشؤون اللاهوتية هناك مثلما فعل في انكلترا، أجابه ملك الاسكوتلنديين قائلاً:

«أنا لا أتذكر قط أنني رأيتُ نائباً بابوياً في بلادي، ولم تكن هناك حاجة قط لدعوة واحد إلى هناك، الحمد للرب، وليس هناك الآن أية حاجة لواحد، لأن كل شيء يسير على مايرام، كما أنه لم يسمح لأي نائب بابوي بالدخول إلى تلك المملكة في أيام أبي، أو أيام أي أحد من أجدادي، وأنا لن أسمح بذلك مادمتُ قادراً على فعل ذلك، وبما أن التقارير قد تحدثت عنك بأنك رجل صاحب قداسة، إنني أحذرك، إنه إذا صدف ودخلت إلى أراضي، أن تسير بكل حذر، خشية أن يحدث لك أي حادث، لأنه يسكن هناك أناس متوحشون، ليسوا تحت السيطرة، وهم متعطشون يسعون وراء الدماء البشرية، وهؤلاء أنا لا يمكنني تدجينهم، وإذا مارغبوا بمحاربتني، فسأكون غير قادر على منعهم، ولربما سمعت مؤخراً أنهم أرادوا محاربتني وطردي من مملكتي»، ولدى سماع النائب البابوي هذا، لطّف رغبته وشوقه إلى دخول اسكوتلندا، ولم يترك جانب ملكه، أي جانب ملك انكلترا، الذي أطاعه في كل شيء، لكن أحد الطليان، وكان من أقرباء النائب البابوي، بقي مع ملك اسكوتلندا، وأبقاه هذا الملك معه، وذلك حتى لا يظهر أنه متمرد تماماً، وشرفه بمنحه رتبة الفروسية، ومنحه بعض الأرض، وهكذا إرفض المؤتمر، وعاد الملك مع النائب البابوي إلى الجنوب.

استعدادات النائب البابوي الكبيرة من أجل عقد مؤتمر

ومع اقتراب موعد عقد المؤتمر، أمر النائب البابوي بوضع كرسي فخم في مكان مرتفع، وأسندة فوق ألواح طويلة، وقد أمر بتشيدته لنفسه في الجزء الغربي من كنيسة القديس بولص في لندن، ثم إنه أرسل رسائله إلى جميع قساوسة انكلترا، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان المعينين، يأمرهم أن يجلبوا —أو أن يرسلوا— رسائل توكيل عن ديرهم أو هيئة كهنتهم، وكذلك بأسائهم، بأن كل شيء سوف يقرره النائب البابوي في المؤتمر، ينبغي أن يصدقوا عليه من على الجانبين، وبناء على هذه الدعوة قدم جميع قساوسة انكلترا الذين هم تحت سلطان

نيابته البابوية، مع أنهم تعرضوا لكثير من الضيق والتعب في أجسادهم، ومثل ذلك عانت خيولهم، لأن فصل الشتاء كان قد اقترب حلوله، ومعه أنواء عاصفة وقاسية.

عاصفة ريح ثقيلة ومدمرة

وكان من بين الذين قدموا إلى ذلك المؤتمر واحد اسمه المعلم وولتر بروز Pruz وكان كاهناً وقد أعلن للجميع بأن جميع الكواكب مقبلة على الاجتماع معاً، تحت برج واحد من الأبراج هو برج الجدي، وسوف يسبب هذا هياجاً عظيماً بالعناصر، وسوف يثير عواصف ثقيلة من الريح، وتنبأ أن دماراً هائلاً سيكون بين الحيوانات، خاصة القرنية منها — التي ندعوها ماشية أو قطعان — وهذا سوف يتبع الزوابع، وأضاف مازحاً: «ربما لن تكون بشراً لهم قرون»، أي «من الأساقفة»، ولم تكن توقعاته هذه كلها فارغة من الصحة، لأنه حدث فجأة، عندما كانوا مجتمعين في كنيسة القديس بولص أن اهتزت بشكل مفاجيء، بسبب تلك العاصفة الشديدة من الريح، فاستولى رعب شديد على الجميع، وبشكل خاص على النائب البابوي، وفي ليلة عيد القديسة سيسيليا Cecilia حدث أيضاً أنه عندما كان القمر في ربعه الأول، أن انتشرت غيوم سوداء بشكل غريب، شكلها مثل برج، وقد ظهرت في الجزء الغربي من السماء، وبدأ الرعد يزجر، وشرع البرق يرسل بهيقه، وثار الريح، وخلال تلك الليلة كلها واليوم التالي كانت هناك عاصفة ثقيلة ترافقت مع ريح هائجة ما من أحد يتذكر أن مثلها قد وقع من قبل، واستمرت هذه العاصفة لمدة خمسة عشر يوماً أو أكثر من دون انقطاع، واقتلعت أشجار البلوط من جذورها، وسقطت، وسقطت الأبراج والأبنية أرضاً، أو أنها اهتزت، وهكذا بدا أن الأنواء قد اتحدت في سبيل اقلاق الانسان.

الاجتماع والإعدادات للمؤتمر

مع أن رجال دين انكلترا، قد اجتمعوا في كنيسة القديس بولص في

لندن، في اليوم الأول المحدد من أجل عقد المؤتمر، والذي كان اليوم الذي جاء بعد ثمانية القديس مارتن، لم يظهر النائب البابوي، لأن الأساقفة سألوهم أن يمنحهم ذلك اليوم لفحص الترتيبات التي اقترح عملها، وللتداول حولها، حتى لا تتعرض مصالحهم لأضرار أعدت سلفاً، ووصل في اليوم نفسه فرسان مسلحون مع حوالي المائتي جندي، كان الملك قد زوده بهم بناء على التماس عظيم منه، ووضعهم في كمين، لأنه كان حذراً من جانبه، لأنه قد قيل بأنه قد حرض ضد الذين لديهم عدة مصالح وموارد، وبشكل خاص ضد اللاشرعيين، وقد ظهر هو شخصياً في الكنيسة المذكورة في الصباح الباكر، وكان ذلك في حوالي الفجر، وكان حشد رجال الدين الذي كان ينتظره كبيراً جداً، إلى حد أنه وجد صعوبة بالغة في الدخول إلى الكنيسة، وعندما تمكن من شق طريقه، عرض نفسه في أثوابه الحبرية، أي في المدرعة الكهنوتية، والقبعة اللاهوتية المغطاة بفراء جلود مختلف أنواع الحيوانات، ثم لبس تاجه الأسقفى، وسار بعد ذلك بشكل مهيب مع رئيس أساقفة كانتربري ويورك، وحمل في المسيرة الوقورة الصليب وشموعاً مشتعلة، وكانوا يرددون الابتهالات، وصعد فوق الدرجات إلى مقعده، الذي — كما ذكرنا من قبل — قد أعد له وسط أبهة كبيرة، وصار الآن أكثر أبهة بالزراي وبالمظلات، ثم أجلس رئيس أساقفة كانتربري نفسه على يمينه، ورئيس أساقفة يورك على يساره، لأن خلافاً نشب بينهما حول ترتيبات الجلوس، وتقدم رئيس أساقفة يورك بطلب للحصول على اليمين، الذي ادعاه لنفسه، وبناء عليه بعدما تمت قراءة: «أنا راعي جيد» من الانجيل، وقراءة بعض المجموعات المناسبة، وفقاً للعادة، من قبل النائب البابوي نفسه، وبعد غناء مزمور: «أقبل ياروح القدس، أيها الخالق أقبل»، تولى رئيس أساقفة يورك — كما ذكرنا أعلاه — تقديم طلبه، ومع ذلك أخذ رئيسا الأساقفة مقعديهما إلى جانب النائب البابوي، حيث جلس رئيس أساقفة كانتربري على يمينه، ورئيس أساقفة يورك على يساره، ورغبة من النائب البابوي، وقتها في إنهاء الخلاف من دون إلحاق ضرر بأي

واحد من الجانبيين، قال لهما: «تظهر على مرسوم صاحب القداسة البابا، اصبع القديس بطرس على يمين الصليب المطبوع في وسط المرسوم، في حين تقف إصبع القديس بولص على اليسار، لكن بين هذين القديسين العظمين، لم ينشأ قط أي خلاف، لأنهما متساويين بالشهرة، إنما بسبب أنه [بطرس] يعد في وضعه حامل المفتاح، ولأنه رئيس الرسل، وكذلك بسبب مكانته الكاتدرائية، وأولويته في دعوته، يبدو أن صورته جديرة بالوضع على يمين الصليب، لكن بما أن بولص آمن بالمسيح الذي لم يره، فإن صورته أيضاً جديرة بالوضع على اليمين، لأنه قال: «بورك الذين لم يروني» الخ، وهكذا بما أن صاحب النعمة رئيس أساقفة كانتربري، هو الأول على كل انكلترا، وهو الرئيس على كنيسة كانتربري الأعظم شهرة، وكذلك على كنيسة لندن، التي هي عائدة إلى القديس بولص، يتوجب ليس من دون سبب في أن يوضع على الجهة اليمنى»، وفي الأيام التالية للمؤتمر، جلس رئيس أساقفة كانتربري على الجهة اليمنى للنائب البابوي، وجلس رئيس أساقفة يورك على الجهة اليسرى، وفي اليوم الأول من المؤتمر، جرى إرسال: جون إيرل أوف لنكولن، وجون فترز — غيوفري، ووليم دي ريل Raele وكاهن القديس بولص، باسم الملك، ليمنعوا النائب البابوي، نيابة عن الملك المذكور والمملكة، من الوصول إلى أي قرار في المؤتمر، يحط من مكانة التاج الملكي والمملكة، وفي سبيل الأخذ بهذا الطلب ومراعاته، بقي وليم دي ريل هناك، وعليه الدراعة الكهنوتية والقبعة، وغادر الأخران وذهباً، وفي اليوم نفسه، وعلى مسمع من جميع الحضور، طلب سيمون رئيس شمامسة كانتربري من النائب البابوي، أن يقرأ الترخيص بنيابته التي عهد بها إليه صاحب القداسة البابا، على مسمع من جميع الفئات، وهذا فعل، وفي اليوم نفسه، جرت أيضاً قراءة أحد الامتيازات — بناء على طلب من الملك — فيما يتعلق بأعياد القديس إدوارد والاحتفال بها في جميع أنحاء انكلترا، وبناء على أمر من البابا جرت قراءة واحد آخر يتعلق بمسألة تطويب القديسين: فرانسيس ودومينيك، وكان النائب البابوي قد سمع

عندما كان في مقر إقامته، بأن عدداً من الأشخاص، الذين في حوزتهم منافع في عدة كنائس، وكانوا نبلاء من حيث النسب والممتلكات، وغير شرعيين، والذين كان قد أتى على ذكرهم في قرار المؤتمر، قد غضبوا، وخططوا لعمل خياني ضده، ولذلك تمت حراسته، وكان قد تولى ذلك أيضاً بعض النبلاء من المؤتمر، وهم: غ. G. إيرل مارشال، وج. L. إيرل لنكولن، وكذلك بعضاً من حاشية الملك، وقد سلحوا أنفسهم بالسيف، وبالأسلحة الأخرى، لحمايته وحماية أتباعه.

وأثناء المؤتمر عندما جرى نشر القرار ضد هؤلاء الذين لديهم عدة منافع، والذي كان معاكساً لقرار مجمع اللاتيران، وقف وولتر دي كانتلوب، أسقف ووركستر، في وسطهم، وانتزع تاجه الأسقي، وخاطب النائب البابوي على الصورة التالية:

«أبانا المقدس، مع أن عدداً من النبلاء لهم نسبهم مثلنا، بين أيديهم عدة منافع، هم لم يتسلموا بعد إعفاء، وبعضهم من الذين تقدموا بالسن، وقد عاشوا حتى الآن بشكل مشرف، يظهرون الكرم إلى غاية قدرتهم، وقد وزعوا الصدقات بآبواب مفتوحة، يبدو أنه من الصعب جداً لمثل هؤلاء الناس، أن يجرموا من منافعهم، وأن يتحولوا إلى وضع فقر مهين، وبعض الشبان، الذين هم شجعان وجريئين، سوف يعرضون أنفسهم إلى أعظم المخاطر، قبل أن يسمحوا لأنفسهم أن تحرم من منافعها، مع الاحتفاظ بمنفعة واحدة، وحول هذا أنا يمكنني أن أحكم على نفسي، فقبل دعوتي إلى تلك المرتبة، كنت قد قررت في قرارة نفسي، أنني إذا كنت سأخسر منفعة واحدة، تحت حجة مثل هذا المرسوم، إنني سوف أخسر الجميع، وبناء عليه، نخشى أن كثيرين مازالوا حتى الوقت الحالي محتفظين بمثل هذا القرار، وبناء عليه، بما أن عدداً كبيراً جداً لهم علاقة بهذه القضية نلتس من قداسكم، من أجل سلامتكم، وكذلك من أجل سلامتنا، أن تستشيروا البابا، قبل الوصول إلى قرار من هذا النوع، يضاف إلى هذا بما أن

مرسومكم بشأن الطائفة الدينية التابعة للقدس بحدت يمتد بسلطته لينال بالدرجة نفسها الجميع، إنه سوف يكون صعباً بالنسبة لأعداد كبيرة، بسبب فقر بيوتهم، وبشكل خاص من أجل الراهبات، لأنهن ضعيفات، وعاجزات عن مراعاة هذا المرسوم، ولذلك إنه من الضروري إظهار لين مخلص في فرض هذه الإجراءات القاسية، وبناء عليه، نحن نرجوكم فيما يتعلق بهذه القضية أن تستشيروا قداسة البابا».

وفي رد عليه، قال النائب البابوي، إنه إذا ما أراد رجال الدين، أي رئيسي الأساقفة والأساقفة المائلون أمامه، أن يكتبوا إلى البابا حول هذه القضايا، هو عن طواعية سوف يوافق على ذلك، ويتوجب أن يكون معلوماً، أنه بسبب أن بعض الناس، قد فهموا من النائب البابوي، أن مراسيمه سوف تكون ثابتة ونافاذة فقط أثناء أيام نيابته للبابا، قام المعلم أثو Atho وكان واحداً من كهنته، قام بناء على طلبه ووقف في وسط الاجتماع، وفتح كتاب التراخيص، الذي كان سجلاً لقداسة البابا، وذلك في سبيل زيادة سلطاته، ولكي يتمكن بشكل فعال أكثر من تحقيق آرائه ومشيتته، وقرأ هذا المعلم بصوت مرتفع بعض القرارات والمراسيم، التي أراد النائب البابوي أن يبرهن من خلالها بشكل واضح ومتميز صدقه، والتي أظهر من خلالها بوضوح، أنه بعد مغادرة النائب البابوي المذكور، فإن قراراته وقوانينه، سوف تكون ثابتة باستمرار، وينبغي أن لا نتجاوز ذكر، أنه في اليوم الأول من المؤتمر، اتخذ رئيساً أساقفة كانتربري ويورك مقعديهما، كما ذكرنا من قبل، أولهما من على يمين النائب البابوي وثانيهما من على يساره، وبعد قراءة قوله في الانجيل «أنا الراعي الجيد»، وبعد قراءة المجموعة المتعلقة بذلك، جرى فرض الصمت على الحشد المجتمع، وطلب منه الالتزام بالنظام، فرفع النائب البابوي صوته، وكأنه كان صوت بوق، وبدأ حديثه، وافتتح ذلك بالنص التالي:

«في وسط العرش، وكان هناك من حوله أربعة حيوانات، مليئة بأعين

من الأمام ومن الخلف»، وقلد رجل الدين ذاك أثناء قداسه، الحيوانات بأعين من الأمام وأعين من الخلف، حتى يكون حذراً أثناء إدارة الأعمال الدنيوية، وكان حذراً أثناء إدارة الشؤون الروحية، جامعاً الماضي مع المستقبل، وبعد القداس أمر بقراءة مراسيمه بشكل متميز، وبصوت مرتفع، وقد أمر بمراعاة ذلك بدقة، وقد رأينا أنه من الموائم ذكر هؤلاء في هذا الكتاب.

افتتاح المؤتمر الذي عقد من قبل النائب البابوي أوتو في كنيسة القديس بولص في لندن

«منذ أن غدت القداسة هي بيت الرب وقسيسيه، لقد قيل من قبل الرب «كنت أنت مقدس لأنني أنا الرب مولاك مقدساً»، ويسعى مكر عدو بني البشر لإزالة القداسة أو لتدميرها كلياً، وبناء عليه أعاق في أماكن كثيرة الكنائس من أن يجري تكريسها والقساوسة من تأدية واجباتهم بشكل صحيح، بفساد أخلاقهم وتدميرها، وكذلك حياتهم بالسلوك ضد أحكام وقوانين الآباء المقدسين، وإعاقة كل شيء فيه فائدة لتقدم الديانة المسيحية، وبناء عليه ينبغي أن نقاوم بكل إخلاص وبيد قوية ذلك من قبل جميع المسيحيين، ولأن نضعف مساعيهم، يتوجب استخدام قوى جديدة ومتجددة، مثلما فعل اسحق حين سعى أولاً إلى تجديد الآبار، التي حفرها أبناء إبراهيم، وهي التي كان رجال فلسطين قد طموها بالتراب، وبعد ذلك حفر آباراً جديدة، وأخيراً نحن أوتو، الذي بفضل النعمة الإلهية هو كاردينال شماس للقديس نيقولا في سجن توليان، ونائب الكرسي الرسولي، قد جرى إرسالنا من قبل الكرسي المذكور، بوظيفة نائب بابوي، إلى بلاد انكلترا، لنقوم معتمدين على العون الرباني، وعلى الأساقفة، وعلى المجمع الحالي، بتقوية أوضاع كنيسة انكلترا، وبإصلاحها، باستثناء المؤسسات الشرعية الأخرى، التي نتمنى ونرغب، المحافظة عليها بكل احترام، وقد رأينا بوساطة السلطات المعهودة إلينا، أنه من الموائم، مراعاة

بعض المراسيم، التي أمرنا بفرزها وترتيبها تحت بعض العناوين».

تكريس الكنائس

«من المعروف أن تكريس الكنائس، قد استقى أصله من العهد القديم، وروعي هذا وطبق في العهد الجديد، من قبل الآباء المقدسين، وهذا ما توجب مراعاته بمزيد من التقوى والدراسة، لأنه في الماضي كان ذبح الحيوانات فقط من أجل تقديمها قرابين، لكن صار فيما بعد القربان السماوي هو الحي والصحيح، لأن الابن الوحيد للرب يقدم لنا على المذبح على أيدي الكهنة، ولهذا رسم الآباء المقدسون بحكمة أن مثل هذا الواجب، ينبغي عدم ممارسته — إلا في الأوضاع الضرورية — في أماكن غير مكرسة للرب، وعلاوة على ذلك، كما رأينا نحن بأنفسنا، وسمعنا من كثيرين، بأن مثل هذه الطقوس مزدرة، أو على الأقل مهمة من قبل بعضهم، ولهذا نجد كثيراً من الكنائس، لا بل حتى كاتدرائيات، قد بنيت منذ القديم، ولم يتم تكريسها بعد بزيث التقديس، ولذلك إننا نرغب في أن نضع حداً لهذا الإهمال، وإننا نرسم، ونوجب أن يجري تكريس جميع الكاتدرائيات، والكنائس الديرية والأبرشيات، التي بنيت، واكتملت، في بحر عامين من قبل الأساقفة أصحاب المناطق الأبرشية الواقعة هذه المؤسسات تحت سلطانهم، أو من قبل أشخاص آخرين مخولين من قبلهم، ووفق هذه الطريقة، وخلال الحقبة الزمنية نفسها، سوف يفعل الشيء نفسه مع الكنائس التي سوف تُبنى من جديد، ومن أجل أن لا يجري إهمال هذا المرسوم الصحيح، أو أن يناله الإهمال، نحن نرسم بأن أية كنيسة لن يجري تكريسها خلال عامين من موعد انتهاء عمارتها، سوف يجري تعليقها من شراكة المؤمنين، وبالتالي تمنع من إجراء القداس حتى يجري تكريسها، ما لم يتوفر سبب معقول يحول دون ذلك، وبالإضافة إلى هذا، إننا نمنع بكل دقة بموجب المرسوم الحالي جميع رعاة وقساوسة الكنائس من الإقدام على تدمير الكنائس القديمة المكرسة، تحت دعوى بناء كنائس أكثر جمالاً

وسعة، من دون الحصول على إذن وموافقة أسقف الأبرشية، حيث يتوجب على أسقف الأبرشية أن يقدر بشكل دقيق، فيما إذا كان من الموائم إعطاء الاذن، أو رفض السماح، وعليه، إذا ما أعطى الاذن، أن يولي عنايته، وأن يوجه مساعيه لإكمال العمل بأقصى سرعة ممكنة، وهذا شرط نحن نرسم بأن يمتد إلى الذين قد بدأوا، أما بالنسبة للقساوسة ذوي المراتب الأدنى، رأينا أنه من غير المناسب عمل أي مرسوم جديد، تاركين الطريقة وتوقيت تكريسهم إلى قرار كهنتهم».

قداصات قرايين الكنيسة

«تكون قداصات قرايين الكنيسة كما كانت في أوعية سماوية، تحتوي على علاجات الخلاص، وكذلك الزيت المقدس، والميرون، ونحن نرسم بالنسبة لها بأن تدار من قبل رجال الكنيسة بطهارة، وبتقوى، وأن تكون محررة من كل دوافع الشر، ودون إحداث أية متاعب أثناء ادارتهم، تحت حجة أية عادة، بموجبها يمكن أن يقال أن أي شيء سوف يدفع من قبل الذي يتلقاهم، وقد رأينا أنه من الموائم أن نذكر كم هي القداصات الرئيسية، وهذه القداصات هي:

التعميد، والتثبيت، والتوبة، والقربان المقدس، والمسح بالزيت، والزواج، والتكريس، وقد جرت معالجة كل واحد من هذه القداصات بشكل كامل ومكرس في الشرائع المقدسة، ولكن بما أنها مسألة ليست بلا قيمة أن يكون الطبيب جاهلاً بفن المعالجة، نحن نرسم بوجوب فحص المرشحين لاستقبال معالجة الأرواح والكهنة بهذه النقاط بشكل خاص، وعلى رؤساء الشمامسة أثناء مقابلة عماداتهم، أن يسعوا بشكل رئيسي إلى تعليم الكهنة وتوجيههم حول هذه القضايا، وتعليمهم كيف عليهم أن يعملوا بشأن مايتعلق بالتعميد، والتوبة، والقربان المقدس، والزواج».

العميد

«من أجل القداس المهيب للعميد، جرى تعيين سبتين، بموجب الشرائع المقدسة، وذلك بسبب وقاره، وهما: السبت، قبل قيامة الرب، والسبت قبل أحد الشعانين، ولكن بعضهم كما سمعنا— في هذه المناطق، قد أضلهم الشيطان بخداعه، وخافوا على الأولاد من خطر العميد في هذين اليومين، لكن التفكير، أو أن يكون الانسان خائفاً من أي من هذين اليومين، هو تماماً ضد الإيمان الصحيح، وقد تبرهن بشكل واضح أن ذلك زائف، لأن الخبر الأعظم يقوم شخصياً بأداء هذا القداس المهيب، ويتولى بشكل وقور عميد الأطفال في اليومين المذكورين، والكنيسة ملتزمة بمراعاة ذلك وتطبيقه في الأجزاء الأخرى من العالم، ولذلك نحن نرسم بوجوب تحويل الكنائس عن هذه الخطيئة الكبيرة، بالوعظ المتواصل، وينبغي اقناعهم بأداء قداس العميد، وأن يعمدوا أولادهم في اليومين المتقدم ذكرهما، ونحن أيضاً نرسم وجوب أن يتعلم كهنة الأبرشيات بشكل صحيح شكل العميد، وأن يتولوا باستمرار شرح ذلك للناس بشكل عام في أبرشياتهم في أيام الأحد، حتى إذا كان ضرورياً، إقامة واحد منهم ليتولى عميد أي انسان، حتى يتعلموا ذلك، ويكونوا قادرين على مراقبة ذلك، ويتوجب بعد ذلك سؤالهم بتيقظ عما إذا كانوا قد راقبوا ذلك وعرفوه».

الشره الذي يتوجب على الكهنة تجنبه

«لقد سمعنا برعب بأن بعض الكهنة الأشقياء— ربما من أجل فائدة مقراتهم الكنسية أو للضمان، أو لتكوين سبب آخر للكسب، أو لتسلم دخل مجموع من المذبح، أو من توبة الذين يأتون إليهم للاعتراف، ولا يقبلون أولئك الذين يعترفون للتوبة، ما لم يجري وضع بعض الهدايا أولاً في صدرهم الجشع، ومثل هذا يفعلون بالنسبة للبعض الآخر من القداسات، هذا وإن الذين يفعلون مثل هذا، ويتصرفون وفق هذه الصورة، غير جديرين بملكوت الرب، ولا بالمنافع اللاهوتية، ولذلك نحن

نفرض ونحن نرسم بوجوب قيام أعمال تفتيش وبحث من قبل الأساقفة حول هذه القضية، وكل من يكتشف مذنباً مقترفاً لمثل هذه الجريمة، يصرف كلياً من عمله ويحرم من منافعه التي بين يديه، ويعلق عن مباشرة العمل في وظيفته، التي شغلها بشكل فاسد».

الذي يعين لتلقي الاعترافات

«تماشياً مع ماجرى تقريره في أحد المجامع، نحن نرسم بوجوب تعيين رجال ذوي حكمة وموضع ثقة في جميع أرجاء كل عمادة، وذلك من قبل الأسقف لتلقي الاعترافات، لهم يمكن للقساوسة والكهنة الصغار —الذين يستحون، أو ربما يخافون من تأدية الاعتراف إلى العميد— أن يؤدوا اعترافاتهم، إنما بالنسبة للكنائس الكاتدرائية، نأمر بتعيين متلقين للاعترافات بشكل عام».

سمات الذين يتلقون التكريس

«إن منح الأحكام المقدسة واضفائها على شخص جدير، هام جداً، لابل الأعظم أهمية، لأن القداسات الأخرى تمنح من قبله، بعدما يكون قد تسلم هذه الأحكام، ومثل هذا بالخطورة أن يكرس لهذا العمل أناس غير جديرين، مثل الحمقى، أو غير الشرعيين، أو أشخاص غير نظاميين وأجانب، أو أي شخص من دون إجازة أو لقب حقيقي، وبناء عليه نحن نرسم، أنه قبل اضمفاء الأحكام، يتوجب إجراء فحص وبحث دقيق، يتولاه الأسقف حول مثل هذه النقاط كلها، وأن يحترز دون الأشخاص غير الجديرين في تقديم أنفسهم بشكل تآمري، عوضاً عن رفضهم كما ينبغي، وتتوجب كتابة أرقام وأسماء الذين أجازوا، أو أن يكتبوا أثناء الامتحان، أما الذين أجازوا، أو سوف يجازون فيما بعد، يتوجب أثناء قراءة الأسماء المكتوبة، وقبل التكريس، أن يجري فحصهم بكل دقة واخلاص، وتبقى الكتابة محفوظة من قبل الأسقف، أو في الكنيسة».

ضمان الكنائس والعمل الأسقفي فيها

«بالنسبة لضمان الكنائس، أو التعيين العام لأساقفة فيهن، نحن لا نرغب بأي حال من الأحوال أن ندعم ذلك بسلطاننا، ولكن نتيجة لضعف الأعداد المسؤولة في هذه المسألة، نحن نخشى من إصدار مرسوم منع ضد هذه الأشياء، حتى لا نبذو وكأننا نرمي مصائد بدلاً من إيجاد حلول ناجعة، لكن بالنسبة لبعض العادات الناشئة عن هذه المسائل، والتي لفت انتباهنا لها، نحن مرغمون على استخدام حل ناجع، لأنه غالباً ما حدث أن هؤلاء الذين يسمون ضامين، يرغبون بالحصول على الربح أكثر من الرغبة بالدفع، وهم يمارسون هذه الجبايات التي في بعض الأحيان تنغمس حتى في ذنب السيمونية، وبناء عليه نحرم من الآن فصاعداً وضع المراتب الكنسية والمقامات الأسقفية وعرضها على الضمان، أو استخراج الموارد من ممارسة التسلط اللاهوتي أو الروحي، ومن التوبة أو من المذبح، أو أية قداسات أخرى».

كيف يمكن عرض الكنائس للضمان

«بما أنه أمر غير صحيح كلية بالنسبة للكنائس، أن تكون مضمونة من قبل رجل علماني أو من قبل أي واحد من الكهنة لوقت طويل، لأن ذلك من الممكن أن يكون مؤذياً للكنائس بسبب طول الاستمرارية، الذي يسبب بالعادة مخاطر، لذلك نمنع منعاً باتاً ضمان الكنائس لمدة تزيد عن خمس سنوات، سواء من قبل رجال علمانيين، أو حتى من قبل أشخاص لاهوتيين، كما أنه لدى انتهاء السنوات الخمس، لا يجوز تجديد الضمان إلى الأشخاص أنفسهم، ما لم يقيم بعض الأشخاص الآخرين بوضع أيديهم عليهم في وقت متوسط، ولكي تكون جميع الأشياء سليمة، نحن نرسم أن تعمل الاتفاقات من أجل الضمان بحضور الأساقفة، أو رؤساء الأساقفة، وأن يعمل منهم عدة نسخ، واحدة منهم تترك في حوزتهم».

حول الموضوع نفسه

«لقد سمعنا أنه حدث في بعض الأحيان، عندما تكون كنيسة غنية شاغرة، وأن انساناً ما يرغب بالاستحواذ عليها، لكنه لا يتجرأ — على كل حال — بأن يتسلمها باسمه، خشية أن يحرم من منافع أخرى هي بين يديه، فيعمل بمكر ويتدبر أن يتم ضمان الكنيسة من قبله بشكل أبدي، وذلك بأن يدفع مبلغاً صغيراً من المال من أجلها إلى آخر، تحت اسم الشخص، ويبقي كل البقية إلى نفسه، وبناء على ذلك نرسم بموجب قرار، إنه سواء أمنت منفعة كلياً أو جزئياً إلى أي واحد، وشكل ذلك محاولة لمعاكسة مراسيمنا، فإن ذلك يعدّ ملغياً وفارغاً».

من الذي يتولى تكريس الأساقفة

«نحن نرسم بعدم قبول أي واحد أن يكون أسقفًا، ما لم يكن كاهناً مكرساً، أو هو على الأقل شماساً، وهو ينبغي أن يكرس خلال أربعة فصول تالية من السنة، وعليه أن يتخلى عن المنافع الأخرى التي بين يديه، ولأنه صار مسؤولاً عن شفاء الأرواح، عليه أن يقسم أن يتخذ مقر اقامته في البقعة نفسها، وإذا كان الأمر غير ذلك نحن نرسم بأن يكون تعيينه لاغياً، وبذلك يمكن تجنب الغش، وينبغي تجنبه، وهو الذي غالباً ما يحدث، نتيجة دفع مبلغ صغير، إلى أي واحد، تحت اسم شخص، كانت الكنيسة قد أعطيت إليه، تحت اسم الأسقف المختلق، الذي لخوفه من فقدان منافعه الأخرى، كان يخشى تسلمها شخصياً، أما بالنسبة للأساقفة المعينين، والشاغلين لمناصبهم، لكنهم ليسوا كهنة، ولأن عليهم كأساقفة خدمة الأشخاص والكنائس، نحن نفرض، ونرسم، بأن يؤمنوا تكريس أنفسهم ككهنة في بحر سنة على أبعد الحدود، وإلا عليهم تحمّل خطأهم، إذا لم يكرسوا في بحر سنة — كما ذكرنا — حيث أننا نرسم بوجوب حرمانهم من منافعهم، شروعاً من ذلك الوقت والتاريخ، وينبغي تقرير أمور سكناهم وفقاً لقررناه أعلاه، فيما يتعلق بمؤسساتهم».

كنيسة الغائب ليس من الخطأ درس إمكانية إعطائها إلى آخر

«في سبيل تدمير خداع الأشرار، يتوجب على كل محب للاستقامة أن يستخدم المساعي الحكيمة، خشية أن تتطور براعة حكامهم وتنمو إلى بلادة، فالبساطة يمكن أن تستبدل بالمكر، وقد يعطي الصدق الطريق للزيف ليحل محله، لأننا علينا عن طريق ماصرح به عدد كبير من الأشخاص، بأن بعض الناس قد ألقوا بعين الشهوة على منافع شخص متغيب، ونشر تقارير أعلنت بأنهم سمعوا بأن المستحوذ كان في عداد الأموات، أو أنه قد تخلى عن منفعة، وبالتالي تدبروا بوسيلة أو أخرى اقحام أنفسهم في تلك المنفعة، وإذا ماظهر الرجل الميت أنه مازال حياً، وعاد إلى كنيسة، سوف يتلقى الجواب التالي: «أنا لا أعرفك أيها الأخ»، ويغلق الباب في وجهه، وقد عمي بعضهم لشدة شرهم، إلى حد أنهم لم يترددوا في شق طريقهم بالقوة بالاستيلاء على تلك المنافع وسرقتها، وبالحري ليس سرقة الأشخاص الغائبين فقط، بل سرقة الحضور، أو القيام بالاستيلاء على أملاكهم وسرقتها عندما يستطيعون، وعندما تصبح بين أيديهم، لقرارات الحرمان الكنسي، ولأي شيء آخر يمكنه اخراجهم، لأنهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم بقوة السلاح، وبناء عليه، سوف نقدم العلاجات المتوفرة، والتي باستطاعتنا تطبيقها، فنحرم — في كلتا الحالتين — بكل دقة، إعطاء منفعة أي انسان غائب إلى أي انسان آخر، على أساس دعاوي الضم، أو تقارير قد يجري نشرها تتعلق بموته، أو أنه تخلى عن منفعة، لكن على الأسقف الانتظار حتى يحصل على معلومات كاملة حول صدق أي واحد من التقريرين، وإذا لم يفعل ذلك فإننا نرسم بأنه سيكون ملزماً بالتعويض عن جميع الخسائر التي عانى منها الشخص الغائب، فيما يتعلق بهذه القضية، وبالنسبة للشخص الذي اقحم وفرضها في المنفعة، سوف يواجه حقيقة تجريده من كل وظائفه ومنافعه، وذلك إلى جانب تعويض المقتنيات، وهذا نحن ننوي أيضاً أن نمده إلى قضية أي

واحد، عندما يكون هناك متملك لمنفعة لاهوتية، فيحاول بناء على سلطته، أو بالحري بالقوة، أو بوساطة السرقة، فيستولي على تلك المنفعة، أو الذي، بعد الإعلان بأنها عائدة إلى شخص آخر، يسعى للدفاع عن نفسه وعن الذي استولى عليه بقوة السلاح».

عدم جواز تقسيم كنيسة واحدة إلى عدة أسقفيات

«لما كان فن الفنون كلها — كما شهد القديس غريغوري — هو حكم الأرواح، ولم يتوقف المعطل (السوفسطائي) القديم عن استخدام فنون خداعه القديم، وعن دراسة خداع أعمال الدعاوى الزائفة، وذلك حتى يكون قادراً على التطويق بأسس منه، وعلى العزل عن الخلاص أولئك الذين يجدهم جهلة، أو غير دارين، فهذا هو الذي يجعلهم عدوانيين تجاه أوامر الرب، ومضادين لأحكام الآباء المقدسين، في الوقت الذي لا يمكن فيه للمنهج الرباني، ولا للمراسيم الشرعية، رد المذنبين، وإعادتهم من طريقهم المنحرف، ويتطلب الآن فننا الكاثوليكي، أن يكون هناك معلم واحد في كنيسة واحدة، يتوجب أن يكون كاملاً بالنظام، والسلوك، والحياة، والمعرفة، والعقيدة، وأن تكون إدارة الكنيسة صافية وبسيطة، وتسبب معارضة الشيطان — على كل حال — ضلال كثيرين وابتعادهم عن هذا المرسوم، إلى حد يكون الحال فيه في بعض الأحيان، بناء على اقتراحه، إعطاء كنيسة واحدة، ليس لواحد فقط بل لعدد، تحت حجة امتلاكها لعدد كبير من الحصص، وهكذا يكون هناك عدة رؤوس لجسد واحد، حتى تبدو وكأنها تين، وفي بعض الأحيان يوافق الشخص، مهما كانت المناسبة على أن شيئاً ما ينبغي أن يعطى إلى آخر تحت اسم كاهن، وإلى جانب هذا، إن الذي هو أسوأ، أن الكنيسة غالباً ما تبقى شاغرة، أي ما من قسيس يبقى فيها، لابل حتى لا يوجد فيها أسقف بشكل مستمر، بل الذي ربما يبقى فيها كاهن ما جاهل، الذي لا حق له فيها، لابل ولا حتى ظل حق فيها، وإذا صدف وربما أقام القسيس أو الكاهن هناك، تجده هو ليس

كاملاً مناسباً في طائفته، لأنه ليس كاهناً، وليست له سماته، لأنه إذا ما نظر إليه أي واحد، سوف يعتقد أنه ليس حتى رجل دين، بل هو بالحري جندي، وهو — ويا للأسف — يعتني قليلاً بحياته، وبمعرفته، وبعقائده، كما أن ترتيبات الكنيسة أيضاً، نادراً ما عملت بالعين البسيطة كما ينبغي، ولأن مكر الفنون الزائفة للشيطان، ليست معدومة هناك، لأنه يحدث في بعض الأحيان — كما قرأنا — أن تعطى كنيسة بشكل سري إلى واحد ما، وفق شرط متفق عليه، أن الرجل الذي يقدم أو يضع، ينبغي أن يحتفظ ببعض المنافع فيها، أو وجوب أن يتسلم شخص ما آخر، حصة ما منها، وهذا ربما كان بوده الاحتفاظ بها كلها، لولا أنه تمنع عن فعل ذلك من خلال ضعف قضيته، أو من خلال الخوف من فقدان منافع أخرى، ويحدث في بعض الأحيان أيضاً أن يقدم انسان على إقالة كاهن، ثم يأخذ بعد ذلك الأسقفية من واحد جرى تعيينه فيها، وهذا أمر يمكن أن نفترض أنه لا يفعل من دون غش، وبناء عليه نحن نشجب هذه الانتفاضات وأعمال التصغير، والتعيينات الخاصة والتغييرات، لأنها مخالفة لما نؤمن به، ونمنع عملهم من الآن فصاعداً، ونرسم بكل دقة، أنه لا يجوز مطلقاً بالنسبة للمستقبل تقسيم كنيسة بين عدة أشخاص أو عدة كهنة، والكنائس التي مازالت مقسمة حتى الآن، ينبغي حالما تتوفر الظروف والامكانيات، أن تعود موحدة، ما لم تكن الكنيسة كنيسة مؤسسة منذ العصور القديمة، بحيث يقوم الأسقف والقسيس المتوليان شؤون مواردها باقتسام هذه الموارد بينهما بالتساوي، ويتوجب على الأساقفة ترتيب أن يكون هناك دوماً شخص ما مقيم في الكنيسة عليه أن يبذل اهتمامه بكل غيرة نحو معالجة الأرواح، وسوف يشغل نفسه ويستخدم ذاته بشكل فعال وشريف في أداء القداسات الدينية، وفي إدارة قداسات القرايين».

السكنى في الكنائس

«فيما يتعلق بالقساوسة المتخذين مساكن لأنفسهم في الكنائس، يبدو لنا

أنه يتوجب علينا أن نستشير الحقيقة أكثر من استشارة مواد القانون، لأن مجامع الأحرار الرومان، كما هو واضح قد تحدثت عن هذه المسألة بجلاء مثل جلاء النور، لأن التطبيق الدقيق للمواد القانونية هو المطلوب، وليس خرقها، ونقول الشيء نفسه ونعتقد في جميع المجالات المتعلقة بشأن الذين، بدون تحويل خاص من الكرسي الرسولي، يحتفظون بعدة مراتب، أو مراتب كهنوتية، أو منافع مرتبطة بعلاج الأرواح، بشكل مضاد لقانون المجمع العام، والخطر على خلاصهم الذاتي».

ألبسة الكهنة

«وفيا يتعلق بألبسة الكهنة، التي يبدو أنها ليست كهنوتية، بل هي بالحري عسكرية، قد نشأت فضيحة بين العلمانيين، ولذلك نأمر بكل دقة، ونرسم، أن عليهم، تحت طائلة الحرمان من منافعهم، الالتزام بدقة، بوساطة الأساقفة، بشكل اللباس، الذي اتفق عليه وتقرر في المجمع العام، وذلك فيما يتعلق بلباس الكهنة، وكذلك بتزيينات خيولهم، ولذلك يمكن للذين تولوا المسؤولية عن الكنائس وعن علاج الأرواح، ارتداء ملابس أصبحت معياراً، وعليهم ارتداء أغطية رؤوس ضيقة، عندما يجري تعيينهم في طوائف مقدسة، خاصة في كنائسهم، وكذلك أمام أساقفتهم، وفي اجتماعات الكهنة، وفي كل مكان في أبرشياتهم، وعلى الأساقفة أن يكونوا أكثر قدرة على الالتزام من الآخرين بأن تكون ملابسهم ملابس محتشمة، وكذلك فيما يتعلق بقص شعورهم، ومثل ذلك فيما يتعلق بتزيين خيولهم، وعليهم مراقبة هذه الأشياء والالتزام بها، حسبما تقدم التبيان، وذلك بالنسبة لأتباعهم من الكهنة، في أن يكونوا ملتزمين بأحكام الحشمة الكهنوتية في ملابسهم، وفي مهامهم، ولجهم، وسرهم».

ضد إبرام عقود زواج سرية من قبل قساوسة الكنائس

«لقد لفت انتباهنا من قبل عدد من الرجال الصادقين، أن عدداً من

الكهنة، قد تولوا دون الانتباه إلى خلاصهم، إبرام عقود زواج سرية، وتجراًوا على الاحتفاظ بملكية الكنائس بعد الزواج، ليحصلوا على منافع لاهوتية، ولكي يجري ترفيعهم مجدداً إلى طوائف مقدسة، وذلك محافظة لمراسيم الشرائع المقدسة، وسيبدو فيما بعد، مع مرور الأيام، أنه مفيداً للذين ولدوا من هذا الزواج، أسواء أكانت الأطراف أنفسها على قيد الحياة أم لا، أن يبرهنوا إما بوساطة شهود، أو بوساطة أدلة مكتوبة، بأن مثل هذا الزواج قد عقد، وبسبب أن الكهنة قد انشغلوا بزواجهم، أو كانت لهم علاقة غير شرعية بالنساء، فإن المحصلة ستكون دمار الأرواح، وقد جرى إهمال خلاصهم، ونهب مقتنيات الكنيسة، وقد رسمنا في سبيل التخلص من هذا الوباء الذي استشرى وترسخ رسوخاً كبيراً مايلي:

إنه إذا ما اكتشف بأن أي واحد قد أبرم مثل هذا العقد للزواج، يتوجب عزله من كنيسته، وحرمانه من المنافع اللاهوتية، وحول هذا نحن نرسم أنهم هم أنفسهم، أو أي واحد قد تزوج، سوف يحرم حتماً وبلا تراجع، وإذا ما تم الحصول على أية ممتلكات بعد زواج من هذا النوع، مهما كانت طريقة الحصول عليها، أي من قبلهم أنفسهم، أو بوسائل أشخاص آخرين، إن هذه الممتلكات، لن يجري الإفادة منها، بأي شكل من الأشكال، أو استخدامها من قبل الزوجات، أو الأولاد من مثل هذا الزواج، بل سوف تكرر من الآن فصاعداً لصالح الكنائس التي كانت بين أيديهم، أو التي استحوذوا فيها على منافع، أما بالنسبة لهم أنفسهم أيضاً، لن يسمح لهم كأشخاص بأي شكل من الأشكال بالقبول في الكنائس، أو في المنافع اللاهوتية، أو في الطوائف المقدسة، حتى يجري منحهم استحقاقاتهم بموجب التوزيع الشرعي».

حول رجال الدين الذين لديهم خليات

«مع أن أحكام الكنيسة قد تناولت دوماً في دراساتها قرار طرد العدوى القدرة لشور العمل الجنسي من أمام أبوابها، حيث لوث هذا العمل جماها

ودنسه بشكل جدي، مابرح هذا الدنس الواسع الشر والضرر مستمراً في عرض نفسه بكل وقاحة أمام الناس وعلى مشهد منهم، ولذلك رغبة منا بعدم المرور بمثل هذه الالهانة الكبيرة والاساءة إلى الكنيسة، من دون ضبط، وكأننا نشير إليها بشكل عابر فقط، ينبغي أن نلتزم بقرارات الأحبار الرومان، ولاسيما مرسوم البابا الاسكندر، الذي جرى إعلانه حول هذه القضية، نحن نرسم، أنه مالم يقيم رجال الدين، خاصة الذين منهم في الطوائف المقدسة، الذين يحتفظون بشكل معلن بخليلات في بيوتهم أو في بيوت الآخرين، بصرفهن من داخل بيوتهم في بحر شهر، وبعد الاحتفاظ بهن مطلقاً مرة جديدة، أو بأخريات مهما كان الادعاء، فإنهم سوف يعلقون عن ممارسة أي عمل أو وظيفة ومنفعة، وإلى أن يقوموا بتكفير مناسب عن هذا الذنب، لن يسمح لهم، بأي شكل من الأشكال بالدخول أو بالتقدم من أية منافع لاهوتية، وإلا فإننا سوف نرسم بحرمانهم من هذه المنافع، وتقضي إرادتنا، كما أننا نأمر بأن يقوم رؤساء الأساقفة والأساقفة بتفتيشات دقيقة حول هذه القضية في جميع أرجاء عباداتهم، وأن الذي رسمناه سوف تجري مراعاته وتنفيذه».

حول الذين خلفوا آباءهم في كنائسهم

«مع أن الآباء المقدسين قد أعلنوا بأن المنافع اللاهوتية لا يجوز الاستحواذ عليها بموجب حق الوراثة، وأن خلافتهم من قبل أبنائهم الشرعيين ينبغي حرمانها من شراكة المؤمنين، ومع ذلك فإن بعض الذين ولدوا من خلال اتصال شنيع، يسرون بخطوات الصفاقة، ويدوسون على سلطات الشريعة، والشرف، ويسعون إلى فرض أنفسهم في منافع من هذا النوع، التي استحوذ عليها آباؤهم من قبل من دون مسوغ صحيح، وقاموا بادعاء سريع وفرض واقع جديد بالاستحواذ عليهم، ولذلك، إننا نحن الذين قدمنا إلى هذه البلاد لإيجاد علاج لهذه النازلة التي ألت بشرف الكنيسة، نمنع بكل دقة، أساقفة الكنائس من القيام من الآن فصاعداً

—تحت أية حجة، أو بوساطة أي خداع— من تعيين أو قبول أيًا من أمثال هؤلاء لاستحواذ منافع من هذا النوع، أو مما استحوذ عليه أبائهم مهما كان نوع العنوان، سواء أكان الأمر كلياً أم جزئياً، ونحن نأمر أيضاً بهذا المرسوم الحالي، أن يجري حرمان كل من بين يديه منفعة من هذا القبيل، قد استحوذ عليها بشكل غير قانوني، وانتزاعها منه».

ضدّ الذين يحمون اللصوص

«للقوف ضد جرائم اللصوص، الذين بهم المملكة الانكليزية ممتلئة، سوف يكون ذلك بلا فعالية، مادام أناس من ذوي المراتب يحمونهم ويحتفظون بهم، ولذلك رأينا من المناسب أن نرسم، أنه لا يجوز لأحد أن يخفي في بيته أو في بلدته أولئك الذين معروف أنهم اقترفوا سرقة، أو الذين هناك براهين أو أدلة ضدهم، ولا يجوز حمايتهم أو إيوائهم، والذين سوف يعملون ضد هذا المرسوم، إذا لم يقوموا بعد انذارهم ثلاث مرات من قبل قاض لاهوتي عادي، بطرد اللصوص وابعادهم عنهم، نحن نعلن أنهم سوف يكونوا خاضعين للحرمان الكنسي واللاهوتي، وإنها إرادتنا ومرسومنا أن انذاراً عاماً سوف يكون كافياً، وأنه ينبغي أن يعطى دون ذكر لأسماء أي واحد، أو الإشارة إلى أي واحد، شريطة اصداره بشكل علني، وبصورة مهيبة حتى يصل إلى علمهم».

حول أكل اللحوم من قبل الرهبان

«لقد سمعنا، وسررنا، أن الرعاة الدينيين لطائفة رهبان القديس بندكت في جميع أرجاء انكلترا، قد اجتمعوا مؤخراً في هيئتهم العامة، وذلك على شكل أبناء حقيقيين للكنيسة، ووفقاً للقول النبوي قد عادوا إلى حدودهم، وقرروا بشكل حكيم، أنهم من ذلك الوقت فصاعداً، التزاماً منهم بأحكام القديس بندكت، سوف يمتنعون عن أكل اللحوم، وذلك باستثناء الضعفاء والمرضى، الذين يتوجب، وفقاً لبنود الأحكام نفسها، تزويدهم

من مصحة العجزة، ويقدر ما نوافق على هذا نحن نرسم بوجوب مراعاة ذلك، من دون تعطيل أو استثناء، وبالإضافة إلى ذلك نحن نرسم، أنه لدى إنهاء المنتسبون الجدد سنة اختبارهم الأولى بعد ارتدائهم للباس الرهباني، يتوجب ارغامهم من قبل الرعاة، بوساطة السلطات اللاهوتية أو الشرعية، على عمل تكريسهم واعترافهم وفقاً لمرسوم أو قانون البابا أونوريوس، صاحب الذكرى الطيبة، وكل واحد لم يعمل تكريسه واعترافه، سوف لن يقبل للترقية إلى مرتبة راعي دير أو رئيس رهبان مهما كانت المسوغات، وهذا الذي رأيناه موافقاً بالنسبة لعمل هذا الاعتراف عند انتهاء سنة الاختبار، نعتقد أنه موافق أن نجعله يشمل الكهنة النظاميين والراهبات وبالنسبة للقضايا الأخرى، التي نعلم أنها عائدة إلى تقويم أو اصلاح الكهنة وكذلك الكهنة النظاميين نحن عزمنا على تقديم ماينبغي تقديمه، وسوف نرسم بمشيئة الرب بما سيكون مفيداً لکنائسهم ونافعاً لهم أنفسهم، ونحن نأمر بتعميم نشر هذه القرارات بشكل مهيب بين جميع هيأتهم الكهنوتية».

واجبات رؤساء الشمامسة

«فيما يتعلق برؤساء الشمامسة، نحن نرسم بوجوب زيارتهم إلى الكنائس، والقيام بشكل مخلص بالبحث والتقصي حول مايتعلق بالأواني المقدسة والملابس، وحول الطرائق التي تدار بها الكنيسة وتخدم بالنسبة لقداسات النهار والليل، وحول شؤونها الدنيوية وكذلك الروحية بشكل عام، والقيام بعناية بالاصلاحيات التي تكون ضرورية، وعليهم عدم الضغط على الكنائس وظلمها بضرائب فيها مغالاة وشطط، بل الذي عليهم هو المطالبة بالحصول على ايجارات معتدلة، ويكون ذلك فقط لدى زيارتهم لهم، وعليهم عدم جلب أجانب معهم، وأن يرافقهم عدد معتدل من الخدم والخيول، وعليهم عدم قبول أية رشوى من أي واحد حتى لا يزوروه ويقوموه، أو لكي لا يعاقبوا المذنبين، ويتوجب عليهم عدم

ادخال أي واحد في الإدانة بأحكامهم بشكل غير عادل، من أجل استخراج المال منهم، وبما أن مثل هذه الأشياء تخدم السيمونية، نحن نرسم أن كل من يتصرف بمثل هذه الطريقة، سوف يرغب في مكان آخر على منح الممتلكات التي حصل عليها وفق هذه الطريقة، وأن يكون مقدار ماسوف يرغب على دفعه ضعف المبلغ، ويكون ذلك تحت عناية وإخلاص الأسقف من أجل استخدامات تقوية، وذلك مع إبقاء العقوبة القانونية، وممارستها ضدهم، وعليهم جعل همهم وشغلهم الشاغل أن يكونوا بشكل متواصل حاضرين لدى اجتماع الهيئة الكهنوتية في كل عمادة، ويتوجب عليهم في هذه الاجتماعات، صرف اهتمامهم إلى أشياء كثيرة، يتصدرها توجيه الكهنة بانتباه ودقة، بعلم صحيح، وبفهم سليم، إلى كلمات الشريعة والتعميد، أي إلى ما يثبت كل لب التعميد وأساسه».

وجوب عدم طلب أي شيء من تسوية الخلافات

«ومجدداً نحن نمنع بكل دقة وحزم رجال دين الكنائس، وبشكل خاص رؤساء الشمامسة والعمداء، أو موظفيهم، أو أي آخرين جرى تعيينهم بفضل سلطاتهم اللاهوتية، أو مناصبهم الروحية، من تقرير أسباب عامة، أو أية مسائل لها علاقة بسلطات الكنيسة، من منطلق فرض إعادة السلام والعلاقات الطيبة بين الأطراف، وذلك فيما يتعلق بخلافاتهم، أو بأسباب الشكوى، لكن عندما تختار الأطراف، يمكنهم أن ينسحبوا من المحكمة بتسوية، إذا كانت القضية تحتمل التسوية بوساطة الشريعة بشكل مؤثر، وسوف لن يكون هناك استخراج أية مدفوعات من الأطراف حول هذه التسوية».

واجبات الأساقفة

«إن الواجبات المفروضة على هؤلاء الآباء المحترمين: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، الذين معنى ألقابهم (المشرفين)، أي الذين يتولون الإشراف

والنظارة، قد جرى تبيانها بكل وضوح، فعملهم هو القيام بالاشراف على القطعان وحراستها، وحسب كلمات الانجيل (القيام بالحراسة أثناء الليل)، وبما أنهم — بناء عليه — ينبغي أن يكونوا أمثولة طيبة للقطيع، الذي كله خاضع لهم، والذي عليه أن يتكيف ويتماثل معهم أنفسهم، وهذا ما لا يمكن عمله، ما لم يضربوا بأنفسهم مثلاً للجميع، بناء على ذلك نحن نحثهم باسم الرب، ونتمنى عليهم، الإقامة بعض الشيء في كنائسهم الكاتدرائية، وأن يؤدوا هناك بطريقة صحيحة القداسات، على الأقل في أيام الأعياد الرئيسية، وفي أيام الأحد، أثناء الصوم الكبير، وأثناء الميلاد، وعلاوة على ذلك، عليهم الارتحال بين أنحاء أسقفياتهم في أيام المواسم، مصلحين، ومقومين المخالفات، ومكرسين للكنائس، وبذر كلمة الحياة في حقل الرب، وأفضل طريقة تمكنهم من أداء جميع واجباتهم، هي أن يتدبروا قراءة اعترافهم وتعهدهم الذي عملوه أثناء تكريسهم، مرتين في العام، وخلال الشطر الأكبر من الصوم الكبير».

مرسوم ضد القضاة غير البارعين

«بما أنه ليست السلطة فقط هي المطلوبة لوحدها في تصريف القضايا بشكل مستقيم، بل أيضاً الاستقامة والبراعة مطلوبتان بشكل خاص، يتوجب على الجميع إيلاء عناية خاصة أن لا يتعين أحد للقضاء أو أن يكون ناظراً من الذين غير بارعين، أو جهلة، أو غير موثمين، أو غير عادلين، حتى لا تصدر عنهم أحكام تجري فيها تبرئة الفئة المذنبة، وإدانة الفئة البريئة، ولذلك رأينا أنه من الموائم أن نرسم بأن يعهد بالقضايا الزوجية، التي تتطلب فوق كل القضايا المعالجة ببراعة كبيرة ويقظة، إلى رجال واعين وموضع ثقة، وأن يكونوا ممتلكين لمعرفة وافية بالشرعية، أو على الأقل خبرة كافية فيها، وإذا صدف وكان أي واحد من رعاة الديرة، أو رؤساء الشمامسة، أو الشمامسة، يمتلك امتيازاً، أو عرفاً مخولاً بالقيام بالبحث في القضايا، على هؤلاء الاهتمام والاعتناء بفحص هذه القضايا بكل عناية

ودقة، وبذلك لا يقومون هم أنفسهم، وكذلك وكلائهم بإصدار قرار حكم محدد، من دون القيام أولاً بعقد مداولات دقيقة، حول محاسن القضية مع أسقف الأبرشية، وذلك من دون طلب نصيحته أو الحصول عليها، وهذه الغاية نحن نود أن يكونوا معفيين، أو محميين بوساطة امتياز خاص

يمين المطالب

«إن يمين المطالب مطلوب في القضايا اللاهوتية، وكذلك قول الصدق في الشؤون الروحية، لأن بذلك يمكن بسهولة أكبر الكشف عن الحقيقة، ومن ثم تقرير المسألة بشكل أسرع، ولذلك رسمنا أنه يتوجب العمل في جميع أرجاء انكلترا، في المستقبل وفقاً للشرعة والأوامر القانونية، وليس وفقاً للعادات الأخرى التي تؤدي إلى العكس، وإلى هذا المرسوم، نحن نضيف — من أجل منفعة الجميع — هذه الاضافة، وهي: من الممكن منح تأجيل للمحاكمة بناء على اختيار القاضي، وذلك وفقاً للأحكام القانونية والشرعية».

تعيين الناظرين

«إن عادة استخدام الوكالات، التي أدخلت إلى محاكم العدالة، أي أن قضية أي شخص لا يمكنه شخصياً الحضور، من الممكن عرضها وإيضاحها، من قبل آخر في أثناء غيابه، هذه العادة غالباً ما بد لها مكر العدو القديم إلى ممارسة شريرة، لأنه كما تقدم الذكر، عدت العادة هنا أن الانسان الذي تجري دعوته للحضور في يوم محدد، من الممكن له تعيين ناظر فقط من أجل ذلك اليوم برسالة موقعة، وممهوره بختمه الأصيل، وقد حدث أنه إذا ما اختار الوكيل عدم طاعة الاستدعاء، أو اخترع أية حيلة في الرسائل، بوساطة تقديم شهود، أو وقائع أخرى معيقة، مامن شيء يمكن فعله في ذلك اليوم، وفي اليوم التالي تنتهي مهمة الناظر، وهكذا تسقط الأعمال إلى الحضيض من دون تأثير، وكذلك رغبة منا في عمل شيء لسدّ

هذا العجز، نرسم، أنه من الآن فصاعداً، يجري تعيين الوكيل، بالنسبة للقضايا اللاهوتية في مملكة انكلترا، ليس ليوم واحد، بل لعدة أيام، إذا كان ذلك ضرورياً، والاستدعاء سوف تجري البرهنة على صحته بوساطة كتابات صحيحة، ما لم يكن جرى تعيينه في تلك الساعة، أو أن الشخص الذي عينه لا يمكنه إيجاد ختم أصيل».

طريقة عمل الدعوات للمثول أمام القضاء

«براعة متناهية ومكر، تهاجم الفئات المتصارعة بعضها بعضاً، إلى حد أنه ما من أحد، يتردد في الدوس على العدالة، وأن يفعل كل شيء لهزيمة خصمه، ولقد سمعنا من كثيرين أن الذين لديهم دعوات، يرسلونها بوساطة ثلاثة أولاد إلى المكان الذي يُقال بأن الفئة المستدعاة ساكنة فيه، وفي ذلك المكان يضع اثنان من الرسل الدعوات على مذبح الكنيسة في ذلك المكان، أو في مكان ما آخر هناك، ويأخذ الثالث على الفور هذه الدعوات ويبيدها، وبذلك يتوفر شاهدان يشهدان بأنه جرى استدعاء صاحب القضية، ونتيجة لذلك يتعرض للحرمان الكنسي، تماشياً مع شروط ابلاغ قرار الحكم، وعادة المنطقة، أو يجري تعليقه بمثابة متمرّد، مع أنه بريء تماماً من العصيان، وجاهل بالدعوة غير عارف بها، وبناء عليه نحن في غيرتنا على العدل، ومن أجل تقويم هذا الفساد الشنيع، وأمثاله، نرسم، أنه من الآن فصاعداً، بالنسبة للقضايا اللاهوتية في مملكة انكلترا، سوف لن يكون توجيه الدعوات بوساطة الذين يتقدمون لأجلهم، أو بوساطة رسلهم، بل يتولى القاضي، مقابل نفقة معتدلة يتحملها المشتكي، إرسالهم بوساطة رسل موثوقين من عنده، عليهم البحث بتيقظ عن الفئة المستدعاة، وإذا كان الرسول غير قادر على إيجاد المستدعى، عليه العمل على تدبر قراءة رسائل الاستدعاء، ونشرها في كنيسة المكان، الذي يسكن المستدعى بالعادة فيه، وذلك في يوم الأحد، أو في بعض الأيام الأخرى، أثناء أداء القداس، أو على الأقل إرسال الدعوات إلى العميد الذي يسكن

في عمادته الطرف المستدعى، فهذا العميد سوف يقوم باخلاص، بناء على أوامر القاضي بتنفيذ هذه الخدمة شخصياً، أو بواسطة أحد الموثوقين لديه، أو برسل معتمدين، وسوف يكتب، من دون تقاعس إلى القاضي، لإخباره بالذي عمل حول هذه القضية».

**مامن أحد يضع ختمه على رسائل الاستدعاء ما لم يكن حاضراً
أثناء كتابتهم**

«هناك حاجة قصوى من أجل استخدام الكتابات تحت أختام صحيحة أصيلة (وخاصة في مملكة انكلترا حيث لا يوجد كتاب للعدل عامين)، واتخاذ احتياطات دقيقة، حتى لا يساء استخدامهما من قبل أي أشخاص دون تجربة، لأننا سمعنا، أن صكوكاً كتبت ووقعت، ليس فقط من قبل كهنة من المراتب الدنيا، بل أيضاً من قبل أساقفة، وأن عناية كبيرة قد بذلت نحو هذه الصكوك، لإظهار أن واحداً ما قد أحضره ليكون موجوداً أثناء كتابة العقد، أو القضية المطروحة، أو أن انساناً استدعي للمحاكمة، وعليه الحضور، أو أن رسائل الاستدعاء قد قدمت إلى واحد لم يكن قط حاضراً، أو ربما حتى لم يكن موجوداً، أو هو ربما كان أثناء وقت الاستدعاء يعيش في أسقفية أخرى أو في منطقة ثانية، وأيضاً بما أن رسائل من هذا النوع تحتوي على الزيف بشكل واضح، نحن نمنع بدقة هذه الرسائل، أو عمل أي شيء مشابه، وبعد مداوات دقيقة، وضعنا أسس مرسوم قضى بأن الذين يمكن أن يدانوا بمثل هذا الذنب، أو الذين يقدمون على الاستمرار بإصدار مثل هذه الصكوك، سوف يعانون من العقوبات التي يستحقها المزيّفون، أو الذين يستخدمون أدوات زائفة».

الأشخاص الذين يتوجب أن يكون بين أيديهم أختاماً أصيلة

«بما أنه لا يوجد كتاب عدل عامين عاملين في انكلترا، بات لهذا السبب من الضروري منح المزيد من الثقة إلى الأختام الأصيلة، ولذلك نحن

نرسم بوجوب أن يحمل ليس فقط رؤساء الأساقفة والأساقفة، بل أيضاً موظفيهم، أختاماً، من أجل الحصول على مساعدتهم بسهولة أكبر، وكذلك يتوجب على جميع رعاة الديرة، ورؤساء الكهنة، والعمداء، ورؤساء الشمامسة وموظفيهم، وعمداء الأرياف، وكذلك أعضاء هيئة الكنائس الكاتدرائية، والتجمعات الرهبانية الأخرى، مع قساوستهم، أو بشكل افرادي، وفقاً لعاداتهم، أو أحكامهم، ووفقاً لتنوع الذين تقدم ذكرهم، يتوجب أن يحمل كل منهم ختمه الخاص، عليه اسم مرتبته، ووظيفته، وكليته، وكذلك اسم الذين يتمتعون بالمكانة، أو بمرتبة دائمة، أو وظيفة، وأن يكون ذلك محفوراً عليه بخط واضح، وبذلك يحملون أختاماً صحيحة، وأما بالنسبة للذين يشغلون منصباً دنيوياً مثل العمداء الريفيين والموظفين، فسيكون لديهم أختامهم، عليها قد حفرت أسماؤهم فقط، ولدى انتهاء وقت تعيينهم وعملهم في وظائفهم، عليهم تسليم الأختام من دون تأخير، إلى الشخص أو الأشخاص الذين تسلموا منهم تعيينهم، وفيما يتعلق بالوصاية على الأختام، نحن نوصي بالعناية الفائقة بها، أي أن يتولى كل واحد شخصياً الحفاظ على ختمه، أو أن يسلمه إلى شخص واحد، فيه يضع ثقته، وذلك ليتولى حفظه، وعليه أن يقسم على أنه سوف يتولى حفظه باستقامة، وأن سوف لن يختم به أي شيء إلى أي انسان، من ختمه يمكن أن ينشأ أي ضرر، وأن يتمنع عن ختم أي شيء إلا بعد أن يكون مولاه قد قرأه وتفحصه بكل دقة، ثم أمر به ليختم، وفي منح استخدام الختم يتوجب مراعاة الاخلاص واتخاذ الحذر والحيلة، فالثقة يمكن أن تمنح بسهولة إلى الذين يطلبونه، أما الحذر فيوجب منعه وعدم إعطائه إلى الأشخاص الزائفين والغشاشين، ونحن أيضاً نرسم بوجوب أن يذكر في بداية كل كتابة أصيلة وفي نهايتها، اسم اليوم، والزمان، والمكان».

القسم الذي ينبغي على المحامين أدائه

«لقد سمعنا صراخ العدالة، وهي تشكو، بأنها أعيقت كثيراً، بوساطة

مراوغة ومكر المحامين، وأنها غالباً وكثيراً ما جحدت من قبل قضاة بارعين، من خلال الجهل، الذي غالباً ما خدعت به الأطراف بوساطة عصيانها، لأنه يحدث في بعض الأحيان أن شخصاً قد يوضع في ملكية من أجل الحفاظ على ممتلكات، فيسعى إلى الاحتفاظ بالملكية، مع أن الفئة المعاكسة قد عادت في بحر سنة، واستعدت لإرضاء العدالة في كل شيء، وفي بعض الأحيان أيضاً، يكون الشخص الذي أرسل للاستحواذ على الملكية غير قادر — مع أنه حكم بأنه الممتلك الحقيقي — على الحصول على الملكية في بحر سنة، أو بعد ذلك، لأن الفئة المضادة تقاوم بقوة السلاح، وبناء عليه نهضنا نحن إلى مساعدة العدالة، واعتماداً منا على ما وافق عليه المجمع، نرسم بأن على كل من يرغب بالحصول على مكتب المحامي، أن يؤدي قسماً إلى الأسقفية، التي يعيش تحت سلطانها، أنه في القضايا التي تحتاج منه المرافعة، أن يترافع باخلاص، وأن لا يعيق العدالة، أو أن يحرم الفئة الأخرى منها، بل أن يدافع عن موكله وفقاً للشرعة والعقل، وإلا فإنهم لن يسمح لهم بالترافع في القضايا الزوجية وفي الانتخابات، ما لم يؤدوا قسماً مماثلاً، ولن يسمح لهم بالمثل في قضايا أخرى أمام القاضي اللاهوتي، لأكثر من ثلاث مرات، من دون يمين من هذا النوع، ما لم يحدث صدفة أن يأتي طلب لصالح هذه الكنيسة، أو لمولاه، أو لصديق، أو من أجل رجل فقير، أو من أجل أجنبي، أو من أجل أي شخص تعيس، وعلى جميع المحامين أن يكونوا على دراية وحذر أن لا يكونوا أنفسهم، أو بوساطة وسائل الآخرين، شهوداً كاذبين، أو أن يأمرؤا الفرقاء بتقديم شواهد مزيفة، أو أن يجمعوا الصدق، والذين سوف يفعلون مثل هذا، سوف يجرمون حتماً من وظائفهم ومن منافعهم، حتى يقوموا بتكفير موائم عما عملوه، وإذا ما أدينوا بفعلهم كذلك، سوف يعاقبون بشكل قانوني، دون الاهتمام ببقية القضايا، وعلى القضاة، الذين يجهلون القانون، إذا ما كانوا شاكين حول إحدى النقاط التي قامت، والتي من الممكن أن يحصل منها ضرر لواحدة من الفئتين، أن يسألوا النصيحة من إنسان عاقل، على نفقة

الفئتين معاً».

إحالة أعمال المحاكم إلى التدوين

«نحن فضلاً عما تقدم، نرسم أنهم بقدر ما هم مستطيعون، عليهم مراعاة مرسوم المجمع العام، وأن يبقوا بحوذتهم بشكل مخلص جميع الأوامر الأصلية والصحيحة، وكذلك بشكل اعتيادي بمشابة محاكمات غير اعتيادية، أو أن يتدبروا شأن حفظهم من قبل كتابهم، حتى يتمكنوا ويكونوا قادرين على عمل نسخة عنهم للأطراف، كما ينبغي، ونحن نأمر ونرسم إنه بعد ما يكونوا جميعاً قد نسخوا من قبل هؤلاء الكتاب، يتوجب نشرهم جميعاً من أجل أنه إذا كانت هناك أية أخطاء في الكتابة يمكن أن تصحح، وتكون الحقائق الصحيحة للقضية قد أصبحت ظاهرة».

تقديم ضمانات

«فضلاً عما تقدم على القضية، الانتباه أنهم عندما يقررون وضع أي واحد في حالة التملك، بسبب عصيان الفئة المخاصمة بالنسبة لإعادة الممتلكات مع الانتاج، هذا إذا كانت قد تسلمت أيأ منه، بعد حسم النفقات القانونية، وإذا ما عادت الفئة المخاصمة، في بحر سنة، فإنها سوف تأخذ ضمانات كافية، بناء على أوامر الشخص الذي من المفترض أنه وضع في التملك، ونحن نرسم أيضاً، أن أي واحد أقدم على الاستحواذ على ممتلكات بالقوة، للاستيلاء على ممتلكاته آخر، بسبب تمرده، انه حتى وإن كان سيعين بمشابة الملاك الحقيقي بعد سنة، سوف يحرم من أي حق يمكن أن يكون له فيها».

ولدى اكتمال هذه المسائل في اليوم الثالث من المؤتمر، بدأ النائب البابوي يرتل:

(Te Deum) وعندها نهض الجميع من مقاعدهم، وبعدها جرى ترديد الترنيمة الدينية:

(Viaum Pacis) وغنائها، ثم أعقب ذلك غناء مزموّر «مبارك هو الرب إله بني إسرائيل» ثم إنه غنى بعض المجموعات الخاصة، وبعد ذلك أضفى تبريكاته، وغادر الجميع بعد ذلك مسرورين كثيراً.

رسائل من الامبراطور إلى الايرل رتشارد

أخبره فيها عن انتصاراته على الميلانيين

في العام نفسه، أرسل قبيل عيد الميلاد، ذلك القاهر القدير لأعدائه، الامبراطور الروماني فردريك، رسائل امبراطورية، مختومة بالذهب، كما هي عادته، إلى رتشارد ايرل كورنويل، ليخبره، وليخبر آخرين من خلاله، عن النصر الذي منحته السماء إياه على الميلانيين، حسبما ذكرنا، وجاء محتوى الرسالة ومقصدها كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد ايرل أوف كورنويل، ابن ختنه المحبوب، الصحة، وأصدق العواطف: كم كان متهوراً ووقحاً قيام الليغوريين Ligurians [الجنوبيين] في ثورتهم ضد شخصنا الملكي، وقد أخبرت التجربة وقرب المكان، الناس الجيران وحملت أخبار الشرور المتأصلة إلى الناس إلى مسافات بعيدة، ونحن نعتقد أنك على دراية بما يعلمه الناس، عن تجاوزنا المستمر عن ذنوبهم لمدة طويلة، إلى حد إذا ما مضينا هكذا فإن تحملنا سوف يفقد اسم الصبر الحقيقي، وسوف ينال وصمة الجبن الشريرة، وذلك عوضاً عن الاسم الشريف ذي الفضيلة، وبعد تقدير وتأمل لبعض الوقت أن الجراحة التي لا تشعر بأي تأثير من استخدام الكمادات، ينبغي أن تقطع بالسكين، ولذلك فإن الحاجة قد أرغمتنا على اللجوء إلى السلاح، وإلى إيقاظ الامبراطورية النائمة من سباتها، هذا ولم نستطع لا في السنة الماضية، أو خلال السنة الحالية، اقناع رعايانا المتمردين باللجوء إلى مخاطرة مواجهتنا في قتال مكشوف، من أجل

أن ننال على الفور نصراً عليهم، وحدث لدى توفر فرصة سعيدة، أن
الميلانيين مع حلفائهم قد احتشدوا عند حصن بريشيا Brescia وبذلك
حال نهر بيننا وبينهم، وقد أحاط بهم هذا النهر، وكأن خندقاً قد أحاط بهم،
وبناء عليه نصبنا معسكرنا، على الطرف الآخر من نهر أوغليو Oglio
ووقتها عاد الفرسان المخلصين وسكان المدن إلى ديارهم، لأنهم لم يعودوا
قادرين على تحمل التأخير الممل غير المتوقع، وقسوة الموسم، وقد وجهنا
—على كل حال— خطانا مع كتلة منتقاة من جيشنا، فرسنا على طول
شواطئ الطرف الآخر من هذا النهر، وقصدنا الجسور التي كان العائدون
إلى ديارهم مرغمون على عبورهم، وبات الميلانيون وحلفائهم غير قادرين
على البقاء مدة أطول في أماكن اختبائهم، وذلك بسبب قلة الحاجيات
الضرورية لديهم، فعبروا نهر أوغليو، بوساطة المخاضات والجسور،
ووصلوا إلى السهل المفتوح ودخلوه، ظانين أن بإمكانهم النجاة منا بالفرار
سراً، ولعلمهم لم يتصوروا أننا كنا على مقربة كبيرة منهم، وعندما—على كل
حال—علموا بقربنا، استولى عليهم الرعب والخوف، ونزل بهم نزول
صاعقة من السماء، ولدى رؤية مقدمة جيشنا الامبراطوري، وقبل تمكنهم
من رؤية أعلامنا المنتصرة، والنسور الامبراطورية، نكصوا على أعقابهم،
وشرعوا بالفرار من أمامنا باضطراب كبير، وفوضى عظيمة، وظلوا فارين
حتى وصلوا إلى رايتهم، التي بعثوا بها أمامهم إلى نوافاكروسي Nu-
ovacroce بسرعة فائقة، أي بقدر ما يستطيع حصان سريع حملها، حتى
أن ما من أحد من عساكرنا المطاردة لهم، استطاع أن يلحق وجوه الفارين،
ولأننا اعتقدنا أنه بات من الضروري بالنسبة لنا المبادرة بالاسراع لتقديم
المساعدة إلى القوات الاحتياطية، التي تقدمت وسارت أمامنا بقوة صغيرة،
لذلك زحفنا خلفهم بسرعة كاملة، مع قوى جيشنا، وحيث توقعنا أن
نجدهم قد صدوا بهجوم الأعداء المقاتلين، وجدنا أن تقدمنا معاق بأعداد
الخيول التي كانت تركز هنا وهناك، من دون ركاب، وكذلك بحشد
الفرسان الممددين جرحى أو قتلى، في حين كان الذين بقيوا أحياء إما

واقفين أو متمددين على الأرض، لأنهم كانوا مرتبطين إما بسادة أو بفرسان، كانوا من أتباع مواليهم، وبعد لأي عثرنا على رايتهم قرب أسوار نوافكروسي، وهي محاطة بخنادق، ومحمية بمجموعة كبيرة من الفرسان، مع جميع جنودهم الرجال الذين قاتلوا بشكل رائع في الدفاع عنها، وعند ذلك صرفنا اهتمامنا نحو الهجوم والاستيلاء على هذه الراية، ورأينا أن بعض جنودنا بعدما تمكنوا من شق طريقهم بالقوة إلى ذروة الخنادق، قاموا بشجاعة محمودة فشقوا طريقهم بالقوة نحو عمود الراية، وكانت ظلال الليل على كل حال تقترب، وهو ماتشوق إليه رجالنا بشدة، فتوقفنا عن القتال حتى الصباح الباكر من اليوم التالي، ذلك أننا كنا قد استلقينا للراحة فقط مع سيوف مجردة، ودون أن ننزع سوابغنا ودروعنا، مقررين العودة لنيل نصر غير مشكوك فيه، ولنستولي على الراية، ولدى انبلاج الفجر، اكتشفنا على كل حال، أنها كانت مهجورة، وقد تركت وسط حشد من العربات السيئة، غير مدافع عنها تماماً ومهجورة، ورأس القصبية حيث كانت علامة الصليب، كان الصليب قد فصم، لكن يبدو أنه ظهر إلى الفارين ثقيل جداً، لذلك ترك في منتصف الطريق، أما بالنسبة لحامية قلعة نوافكروسي وسكان المدينة، الذين ظننا أنهم سوف يلجأون إلى الاحتباء بها وينجون إليها هرباً من هجماتنا، فقد وجدناهما مهجورين تماماً، ولم ينبج رئيسهم الذي هو ابن دوج البندقية من الوقوع بين أيدينا، وهو الذي بأوامره رفعوا رايتهم المأسوفة، ولكي نقدم رواية مختصرة حول هذه المسألة، يقال بأن قرابة العشرة آلاف رجل قد أسروا أو قتلوا، كان من بينهم كثير من النبلاء والقادة للفئات الميلانية، وحول هذه المسائل كلها، قد أرسلنا لكم رسالة لنقدم إليكم السرور، ولكي تروا كيف أن امبراطوريتنا قد ابتهجت بالأخبار التي نروها لكم الآن.

صدر في كريمونا، في هذا اليوم الرابع من كانون الأول، في الحادية عشرة من الخمسة عشرية.

رسالة بعثت إلى النائب البابوي حول أوضاع الكنيسة الرومانية

وكتب في هذا العام نفسه أيضاً، في حوالي عيد الميلاد السيد الكاردينال ج. ل دي كولونا، وكان قوياً ومستشاراً خاصاً للكنيسة الرومانية، إلى النائب البابوي في انكلترا، كما يلي:

«من الأخ إلى أخيه، ومن الكاهن إلى الكاهن، ومن المحب إلى الحبيب، تمنيات الصحة في المسيح — لو أن هذه الرسالة، التي أنا كتبتها يمكن أن تبقى سرية عن الغرباء، ولولا أنه بحكم المسافات بين الأماكن، كثير من الأشياء يمكن أن تتعرض للخطر، لأودعت كتابة كثيراً من الأشياء، التي اللسان صامت عنها لا يتحدث، ولا يبيحها إلى الصديق، وهذه أمور لا ينبغي لي أن أخفيها عن معاليكم، وهي أن الأم قامت بتشوق، أو بالحري بشكل غير حكيم، بتغطيس نفسها واغراقها بين الأمواج، وعن طواعية واختيار من نفسها، ألقت بذاتها بين فكي الذئب، بوساطة خطط اثنين فقط، مع أن ثالثاً قدم تعاونه، أو بالحري لتتكلم بشكل صادق أكثر كان سابقاً بهذه الخطئة، وبما أن الحرية قد ألقي بها جانباً، فقد بدأت العبودية، وغاب نجم القداسة، ونزل الميراث والحظ إلى مرتبة العبودية، وشموخ العالي والقوي نال الشقاء، واشتري السجن، وازدري الشرف، وتم السعي وراء الفوضى، وتسليح الاضطراب، وأرغم الهدوء على الفرار، وما من اهتمام صرف نحو ذنوب الرهبان والغرباء، وتلا ذلك وأعقبه نتائج مخزنة، ولحسن حظك أنك ابتعدت عن هذه المشاكل، وأنتك ذهبت إلى بلاد نائية، حتى لا ترى معاناة شعبك وآلامه، ولا تشاهد القديسين وهم يتعرضون للضربات اليومية، ويمزقون بأدوات نحس متواصلة، ولقد رغبتنا، وغالباً ما حاولنا أن نقوم بإصلاح أحوال الكنيسة وأوضاعها، ذلك أنها هوت وفسدت وصارت بلا شكل وفي وضع سيء متدهور ومعزول، وأديرت المؤتمرات بشكل عابث، حيث أن الأهواء لم تضبط بضوابط العقلاء، بل أثيرت بعنفها، وبالإضافة إلى كتلة أحزاننا الأخرى، إن العمود النبيل،

الذي جرت العادة أن يدعم بشكل نبيل،، ويسند آلية الكنيسة، وهو مولانا أسقف ساينا، صاحب الذكرى الطيبة، قد اختطف فجأة من بين أوساطنا، فقد أصيب أولاً بالحزن تجاه اضطرابنا، ثم إنه هوجم فيما بعد بمرض بطيء، ومات، ليدخل تحت سلطان الرب، تاركاً مشهداً محزوناً من الدماء لأمه، ورجع الرهبان من بلادهم وهم على خلاف مع رئيسهم، ولم تظهر علامات خطوات نحو السلام، لأن أتباع الخلاف لم يطيعوا العاملين في سبيل السلام، وقد انسحب أسقف أنطاكية من الجماعة، ولم يتوافق مع الذين عادوا، وبودنا يا صديقي لو أن ذلك أحيط بعناية حاشية صغيرة، وأنه بذلك لم يكن عبثاً على الآخرين، وأنه لم يمزق بأسنان المستخفين، ولكن بما أن قوة غمر فيضان المذنبين والعواصف الشديدة قد ازدادت قوة، لقد أصبحت لازماً لأملك، ولذلك أعدّ نفسك للعودة. صدر في فيتربو، في يوم عيد القديسة لوسي.

الإغريق يرفضون الخضوع للكنيسة الرومانية

وعندئذ ظهر من هذا ومن علامات مماثلة، ووضح أن الكنيسة الرومانية قد حصلت على غضب الرب، لأن الرؤساء فيها والأساقفة، لم يسعوا إلى دعوة الناس إلى التقوى، بل لجمع محافظ نقود مليئة بالأموال، وليس لكسب الأرواح إلى الرب، بل للاستيلاء على الموارد، وتكديس الأموال، وللضغط على رجال الدين وظلمهم، ولمصادرة أملاك وتكريسها لاستخداماتهم بوساطة الكفارات، والربا، والسيمنية، وما من تقدير قدم للعدل أو للشرف، وما من انتباه صرف إلى توجيه الجاهل وتعليمه، وحالما ينال أي واحد منصباً لاهوتياً له منافع، تراه يبحث على الفور ليتعرف كم من المال سوف يحصل منه، وآخر سؤال يجري طرحه — هذا إذا طرح — يتعلق بقديسه، أو باسم الذي حملت كنيسة عنوانها، ولذلك فإن اللعنات والشكوى ثارت بين الناس، وأثير غضب الرب يومياً، لسبب صحيح، ولدى مشاهدة الكنيسة الإغريقية هذه الشرور وهذا الظلم، ثارت ضد

كنيسة روما، وطردت امبراطورها، وأظهرت الطاعة نحو رئيس أساقفتها فقط في القسطنطينية الذي كان اسمه جرمان German الذي في ضلاله ابتعد عن الإيمان الكاثوليكي، ودافع بجرأة عن العقائد الخاطئة للأغريق، وعن الأخطاء القديمة وكذلك عن الأخطاء المبدعة حديثاً، وعقيدتهم الحمقاء هي كما يلي:

هم يؤكدون أن الروح القدس لم تصدر عن الابن، بل عن الأب وحده، لأنه وجد مكتوباً في الكتابات المقدسة: «روح القدس التي صدرت عن الأب»، فضلاً عن ذلك هم يكرسون القربان من الخبز المختمر، وهم يعاكسون اللاتين ويخالفونهم في عدد من النقاط، ويمقتونهم، ويدينون الكنيسة الرومانية في عدة نقاط، وهم يولون بذلك أعمالها أكثر من أقوالها، وقام بناء عليه، مثل ابليس آخر، فأسس كرسيه في الشمال، أي أن تقول في القسطنطينية، التي هي المدينة المطرانية للأغريق، وكان بذلك ابناً ممسوخاً وباباً مضاداً، وسماها كنيسته، وأعلن أنها الأكثر جدارة، وقال أيضاً بأن الكنيسة الرومانية هي أختها، وليست أمها، لأن القديس بطرس، رئيس الرسل، كان قد أسس في الأيام الخالية كرسيّاً كاتدرائياً في أنطاكية، التي هي مجاورة للامبراطورية الاغريقية، وتابعة لها، وكان قد فعل ذلك قبل القدوم إلى روما، وأضاف أيضاً بأن أنطاكية أبدت كل التكريم والاحترام الذي كان في طاقتها إلى رسول المسيح، وبناء عليه وبسببه تشرفت ببنيلها اسم «ثيوفيلوس» (Theophilus) في حين قامت روما بعد كثير من الالهانات، وأعمال تمرد كبيرة، فحكمت على بطرس المذكور، وعلى تابعه الرسول بولص بالموت، وهكذا كان الذي ظهر من الجانب الاغريقي وجرى التعبير عنه هو التشريف والاحترام، في حين كان ما ظهر من الجانب الروماني وجرى تقديمه هو عدم الاحترام والالهانة، ولذلك فإن الاغريق يستحقون عن جدارة وبموجب الحق، أن يدعوا باسم «الأبناء»، والرومان باسم «أبناء الزوجات»، والذي يمكن استخلاصه من محتوى

الرسائل المقبل ذكرها، أن رئيس الأساقفة جرمان المذكور قد رغب في جمع إغريقه واللاتين — أي الرومان — مع بعضهم، من أجل أنهم بعد سماع الحجج المقدمة من الطرفين المتنازعين، يمكنهما الوصول إلى طريق ما للتفكير، وفقاً له يكون مؤيداً لحجج، أو يكون سلطة تثبت مواقفهم، وبذلك يمكن للكنيسة كلها التي تقاتل في سبيل الرب، أن تدعى كنيسة واحدة ومتمحدة، وأنه وفقاً لما رسمه مخلصنا، يمكن أن يكون هناك راع واحد وقطيع واحد في جميع أرجاء العالم، ولهذا السبب كتب جرمان المذكور، إلى البابا بما يلي:

رسالة جرمان رئيس أساقفة القسطنطينية

إلى غريغوري البابا الروماني

«إلى الأعظم قداسة، والأكثر فخامة، البابا لروما القديمة، وأسقف الكرسي الرسولي، من جرمان، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة القسطنطينية في روما الجديدة:

آه يامولاي يسوع المسيح، امنحني الخلاص، وآه يامولاي الرب أعطني نجاحاً طيباً، لأنني أرى فيك، وأعدك، الشرف، وحجر الزاوية الثمين المنتخب بمثابة أساس لهذه المناقشة التي يمكن أن تجلب الخلاص إلى جميع العالم، لأنني قد تعلمت بوساطة النبي اشعيا، بأن كل واحد يؤمن بك بأنك هذه الحجرة، سوف لن يرتبك بأي شكل من الأشكال، كما لا يمكن تحريكه من أساس أهله، وهذا هو الصدق، وما من أحد يتجرأ على معاكسة ذلك، ما لم يكن تلميذاً لأبي الكذب، وعملك أنت الذي هو حجر الزاوية، أن تتولى توحيد الأشياء التي نأت عن بعضها بعضاً، أو توحيد الذين اختلفوا فيما بين بعضهم بعضاً، وأن تجمع الأشياء التي افرقت عن بعضها في وحدة الإيمان، فأنت الذي بشرت بإنجيل السلام إلى هؤلاء الذين يسكنون في القرب وفي البعد، وأنت الذي برفع يديك فوق الصليب، قد

جلبت نهاية طرف الأرض إلى الاستقامة، وبعد ذلك، حسب عادة الرب رفعتهم فوق كتفيك، وبناء عليه إنني أتوسل إلى رحمتك الواسعة، أنت الذي هو كلمة الأب الكلي القدرة، والذي هو من الجوهر نفسه في حكمة الرب، عمّر في صرح هذه المناقشة، وكن أنت أساسها وسقفها، فأنت وفقاً للقول الرباني ليوحنا، البداية والنهاية، البداية التي لا يسبر غورها، والنهاية لكل شيء، فهكذا مددنا صلواتنا، وهكذا رفعنا في المقام الأول أبصارنا إلى الجبال السماوية، التي صلينا من أجل أن تأتينا المساعدة منها، ثم نتوجه بعد هذا بحدِيثنا إليك أيها البابا الأعظم قداسة، الذي حصلت على رئاسة الكرسي الرسولي، تطف وانزل قليلاً من مجدك العالي، واصغ إلى كلماتي، أنا الذي ذي قيمة صغيرة، والتعيس في كل من الحياة والطريق، إذا كنت —كما أقول— تشابه الذي يسكن في عليين كرب، وينظر نحو الأسفل على الأشياء الموجودة هنا تحت، ومن هاهنا أنا سوف أبدأ:

· إن الحكمة المبهمة للرب، التي عملت من لاشيء كل شيء، قد أبقتهم دوماً داخل الحدود، وحكمتهم بشكل عقلائي، قد عملت منذ زمن مضى عادة في أقل المناسبات، لبناء أشياء عظيمة على ذلك، وكأن الأساس قد أرسى منذ زمن طويل مضى، فيوسف قد بيع في مصر مقابل فضة، بعدما أُلقي في الحب، ورمي به بعد ذلك في السجن، والأحداث التي تلت، وكم كانت مجيدة ومشرفة، وكيف تمجد الرب في وسط ذلك، هي معروفة بشكل جيد من قبل الفهم الحكيم لعقلكم، أيها الأب الأعظم قداسة، والذي يريد هذا الخطاب أن يشير إليه، ويقصده ويستهدفه، هو الرهبان الذين هم موجودين، والذين عددهم يساوي عدد العذارى الحكيمات، والذين اجتماعهم الخطير، وسجنهم غير العادل قد لفت انتباهنا له، وهذا مأسوف نبينه إلى قداستك، ذلك أن مصباح أعمالهم، مع النور الصادر عنه، أشع نحو الأمام من أجل مجد الأب السماوي، وهم بحكمة يزودونه دوماً بزيت الأعمال الطيبة، حتى لا ينطفئ نوره، ولكي لا يغرقوا هم

أنفسهم في الكسل، وبذلك يرفض قبولهم إلى الملكوت، وهم جميعاً بلا عصي، وبلا نعال، ولكل واحد منهم ملابسه الخاصة، وأنا أعتقد الآن — وفقاً للرسل — أن أقدامهم جميلة، حيث أنهم يبشرون بانجيل السلام بين الاغريق واللاتين، وهم من الممكن باختصار دعوتهم، وكأنهم بلا أي عبء، أكثر الساعين رشاقة وأسرعهم، مبادرين بسرعة نحو الرب، الذي هو هدف جميع الرجال الصالحين، وعند وصولهم إلى الهدف، سوف يتوقفون عن الركض، ويتسلمون جائزتهم التي تشوقوا إليها كثيراً، وهؤلاء الرجال، الذين بالنسبة للرب يدعون بالفرنسيسكان، لكونهم متحدين برغبة واحدة، وبمقصد واحد، ولأنهم مثل ذلك قد امتازوا برقم خمسة، هؤلاء قد ظهروا بمثابة شارة طيبة، وأعطوا أملاً جديداً — برضا الرب — بالوحدة والوئام، لأنهم تأسسوا بين خمس بطريركيات، وهؤلاء الرهبان أنفسهم، قد التحقوا ببيتنا، كما أعتقد بموجب الحكمة الربانية، التي توزع جميع الأشياء لخير الفوائد والمنافع، وبعد مرور مناقشات من على الطرفين بيننا، اتجه الخطاب وتحول قبل كل شيء، نحو الشقاق القائم منذ أمد طويل، في ثوب التقوى الذي لانظير له، والذي نسج هكذا من الأعلى إلى الأسفل، وهو الثوب الذي ألبست به أيدي الرسل الكنيسة الكاثوليكية للمسيحية، ولم تكن أيدي الجنود هي التي أقدمت على تمزيقه وتقسيمه، بل خلافات اللاهوتيين هي التي فعلت ذلك، والتصددع كبير، وله سنين طويلة قائماً، وليس هناك من أحد لديه رحمة نحو قرينة المسيح، المرتدية لثوب ممزق، أو التي سوف تبكي على تعاستها، وهذا — كما أعتقد — قد رثاه داوود أيضاً في ميراثه، حيث قال في كتاب المزامير: «لقد تفرقوا دون ندامة»، وإذا ما أردنا أن نشعر بالندامة، ينبغي أن نحزن وأن نشعر بالأسف، وإذا كنا سنواجه الاضطراب والحزن، علينا أن نتوجه بالدعاء إلى اسم الرب، ومادمنا ننشد عونه، سوف يقدم إلى مساعدتنا، وكأنه وسط تلاميذه، يجلب الهدوء والسكينة إلى الذين هم على خلاف، ويقوم عدم الوفاق في أفكارهم، أو لم تكن أحشاؤه هي التي تمزقت؟ أوليسوا هم

أسفين بسبب عدم اتفاقهم؟ نعم هم كذلك كثيراً، لأنه هو الأب، والأعظم قداسة بين جميع الآباء، ولا يمكنه تحمل رؤية أبنائه ييكون بشكل متبادل، ويدمر أحدهم الآخر، وفق هذه الطريقة العدوانية، وأن يرى أحدهم وقد إلتهم من قبل الآخر، على طريقة الأسماك، لأن العظيم قد ارتقى فوق الأدنى، والأعظم قوة يظلم الضعيف، فهل مثل هذا تعلمنا من قبل صياد السمك ذاك، الذي هو بطرس، والذي هو على عكس متقدميه، اقتاد الذين أمسكهم بشبكته من الموت إلى الحياة؟ واأسفاه، من الذي سوف يعطي ماء إلى رأسي، ونبعاً من الدموع إلى عيني، حتى أبكي ليل نهار على دمار القدس الجديدة، خارج أمم الكنيسة المجتمعة؟ وكيف نحن الشعب المختار من الرب قد انقسمنا إلى يهود واسرائيليين، ومديتينا إلى القدس والسامرة؟ والحال نفسه كما وقع في قضية قابيل وهابيل، أو عيسو ويعقوب، اللذان كانا أخوين بالولادة، ولكن عدوين بالعقل، وهكذا عادى أحدهما الآخر، الحال هذا نفسه واقع الآن بيننا، وأنا حزين لإقحام هذه الأشياء في رسالتي، خشية أن أبدو وكأنني أجرح أولوية أخوتك، أو أن يظن بأنني أسعى للاستيلاء على حق الولادة للمولود الأول، وعلى كل حال، لم يصبح «أبي» مسناً، كما أن عينيه لم تغدوا غير بصيرتين، لكنه يسكن في السماء، وبوضوح يرى جميع الأشياء، وعلى الذين ظلموا بشكل غير عادل، قد أضفى تبريكاته، وهذه الأشياء في الحقيقة مؤلمة، وإلى انسان ذي فهم، هي الدودة التي تقرض عظامه، إذا ما استحضرت مراراً إلى الذهن، والذي بقي ليقال هو أكثر مرارة وحدة، وأكثر مضاء بالقطع من أي سيف ذي حدين، ضد أية طائفة من الناس جرى توجيهه، سواء أكانوا إغريقاً أم لاتيناً، وماذا هذا؟ دعونا نسمع الذي قاله بولص: «وسواء أكننا نحن، أو ملاك من السماء، يبشر بانجيل آخر إليكم، غير الانجيل الذي بشرنا نحن به، فليلعن»، ولقد ضرب بالسيف الذي هو من هذا النوع أكثر من مرة، وهو من الممكن أن يجلب علينا حزناً أعظم، للمرة الثانية أيضاً، بضربة ثانية، والذين يخافون الموت على أرواحهم، يطلبون الطبيب، وبعد هذا ماذا

يمكنني أن أقول أكثر؟ دعونا نطرد كل اهتمام آخر وقلق من عقولنا، مثلما نفرض الغبار من على أقدامنا ودعونا نستخدم كل مساعينا، لنكتشف من الذي أصابه هذا السيف المرعب، وذي الحدين، والذين فصلهم عن اتحادهم بأطراف الكنيسة، التي المسيح هو رأسها، فإذا كان قد أصابنا نحن الاغريق، أرونا الحز، وأزيلوا الدم من الجرح، واستخدموا رباطاً روحياً لربطه، واحفظوا إخوانكم الذين هم في هذا الخطر، خشية أن يهلكوا، وهكذا اتفقوا مع سليمان الذي ضرب هذا المثل «الصديق وقت الضيق»، ودعونا أولاً وبشكل رئيسي نصغي إلى الرب نفسه، الذي أعطى حكمة إلى سليمان هذا المذكور، والذي قال من خلال النبي:

«كل من يفصل الثمين عن الرخيص سوف يكون وكأنه عظمي»، ولكن إذا كنا نحن الاغريق من دون ندبة ومتحررين من الجرح بهذا السيف، سيف اللعنة الكنسية، وإذا كان قد جرد ضد الايطاليين واللاتين، وقد رفع من أجل قتل البعض ولتدميرهم، نحن نعتقد أنكم لن تسمحوا لأنفسكم بالانفصال عن جانب الرب، من خلال الجهل، أو العناد الشرير، فكل واحد منكم يؤثر عن طوعية تحمل عشرة آلاف موت، إذا كان ذلك ممكناً، على هذا الانفصال، وبما أن كل من الخلاف الكبير، والتباين بالمواقف والتضاد بالآراء، هي المدمرة للأحكام الشرعية، أو المغيّرة للعادات التي أورثنا إياها آباؤنا، وهي أيضاً مواد السياج التي فصلت هذه الأشياء، التي كانت من قبل متحدة بروابط السلام والوئام، فالعالم كله سوف يعلن بصوت واحد، وهو يدعو الرب، والسموات والأرض لأن تشهد بأننا رجونا بأعظم إخلاص لأن نتحد يداً بيد معكم، أو أنتم معنا، بالقيام بتقص يقظ، وأن نمحص بحثاً عن الحقيقة حتى القعر، وأن نطلب مساعدة الروح القدس، حتى لانكون عرضة مدة أطول إلى شقاق مخز مماثل، وأن يتحدث بسوء عنا من قبل اللاتين، أو أنتم تشتمون من قبل الاغريق، وأن نتمكن من الوصول إلى اللب الحقيقي للصدق، فإن عدداً

كبيراً من الرجال الأقوياء والنبلاء سوف يطيعونكم، إذا كانوا لا يخشون الظلم غير العادل، وطلب استخراج الأموال الذي تمارسونه، والخدمات غير المستحقة التي تطلبونها من الذين هم خاضعون إليكم، ونظراً لأن الحروب الوحشية تقوم بين واحد ضد آخر، فهي مصدر دمار المدن، وإنه لهذا السبب وضعت الاختتام على أبواب الكنائس، ونظراً لنشوب الانشقاقات بين الرهبان، فإن عمليات خدمات الكهنة قد توقفت، ولذلك فإن الرب لا يمجد في البلاد الاغريقية وفق الطريقة الصحيحة المتوجبة، وواحد من الأشياء — كما نعتقد — قد منح منذ زمن طويل، ووصف إلى الاغريق من عليين، هو حتى الآن مطلوب، وهو زمن الشهادة، وعلى هذا إن الوقت الذي قد بات الآن وشيكاً هو وقت افتتاح منابر القضاء، وأن توضع أختام المنازلات، من أجل تدفق الدماء، ومن أجلنا نحن لكي نصعد إلى ميدان الشهادة، وأن نقاتل قتالاً جيداً حتى نتسلم تاج المجد من اليد اليمنى للرب القدير، وإن جزيرة قبرص الشهيرة تعرف أن الذي أقوله هو صدق، فهي تعرف، وهي قد أنتجت شهداء جدد، ورأت جنود المسيح، الذين عبروا أولاً البحر، وتطهروا في حمام الدموع، وبالتعرق اجتازوا أخيراً، وعبروا حتى من خلال النار، واقتيدوا من قبل الرب — الذي أشرف على قتالهم — إلى مكان الاستراحة السماوية، أوليست هذه الأشياء جيدة أيها البابا الأعظم قداسة، وخليفة الرسول القديس بطرس؟ وهل فرض بطرس التلميذ اللطيف والمتواضع للمسيح هذه الأشياء؟ وهل هكذا وجه الشيوخ عندما كتب: «إنني أحث الشيوخ الذين بينكم، ذلك أنني أنا شيخ، وشاهد على آلام المسيح، وكذلك شريك في المجد الذي سوف يظهر؟ أطعموا قطع الرب الذي هو بينكم، واعتنوا به، ليس بالكره بل بالطواعية، ليس من أجل ربح قدر، بل بعقل جاهز، وليس على شاكلة سادة على ميراث الرب، بل بمشابة مثل للقطيع، وعندما سيظهر الراعي الرئيس، سوف تتسلمون تاجاً للمجد لا ينبغي ولايتلاشى»، فهذه عقيدة بطرس والذين لا يطيعونه سوف يرونها، وقد نلنا تهدة كافية وترضية

بذلك الجزء من رسالته، التي أمر فيها الحزينين، لأن يكونوا مسرورين تحت مغوياتهم المتنوعة، بقوله: «بأن محنة إيماننا أغلى بكثير من الذهب الذي يتلف، علماً بأن المحنة بالنار، يمكن أن تلقى المديح، والتشريف، والمجد، عند ظهور يسوع المسيح»، وامنحني عذراً، أيها السيد الأعظم قداسة، والأكثر رحمة بين جميع أسلافك لروما القديمة، وتحمل كلماتي، مع أنهم يحملن كثيراً من المرارة، لأنهن تنهدات قلب متألم، وقد منح الغفران إلى الرجال المستقيمين، الذين بسبب الحزن العظيم في القلب، انفجروا يتفوهون بكلمات مزيجة بالتنهدات، وبناء عليه احزم أمرك واشدد عزمك، وأضئ مصباح رشدك، وانشد الدرهم المتعرض للتلاشي من أجل وحدة الايمان، وسوف نكون متعاطفين مع قداستك، وسوف لن نوفر جسدنا الضعيف، ولن نسامح أنفسنا من مرافعة العصر القديم ولن نعفيها، كما أننا لن نشكو من الرحلة الطويلة، لأنه كلما كان العمل الذي نقوم به متعباً، كلما توفر هناك سبب من أجل عدة تيجان من المجد، لأن كل واحد سوف ينال مكافأته وفقاً لتعبه، كما قال بولص بأن المصارع العام في الحلبة مع منتصر خاص ينالان تاجاً للمجد، ونحن لسنا جاهلين، أيها الأب الأعظم قداسة، أنه كما نحن الاغريق، في الطريق نفسه، نسعى نحو مراعاة العقائد (الأرثوذكسية) المستقيمة والتقوية في كل شيء، وكذلك حتى لانضل فنبتعد عن أحكام الرسل والآباء المقدسين، كذلك تفعل كنيسة روما القديمة، حسبما نعرف بشكل جيد، فهي تناضل من جانبها حتى ترى نفسها لم تتخذ في أية نقطة، وهي تؤكد أنها ليست بحاجة لا إلى الانقاذ ولا إلى التقويم، وهذا نعرفه، لأنه قد قيل في كنيسة الاغريق، وكذلك في كنيسة اللاتين، ولأن ما من أحد يمكنه أن يرى شيئاً قبيحاً في وجهه، ما لم ينظر في المرأة، أو يجري إخباره من قبل شخص آخر، كيف يبدو هو في وجهه، سواء أكان قبيحاً أم غير ذلك، ولدينا الكثير من المرايا الواسعة، وأعني بذلك الانجيل الواضح للمسيح، ورسائل الرسل، وكتب الآباء المقدسين، ودعونا ننظر فيهم، فهم يظهرون كيف يشعر كل انسان، سواء أكان بشكل

غير شرعي أم شرعي، هذا وإن كل من يستدعى إلى المرأة ليقوم بمحاولة، سوف عندما يتعد يعترف — وإن كان من غير رضى — بأن وجهه قد تشوه، وأن رب السلام، سوف يكدم الشيطان تحت قدميه بعد وقت قصير، الذي هو صانع الخلاف، والذي هو السلام، الذي هو سبب جميع المحاسن، سوف يكدم الذي يكره الصلاح، ويسبب الخزي، ولعل الذي هو رب السلام أن يرسل إلينا، الذين هم رعاة لشيأهه العاقلة، وملائكة السلام لتعلن الفرح العظيم، كما فعلت من قبل لرعاة الشياه البهيمية، عند ولادة المخلص بالجسد، وأن يجعلنا جديرين بأن نغني أغنية المدح تلك، أي: «المجد للرب في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وحسن الإرادة نحو الناس»، ولأن يحبي الواحد الآخر بقبلة مقدسة، وليكن معكم مجد مولانا يسوع المسيح، وسلام الرب الأب، والصلة الحميمة للروح القدس. آمين».

رسالة منه نفسه إلى الكرادلة

«من جرمان الذي هو بنعمة الرب، رئيس أساقفة القسطنطينية، روما الجديدة، إلى الكرادلة المشهورين، والأعظم قداسة واستقامة، شرف الكرسي الرسولي:

إنه بالفعل هناك فائدة كبيرة إلى العالم، ونافع جداً إلى جميع الناس، لأن نجتمع معاً، ونعقد مجمعاً، من أجل ترتيب المسائل، لأن ما أخفاه الرب أحياناً عن انسان ما، قد أباحه وكشفه إلى آخر، وهكذا إن كل ما كشفه من صلاح إلى أي انسان، إنه عندما يجلب لمنفعة الجميع ومعرفتهم، يجري تداوله، بدرجات متزايدة لصلاح الحشود التي هي رعية له، ولئن كانت هناك عدة من المختلفين بالرأي، لكنهم رجال متعلمين ومخلصين عاقلين، كم كان عظيماً الربح، وكم كانت كبيرة المنافع التي حصلت إلى جماعة الخاضعين لهم؟ لأن الانسان الذي يعمل من دون مشورة يعاكس نفسه، كما قال سليمان بصدق: وعلى هذا إنه من جهة أخرى، كل من لديه نصيحة

طيبة يجذب أصدقاءه إليه، ويدني أعداءه ويقربهم من الصداقة معه، وكون هذا هو خطة ربانية وسماوية، النبي اشعيا هو شاهد على ذلك، حيث دعا الجوهر المتجسد لكلمة الأب، والملاك العظيم للحكمة، بأنه المستشار محط الاعجاب، حتى يمكن أن نفهم حقاً وبالواقع، كم هو ضروري في مسائل تتعلق بالرب، تمييز الفوارق بين الأشخاص، لأنه تبعاً للطبيعة اللاهوتية، هناك إرادة واحدة للأب، والابن والروح القدس، ولذلك يحصل كثيراً من التشريف إلى الذين ينصحون بأشياء جيدة، لأنهم من هذا يحصلون على اسم بالاشتراك مع الرب، إذا ما أعطوا مشورة من أجل الخلاص البشري وفقاً لما هو مقبول منه، وعلى هذا، مع موافقة الحكمة في عليين، التي توزع الأشياء كلها، تبعاً لأحسن المنافع، نجد أن روما قد وضعتكم في السلطة عليها، كجديرين بعظمتها ومجدها، وقد تفوقتم على جميع الكرادلة الآخرين من أسلافكم في الحكمة والتدين، وذلك حسبما أخبرنا إخواننا رهبان الطوائف الدينية، وبتواضع كما نحن، إنني أرجوكم القيام للدخول في الصراع الروحي، والبسوا دروع وسوابع الروح، ودمروا حاجز العداء القديم القائم بين كنيسة الاغريق وبين كنيسة اللاتين، لأن أسلحتكم قوية لتدمير أعمال من هذا النوع، وبعد إزالة هذا الحاجز طمئنوا الأطراف الممزقة، واربطوها مع بعضها في وحدة السلام، والخير، والإيمان المشترك، وتلك الأشياء التي فرقت لسنوات طوال، وكونوا أنتم أيضاً نصحاء جديرين بالثناء ومقبولين لدى الرب، أمام البابا المقدس والسامي، الذي هو رجل متوافق مع رغباتكم، معروف عنه أنه مسالم، ولطيف بالروح، وتبعاً لاسمه، هو دائماً متيقظ، ودائم الصلاة، ومداوم على خدمة مولاة، حيثما تحرك، حتى يجعله جديراً بأعلى مراتب السعادة، والذي هو في بساطة قلبه يغذي أفراد شعب المسيح، وبوساطة يديه سوف يقودهم إلى مراعي الجنة، لأنه بالأيدي كما تعلمون، وحسبما جاء في الكتابات المقدسة، صممت العملية، ونحن في الحقيقة في الآمال والوعد الصحيح للمسيح، الذي أكمل الصديق في ضعفنا، وقد شرعنا بأعمال الوحدة، ونحن مرسلون

رسائل إلى صاحب القداسة البابا، وانني أصلي لملك السماء، الذي ارتدى شكل العبد، لصالحنا نحن عبده الذين بلا فائدة، والذي صلب، والذي رفع إلى مستواه الذين سقطوا في أعمال التعاسة، ليزيل من قلوبنا كل تكبر بالتفكير، هذا التكبر الذي رفع ذاته معادياً لاتحادنا الأخوي، ونأمل أن ينير أفهامكم بنور المعرفة، حتى نتكلم موحدين والشيء نفسه، وأن لا يكون بعد الآن تمزق بيننا، وأن نستمر نحن فنلقى التوجيه بعقل واحد هو العقل نفسه، وأن لا يقال بيننا كما قيل بين المسيحيين القدماء: «أنا من أتباع بولص، وأنا من أتباع أبولو، وأنا من أتباع كيفاس Cephas وأنا من أتباع المسيح»، بل أن نكون جميعاً من أتباع المسيح، بحكم أننا نعرف باسم المسيحيين، لعلنا أيضاً نبقي نتلقى التوجيه من قبل واحد ومن قبل العقل نفسه، وأن نمارس تقديم الصدقات، التي هي تبعاً لشرعية المسيح، أن نضع في أفواهنا كلمات الانجيل التي هي: «رب واحد، إيمان واحد، وتعميد واحد» ولعلنا نتمكن من الاعتراف بالصدق، وأن نجعل منكم أصدقاء لنا، حتى تتمكنوا أيضاً من الاعتراف بها، كما كتب «إن كلمات الانسان الحكيم، الذي يقول الصدق، ويبرهن على الصدق مثل المسامير تثبت في الأعلى»، وغالباً ماينجب الصدق الأعداء، وذلك ومع أنني أخاف، ولكن سوف أعترف، بأن فصم اتحادنا قد نشأ عن طغيانكم وعن ظلمكم، وعن الإملاء القسري للكنيسة الرومانية التي عوضاً عن كونها أمّاً صارت زوجة الأب، ومثل طائر جشع جرى طرده عن فراخه، وطرده فراخه وأبعدهم عنه، وكلما ازدادوا تواضعاً، ونزعوا نحو الطاعة، كلما ازداد دوساً عليهم، وزاد من معاملتهم بالشر، والنظرة إليهم نظرة سوء، دون الاصغاء إلى قول الانجيل بأن «الذي كلما زاد من تواضعه، استحق الرفعة أكثر»، وبناء عليه دعوا الاعتدال يضبطكم، ومع أن الشره الروماني قد استقر فيكم لوقت قصير، دعونا نهبط إلى أمان الصدق، وبعد أن نقوم بفحص دقيق بالصدق، بالنسبة لما يتعلق بطرفي المسألة، دعونا نعود إلى اتحاد ثابت، لأننا كنا كلنا نحن الاغريق واللاتين، منذ وقت مضى، نتبع الإيمان نفسه، ونتقيد

بالأحكام الشرعية نفسها، في فرض السلام بيننا أنفسنا، يقاتل كل منا في سبيل الآخر، ومسبيين الفوضى لأعداء الكنيسة، وعندما رأت الشعوب التي قدمت أيضاً إلى ما بيننا من الشرق، أنها وجدت مكاناً آمناً للالتجاء إليه، هربت بكل سرعة إلينا، وقسم منهم إليكم، أي إلى روما الكبيرة، بحكم كونها حصن حصين لا يتزحزح، وتلقوا الطمأنينة من على الجانبين، وهكذا باحسان متبادل جرى تلقي الأخ في صدر الأخ، وعندما جرى الاستيلاء على روما من قبل شعوب أخرى، تولت الامبراطورية الاغريقية تحريرها من طغيانهم، وقد فرّ آغابتوس Agapetus وفيجيلوس Vigil- ius لبعض الوقت إلى القسطنطينية، بسبب الخلافات في روما، واستقبلا بحفاوة ومنحوا الحماية، مع أنكم لم تقدموا لنا قط مأوى، ولم تمدونا بالمساعدة، عندما كنا في وضع صعب، وإنه — على كل حال — واجبنا أن نتصرف بشكل جيد حتى نحو الجاحدين، لأن البحار هادئة من أجل القرصان، والرب يجعل الشمس تشرق على المستقيم وغير المستقيم، وأأسفاه، ووأأسفاه، بأي انفصام مرّ قد انفصلنا، فابتعد أحدنا عن الآخر، وتجنب كل واحد التحالف مع جيرانه، وكأنه معرض لخطر، وماذا بعد هذا يمكن أن نقول؟ إذا سقطنا، أقيمونا وانفضوا بنا، ولا تعملوا مجرد عمل جسدي بالنهوض بنا من سقوطنا، بل اعملوا معنا أيضاً من أجل خلاصنا الروحي، ولربما سوف نعترف بأننا ندين لكم بالشكر، لكن إذا كان الاثم والشروع بالعدوان قد جاء من روما القديمة، ومن خلفاء الرسول بطرس، اقرأوا كلمات القديس بولص التي خاطب بها الغلاطيين حيث قال:

«لكن عندما قدم بطرس إلى أنطاكية واجهته وجهاً لوجه لأنه كان سيّلام»، وهناك أشياء أخرى قالها بولص فيما بعد، فيما يتعلق بطرس، لكن ينبغي أن نعتقد بشكل تقوي، أن مقاومة هذا النوع لم يكن السبب في أي خلاف، أو نزاع حاد، بل كان بالحري تفحصاً ومناقشة عميقة، أثارت

لطافة دنيوية، ذلك أنهم كانوا متحدّين بالمسيح بروابط عاطفية، وبإيمان متماثل وعقيدة متشابهة، ولم يتعدوا عن بعضهم بموجب أي طموح أو شره، ونحن في هذه المجالات نشابههم ومثلهم، ولكن ذلك بعث تفكيرنا نحو العدوانية، بأنكم فغرتم أفواهكم سعياً وراء الممتلكات الأرضية، كلما استطعتم جرفها وجمعها مع بعضها، وجمعتم الذهب والفضة، ومع ذلك أنتم تقولون بأنكم تلاميذ الذي يقول: «أنا ليس لدي لأذهب ولافضة»، فأنتم ترغمون ممالك لأن تكون تابعة لكم ودافعة للجزية إليكم، وأنتم تكدسون الأموال بالمقايضات المشبوهة، ولا تعملون بأفعالكم التي بشرتم بها بأفواهكم، ولذلك دعوا الاعتدال يضبطكم، حتى تكونوا مثلاً لنا، وكذلك للعالم أجمع، وأنتم تعلمون كم هو عمل صالح أن يعان الأخ من قبل أخيه، وإنه الرب وحده هو الذي لا يحتاج إلى نصيحة أو عون من أي واحد، لكن الناس يطلبون أن يعان كل واحد من قبل جاره، وبها أنني أحترم بطرس الرسول العظيم، الذي هو رأس رسل المسيح، وصخرة الإيمان، أود أن أعيد إلى ذاكرتكم كيف أن هذه الصخرة قد هزت إلى أساسها، وحركت من قبل امرأة منحطة، وذلك بإذن المسيح، وذلك وفقاً لأحكامه التي تنبأ بها بجميع الأشياء، وأحكامه هذه عميقة جداً، وهو الذي بصوت الديك، أعاد إلى ذاكرة بطرس كلمات النبوة، وأيقظه من نوم اليأس، ولدى استيقاظه، غسل وجهه بالدموع، واعترف إلى الرب، وإلى جميع العالم، وصار مثلاً بالصبر، حاملاً لفتاتيج ملكوت السماء، ويركض بحضور جميع الناس وهو يقول: «أوليس الذي يسقط ينهض ثانية؟ انهمضوا أنتم يامن سقطتم، وانظروا إليّ وأطيعوني، وأنا مبادر مسرع إلى الجنة اللاهوتية، التي امتلكت السلطة لفتح أبوابها»، وأنا أكتب هكذا إلى قداستكم، وإنني أذكر هذه الأشياء لأعيدها فقط إلى ذاكرتكم، لأنني أعلم أنكم قد وهبتم الحكمة كلها والمعرفة، وتتفوقون مع سليمان الذي كلماته هي هذه:

«أعط الفرصة إلى رجل حكيم، وهو سوف يكون أكثر حكمة، وعلم رجلاً صالحاً، وهو سوف يكون متشوقاً للتلقي»، وقد بقي شيء واحد سوف أضيفه، وعندها به سوف أنهي حديثي، وهو أن هناك شعوباً كثيرة تتفق معنا بالتفكير، وتتوافق في جميع النقاط معنا نحن الاغريق، وأول هؤلاء الأثيوبيين الذين يسكنون في الأجزاء الأولى من الشرق، ثم السريان، وآخرين هم أكثر نفوذاً وفضائلاً، مثل: Hyberians واللازي Lazi واللان، والقوط، والخزر، وحشود لاتعد ولا تحصى من شعب روسيا، والمملكة المنتصرة للبلغار، وهؤلاء جميعاً مطيعين لأمننا، وما برحوا محافظين لا يتزحزون في أورثوذكسيتهم القديمة، ونرجو الرب المقدس، الذي من أجلنا أصبح انساناً، وقد وضع على رأس الكنيسة، أن يقوم بجمع الأمم ثانية، وحشدنا في وحدة الإيمان ولم شملنا، وأن يجعل الكنيسة الإغريقية تتحد مع أختها في روما القديمة، لتمجيد المسيح أمير السلام، بوحدة للإيمان من أجل إعادة الأورثوذكسية، التي عليها اتفقوا منذ وقت طويل مضى، نأمل أن تعطيكم يد الرب القدير، أيها الكرادلة الأعظم قداسة، عواطف أخوية، وأن تقودكم جميعاً، حتى تصلوا ببهجة إلى ميناء السلام، ولتكن نعمة الرب معكم، آمين».

رسائل من البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أخيه جرمان المحترم، رئيس أساقفة القسطنطينية، تمنيات الصحة، والباركات الرسولية: لقد جرى تقديم رسائلك الأخوية إلينا وإلى إخواننا، من قبل رسولك، ولقد استقبلناهم بمشاعر طيبة ومناسبة، وتم فهم مقاصدهم تماماً، وقد عملنا ترتيبات لأن نرسل إليكم بعض رجال الدين من ذوي المعارف المجربة، ليحملوا إليكم كلام الحياة، وليشرحوا لكم ببيان أوفى رغباتنا، ولكن بقدر «ما يصدر عن الأكل اللحم، وعن القوي تصدر الحلاوة»، أو خشية أن يصدر عن فم الميت أسد، نحن نخجل أن نكتب بأن قرص العسل الذي

قدمه الأب قد ازدري، ولقد ارتأينا من المفيد أن نرسل بضع كلمات في جواب، خشية أننا إذا لم نفعل ذلك، قد يبدو بأن رسائلك قد ازدريت، لأنه عندما يصغي الرجل العاقل سوف يصبح أعقل، وإنه إذا ما فهم، سوف يستحوذ الحكومة، ومع أن محتويات رسالتك تعيد إلى ذاكرتنا بأن المسيح هو الأول، والأساس الرئيسي للإيمان، وهذا ما نعتز به، فبدون ذلك مامن شيء من الممكن إرسائه، نحن نود أن نذكر في المقام الثاني، وذلك كأساس ثاني، الرسل، والأنبياء، وأساسات صهيون في الجبال المقدسة، وسكان القدس السماوية، التي قيل بأنها تأسست على أسس الرسل والأنبياء، والأول بين هؤلاء والرئيس هو بطرس المبارك، وذلك ليس من دون سبب، وبامتياز خاص قد سمح له بأن يسمع من الرب قوله: «أنت سوف تدعى كيفاس، الذي ترجمته: الصخرة»، وبما أن قوة المشاعر الجسدية الكاملة مركزة في الرأس، الذي منه تتدفق من خلال معابر سرية أجزاء إلى كل عضو من الأعضاء، مثلما يصدر النهر عن النبع، وكذلك الطوائف الثلاث للإيمان، وهم: نوح، ودانيال، ويعقوب، يعني أن تقول الأساقفة من كل من الرهبان، والأشخاص المتزوجين، الذين قيل بأن حزيقال، الذي قيل بأنه شوهد كأشخاص لينقذوا، فبطرس الذي جرى تعيينه الصخرة، التي عليها قد بنى الرب ليس بيتاً من الخشب من جبل لبنان، وليس رواقاً من الأعمدة، وليس بيت ابنة فرعون، بل كنيسة من أجل الناس المؤمنين، الذين وقعوا في شباكها، وكأنهم من جميع كتلة السمك، أي من جميع الأنواع، فهو قد كان فعلاً أول الأوائل، الذي شرب من أنهار من ينباع فهم ربنا، التي لا بد أن وسائل الخلاص قد صدرت عنها، وبكل الصبر، والتبشير ليس بتمرد، وليس بمقاومة متعجرفة، لا بد لظلام الخطيئة أن يزول، والذي ذكرته لا يتعارض مع هذا، إذا ما قمت بالتمييز بين الزمان والمكان، وأن بولص قد وقف في وجه بطرس، مادام بإمكاننا أن نقرأ بأن هذا قد عمل من قبل الآباء الأورثوذكس، فبطرس، بمعرفته بالشرعية الموسوية قد سعى لأن يريح اليهود، وأبعد بولص الختان

بكل الوسائل التي كانت في طاقته، وناضل ليكسب الشعوب ويبيدهم عن هذه العقيدة الزائفة، وغير ذلك يمكن المحاجة بأن بولص عندما كان مسافراً خلال سورية وكليكية، وصل إلى دربه ولستره، فختن تيموثاوس، الذي ولد من أب من الأميين، ومن أرملة ذات إيمان صحيح، وفي المكان الثاني والثالث، من الممكن أن نستخرج من المناقشة، بأن بولص عندما أبحر إلى سورية وكان بصحبته بريسيل وأكويلا، قد خلق شعره في قيسارية، خوفاً من اليهود، ووفقاً للشريعة هو خلق هناك الشعر الذي أطاله بسبب نذر كان قد عمله، والذي يفعله النصارى بالعادة، الذين عملوا نذراً، وفقاً لأوامر موسى، وإذا ما فهمت يا أخي فهماً كاملاً سر عظمة ومنصب سلطة بطرس وبولص، وإذا ما قدرت غيرتهما، التي التمسّت أرواح الناس، سوف تجد أن هذين الرجلين الذي حوّلها الإيوان الواحد، والمعاناة الواحدة، إلى قرييين — بالحقيقة — أحدهما من الآخر، لم يختلفا في العقيدة، لا أثناء حياتهما، أو من بعد موتهما، لأنه مع أن بطرس وبولص قد مارسا عملهما بلغات مختلفة، وبطقوس مختلفة، حيث قدما الحليب إلى الأطفال، واللحم إلى الذين كانوا متقدمين بالسن أكثر، فقد عمل الأول بين العنيدّين من سكان اليهودية، وعمل الآخر بين الشعوب، ومع ذلك حينما حل الميعاد واكتمل الوقت، عمل الاثنان مع بعضهما بالروح نفسها، وبشرا لرب واحد، ولإيمان واحد، ولتعميد واحد، مع بقية أركان العقيدة، وفقاً للنعمة التي أضفيت على بطرس من قبل الرب، وذلك تبعاً لكلمات الرب، الذي تحدث إلى بطرس وإلى بقية الرسل قائلاً هذه الكلمات:

«كل الذنوب التي أنت تحللها، هم يحللونها منها، وكل ذنب أنت تبقيه، هم سوف يبقونه»، وكان بولص مرتبطاً مع بطرس، يتولى ممارسة أسرار وظيفته، ووفقاً للكلمات التالية، أعطيت السلطات نفسها إلى بطرس بشكل خاص: «إن كل ما ستربطه على الأرض سوف يربط في السماء، وكل ما تحله

على الأرض، سوف يحل في السماء»، وهكذا اعترف بمقام بطرس، ولذلك قدم إليه عادةً إياه الرئيس ونبع انجيل الرب في القدس، وبشر بعد ذلك بالاتحاد معه ومع آخرين بالانجيل وفقاً للوحي، حتى «لا يكون قد ركض عبثاً»، وقد تأكد الحال نفسه بكلمات ربنا التي تحدث بها إلى بطرس وحده، والتي فيها فرض: «إذا الأخ أذنب ضده، عليه أن يغفر له، ليس فقط سبع مرات، بل سبعة وسبعين مرة» وإليه وحده فقط، وبشكل واضح، عهد بشيائه، وقد امتلك فضيلة عظيمة في عمل المعجزات، حيث جرى وضع المرضى على أرائكهم وعلى فرشهم في الطرقات، وقد شفوا بظله، وتثبتت سلطته أيضاً بقوة أعظم بكلمات ربنا، عندما قال له: «أبحر نحو الأعماق»، وأتبع ذلك بوضوح أكبر عندما قال له: «ألق بشباكك لرمية واحدة»، وإنه بناء عليه، وعلى أساس سمو إيمانه، الذي صدقاً اعترف بطبيعتين في مسيح واحد، عندما قال: «أنت المسيح، ابن الرب الحي»، بطرس تسلم وحده على الأرض مفاتيح ملكوت السموات، وبما أن هناك رب واحد، وإيمان واحد، وتعميد واحد، وبداية واحدة، وجسد واحد للكنيسة المحاربة، وأن جسداً برؤوس عدة، يعدّ أمراً غير عادي، وواحداً من دون رأس، هو من دون بداية، ويبقى بالنسبة لحكومة الكنيسة العالمية، التي جمعها بطرس المذكور بالاتحاد مع بولص من بين الاغريق واللاتين والبرابرة، أنه من المتوجب — كما سلف القول — أن يتولى الرب تعيين رئيس لها، وأن يوضح من الذي سيخلفه، وهو — على كل حال — رأى متنبئاً بأن الكنيسة سوف يداس عليها من قبل الطغاة، وسوف تتمزق بوساطة الهرطقات وسوف تتفرق بالانشقاقات، فقال له: «إنني صليت من أجلك يا بطرس، حتى لا ينهار إيمانك، فأنت عندما تحولت متنت إخوانك»، ويستخلص من هذا بكل وضوح أن جميع قضايا الإيمان ينبغي أن تحال إلى كرسي بطرس، ولكن لنستخدم كلمات رسالتك الخاصة، نحن نقول بأسف إن الثوب الطويل والذي لادرزة له ليوسف الحقيقي، قد جرى الاقدام على تمزيقه، ليس بأيدي الجنود، بل بعواطف أشخاص لا هوتين، ولذلك دعنا نرى

من الذي مزقه، حيث أنه ما أن انفصلت الكنيسة الاغريقية عن الاتحاد والكنيسة اللاتينية، حتى بادرت على الفور إلى خسران امتيازات حريتها اللاهوتية، وهي التي كانت من قبل حرة، صارت عبدة للسلطة المدنية، وهكذا كان بقدر من الرب، أن الكنيسة التي لاتعترف لبطرس بالأولوية اللاهوتية، عليها أن تتحمل الحكم المدني، وإن كان ذلك من دون رضا، وفي ظل هذا القدر، انزلت أشياء كثيرة مكروهة — ليست من دون أهمية — بدرجات، وآمنت واعترفت بإيمان لاقيمة له، وجدت فيها المشاعر الأخوية، وعادت مسرعة إلى حقل الفساد والفوضى، وعلى هذا — دون أن نوجه اللوم إلى أي واحد — أخفت ماهو شرعي تحت ماكان غير شرعي، وابتعدت عن معبد بطرس، وكأنها قد طردت من قبل الرب من قاعته، التي لم يقيم يوحنا — بالتوافق مع تحریم الرب — بقياسها بعضاه، لأنها أعطيت إلى الأميين، وهي كما ترى بوضوح جلبت إلى الاكتمال، وبسبب أن السامرة، أيضاً انفصلت عن معبد الرب، وعن يهوذا، وعن الاعتراف بالايان الصحيح، وأصبحت وثنية، فقد تلاشت بسبب الحروب المتواصلة، وانحدرت وتهاوت بسبب ثقل أوزارها وذنوبها (مع أن إيليا واليشع أشرقا هناك مثل مصباحين في مكان مظلم)، وأعطيت إلى الشعوب، وطردت عقوبة لها على تمرد لها وعلى وثنيها، لأنها بذلك فصلت نفسها عن الرب، هذا وإذا كانت الكنيسة الاغريقية، تعدّ نفسها بأنها تمتلك سلطة بولص، عليها إظهار ذلك، أو التعرف إليه، عندما ظهر مع بطرس، وبوساطة خليفة بطرس، ونائب يسوع المسيح، في كنيسة الرسل، التي بنيت من قبل قسطنطين، وقد أشير أيضاً إلى أسرار وظيفته، مع أنك في رسالتك قد ورد ذكر ذلك بمثابة سبب للنقد والملامة، من أن بطرس أنهض ثلاث مرات وأوقف بصراخ الديك، وقد جعل حاجب الجنة، من أجل أنه سوف يمتلك الأمر، يمكنه أن يعرف ويعاني ويتعاطف، وبفضيلة سلطته ردد ثلاث مرات: «لاتطعم نفسك، أطعمني، وأطعم شياهي» — وليس شياه الآخرين — حتى يتمكن أن ينقل إلى خليفته ويقدم له المثل

عن الراعي الحقيقي، وروح الرفق، وتقويم إفراط الناس، وإعادة وحدة الكنيسة، وأن يعطى إلى الشيطان أولئك الضائعين، وأن يعيد الشياه، وإن كان ذلك عن غير رضا، إلى الخطيرة الحقيقية، لكن إذا ما عدت — من منطلق الرحمة — كإسرائيل حقيقي، إلى أولوية الكرسي الرسولي، وإذا ما تحركت أحشاؤك بندم حقيقي، من أجل تقديم رداء يوسف الذي بلا درزة، ومن أجل استخراج، نحن نتعاطف مع آلامك، ومع الرسول نشاطرك حزنك، ونحن نقف لنقدم الشكر إليه الذي فتح عيني الابن الأعمى، وتوسل بتواضع إلى الذي أعاد الرؤية إلى عيني طوبيا، وذلك بوساطة مرهم صنع من صفراء سمكة، لإضاءة قلوب أتباع الكنيسة الاغريقية، وكذلك قلبك، وأن نعود بوساطة الحكمة الربانية، في أيامنا وفي أيامك إلى حظيرة واحدة، وإلى راع واحد، وبناء عليه قم يا أخانا العزيز، فخذ الكتاب الذي تقدم ذكره، والذي عمل من قبل يوحنا في رؤاه، وانظر فيه باخلاص، ومع أن ذلك سيؤلم معدتك بأشواك الندم، التي تنفذ في البداية فيها، إنها سوف تكون حلوة مثل العسل في فمك، وفقاً لكلمات العريس في المزامير قوله: «سوف تتردد كلماتك وترن في أذني، لأنها كلمات حلوة»، وبناء عليه، استشر ماتمليه عليك حكمتك، من دون أية أوهام، وعندما تنار، سوف تجد أن الكنيسة الرومانية، هي رأس جميع الكنائس وسيدها، وتبين أن لاشيء في المرأة، التي أتيت على ذكرها، أي في انجيل الرسل، أو في عقائد الرجال المتعلمين الآخرين، التي لم تأخذ لاتأويلاً أو تدبيراً، غير متوافق مع أحكام الآباء المقدسين، ومع الوحدة بالروح، وعند فتحك لهذا الكتاب، سوف تجد أن الحبر الروماني قد صار كل شيء إلى جميع الناس، حتى يكون الجميع سالمين، ومدعوين إلى محطته، ليس من أجل دراهمه القذرة، أو في سبيل رغباته، بل بوساطة أخوته، من خلال إلهام رباني، ومن أجل أن يصبح على الفور عبد عبيد الرب، هو قد وضع نفسه مع اخوانه، وقدمها بمثابة سور لإخوانه الرهبان، وأتباعه الأساقفة، وإلى الذين خاضعين لهم، في تصد للهراطقة، والمنشقين، والطغاة، وفي سبيل الدفاع

عن الامتيازات اللاهوتية، ومع أنه قد يكون هناك بعض الاستثناءات، مع ذلك إن كنيسة روما تتنفس في الأيام الحالية، متحررة من جميع غارات الفرقاء وحملتهم، لكن إذا كانت كنيسة الاغريق تستطيع (وأستخدم هنا كلامك) أن تتحمل بصبر الكلمات التي تغيظها، بالاضافة إلى المخاطر على الأرواح، التي تنشأ عنها، فإن هذه الاضطرابات يتوجب أن تكون كافية لإعطائهم حكمة كافية وإعادةهم إلى رشدهم، لأنه بأيديهم، قد انقسم النظام اللاهوتي إلى عدة أجزاء لشعوب متعادية في الشرق، وضعت نتيجة ذلك في أحوال فوضوية، ظلمت فيها حرية الكنيسة، أما كرامة رجال الدين فقد ديس عليها وصارت تحت الأقدام، وليس هناك من أحد بين أبنائها الأعزاء يقوم بمواساتها، لأنها — كما هو الحال — من دون رأس، وهم يرفضون العودة إلى رأس الكنيسة: «آه، عد بناء عليه، عد ياشوناميت Shunamite حتى يمكننا أن نعتني بك، لأنه وقتها، بالفعل يمكن للأخ أن يستعين بأخيه، وللأبن الذي يعيش منعزلاً، وقد استهلك كل ماله، أن يستيقظ بإلهام من الرب، ويقول: «أبي، لقد أذنبت ضد السماء، وأمامك، وأنا لست جديراً بأن أدعى ابنك، اجعلني بمثابة واحد من خدامك المستأجرين»، ووقتها يركض الأب لاستقباله، ليس كخادم، بل كابن عائد، و«يقدم إليه أجمل ثوب، ويذبح أسمن عجل»، ويعمل احتفالاً عاماً لجميع المؤمنين من أتباع المسيح، ويعلن بكل سرور وبهجة، بأن الأخ والابن الذي كان ميتاً، قد عاد إلى الحياة، وقطعة المال التي فقدت، قد وجدت، وهكذا سوف نحن نستقبلك في صدر أمك الكنيسة، وأنت سوف ترى بوضوح الصدق في مراة الصفاء، التي لا تتقبل الدنس أو الوسخ. صدر في ريت Reate الخ، في السنة السادسة [لحبريتنا]».

رسالة أخرى من البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى المبجل رئيس أساقفة الاغريق، تمنيات بالصحة ومباركات رسولية:

إنه لمن المقرر، أنه وفقاً لشهادة الحق، يمكن للخطيئة أن تقع، ويمكن أن يكون هناك جهل بالكتابات المقدسة، لذلك موائم للجميع أن يقرأوهم أو أن يسمعوهم، لأن كل ما أقحمته الالهامات الربانية فيهم، من أجل توجيه الأجيال المقبلة، قد رغبت بمناولته بمثابة وسيلة انذار إلى شعوب العصور الحاضرة، فانقسام القبائل في أيام يربعام — الذي كما قرأنا: «قد سبب أن تذنب اسرائيل» — يشير بوضوح إلى انشقاق الاغريق، وإلى الخشود البغيضة للسامرة، ويبين بشكل واضح خشود المراطقة المتنوعين، الذين انفصلوا الآن عن عبادتهم وعن تبجيلهم للهيكل الصحيح، الذي هو كنيسة روما، هذا وإن وجود خريسوستوم Chrysostom ونازيانزن Nazianzen وباسيل الكبير، وسيريل Cyril الذين تميزوا في مجالس المنشقين، كان برهاناً على الحكمة الإلهية، مثل إقامة إيليا واليشع، وأبناء الأنبياء بين الكفار الوثنيين، وبما أننا أوضحنا لكم بمزيد من التفاصيل، في الرسالة التي بعثنا بها إليكم مؤخراً، حول هذه القضية وقضايا أخرى، بشأن الأسباب التي أثرت أولوية كنيسة روما، نحن نضيف الآن هذه الفكرة، وهي إنه وفقاً لقراءة الانجيل، نحن نحمل السيوفين العائدين إلى الحبر الروماني، فعندما كان يسوع المسيح يتحدث إلى تلاميذه حول استحواذ السيف الروحي، أروه سيفين، كانا موضوعين هناك، وكانا عائدين إلى ربنا، وكانا يعدان كافيين لإرغام كل من العدوانين الروحي، والجسدي، وبما أنك تعترف بأن السيف المادي عائد إلى السلطة الدنيوية، أصغ إلى ماقاله مولانا بطرس في انجيل القديس متى: «ضع سيفك في مكانه»، وبقوله: «سيفك» قصد السيف المادي، الذي به ضرب بطرس خادم الكاهن الأعلى، أما بالنسبة للسيف الروحي، فما من أحد يمكنه أن يرتاب حول منحه له، وكان ذلك بوساطة السلطات ذات النوع الروحي التي عهد بها الرب إليه (أي القديس بطرس) أي سلطة الحل والربط، ولقد عهد بهذين السيوفين إلى الكنيسة، لكنها استخدمت فقط سيفاً واحداً، أما السيف الآخر فيكون تجريده، لصالح الكنيسة من قبل السلطة المدنية، أي

واحد يستخدم من قبل الكهنة، ويستخدم الآخر بناء على إرادة الكهنة من قبل الجنود، وإنه بناء على هذه المعطيات، ومعطيات أخرى، وبعد فحص دقيق للحقيقة، ولكي يكون من الممكن أن نجلب عواطف حقيقة بدلاً من الانقسام، رأينا من الموائم أن نرسل إليكم كحاملين لهذه الهدايا، الراهبين: هيوج وبطرس، من طائفة المبشرين (الدومينيكان) والراهبين: هيمون Haymon ورالف من طائفة الفرنسيكان، وهم رجال مشهورين بشكل رائع من أجل تدينهم وفضائلهم، وهم مشهورين باستقامة أخلاقهم، كما أنهم موهوبين بمعارف الكتابات المقدسة، وفق فحوى الرسائل التي تقدمت تسميتها أعلاه، ولذلك إذا ما ناقشتهم بجرأة، وتحادث معهم بلطف حول جميع النقاط التي هي موضع الاهتمام والمتعلقة بالقضية موضع المناقشة، من الممكن أن تسمع صوت العاصفة في العجلة، التي ظهرت تحت عجلة حزيال، وأن تشاهد، في البحر الزجاجي، بأن آدم واحد قد وضع في الجنة ليتمتع بها وليعتني بها، وأنه اتخذ لنفسه زوجة واحدة، وكذلك مولانا يسوع المسيح قد خلق في عدالة واحدة، واتخذ لنفسه قرينة واحدة، هي الكنيسة وكيف أن لامخ، الذي معنى اسمه «التواضع» عندما قسم زوجة واحدة إلى اثنتين، أصبح رجلاً دموياً، وقتل رجلاً لإيذائه، وكذلك عندما نقرأ عن سفينة واحدة، قد وجهت فوق الطوفان من قبل بطريك واحد، وأبقى أحياء عدداً صغيراً، لكن منتخباً من الأرواح، وكيف أن الرب أعطى للمرة الثانية شريعة لتكون مختلفة، مع أنها هي نفسها، وكيف أن وجهي اثنين من الكرويين، اللذان يظللان عرش الرحمة، لا يتزحزان عنه، بل ينظر أحدهما إلى الآخر، وكيف أنه كان لدى يوسف ثوب واحد، وأصل إلى قدميه، وكان لدى مولانا ثوباً بدون لفقة، وعلى كل حال، إذا كان اعتقادك يختلف عن اعتقادنا، وأعطيت منطقاً لازدواجية قداس القربان، قدّر بأن الاغريق واللاتين يحتفلون بأسرار خلاصنا بالطريقة نفسها، من خلال رب واحد هو يسوع المسيح، الذي خضع للآلام الانسانية، عندما اتخذ لنفسه طبيعة

انسانية من أجلنا، ولكن بعد موته تحرر من جميع الآلام، ويتبع الاغريق مثل التلميذ الصغير، وهم غير واعين للرحمة التالية، وهي الرحمة التي تذكر يومياً برحمة الرب، في أنه أصبح خاضعاً للآلام البشرية، وذلك باستخدام كميات من الخبز المختمر، في سبيل — وفقاً للرسول — أن الخبز المختمر يمكن أن يمثل الفساد الذي كان مولانا خاضعاً له، قبل قيامته، لكن اللاتين يتبعون أمثلة الرسول الأكبر، الذي هو القديس بطرس، الذي كان الأول في دخول الضريح، ونظر بالحري إلى القماش الكتاني الذي أحاط بجسده المقدس، أي الكنيسة، والمنديل الذي كان حول رأسه، ويحتفلون بقداس جسده الممجّد بشكل أكثر روعة، بوساطة خبز فطير من الاخلاص، وكلاهما على كل حال خبزان صرفان قبل القربان، ولذلك لا يمكن التفريق بينهما كفطير أو مخمر، لكن الأول من هذين هو الذي من المعتقد أنه خبز الحياة الذي نزل من السماء، وأعطى حياة إلى العالم، وهذه هي العقائد التي علمها الروح القدس، والمنطق الصحيح إلى الكرسي المقدس، وأنا أصلي، أنكم أنتم الذين تتبعون أمثلة التلميذ الأصغر، والذين رأوا واعتقدوا، أن تتمكنوا أخيراً من الدخول، وأن تفهموا كل شيء، حتى تغنوا معنا مزموّر داوود ذاك الذي جاء فيه: «قدروا كم هو أمر ممتع للإخوان ليسكنوا مع بعضهم في وحدة». صدر في اللاتيران، في السابع عشر من أيار، إلخ، إلخ.

كيف تخلى الاغريق عن الطاعة كلها للكنيسة الرومانية

مع أن الاغريق قد سمعوا هذه التحذيرات الودية، لم يهتموا بها، كما أنهم لم يخضعوا أنفسهم إلى الكنيسة الرومانية، ربما بسبب الخوف من طغيانها وشرها، أو لأمر آخر، فكانوا متمردين، وذلك تبعاً لكلمات الانجيلي، من أن الذين دعوا إلى العشاء لم يقدموا «لكن قدّموا بالإجماع الاعتذار»، فهم متواضعون في اعتذاراتهم، ولكنهم متكبرون ومتمردون في ممارسة أعمالهم، وحول هذا قام البابا وكرادته بإجراء مناقشات ومداولات، وحول هذه

المسألة، وقرروا ارسال جيش الصليبيين كله ضدهم، وبناء عليه جرى التبشير بحملة صليبية، وحمل بعضهم الصليب للزحف ضد الاغريق، وبشكل خاص ضد القسطنطينية.

وأصل هذا الشقاق، والخلاف بين الاغريق والكنائس الرومانية كان كما يلي:

كان هناك رئيس للأساقفة قد جرى انتخابه بشكل قانوني لتولي منصب رئاسة الأساقفة السامي لدى الاغريق، أو بالحري جرت تسميته هناك، فذهب إلى روما من أجل التثبيت، لكنه لم يتمكن من الحصول على سماع هناك من دون وعد بدفع مبلغ كبير من المال، مقابل الحصول على الذي طلبه، لكنه رفض السيمونية من ذلك البلاط المرتزق، وغادر دون الحصول على ماأراده وابتغاه، وأخبر بواقع الحال جميع النبلاء الاغريق، وجرى تقديم براهين أخرى من قبل آخرين كانوا قد ذهبوا إلى روما، وتحدثوا عن حالات مماثلة، أو أكثر سوءاً، ولذلك قاموا جميعاً، في أيام غريغوري هذا، بسحب أنفسهم من كل أنواع الخضوع للكنيسة الرومانية.

وفي الأسبوع الذي تقدم على عيد الميلاد، أقلع إدموند، رئيس أساقفة كانتبري وذهب إلى روما، ولم يرغب بالعودة، مع أن النائب البابوي استدعاه، ونتيجة لهذا أصبح منذ ذلك الحين معادين أحدهما للآخر.

وكان المناخ، خلال هذا العام كله عاصفياً، وغير مستقر، ومؤذياً للناس، وغير صحي، ولا يوجد في ذاكرة أي انسان، أنه تألم مثل هذا العدد من الناس من الحمى الربعية.

زواج سيمون دي مونتفورت من إليانور أخت الملك

سنة ١٢٣٨، التي كانت السنة الثانية والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في لندن، في ويستمنستر، حيث حدث أنه في اليوم التالي لعيد الغطاس، الذي كان يوم خميس، اقترن سيمون دي مونتفورت

بشكل مهيب بإليانور، ابنة الملك جون، وأخت الملك هنري الثالث، وأرملة وليم مارشال، إيرل بيمبروك، وجرى الاحتفال مع قراءة القداس في بيعة الملك الصغيرة، الموجودة في زاوية من حجرته، وعمل ذلك وولتر قسيس البيعة الملكية للقديس ستيفن في ويستمنستر، وقدم الملك شخصياً العروس إلى سيمون المذكور، الذي تلقاها وهو عظيم الامتنان، وذلك بسبب حبه النزيه، ولجمالها، وللشرف العالي المرتبط بها، ولسمو الانحدار الملكي لها كسيدة، لأنها كانت ابنة شرعية لكل من الملك والملكة، وبناء عليه إن الذين سيلدون من هذه السيدة النبيلة سوف يكونون من الأصل الملكي، وأعطاه صاحب القداسة البابا إعفاء معها، كما ستبين الرواية المقبلة ذلك.

وفي العشرين من كانون الثاني من هذه السنة، سمع رعد خفيف، قد ترافق مع رياح قوية، وغيوم كثيفة.

الامبراطور فردريك يكتب إلى الإيرل رتشارد بشأن قلقه

حول الحملة الصليبية

وفي حوالي الوقت نفسه، كان الامبراطور فردريك قلقاً حول تقدم الصليبيين، وإعداداتهم حول الزحف، وبشكل خاص فيما يتعلق بتقدم الايرل رتشارد، فكتب إلى الايرل المذكور كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنته المحبوب، رتشارد إيرل كورنول، تمنيات الصحة، وعواطف خالصة:

غالباً ما أقنعنا التقدم العام للأرض المقدسة ومنفعتاتها، الأمر الذي يعتمد على جهود الصليبيين، أن نقوم بوساطة الانذار لهم، وتوجيه الرجاء إليهم، وأن نحثهم على تأجيل عبور الصليبيين في مملكة فرنسا والأجزاء الأخرى من العالم، حتى انتهاء موعد الهدنة المقررة من قبل، أي من شهر آب المقبل

حتى نهاية السنة التالية، حيث نعتقد أن ذلك سوف يكون موافقاً لمساعدة الأرض المذكورة، ولمنفعاتها، وأيضاً لكرامة الذين سوف يعبرون إليها، ذلك أن عبور حشد ذي أعداد كبيرة جداً ينبغي أن يكون في وقت موافق، أي بعد الاحتفال المقبل بعيد القديس يوحنا المعمدان، يعني حتى ذلك العيد في العام المقبل، ويتوجب أن لا نمر بهذا كله صامتين، بما أن ثقل أعمال تحرير الأرض المذكورة يقع على أكتافنا، أكثر من وقوعه على أكتاف أي أمراء آخرين في العالم، وفي سبيل ذلك المقصد، نحن ملتزمون بتقديم المساعدة، وأن نصرف أموالنا، أي بأن نأخذ النصيحة مسبقاً، عندما يكونوا أنفسهم قد استعدوا بشكل كامل من أجل خدمة المسيح، مقدرين بشكل كامل جميع الظروف من دون إسقاط أي احتمال من الاحتمالات، وهؤلاء الأشخاص الذين أوقفوا قلوبهم وأجسادهم على خدمة الصليب، والذين يرغبون بتقديم مساعدة مفيدة إلى المصلوب، قد سألناهم حول هذه القضية من قبل رسلنا ورسائلنا، وقد أجابوا بحكمة وعقلانية على اقتراحاتنا، أنه حتى انتهاء الهدنة المتقدمة الذكر، سوف يستجيبون لطلبنا، ولذلك وافقنا مع كثير من الشكر على الحكمة التي ظهرت في جوابهم، وبناء عليه إنه صدوراً عن عواطفنا الأخوية في رؤيتكم شخصياً، وفي أن نحصل لكم على عبور مشرف، نحن نرغب إليكم ونرجوكم — إذا كنتم أحياء — أن تعملوا عبوركم في وقت موافق من خلال مملكتنا في صقلية، لأنه سوف لن يكون مرضياً لنا، إذا ما قممت برحلتك عبر أي طريق آخر، دون أن نراك، لاسيما وأن مملكتنا قائمة بشكل موافق جداً، ومن السهل أكثر، ومن المناسب فيها تأمين معابر من خلالها إلى بلدان ما وراء البحر. صدر في فيرسيلي Vercelli في ١١ شباط في الحادية عشرة من الخمس عشرة.

استدعاء النائب البابوي إلى روما وعدم عودته

وفي تلك الآونة، سمع قداسة البابا وبلاط روما كله، بأن اضطرابات

كثيرة قد تفجرت - في انكلترا، بسبب أعداد الأجانب الذين استدعاهم الملك، وبشكل غير حكيم أرسل خلفهم، وبسبب وصول النائب البابوي إلى هناك، الذي أيضاً جذبته الملك إلى انكلترا، من أجل إفقار رعاياه، وبسبب الرسائل الكثيرة الغاضبة ضده، لذلك جرى استدعاء النائب البابوي المذكور بسرعة كبيرة، لكنه لطف من قسوة اجرائه بالكتابة إليه كما يلي:

«من غريغوري، إلخ، إلى ابنه المحبوب أوتو، الكاردينال الشمس للقدس نيقولا، في سجن تولىان، ونائب الكرسي الرسولي، ثنيات الصحة، والتبريكات الرسولية:

لقد فهمنا بأن هناك بعض رجال الدين في مملكة انكلترا، الذين بين أيديهم عدة منافع، والذين من غير الممكن السير ضدهم، وفقاً لمراسيم المجمع العام، من دون إثارة الاضطراب في المملكة، وتسبب سفك الدماء، ومرد ذلك إلى قوة أقربائهم، وبما أننا نرى أنه لايجوز اقتراف الذنب حتى في سبيل تجنب الفضيحة، وأن العمل الطيب المتوجب صنعه يمكن أحياناً أن يتأخر لهذه الغاية، وإننا بهذه الرسائل الرسولية نفرض على استقامتكم، إذا كنتم لا تستطيعون السير ضد رجال الدين المذكورين من دون التسبب باقتراف الذنوب، أن تقوموا بتأجيل المسألة في الوقت الحالي»، وخشية من حدوث أي شيء سيء له، قام البابا بالرسالة نفسها، أو برسائل أخرى، باستدعائه للعودة على الفور، وكان النائب البابوي، يفضل على كل حال — أن يطيل البقاء في انكلترا، وأن يجني ما لم يكن قد زرعه، وبراعة تمكن من إعداد رسالة ومن ثم إرسالها إلى البابا، وهي تحمل أختام الملك، وأخيه الايرل رتشارد، وجميع الأساقفة، فهؤلاء جميعاً قد وضعوا أختامهم بمثابة برهان على صدق ما ذكره وصرّح به، من أن إطالة إقامته في انكلترا، كان فيها فائدة عظيمة إلى الملك، وكذلك إلى المملكة، وإلى كنيسة انكلترا، وعندما أرسلت هذه الكتابة إلى البابا جعلت عقله يرتاح.

إرسال الامبراطور رسالة إلى الإيرل رتشارد حول ولادة ابنه

وقام الامبراطور رتشارد في هذه الآونة، تعبيراً عن عواطفه، فكتب الرسالة التالية إلى الإيرل رتشارد، يخبره عن سروره، حيث أن ولداً قد ولد له، من قبل الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت أخت الإيرل المذكور:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه رتشارد، إيرل كورنول، تمنيات الصحة، وكل الأمان الطيبة:

لقد حدثت حادثة بهيجة، وهي حادثة تطلع الانسان إليها مع رغبات الجميع بشكل عام، وهي أعطية، لابل هي أعظم العطايا حمداً بين الأعطيات التي تلقيناها من كرم الطبيعة وهي التي بوساطتها تباركت صولجانات الملوك، ومع رغبة الخلافة، رأينا أنه من الموائم أن يكون معلوماً لديك مبكراً، ذلك أنه بسبب جدة البهجة، لم يسمح لنا ذلك بالتأخير، لأنه توجب علينا أن نوصل إليكم أخباراً جيدة، ونحن نفعل ذلك الآن مع هذه التقدمات، وهي أنه بتقدير وعطاء من عند الملك الأعظم، الذي يعطي المزيد والصحة إلى الملوك، في اليوم الحادي عشر من شهر شباط، قد ولد لنا صبي من الرحم المثمر لقريتنا الأوغسطة، وحفيد جديد قد أعطي لنا، ويشير ميلاده إلى مجد أبيه وخاله، ويجدد بهجة أمه، ويؤكد آمال رعايانا، وبهذا تمتنت العواطف الصحيحة المتبادلة، التي ارتبطنا بها بروابط المصاهرة، وهي تشير إلى زيادة ازدهارنا، وتحولت جودة قيصر مع الوقت إلى سرور وشرف الجماعة كلها، وحدث ميلاد هذا الطفل في وسط سرورنا، أثناء زحفنا السعيد في إيطاليا، التي تخضع الآن لسلطاننا، وعند انتصارنا على أعدائنا المنهزمين، رافق نجم سعيد هذه الأحداث الميمونة، وبما أن هذا الولد المنتظر طويلاً قد ولد في وسط هذه الأحداث السعيدة وانتصاراتنا، ونحن نثق به، الذي بعد ولادة ابنة من قريتنا المثمرة، أي أختك، قد منحنا ولداً ذكراً، وبذلك زاد بكرمه المجد القديم

لامبراطوريتنا، الذي كان قد تلاشى في الأوقات الماضية، وهو الآن قد نهض متجدداً بولادته، في سبيل شرفنا ومجدنا، وازدهارنا، ونحن نرغب لك، أنت الذي نعلم أنك تمنيت منذ وقت طويل ولادة هذا الابن الأخت المتوقع، أن تشاركنا بسرورنا، وبسرور قرينتنا الأوغسطة. صدر في تورين، في اليوم الثالث من آذار، في الحادية عشرة من الخمس عشرة.

هيجان النبلاء الإنكليز ضد الملك

وشعر الايرل رتشارد بسرور عظيم تجاه هذه الأخبار، وأعطى الحمد للرب، ذلك أنه كان يأمل، أنه سيحدث له مع مرور الأيام تقدم عظيم شخصياً ومنفعة كبيرة لمملكة انكلترا، من خلال هذه الحادثة، ولكن وفقاً لتقلب الشؤون البشرية، هو استثير من جهة ثانية، ووصل إلى حد الغضب، لأنه سمع بأن هذا الزواج قد جرى تثبيته بشكل سري، أي من دون معرفته، أو الحصول على موافقة النبلاء، وقد غضب كثيراً بشكل محق، وخاصة وأن الملك قد خرق أيمانه وحنث بها، ولا سيما يمينه عندما وعد بأنه لن يفعل شيئاً له أهميته، من دون الحصول على نصيحة رعاياه الطبيعيين ولا سيما هو نفسه، ولذلك هاجم الملك وحمل عليه بانذارات وتهديدات، وبذلك أعطى منفذاً إلى رفع شكاوى كبيرة، وعدم رضا ضد الملك، لأنه بتهور أدار الأعمال الهامة للمملكة، آخذاً بنصائح هؤلاء الأجانب، الذين كان قد أقسم من قبل على إبعادهم كلياً عنه، وأنه سوف يصرف الآخرين من جانبه، وهو لم يصنع فقط إلى مشورة وآراء سيمون دي مونتفورت، وج. ل. ايرل لنكولن، بل قام من دون تغاضي نبلائه، بفرض زواج غير مقبولة، فقد عمل سيمون، كما تقدم القول، وتدبر زواجا ليس شرعياً بينه وبين كونتيسة بيمبروك، وأخته، وجون ايرل لنكولن، ورتشارد دي كلير ابن كونت بولون، وابنته — ج. ل. الايرل المذكور — من دون معرفة الملك.

وعندما ثار الايرل رتشارد ضد الملك، التحق به الايرل غيلبرت

المارشال، وجميع إيرلات وبارونات انكلترا، والمواطنون والناس بشكل عام، وكان المأمول وقتها بثقة عظيمة أن يقوم الايرل رتشارد بتحرير البلاد من العبودية التعيسة، التي ظلمت بها من قبل الرومان، ومن الأجانب الآخرين، وقام جميع الفرقاء من الرجل الشيخ إلى الطفل بتكديس الآمال عليه، وما من أحد وقف إلى جانب الملك، باستثناء فقط هيوبرت إيرل كنت، ولم يتوفر خوف منه، وذلك بسبب أنه أقسم أنه لن يحمل سلاحاً قط، وكذلك بسبب تقدمه بالسن، وبسبب حذره الذي تبرهن في مناسبات متنوعة.

وعندما وجد الملك، كيف قامت القضايا، شعر بالذعر وأظهر ذلك، وأرسل رسلاً إلى كل واحد من نبلاء المملكة، وعمل بحثاً دقيقاً ليعرف إن كان بإمكانه الاعتماد عليهم من أجل المساعدة، وإليه أجابوا جميعاً، وبشكل خاص سكان لندن، بأن الذي بدأ به الايرل رتشارد، قد أعلن آخذاً بعين التقدير كرامتهم، ومنفعة المملكة كلها، مع أنه، أي الملك، لم يوافق على مساعيهم، وهم بناء عليه لن يقفوا ضد نواياه، وعندما وجد النائب البابوي هذا، ورأى بأن الخطر بات وشيكاً، شغل نفسه بأعظم يقظة واهتمام لمصالحة الملك مع رعاياه الطبيعيين، ونصح بشكل سري الايرل رتشارد الذي كان المحرض الرئيسي على هذا العنف، بأن يقلع عن مقصده، واعداً بأن الملك سوف يعطيه أملاكاً أكبر، وأن البابا سوف يثبت الذي منح إليه، مضيفاً أيضاً، أنه من الممكن أن تشور المملكة كلها ضد الملك، الذي هو أخوه، لكن الذي عليه هو الوقوف إلى جانبه من دون كلل أو ملل، ضد جميع الناس، وعلى هذا أجابه الايرل رتشارد:

«مولاي النائب البابوي، إنه بالنسبة لتثبيت أراضي العلمانيين، لا شأن لك ولا عمل، عليك الالتزام شخصياً بالمسائل المتعلقة بالكنيسة، ثم لا تندعش كون أوضاع المملكة قد أثارتني، لأنني أنا ولي العهد الوحيد، لأنه مع أن الملك كان مسؤولاً عن جميع الأسقفيات تقريباً، وعن كثير من

مواريث الدولة، مع ذلك لم تظهر على خزينته أية زيادة، في سبيل الدفاع عن المملكة، مع أننا محاطين بمختلف الأعداء من كل جانب، بالإضافة إلى هذا إن كثيرين أصيبوا بالدهشة، لكون الملك الذي دوماً هو بشكل رئيسي في حالة عوز، وحذر، لم يتبع آثار الرجال الواعين، فهو لم يتبع أثر الامبراطور، الذي إليه أعطينا أختنا بالزواج، مع مبلغ كبير من المال أملين بأن ذلك سوف يكون لمصلحتنا ومنفعتنا، لكنه احتفظ فقط بزوجته، وأعاد حاشيتها، من دون أن يضيفي على أحد أرضاً أو مالاً، مع أنه كان مليئاً بالثروة والغنى، ومثل آخر يمكن ذكره هو في قضية الملك الفرنسي، الذي تزوج من الأخت الكبرى للمكتنا، غير أن ملكنا الانكليزي هو على العكس قد سمّن جميع آل وأقرباء زوجته، بالأراضي، والممتلكات، والمال، وعقد نوعاً من الزواج، لا يمكنه معه أن يكون أكثر ثروة، لكن بالحري أكثر فقراً، ولذلك لا يمكنه الحصول على عون قوة عسكرية، إذا كان ذلك ضرورياً، وعلاوة على ذلك، سمح بالاستيلاء على الموارد وعلى المنافع اللاهوتية، التي كان أجدادنا الأتقياء قد منحوها (خاصة إلى رجال الدين) أو بسلبها، ومن ثم أن يجري توزيعها على الأجانب، مع أن هذه البلاد نفسها مليئة بالرجال المناسبين لتسلمهم، وباتت انكلترا، وكأنها كرم من دون سور، منها يجمع العنب كل من يعبر الطريق».

النائب البابوي يسعى إلى إقامة سلام بين الملك وبين نبلائه

ولدى سماع النائب البابوي هذه الكلمات، ذهب إلى الملك، ومعه بطرس أسقف وينكستر لتشجيعه، ولنصيحته، القيام بالخضوع إلى إرادة النبلاء وطاعتهم، وهم الذين نهضوا ضده لسبب عادل، وكذلك يسعون إلى تقويمه مرة أولى وواحدة بالتهديدات، ومرة ثانية بالانذارات، ومرة ثالثة بالالتماسات، ثم إن الملك عندما رأى أن حملاته لم تلق التأييد، وأن جميع الفرقاء قد مالت نحو أخيه الايرل رتشارد، حاول استخدام كل الدهاء الذي هو ممكن، وطلب وقتاً للتفكير

والتداول، من أجل أن يعطي جواباً أكثر مواءمة لطلباتهم، وبناء عليه واستجابة لطلب الذين سألوا ذلك (مع أن ذلك كان بعد صعوبات جمّة) منح وقتاً، حتى اليوم الأول، بعد الأحد الأول في الصيام الكبير.

إنهاء المشاورات كلها إلى لاشيء

ثم اجتمع النبلاء في لندن، في اليوم المحدد، بغية ترتيب هذه المسائل، وقدم كثير منهم مجهزين بالخيول والسلاح، من أجل أنه إذا مارغب الملك بالانسحاب من وعده، يمكن إرغامه على تنفيذ الشروط التي تقدم ذكرها، ثم إنه بعد كثير من المناقشات والحوارات بين عدد كبير من الحضور، أخضع الملك نفسه إلى تدبير بعض الفئات الأكثر قوة، وأقسم على الالتزام بقرارها، الأمر الذي جرت الموافقة عليه، وجرى تدوينه كتابة، ووضع عليه أختام النائب البابوي والنبلاء الآخرين، حتى تتم مشاهدته من قبل جميع الفئات بشكل عام، وقبل الفراغ من إكمال ترتيب هذه المسائل، وعندما كانوا معلقين ينتظرون، أخضع سيمون دي مونت فورت نفسه وتواضع لايرل رتشارد وبوساطة كثير من الوساطات، وبعض الهدايا، حصل على قبلة السلام من الايرل المذكور، الحال الذي أغضب كثيراً بعض النبلاء الآخرين، الذين جرت هذه المحاولة من دون رضاهم، والذين الآن بجهودهم تطورت القضية تطوراً عظيماً، وقام ايرل جون أوف لنكولن، وفق الطريقة نفسها، فأطفا غضب الايرل رتشارد، وبوساطة الالتماسات وكذلك الرشاوى، وأعطى ضماناً أنه سوف يعرض عليه من جميع الجوانب حول كل ماوقف به ضده، وبوساطة هذه الإجراءات غير النظامية، أعيقت الأعمال كلها إعاقة كبيرة، ولم تنل التنفيذ، بل زادت من تعاسات المملكة، ولطخت بالسواد، إلى درجة كبيرة سمعة الايرل رتشارد وظللتها، وبذلك صار عرضة للشك، وهو الذي كان من قبل محور قوتهم.

موت جوهانا ملكة سكوتلندا

وفي هذه الآونة، وفي الرابع من آذار، أغلقت جوهانا Johanna ملكة سكوتلندا، وأخت ملك انكلترا، التي قدمت إلى انكلترا لزيارة أخيها، حياتها، وقد دفنت في تيرنت Tarente الذي كان ديراً للراهبات، كان المبجل رتشارد، الأسقف الثاني لدرم الذي حمل هذا الاسم، قد أسسه، وبناه، ومنحه إلى الملكة إليانور، عندما قدمت إلى انكلترا. [لحق النص الأصلي هنا بعض الاضطرابات والخطأ، ومرد ذلك إما إلى النساخ أو إلى المؤلف نفسه].

سيمون دي مونتفورت يعبر بشكل سري من انكلترا

ورأى سيمون دي مونتفورت، أن قلبي الملك والايكل رتشارد، وكذلك قلوب جميع النبلاء قد تغربت عنه وجفته، ووجد أن الزواج الذي عقده مع أخت الملك، قد نظر إليه من قبل عدد كبير من الناس، وكأنه لم يكن موجوداً أو ملغياً، ولذلك انسحب وتواري وهو حزين جداً، وبعدما استحوذ على سفينة، أقلع بها خلصة، بعدما استخرج كمية كبيرة من المال من كل جهة من الجهات، ومن سكان ليسترشاير Lei-cestershire ومن سيمون دي كورلافاش Curlevache وقد جمع مبلغ خمسمائة مارك ثم إنه ذهب إلى بلاط روما، آملاً أن يتمكن بأمواله، أن يقنعه، ويحصل منه على إذن يسمح له بالتمتع بزواجه غير الشرعي، وقام أولاً بالخدمة تحت ظل الامبراطور، في سبيل أن يرضيه، وحصل منه على رسائل ليأخذها إلى البابا حول القضية، وجلست في الوقت نفسه كونتيسة بيمبروك مخفية نفسها، وكانت حاملاً، وأقامت في قلعة نيلوورث Kenilworth تنتظر نتيجة الواقعة.

حكم البابا في مسألة رهبان روكستر

صدر في هذا العام قرار حكم من البابا في قضية رهبان روكستر،

وذلك فيما يتعلق بالخلاف الذي نشب بينهم وبين رئيس الأساقفة إدموند، فيما يتصل باختيار أسقفهم، وصدر قرار الحكم لصالحهم، وكذلك فيما يتعلق بمسألة الإدعاء حول الممتلكات، وفي يوم عيد القديس كوثبرت Cuthbert جرى تثبيت انتخاب الأسقف المنتخب رتشارد أوف ويندوفر، وجمع رئيس الأساقفة هذا الرهبان، وقد أنهكهم التعب، ولم يبق معهم مال بسبب النفقات، وكانوا فضلاً عن هذا، قد عبروا الألب، حتى يمكن تسوية هذا الخلاف بشكل صحيح، حسبما يفرض القانون.

ومثل هذا، صدر في الوقت نفسه حكم ضد رئيس الأساقفة المذكور، الذي كان موجوداً آنذاك في بلاط روما، في مسألة خلافية مهمة، هي النزاع بينه وبين إيرل أوف آرونديل Arundel وأدين في القضيتين معاً بالنفقات، بحوالي ألف مارك، وقرار الحكم الذي كان صادراً ضد الايرل المذكور قد سحب، لأنه كان له عدو قوي جداً، تمثل في النائب البابوي أوتو، الذي كان قد حرض بفعالية الملك على هذا.

وصول امبراطور القسطنطينية إلى انكلترا

وقدم في العام نفسه إلى انكلترا، بلدوين امبراطور القسطنطينية، والابن الشاب لبطرس كونت أوكسري Auxerre ليطلب المساعدة، بعدما خلع ونفي من امبراطوريته، لكن عند رسوه في دوفر، أخبر باسم الملك، إنه كان عملاً غير لائق، ونصيحة سيئة لمثل هذا الأمير الكبير، أن يتطفل بالدخول إلى مملكة أجنبية، دون أن يعرف رأي الملك، ومن دون إذنه، وأن هذا قد بدا أشبه بالاستخفاف والتكبر، وكان هذا الوصول أيضاً غير مرض في نظر الملك ومستشاريه، لأنهم تذكروا كم من التشريفات والمنافع قد أضفتها انكلترا على الملك جون دي بريين أثناء قدومه إلى هناك، وكيف أنه لدى عودته إلى فرنسا، تصرف تصرف رجل شريـر وبلا وفاء، وخطط بشكل خياني ضد مملكة انكلترا، وكان

على كل حال، لدى مغادرته فرنسا، ولاستدعائه تحت طالع سيء، لاستلام السلطة الامبراطورية للإغريق، لم يتمكن من تنفيذ خطته الخيانية.

وإثر إخبار امبراطور القسطنطينية بهذه المسائل، بات أسفاً جداً لقدمه إلى انكلترا، واستعد لعودة سريعة، واشتكى في الوقت نفسه وعبر عن براءته إلى الملك، وعرض بتواضع أسباب رحلته، وبعدما سمع الملك هذا، وبعد تشاوره حول الموضوع، بعث برسالة إليه، قال فيها بما أنه لم يقدم كعدو يمكنه دخول المملكة، والقدوم إلى لندن، حيث هو شخصياً سوف يستقبله بتكريم مناسب ولائق، وبناء عليه، وصل الامبراطور في الثاني والعشرين من نيسان إلى لندن، والتقى بالملك في وودستوك، ونال منه قبلة السلام، وشرح إلى الملك، وإلى الايرل رتشارد سبب قدمه، ولدى فراقه لهما، أغني بكثير من الهدايا الثمينة، وحمل معه حوالي السبعمئة مارك.

خلاف بين النائب البابوي وبين باحثي اكسفورد

ووصل في هذه الآونة النائب البابوي إلى اكسفورد، واستقبل بتشريف هو الأعلى، وذلك حسبها هو جدير به، واحتفي به في بيت الكهنة الذي كان في أوسني أبي Oseney Abbey إلى حيث أرسل إليه السائحون الكهنة قبل وقت الافطار، هدية تكريمية، على شكل لحم وشراب، وساروا بعد الافطار إلى مكان إقامته ليقدّموا تحياتهم إليه، وليزوروه صدوراً عن الاحترام، ولدى وصولهم كان هناك بواب من بلاد ماوراء الألب، فقام بطريقة غير لائقة وبسلوك فج، فرفع صوته حسب طرائق الرومان، وترك الباب مفتوحاً قليلاً، وقال: «ماذا أنتم تريدون؟» وعلى هذا السؤال، رد الكهنة قائلين: «نحن نريد سيادة النائب البابوي، حتى نستطيع تقديم احتراماتنا له»، لأنهم اعتقدوا أنهم سوف يتلقون تشريفاً مقابل تشريف، لكن البواب رفض السماح لهم

بلغة مهينة وبفظاظة، وأهانهم بعجرفة وتشامخ، ولدى رؤية الكهنة ذلك اندفعوا نحو الأمام بغضب وشقوا طريقهم بالقوة، في حين سعى الأتباع الرومان إلى ردهم فضربوهم بقبضاتهم وبالعصي، وفي الوقت الذي كان فيه الطرفان مشتبهين يتبادلان الضربات والشتائم، حدث أن كان هناك شماس إيرلندي فقير، واقفاً عند باب المطبخ، وكان يفتش بحرارة عن شيء ليعطى إليه، باسم الرب، وفق طرائق الرجال الفقراء والجاهلين، ووقتها سمعه رئيس الطبّاخين لدى النائب البابوي (الذي كان أخوه، وكان قد وضعه على رأس تلك الوظيفة حتى لا يدس السم إليه، الأمر الذي كان النائب البابوي يخشاه كثيراً) لكنه لم يعبأ بطلبه، وعندما صار غاضباً من الرجل المسكين، رمى على وجهه بعض الماء المغلي الذي نضحه من فوق مرجل حيث كان لحم سمين يطبخ، ولدى رؤية هذا الأذى الذي لحق بالرجل الفقير، صرخ بصوت مرتفع واحد من الكهنة، وكان من سكان حدود ويلز: «عيب علينا تحمل أي شيء من هذا القبيل»، وفوق قوساً كان يحمله (لأنه عندما ازدادت الفوضى، حمل بعض الرهبان ماوصل إلى أيديهم من سلاح)، ورمى بنشابة منه، فخرق جسد الطباخ، (الذي دعاه الكهنة بطريقة هجائية باسم «نابوزردان Nabuzardan» ومعنى ذلك رئيس الطبّاخين)، ولدى سقوط الرجل ميتاً، ارتفع الصراخ، فأصيب النائب البابوي بالدهشة، وتلبسه الرعب، الذي يمكن أن يستبد بأشجع الرجال، فحمل نفسه إلى برج الكنيسة، مرتدياً لغطاء رأسه الشرعي، وأغلق الأبواب خلفه، وعند حلول الظلام، وقيام الليل بإنهاء الفوضى، خلع ثيابه الشرعية، وبسرعة امتطى أفضل خيوله، وقام تحت توجيه وارشاد بعض الأشخاص الذين يعرفون أكثر المخاضات الخاصة، فعبر النهر واجتازه من أقرب منطقة منه، ومع أن ذلك قد ترافق مع كثير من الخطر، فقد كان مقصده الفرار طيراناً إلى تحت حماية جناحي الملك، بأكبر سرعة ممكنة، لأن الكهنة الذين تعاضم غضبهم، تابعوا البحث عن النائب

البابوي في أكثر المخابىء سرية، وكانوا يصرخون:

«أين ذلك السيموني المرابي، الناهب للموارد، المتعطش للمال، والذي أفسد الملك، ودّمّر المملكة، وأغنى الأجانب بأسلاب أخذها منا؟»، وعندما كان النائب البابوي يسمع هذه الصرخات من مطارديه، قال في قرارة نفسه:

«عندما تركض الحماقة بسرعة كاملة

يطلب الرجل الحكيم ممراً لينأى بنفسه».

وبصبر تحمل هذه الأشياء كلها، وصار أشبه برجل لم يسمعهم، وكأنها ليست لديه قدرة على صدهم، وبعدما عبر نهر مع صعوبات جمّة (حسبنا ذكرنا أعلاه)، ومعه عدد قليل من المرافقة، بسبب صعوبة المجاز، بقي الآخرون في الدير، وقد وصل إلى الملك مقطوع الأنفاس، وفي حالة ذعر، مع الدموع والتنهيدات تقطع حديثه، وقد شرح للملك وكذلك إلى حاشيته سلسلة الأحداث التي وقعت، مقدماً شكوى جادة حول القضية، وحزن الملك لدى سماعه هذه الحكاية المؤسفة، وتعاطف كثيراً معه، وأرسل إيرل وارني Warrenne مع قوة مسلحة إلى أكسفورد، بكل سرعة لانقاذ الرومان الذين كانوا متخفين هناك، وللقيام باعتقال العلماء، وكان بين هؤلاء الأخيرين، واحد اسمه المعلم أودو، وكان محامياً، وقد اعتقل بخشونة، وأودع مع ثلاثين آخرين السجن بشكل مهين في قلعة وولنغفورد، على مقربة من أكسفورد، وبعدما تحرر النائب البابوي من المصيدة المحطمة، جمع إليه بعض الأساقفة ووضع أكسفورد تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وحرّم كنسياً جميع المحرضين على هذا الاثم العظيم، وبات السجناء الآن تحت تصرف النائب البابوي، فجرى نقلهم بعربات مثل لصوص إلى لندن، وهناك أودعوا سجناً ضيقاً، وقد حرّموا من مواردهم، وربطوا بالتكفير والحرمان.

مصالحة جامعة أكسفورد مع النائب البابوي

وكان النائب البابوي، الذي انطلق برحلة نحو شمال انكلترا، قد حوّل اتجاهه وعاد إلى لندن، وهناك نادراً ما تجرأ على الإقامة في المقر الملكي التابع لأسقف وينكستر حيث كان يقيم بالعادة، وأرسل الملك رسالة إلى مدينة لندن، بأن يقوم عمدة لندن مع جماعة سكان المدينة كلها، مع كتلة من الرجال المسلحين بحراسة متواصلة على النائب البابوي المذكور، وأن يحرسوه حراسة بؤبؤ أعينهم.

ثم استدعى النائب البابوي بفضل السلطة التي توفرت لديه، رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، للاجتماع به في لندن، في السابع عشر من أيار للبحث هناك في أحوال الكنيسة، وفي الوضع الخطير لرجال الدين، واجتمع الأساقفة في اليوم المتقدم على التاريخ المحدد، وتباحثوا حول الوسائل التي يمكن بها انقاذ مجموع رجال الدين كلهم، وكأنهم كنيسة ثانية، وتلطف النائب البابوي نحوهم أيضاً، واستعطفهم من أجل انقاذ الكنيسة الرومانية، حتى لا يقال نقداً، بأنه قدم من أجل إصلاح رجال الدين والكنيسة، لكنه بالحري أفسدهم، وأخيراً اقترح على النائب البابوي من قبل الأساقفة مع جميع رجال الدين الحضور، بأن ينطلق النقاش حول جماعته الشخصيين، ولكن لدى نهاية النقاش حصل رجال الدين على النتيجة السيئة، لأنه بناء على أوامره، ألقي شطر كبير منهم في السجن، أما البقية منهم، فكانوا على استعداد لطاعة أوامره، وكانوا جاهزين للتواضع والخضوع إليه، في مكان على سفر ثلاثة أيام من أكسفورد، فهناك — بناء على التماس عدد كبير من الرجال العظماء — يتوجب على عقله وتفكيره أن يميل نحو الرحمة، وأخيراً تمّ الاتفاق، بأن يمنح النائب البابوي رحمته، إنما على شرط، أن يقوم جميع الباحثين الذين اجتمعوا هناك بالسير على أقدامهم، بصحبة الأساقفة، أيضاً على الأقدام، من كنيسة القديس بولص، التي كانت على مسافة

تقارب الميل بعداً عن مقر إقامة النائب البابوي، وذلك حتى يصلوا إلى مقر إقامة أسقف كارآيل، وعليهم أن يذهبوا من هناك من دون أغطية رأس وأقبية، وحفاة، إلى مقر إقامة النائب البابوي، حيث سوف يلتمسون هناك العفو، الذي سوف يمنح إليهم، وسوف يصبحون متصالحين، وجرى تنفيذ هذا، ولدى رؤية النائب البابوي هذا التواضع والتذلل، استقبلهم ثانية في حظوته، وأعاد الجامعة إلى مقرها الإقليمي، وسحب برحة منه التعليق من شراكة المؤمنين مع قرار الحرمان الكنسي، ومنحهم رسائل، أنه من جانبه من غير الممكن تلطيخ سمعتهم في أي وقت من الأوقات.

وبعد عيد الفصح مباشرة في هذا العام، أرسل ملك انكلترا قوة من الجند، تحت قيادة هنري دي تربلفيل Troubleville الذي كان عسكرياً بارعاً جداً، لمساعدة الامبراطور ضد رعاياه العصاة في المقاطعات الايطالية، وأرسل مع هذه الوحدة العسكرية ج. ل مانسيل Mansel ووليم هاردل Hardel وكان محاسباً من سكان لندن، وقد بعث الملك معه مبلغاً من المال، حتى يوزعه بين المرتزقة، وبشجاعة قاتل جيش الملك هذا من أجل الامبراطور أثناء الصيف كله، حيث قهروا سكان بعض المدن التي قاومت، وأعادوا المدن إلى الامبراطور، وكان بين الذين ميزوا أنفسهم ج. مانسيل المذكور، وغضب البابا غضباً عظيماً تجاه هذا، وفي تلك الآونة أرسل ملك انكلترا رسالة إليه، رجاء فيها أن يتعامل بلطف أكبر مع الامبراطور، وجاءت ردة فعله على هذه الرسالة غاضبة بشكل جاد، وذلك بشكل غير معتاد الصدور عنه، وأثير وبلغ به الغضب إلى حد دفعه إلى الاستمرار به إلى وقت طويل، وإلى تعليق القضايا التي لها علاقة بالانكليز، وكان أسقف بلنسية عندما سمع بأن مثل هذا الجيش على وشك الإرسال إلى ايطاليا، قام بمكر وبراعة بالالتحاق باللورد هنري تربلفيل، كدليل لهم، وأبحر معه.

وعاد في العام نفسه بلدوين امبراطور القسطنطينية، الذي تقدمت الإشارة إليه أعلاه، بعدما حصل على مبلغ خمسمائة مارك من الملك، وعلى مبلغ كبير من الايرل رتشارد، إلى بلاده، وفي تلك الآونة أيضاً، وجد الأسقف المنتخب لبلنسية أن إقامته في انكلترا لم تعد موائمة ولا مقبولة فقام إما رغماً عنه، أو عن طواعية، فأقلع مسافراً ومغادراً البلاد، لكن ليس من دون حذر مناسب لأن خيوله كانت محملة، وكانت سروج دوابه مليئة بأواني ملكية من الذهب والفضة.

موت السلطان الأعظم قوة

وفي هذا العام نفسه، عندما كان السلطان [الكامل محمد] الذي كان السلطان الأعظم قوة على وشك الموت، وزع بكرم أعطيات وافرة، ومبالغ كبيرة من المال على المسيحيين المرضى، الذين كانوا قد بقيوا في دار الاستبائية، وأطلق سراح عدداً كبيراً من الأسرى المسجونين، وعمل أعمالاً أخرى كثيرة قدم فيها الصدقات، ثم لفظ أنفاسه، مما سبب الحزن إلى الكثيرين، لأنه وإن كان وثيقاً، كان — صدقاً نقول — رجلاً سخياً، كما كان (بقدر ما سمحت له صرامة عقيدته وشكوك جيرانه) رجلاً رحيماً نحو المسيحيين، وعندما سمع الامبراطور الروماني بهذا، بكى موته بدموع، لمدة طويلة، ذلك أنه كان يأمل — كما كان ذلك السلطان نفسه قد وعد — بأنه سوف يتسلم العمد، وأن المسيحية، سوف تتلقى بوساطته في وقت أو آخر كثيراً من الزيادة في ازدهارها.

سفر سيمون دي مونت فورت

من عند الامبراطور إلى البلاط الروماني

وحمل في الوقت نفسه سيمون دي مونتفورت نفسه، مع الرغبات الطيبة للامبراطور، ومع رسائل توصية منه، وتوجه إلى البلاط الروماني، وحصل هناك، بوساطة مبالغ لا حد لها من المال، والوعود،

على مرسوم من البابا — مع أن تعهده المهيب أمام ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، كان ضد ذلك — أن بإمكانه التمتع بزواجه غير الشرعي، وكتب قداسته، إلى النائب البابوي أوتو، أمراً إياه أن يعطي مرسوماً خاصاً لصالح سيمون دي مونت مونتفورت، ولدى سماع الراهب وليم دي أبيנגدون Abiingdon من طائفة المبشرين، بهذا مع رجال متعلمين آخرين، كانت لديهم غيرة على الرب، وكانوا واضعين لها، أمام أعينهم، رفعوا أصواتهم عالياً بلوم هذا القرار، مؤكدين بصدق، بأنه قد فرض فرضاً على قداسة البابا، وأن ذلك يعرض الأرواح للخطر، وأن هذا يثير المسيح ويدفعه للغيرة، ومع أن الفئة المعارضة قد أعلنت، بأن المرأة مثار النقاش، قد تكون لم تقدم على ارتداء الثوب والحجاب، لكنها أخذت الخاتم، الذي به تكرست، أو بالحرى زوجت نفسها للمسيح، وبالتالي اتحدت اتحاداً لا يمكن فصله بالمسيح الذي هو قرينها، وذلك كما هو واضح في الكتابة الأصلية في مراسيم المعلم بطرس، في رسالته حول «التعهدات» في الكتاب الرابع، الذي فيه بعدما قدم الأسباب وسلطات القديسين والشرائع مضى ليقول:

«يبدو من هذه الأشياء أن العذارى أو الأرامل اللائي ربطن أنفسهن بعهد منع الذات عن الشهوة الجنسية، سواء أخذن الحجاب أم لا، لا يمكنهن الزواج بأي حال من الأحوال، وهذا يتوجب فهمه وفق الطريقة نفسها، بالنسبة إلى جميع اللائي عملن عهداً بمنع الذات عن الشهوة الجنسية، والذي كان قانونياً قبل النذر، سوف يكون غير قانوني بعده»، ولعل البلاط الروماني قد امتلك — على كل حال — وجهة نظر أعمق بمعانيها مما يمكننا فهمه.

التتار يحتاجون البلدان الشمالية

وجرى في هذه الآونة، إرسال رسل خاصيين من قبل المسلمين،

وبشكل خاص من قبل شيخ الجبل، ولصالحه، إلى الملك الفرنسي، لاخباره بأن جنساً من البشر مربعاً وغير انساني البته، أخذ بالتدفق من المناطق الجبلية الشمالية، وقد استولى على البلدان الكثيفة السكان والغنية في الشرق، وقد أفرغ هؤلاء هنغاريا الكبرى من السكان، وأرسلوا رسائل تهديد، مع سفارات مرعبة، وأعلنوا بأن رئيسهم هو رسول الرب من عليين، قد أرسل لإخضاع جميع الشعوب التي تمردت ضده، ول هؤلاء القوم رؤوس كبيرة جداً، غير متناسبة تماماً مع أجسادهم، ويعيشون على الأسماك غير المطبوخة، لابل حتى على لحوم البشر، وهم رماة لا يمكن مقارنتهم، ويعبرون أي نهر بقوارب صغيرة معمولة من الجلود، وهم رجال أقوياء البنية، وضخمة هي أجسادهم، وغير أنقياء، وصلبين عنيدين، ولغتهم غير معروفة لدى جميع من نعرفهم، ولديهم قطعان كثيرة، ومواشي، ويربون الخيول، وحيولهم سريعة جداً، وقادرة على انجاز رحلة ثلاثة أيام في يوم واحد، ويتسلح الرجال منهم بشكل جيد من الأمام، وليس من الخلف، حتى لا يفرون، ورئيسهم رجل شرس جداً، اسمه خان، ويسكن هؤلاء في المناطق الشمالية، إما في جبال بحر قزوين، أو في المواضع المجاورة، ويعرفون باسم «التار» وذلك اشتقاقاً من نهر «تار»، وأعدادهم كبيرة جداً، ومن المعتقد أنهم أرسلوا بمثابة طاعون لبني البشر، ومع أنهم تدفقوا مهاجمين في المناسبات الماضية، يبدون في هذا العام في حالة هياج حادة أكثر مما هو معتاد، وسكان بلاد القوط Gothland، والفريزيين، مرعووين من حملاتهم، لذلك لم يقدموا إلى يارماوث Yarmouth، في انكلترا، كما هي عادتهم، في أيام صيد سمك الرنكة (من أنواع السردين)، حيث كانت سفنهم تحمل به بالعادة، ولهذا السبب، عدّ سمك الرنكة في هذا العام بلا قيمة، نظراً لكمياته الوفيرة، وقد بيعت حوالي أربعين أو خمسين سمكة، من النوع الجيد جداً مقابل قطعة واحدة من الفضة، حتى في أماكن بعيدة جداً عن البحر، وقدم هذا الرسول المسلم والنبيل القوي

الذي وصل إلى الملك الفرنسي، باسم جميع أفراد شعب الشرق، ولصالحهم، للإخبار بهذه الأشياء، وقد طلب المساعدة من الشعوب الغربية، من أجل صد هجمة المغول المرعبة، وخضد شوكتهم، وقد أرسل أيضاً رسولاً مسلماً من جماعته إلى ملك انكلترا، وهو الذي وصل إلى انكلترا وروى أخبار هذه الوقائع، وليقول بأنهم أنفسهم، إن لم يستطيعوا الصمود أمام حملات مثل هؤلاء الناس، لن يبقى شيء يمنع اجتياحهم لبلدان الغرب، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«لأنه عندما يحترق بيت جارك،

سوف بدورها تستولي النار على دارك».

وبناء عليه طلب المساعدة في حالة الطوارئ السريعة والعمامة هذه، حتى يتمكن المسلمون بمساعدة المسيحيين من مقاومة حملات هؤلاء الناس، وصدف أن كان أسقف وينكستر حاضراً آنذاك، وكان مرتدياً لعلامة الصليب، فقاطع خطابه، وأجاب مازحاً مستهزئاً قائلاً:

«دعونا نترك هؤلاء الكلاب يلتهم أحدهم الآخر، حتى يؤكلوا جميعاً، ويهلكوا، ونحن عندما سنزحف ضد أعداء المسيح الذين سيقبضون، سوف نقتلهم وننظف وجه الأرض منهم، وبذلك سوف يكون العالم كله، خاضعاً لكنيسة كاثوليكية واحدة، وسوف يكون هناك راع واحد لقطيع واحد».

موت بطرس دي روشي أسقف وينكستر

وفي التاسع من حزيران من العام نفسه، مات بطرس دي روشي Roches أسقف وينكستر، وكان قد أغلق حياته، بعدما حكم كنيسة وينكستر لمدة اثنتين وثلاثين سنة، وأيضاً بعدما قام بحجه بشكل معلن، إلى الأرض المقدسة، بصحبة أسقف إكستر Exeter وكان كذلك قد بنى عدة بيوت لأشخاص دينيين، وعمل عهداً نبيلاً، وكان

عندما مات متقدماً بالسن، وحدثت وفاته بعزبة فارنهام Farnham وقد دفن في كنيسة وينكستر، حيث كان خلال حياته، واختار قبراً متواضعاً، وبوفاته، فقد مجمع المملكة الانكليزية كله من ملكيين إلى لاهوتين خسارة لاتعوض، وينبغي أن لانسقط من الذكر، أن جميع التشريفات والمنافع التي منحت إلى الكنيسة، سواء أثناء السلام، أو أثناء الهدنة، أو حتى أثناء الحرب في الأرض المقدسة، عندما ذهب الامبراطور فردريك إلى هناك، كله تحقق بشكل نبيل وحكيم، وجرى تنفيذه بمشورة هذا الأسقف نفسه ومعونته، وإلى جانب هذا عندما تفجر الخلاف فيما بعد بين البابا وبين الامبراطور، وهدد حظ ومصير الكنيسة كلها، أعاد هو بسعادة، وبفضل نعمة الرب، السلام بين هذين الشخصيتين المشهورتين، وأسماء البيوت الدينية التي بناها، أو منحها ممتلكات، وأبنية، وموارد هي كما يلي:

في هيل Hales، لطائفة الـ Praemonstratensians، وتيكيفورد Tykeford للطائفة نفسها، وسيلبورن Selburn لطائفة القديس أوغسطين، يعني لكهنة نظاميين، والمشفى المشهور في بورتموث، وفي الأرض المقدسة أيضاً، حوّل كنيسة القديس توماس الشهيد، من مكان غير لائق، إلى موضع مناسب، وغيّر طائفة الرهبان في تلك الكنيسة إلى طائفة أكثر جدارة وقوة، فاعتماداً منه على مساعدة بطريرك القدس، فإن هؤلاء الذين كانوا من قبل علمانيين بالفعل واللباس، حملوا الآن الصليب على صدورهم، وهم خاضعين لطائفة الداوية، وحصّن يافا، وجدد مكان لجوء للصليبيين، وقد عمل ميثاقاً رائعاً، وقدم مبلغاً كبيراً من المال، لكل من الأماكن المتقدم ذكرها، وإلى بيت القديس توماس في عكا، الذي كان أصغر مبلغ منحه إياه هو خمسمائة مارك، وبالإضافة إلى هذا ترك إلى خليفته أسقفية غنية، واسعة في حقولها وقطعانها، وعندما سمع الملك بوفاة بطرس أسقف وينكستر،

تدبر تعيين وليم أسقف بلنسية المنتخب ليجري تعيينه في تلك الأسقفية، لكن المستشار رالف دي نيفيل، أسقف شيلستر، طلب بشكل محق — ضد رغبة الملك — من قبل دير وينكستر، الذي إليه يعود حق الانتخاب، وقام الملك بصرف هذا الذي رغبوا به من مستشاريته ومن بلاطه، وذلك بعدما أخذ منه الختم الذي كان معهوداً به إلى ذلك المستشار المذكور، بموجب نصيحة المملكة كلها، وتمكن بوساطة محاميه المستقرين في روما، وبانفاق مبلغ كبير من المال، من إلغاء طلب ذلك الدير، من قبل البابا.

حصار مدينة ميلان

وفي الوقت نفسه من العام، تابع الامبراطور حصار ميلان، وأثناء ذلك أرسل إليه تقريباً جميع أمراء المسيحية عساكر إضافية، فقد بعث إليه ملك انكلترا — ابن ختنته — مائة فارس، مجهزين بشكل جيد بالخيول والسلاح، تحت إمرة هنري دي تربلفيل، مع مبلغ كبير من المال، وبأمر أيضاً الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أجاد معرفة الأسلحة الدنيوية، أكثر من الأسلحة الروحية، إلى هناك مع الفرسان الذين بعث بهما كونتا طولوز وبروفانس لمساعدة الامبراطور، ومن المدهش لكثيرين أن الامبراطور، الذي أحاط به ذلك الحشد الكبير من النبلاء، قد بدد وقتاً طويلاً في الحصار، مع خسائر كبيرة، باستثناء أنه في معركة واحدة، استطاع فيها هنري دي تربلفيل، مع الراية المنتصرة للملك انكلترا، ويتبعه الجنود الانكليز الذين كانوا تحت إمرته، بشجاعة وتمكن من صدّ حملات الأعداء، وأرغمهم على فرار بلا أمل، ولذلك أعاد الامبراطور الشكر إلى الملك بوساطة رسالة بعث بها إلى الملك، وأعلن بها بأن ذلك القتال الشجاع، كان السبب بسلامته وكرامته، وبعد أمد وجيز، توجه مع جيش كبير لإلقاء الحصار على بريشيا Brescia فأهالي ذلك المكان كانوا يمدون الميلانيين بالمساعدات، أثناء وضعهم المتأزم آنذاك، ولم يكن

الميلانيون، في الوقت نفسه كسالى، حيث أحاطوا مدينتهم بخنادق عميقة، وتابعوا مراراً تقديم العون إلى سكان بريشيا، وهكذا جرى تبديد فصل الصيف، وعلى هذه الصورة انتهى، وبناء عليه لدى اقتراب الشتاء، تمّ الاتفاق على عقد هدنة، بموافقة كلا الطرفين، والذين جاءوا لتقديم المساعدة إلى الامبراطور، غادروا دون أن يحققوا هدفهم، وغدا الامبراطور نفسه الذي لم يتمكن من قهر مدينة بريشيا، واخضاعها لتكون تحت حكمه، مع أنها كانت مدينة صغيرة بالمقارنة مع المدن الأخرى، غدا أقل إخافة لأعدائه، وأدنى احتراماً من قبل أصدقائه.

عودة ادموند رئيس أساقفة كانتربري من بلاط روما

وعاد في حوالي ذلك الوقت نفسه، ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، من بلاط روما، ووصل إلى انكلترا، ومع أنه غادر انكلترا مع موافقة المجمع الديري، فقد حصل من البابا على مرسوم لصالحه، وضد رهبان كانتربري، وبسببه نشب خلاف متقطع وغير معلن بين الراعي وقطيعة، وعانت الكنيسة من كثير من الخسائر، وقلة الكرامة، والتعليق، ووصمة العار، وسوء السمعة، وبناء عليه جرت دعوة النائب البابوي لتصحيح هذا الشقاق، وأثناء تروّسه هيئة الكهنة في كانتربري، وبسبب أن كتاباً كان يحتوي على الامتياز الذي تمّ الحصول عليه في أيام القديس توماس، جرى حرقه بشكل أحرق من قبل بعض الأشخاص، قام بعزل رئيس الرهبان في ذلك المكان، وبعث به إلى طائفة أكثر قسوة وخشونة، حتى يقوم بممارسة أعمال توبة مستمرة، وأبعد أحد الرهبان لأنه (كما قيل) قد أزال بشكل سري من الامتياز المتقدم ذكره، الأشياء التي ظهرت بشكل واضح أنها ضد الرهبان، وأقحم أشياء أخرى بدت بأنها تخدم مصالحهم، ولأن مثل هذا المسح في ذلك الكتاب الأصيل لم يكن لينجو من ملاحظة الأشخاص الذين فحصوه بدقة، قام أحد الرهبان بشكل أحرق بإحراق ذلك الكتاب، وذلك حتى لا ينال الدير

وصمة العار والتزييف، وبناء عليه عندما أشار رئيس الأساقفة إلى ذلك الكتاب، وطلبه، وعندما لم يتم العثور عليه، عملوا اعترافاً صحيحاً بالذي وقع، واشتعل النائب البابوي — وهو محق — غضباً، وعقوبة على مثل هذه الغلطة العظيمة (حسبما تقدمت الإشارة أعلاه) طرد رئيس الرهبان وعزله من منصبه، وأبعد بعضاً من الرهبان الذين ظهروا بأنهم مجرمين، وأمرهم بأن يعيشوا بانضباط أعظم، وبتوبة مستمرة، وبعد ذلك، لأن رئيس الرهبان دخل إلى بيت الكهنة مع بعض العلمانيين لعمل انتخاب ضد العادة المعمول بها بالبيت، انتخب مجمع الدير رئيساً عليهم من دون موافقة رئيس الأساقفة، ثم سمع رئيس الأساقفة بهذا، فلم يوافق عليه، وألغى الانتخاب، ولم يكتف بانزال عقوبة التعليق، بل إنه حرم كنسياً رئيس الرهبان المنتخب مع الناخين، لكن مجمع الدير، ترفع بجرأة واشتكى حول هذه القضية إلى البابا ضد رئيس الأساقفة.

الملك يسعى لتثبيت انتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية ليكون أسقفاً لأسقفية وينكستر

واستخدم الملك في هذه الآونة (مع أنه غالباً ما أقسم من قبل على صرف الأجانب وعلى عدم تقديم العون لهم) كل الوسائل الممكنة، وأكثر مما ينبغي، وبالوسائل غير الصحيحة، في سبيل ترقية وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، وانتخابه (وهو الرجل الذي وصف بأنه كان دمويًا) لتسلم أسقفية وينكستر، لكن هذا رفضه الرهبان بين أنفسهم، وهم الرهبان الذين إليهم يعود حق الانتخاب بشكل معلوم، وذهبوا إلى الملك — كما جرت العادة، يطلبون الاذن بانتخاب أسقفهم — وقبل أن يعطيهم الملك أي جواب، رجاهم انتخاب وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي دعاه باسم عمه، ولم يوافق الرهبان، وطلبوا منحهم وقتاً للتداول حول القضية مع بقية أعضاء المجمع الديري، الذي يعود إليهم حق الانتخاب، وشعر الملك أنه بمنحهم هذه المهلة فإن التماساته سوف

تسقط من دون تأثير، فتحول إلى مكره المعتاد، وفي رد على التماس الرهبان قال:

«لقد أخبرت بأن اثنين من شمامسة أسقفيتكم في وينكستر متوجب عليهما الحضور أثناء انتخابكم، وأنا لأرى هذين في القضية الحالية، ولذلك لا يمكنني الاستجابة إلى التماسكم»، وعلى هذا رد الرهبان بأنهما «وإن كان من المتوجب حضورهما أثناء الانتخاب (الذي يبدو لنا أنه سخيّف ولا يتماشى مع العدالة) هما لا يحتاجان للحضور أثناء التقدم بالطلب للانتخاب»، ومع أن الملك وقف عند هذا الأمر طويلاً وتفكر به، هو لم يستطع معارضة مطلبهم، لكن بعد مضي بعض الوقت، علم بشكل يقيني بأن الرهبان يرعون بشكل جاد فكرة انتخاب وليم دي ريل Rael وكان رجلاً جديراً كله بالثناء، ليكون أسقفهم، فغضب غضباً عظيماً، وأجابهم بسخرية: «أنتم رفضتم الأسقف المنتخب لبلنسية، قائلين بأنه كان رجلاً دمويّاً، وانتخبتم الآن وليم ريل، الذي قتل بلسانه رجلاً أكثر مما قتله أي انسان آخر بالسيف»، وبتكبر واستخفاف أقسم أنه لن يتحمل هذا بأي شكل من الأشكال، ولهذا خاف الرهبان من غضب الملك، فتخلوا عن نيتهم، ودمر الملك في الوقت نفسه ممتلكات وتحسينات الأسقفية، وغالباً ما جلس في العزب التابعة لها، مع أعداد كبيرة من الأتباع كانوا يحيطون به.

الملك يتدبر إلغاء انتخاب رالف أسقف شيستر

ولدى رؤية الرهبان وقتها التأثير المضر للتأخير، شرعوا بنشاط متواصل يفكرون حول اختيار رئيس لأنفسهم، وعندما سمع الملك بهذا، بادر مسرعاً وعلى الفور إلى هناك، ودخل إلى بيت إدارة الكهنة بنشاط وحماس أكبر مما هو معتاد، وطلب من الرهبان بالوعد والوعيد، بأن عليهم انتخاب عمه، الأسقف المنتخب لبلنسية، وقد حاولوا ببراعة، ورغبوا في إزالة غضب الملك، وسعوا لتهدئة عنفه غير المحق

بوساطة التأخير، وكانوا غير راضين بالموافقة على مطالبه غير العادلة، وقد وافقوا بالاجماع على المطالبة برالف دي نيفيل، أسقف شيستر، ومستشار الملك، ليكون أسقفهم، والمسؤول عن أرواحهم، ووجد الملك أن التماساته، قد أخفقت مجدداً في التأثير عليهم، فعارض الطلب المحق للرهبان، وكدس كثيراً من الشناعات على الأسقف المذكور، وقال عنه بأنه كان قليل الصبر، وسريع الغضب، ورجلاً فاسداً، ثم وسمهم بالحقاقة لأنهم طلبوه ليكون أسقفاً لهم، وبالإضافة إلى هذا، انتزع بعنف ختمه، الذي كان الأسقف المذكور قد تسلم المسؤولية عنه، بناء على رغبة عامة من المملكة، وعهد بالعناية به إلى الراهب غيوفري الداوي مع جون لكسغتون، وذلك مع العطاء المعد للمستشارية، والمورد المعين للأسقف كمستشار، وتابع إجراءاته العدوانية، كما كان بدأها، فبعث سيمون النورماندي والاسكندر، وهو علماني، وكلاهما محاميين مستأجرين، إلى بلاط روما، الذي قام بوساطة هدايا كبيرة، ووعود من المال، فحرم رجلاً مستقيماً من حقه، وألغى قراراً محقاً، وألغى بشكل فاسد، الطلب المتقدم ذكره.

الميلانيون يرغبون بالتصالح مع الامبراطور فردريك

وفي هذه الآونة خاف الميلانيون من المقدرة الامبراطورية، فبعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بكل الالتماسات الممكنة، بعدما أعلنوا أنه مولا لهم الحقيقي وسيدهم الطبيعي، أن يزيل غضبه عنهم، وأن يوقف قتاله ضدهم، وأن يرعاهم، وأن يحميهم، بمثابة كونهم رعيته التابعين له، والموضوعين تحت جناحي حمايته القديرة، وأعلنوا أنهم سوف من الآن فصاعداً، كما فعلوا من قبل، يخدمونه بمثابة مولا لهم وامبراطورهم، مع الاحترام كله، وكبرهان على طاعتهم، ومن أجل أن ينالوا حمايته بوساطة أسلحته وعواطفه، وفي سبيل نسيان عصيانهم السالف الذكر، ولعدم تذكره، وعدوا عن طواعية من أنفسهم أن يقدموا له جميع

المدخرات الأساسية التي يمتلكونها من ذهب وفضة، وعلاوة على ذلك، وكعلامة على خضوعهم وطاعتهم، وعلى نصره الامبراطوري، إنهم سوف يجمعون جميع راياتهم، ويحرقونها عند قدمي الامبراطور، وأنهم بالاضافة إلى هذا، عندما سيستأنف الامبراطور ثانية القتال في خدمة الصليب في الأرض المقدسة، سوف يزودونه سنوياً بعشرة آلاف جندي، في سبيل تقدم الكنيسة، وفي سبيل كرامته، شريطة أن يتولى محبة سكان المدينة من دون شوائب أو أذى، وأن تبقى حالة المدينة وسكانها كما هي محافظ عليها.

لكن الامبراطور، رفض بشموخ جميع هذه العروض، وطالب بشكل قطعي، أن يقوم السكان بشكل عام مع مدينتهم، ومع جميع ممتلكاتهم، بالتخلي عن أنفسهم وعن إرادتهم ووضع ذلك طوع رغباته، ورد السكان بموافقة عامة على هذا السلوك الطغياني، بأنهم لن يفعلوا هذا بأي حال من الأحوال، وقالوا:

«لقد تعلمنا بالخبرة، وبالخوف من وحشيتك، أن نفضل الموت تحت ترستنا، بالسيف، أو الرمح، أو بالنشاب، على الموت بالخيانة، والجوع، واللهب»، وبدأ الامبراطور منذ ذلك الحين يفقد الخطوة لدى الكثيرين، لأنه قد أصبح طاغية، ونال الميلاينيون لتواضعهم التشجيع، وحصلوا على القوة، وذلك وفقاً لكلمات الانجيل في قوله: «يقاوم الرب المتشامخ، ويعطي النعمة إلى المتواضع»، ووقتها رأى الميلاينيون أن المسألة مسألة موت أو حياة، فتولوا تحصين مدينتهم بمزيد من النشاط أكثر مما هو معتاد، بالسلاح وبالخنادق، وبالدخول بتحالفات مع مدن أخرى.

واقعة الراهب جون من طائفة المبشرين

وفي هذه الآونة نفسها، نبغ واحد من طائفة المبشرين، واسمه الراهب جون، وكان رجلاً متعلماً، وفصيحاً، وممتعاً في عمله كمبشر، وقد تمتع

بسمعة عظيمة واحترام كبير في ايطاليا، إلى حد أنه أطفأ الحروب بين السكان، وقد عمل الرب معجزات له، حيث أنه عبر الأنهار حافياً، وأرغم الطيور الجارحة الطائرة في الهواء على النزول إلى الأرض، بناء على أوامره، وأخيراً أصبح على كل حال، بوساطة مكر الشيطان متشاكخاً بشهرته، وضعف بالعلاقة الجسدية الشهوانية لأصدقائه، وبذلك استحق فقدان محبة الرب، والتشريف لدى البشر، والاحترام لدى رجال الدين.

محاولة أحد الأشرار قتل الملك في قاعة نومه

ووقعت في السنة نفسها، واقعة مرعبة للملك، جعلت الناس كلهم يرتعبون، ففي اليوم الذي جاء بعد ميلاد القديسة مريم، قدم واحد من السادة المتعلمين — كما قيل — إلى بلاط الملك في وودستوك، وتظاهر بأنه كان مجنوناً، وقال للملك: «استقل من الملك لصالحي، وسلمني حكم الملكة الذي اغتصبته بشكل غير عادل، والذي حرمتني منه لزمن طويل»، كما أنه أضاف بأنه يحمل شارة الملك على كتفه، ورغب رجال حاشية الملك بضربه، وبطرده من الحضرة الملكية، لكن الملك منع الذين كانوا منقضين عليه من استخدام العنف ضده قائلاً: «اتركوا الرجل المجنون يهذي كما يريد، وحسبما يأتيه، لأن كلام هؤلاء الناس ليس له تأثير الصديق»، وفي منتصف الليل — على كل حال — دخل هذا الرجل نفسه إلى قاعة نوم الملك من النافذة، حاملاً بيده مديّة مفتوحة، واقترب من فراش الملك، غير أنه أصيب بالاضطراب لعدم وجوده هناك، وبدأ على الفور يبحث عنه في عدد من قاعات النوم في مسكنه، وكان الملك، بفضل الرب نائماً مع الملكة، وكان هناك بالصدفة واحدة من وصيفات الملكة مستيقظة، وكان اسمها مرغريت بيزث Bis-eth وكانت تغني ببعض المزامير على ضوء شمعة (لأنها كانت وصيفة مقدسة، وواحدة مكرسة للرب)، وعندما رأت هذا الرجل المجنون، يفتش في الأماكن الخاصة، ليقتل الملك، وهو يسأل بصوت

مرعب عن المكان الذي فيه الملك، ارتعبت كثيراً، وأخذت تردد صراخها، ولدى سماع صراخها المرعب، استيقظ حراس الملك، وقفزوا من أسرتهم بكل سرعة، وركضوا نحو المكان، وفتحوا الباب بالقوة، الذي كان اللص قد أغلقه بإحكام، واعتقلوا اللص، على الرغم من مقاومته، وربطوه وغلوه بقوة، وضمنوه.

وقد اعترف هذا الرجل بعد بعض الوقت، بأنه قد أرسل إلى هناك، ليقتل الملك وفق طرائق الحشيشية، من قبل وليم مارش، ابن غيوفري مارش، وأفاد بأن آخرين قد تأمروا لإقتراف الجريمة نفسها، ولدى معرفة الملك بهذا، أمر به، بحكم كونه مجرمًا بمحاولة قتل جلالة الملك، بأن يمزق طرف منه عن الطرف الآخر بوساطة الخيول في كوفنتري، وكان بذلك مثلاً مخيفاً ومشهداً مؤسفاً لكل من يتجرأ على التآمر لإقتراف مثل هذه الجرائم، وجرى سحله أولاً وهو ممزق إرباً، ثم جرى قطع رأسه، وتقسيم جسده إلى ثلاثة أقسام، ثم إنه جرى سحله كل جزء خلال إحدى المدن الرئيسية في إنكلترا، وبعد هذا جرى تعليقه على المشنقة المعدة للصوص.

عاصفة من الريح ثقيلة

في حوالي يوم عيد القديس متي (٢١ - أيلول) ثارت عاصفة من الريح بعنف مدمر، ومن دون أن أذكر الأضرار التي تسببت بها والتي لا يمكن تعويضها، غرقت أكثر من عشرين سفينة في بورتماوث.

عودة سيمون دي مونتفورت إلى إنكلترا

وفي يوم عيد القديس كاليكستوس Calixtus (١٤ - تشرين أول) عاد سيمون دي مونتفورت من القارة، واستقبل من قبل الملك، ومن جميع الحاشية الملكية بقبلة السلام، ثم إنه انطلق بكل سرعة نحو زوجته إليانور، التي كانت مقيمة في نيلوورث Kenilworth وهي على وشك الولادة.

دعوة رعاة رهبان الطائفة السوداء

للمثول أمام النائب البابوي في لندن

وفي العام نفسه، استدعى النائب البابوي أوتو، بناء على تفويض من البابا، جميع رعاة رهبان الطائفة السوداء، للمثول أمامه، في كنيسة القديس مارتن في لندن، ليتولى تقدير الدرجات التي أمر بها صاحب القداسة البابا — بعد مناقشة كافية — من أجل إصلاح الطائفة الرهبانية.

إصلاح أحكام رهبان الطائفة السوداء

وعندما اجتمع جميع رعاة طائفة الرهبان السود، نهض النائب البابوي، وحثهم ليكونوا جميعاً صبورين، ثم شرع بإلقاء خطبة منمقة كانت كما يلي:

«باسم مولانا يسوع المسيح، والأب والابن والروح القدس، آمين، إنها المهمة عظيمة وصعبة القيام بتحسين مدينة الرب، التي هي الكنيسة، بمراسيم جديدة ومتطورة، ضد مصائد العدو الخبيث، الذي يسعى باستمرار ببدع قديمة وجديدة لإخضاعها، وقمنا نحن أوتو، الذي بفضل رحمة الرب، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن تولى، والنائب للكرسي الرسولي، صدوراً عن واجبات النيابة البابوية المفروضة علينا، وتقديراً لأنفسنا بأننا مسؤولين عن تقديم المساعدة في مثل هذا العمل المفيد، فتدبرنا جمع وتدوين بعض الأحكام من نظام الأب المقدس بندكت، وكذلك من المجامع المقدسة، والمراسيم الشرعية، وكذلك من أحكام رعاة الرهبان التابعين لطائفة بندكت المذكور، التي إذا ما تولوا رعايتها سوف تخدم في مساعدة ديانتنا المقدسة والدفاع عنها».

الذين يجري قبولهم في الطوائف الدينية

«ورسمنا في المقام الأول، أنه من الآن فصاعداً، لن يجري قبول أي واحد للقيام باحترافه وتكريس نفسه للرهبانية، قبل إكماله سن العشرين، ولا لإختبار التأهيل قبل إكماله التاسعة عشرة من عمره».

عند انتهاء سنة اختبار التأهيل يبدأ التكريس للرهبانية

وكذلك كل من جرى قبوله لاختبار التأهيل، سوف، فور انتهاء سنة اختبار التأهيل، يقوم بأعمال التكريس للرهبانية، أو سوف يغادر الدير، وخلافاً لهذا، إن كل راعي دير، أو رئيس للرهبان سوف يحتفظ بأي واحد بعد عام من دون القيام بالتكريس للرهبنة، سوف يتلقى عقوبة حادة، من قبل رؤساء الهيئة الكهنوتية، ومع هذا سوف يعدّ المترهبين مرغماً على عمل التكريس، ولسوف يعدّ وكأنه مكرس للرهبنة».

لا يجوز قبول أحد شرطياً أو مقابل دفع

«وكذلك لا يجوز استخراج أي مال من أي واحد يرغب بدخول الدير، والذين يقبلون سوف يجري قبولهم فقط من أجل الرب، ومن دون أي التزام، ومع ذلك، إذا ما جرى تقديم أي شيء مجاناً، من دون أي إلزام، أو استخراج، أو ضريبة، من الممكن قبول ذلك من دون ملامة».

لا يجوز لأحد أن تكون لديه أية ممتلكات خاصة به أو ذاتية

«وكذلك، إنه من الآن فصاعداً، لا يجوز لأي راهب أن يستحوذ أي شيء خاص به، وإذا ما كان لديه أي شيء يتوجب عليه، على الفور التخلي عنه إلى رئيسه».

لا يجوز لأي واحد السكنى وحده في عزبة أو كنيسة

«وكذلك، لا يجوز من الآن فصاعداً، لأي راهب الاقدام على تسلم

أية عزبة من رئيسه، أو أية ممتلكات أخرى، للضمان، وإذا فعل ذلك سوف يعدّ ممتلكاً، وبالتالي سوف يعاقب، وكذلك لا يجوز للرهبان السكنى في العزب، ولا حتى في الكنائس، ما لم يكن هناك أكثر من واحد، أو على الأقل اثنين».

على المطيعين تقديم حساب عن إداراتهم

«وسوف كذلك يجري تعيين المستقيمين، والرجال الموثوقين في بعض المناصب، وعلى هؤلاء أن يقدموا ثلاث مرات في العام حساباً صحيحاً عن إداراتهم ومناصبهم، إلى رئيسهم، وذلك بحضور بعض الشيوخ، وعند ذلك إن كل ما يزيد يمكنهم أخذه، مهما تضمن، سواء أكان مالا أو أية مقتنيات أخرى، إنهم سوف يأخذونها من دون مناقشة أو خلاف، وأن يضعوا جانباً كل غش، ثم أن يتخلوا عن ذلك إلى رئيسهم أو يعهدون به إليه، وكل من يتصرف على عكس هذا، سوف ينال العقوبة لكونه ممتلكاً».

ومثل هذا على رئيس الرهبان تقديم حساب

«وعلى راعي الرهبان أيضاً، أو رئيس الرهبان، في حال عدم وجود راعي، أن يقدم حساباً وافياً، على الأقل مرة واحدة في السنة، حول وضع دير، وحول إدارته للمجمع الرهباني، أو أن يقوم بذلك بعض الشيوخ الذين جرى تفويضهم وإنابتهم من قبل المجمع الديري لهذه الغاية».

من المتوجب التفوه بقرار الحرمان الكنسي

ضدّ الممتلكين بشكل علني

«ونحن نرسم أيضاً، أنه يتوجب على الرؤساء المشرفين، أن يتفوهوا على الأقل مرة واحدة في العام، بشكل علني بحكم الحرمان الكنسي

ضد الممتلكين، أو معاقبتهم بطرق أخرى إذا لم يشوبوا إلى رشدهم، وبشكل رئيسي بعار عدم الدفن».

وجوب الالتزام بالصمت وفقاً للأمر

«ونحن نرسم أيضاً، أنه وفقاً للنظام، تتوجب مراعاة الصمت، في بعض الأماكن المخصصة، والأوقات، والساعات المحددة، وعلى الجميع أن يسعوا لمعرفة الشارات الضرورية».

تحريم أكل اللحوم

«وبالاضافة، إلى هذه الأشياء، إنه فيما يتعلق بأكل اللحوم، قد جرى تحريمها على رهبان الطائفة السوداء، بموجب أحكام نظام القديس بندكت، وحكمنا، وكذلك حكم الهيئة العامة للرهبانية برئاسة رعاة الديرة في انكلترا، ونحن في سبيل إزالة جميع مناسبات وقضايا الشكوى من بين هؤلاء الرهبان الذين اعتادوا فيها على إثارة الفوضى من أجل أكل اللحم، نأمر الرعاة والرؤساء بشراء — حسب إمكانات بيتهم — وتزويد الرهبان، ببعض المواد الغذائية المناسبة عوضاً عما هو محرم عليهم».

وجوب تقديم ملابس مناسبة وكافية

«قرار بوجوب امتلاك الرهبان ملابس مناسبة وكافية، لكل من أجسادهم وأسرهم، وأن يزودوا بذلك وفقاً لنظام البيت وإمكاناته، لكن لا يجوز لهم ارتداء قمصان من الكتان، أو أغطية رأس».

على الرهبان النوم مع بعضهم

«ويتوجب كذلك نوم الرهبان مع بعضهم، وأن يمتلكوا أسرة وفقاً للنظام، ولا يجوز أن يكون مهجع نومهم من دون ضوء».

وجوب مراعاة الضيافة

«نحن نأمر ونرسم، بوجوب مراعاة الضيافة، من قبل كل من الرؤساء، ومن الذين هم أدنى منهم، وفقاً لقداسة النظام ولإمكانات المكان، وأن يكون ذلك مصحوباً مع كل الإحسان والسرور، وأن يجري دوماً ندب راهب لطيف وأديب من أجل هذه الغاية، ونحن نرسم أيضاً بوجوب مراعاة الشيء نفسه نحو الرهبان المرضى».

على الرهبان جميعاً الحضور أثناء القداسات الكبرى والصغرى

«وكذلك يتوجب على الجميع أن يكونوا حضوراً في ساعات القداسات الدينية، لاسيما أثناء القداسات الصغرى والكبرى، مالم يمتلك أحدهم عذراً جيداً للتغيب، بأن يكون مشغولاً مع ضيوف، أو بموجب إذن خاص من رئيسه، حيث يعدّ ذلك سبباً موجباً للغياب».

وجوب تجنب الاسراف

«ويتوجب على الأساقفة السعي لتحديد عدد خيولهم ومرافقيهم بقدر ما يستطيعون».

وجوب تدوين الأحكام وفقاً للنظام

«ونحن نرسم أيضاً، أن يتدبر رعاة الديرة ورؤساء الرهبان يومياً تدوين — وفقاً للنظام — مراسيم الأخبار الأعظمين، ولاسيما التي تشير بشكل خاص إليهم وإلى طائفتهم، والواردة في مجموع صاحب القداسة البابا غريغوري التاسع، والتي كتبت تحت العناوين الواردة أدناه وهي: «حول المدنيين الذين على وشك الدخول إلى البيوت الدينية» الخ، «حول دورك» الخ، «خشية الدين» الخ، «حول أوضاع الرهبان» الخ، «في كل منطقة» الخ، «الأشياء التي من أجل كرامة الدين» الخ، «حول السيمونية — أي حول التلوث بالسيمونية» الخ،

«حول قرار الحرمان الكنسي» الخ، «الجسد كله» الخ، «حول التحليل من هذه الأشياء كلها» الخ، «حول الراهبات» الخ، «حول الثبات— أي التأكد» الخ، «حول المدفوعات» الخ، «حول أي شيء كان».

الأشياء التي يجري بالغالب تكرارها

«ونحن نفرض أيضاً بكل دقة على جميع رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، أن يقوموا بدراسة الأحكام المتقدم ذكرها أعلاه وتعلمها، وهي أحكام نظام القديس بندكت، والمراسيم والنظم التي كتبت أعلاه، وأن يحتفظوا بهم دوماً على مقربة منهم، وأن يجعلوا شغلهم الشاغل ألا تكون هذه الموضوعات غير معروفة من قبلهم».

قراءة ماورد أعلاه مرة واحدة في اليوم

«ونحن نرسم أيضاً، ونأمر بمراعاة مايلي بكل دقة، وهو قراءة النظام الذي تقدم ذكره أعلاه، والمراسيم، مرة واحدة في كل يوم، في ساعة موائمة، في الدير بحضور جميع الرهبان، وأن يجري شرحهم إلى الذين لا يفهمونهم».

قانون البابا أونوريوس الثالث المتعلق

بالذين يدخلون البيوت الدينية

«لقد تقرر من جهتك مايلي، الخ: من أونوريوس الثالث إلى أسقف أريزو Arezzo: من المعروف ان هناك بعضاً، مع أنهم ارتدوا منذ سنين طويلة ثياب الرهبان، هم لم يقوموا بالتكريس المطلوب ليكونوا رهباناً، ولذلك عندما يجري اتهامهم من قبلكم، أو من قبل آخرين، بأن لديهم ممتلكات، وأنهم يعيشون بشكل نظامي، هم لا يخرجون من القول بأنهم غير ملزمين، أو غير متعهدين في أن يكونوا من دون ممتلكات خاصة، وفي سبيل الامتناع عن الشهوات، والأحكام الانتظامية

الأخرى، إنه ليس الرداء الرهباني هو الذي يعمل الراهب، بل التكريس النظامي، الخ، الخ، ولذلك إننا نأمر أخوتكم، بموجب الروادع الكنسية، أن ترغموا الخاضعين إليكم بموجب القانون الأسقفي، والذين يتجرأون على دخول الأرض بطريقتين، وفق المنهج الذي تقدم ذكره، أن يقوموا بتكريسهم الرهباني المطلوب، وأن يراعوا النظام، وفقاً لأشكال الطائفة، وذلك بعد ارتدائهم للباس الرهباني لمدة سنة واحدة».

مرسوم البابا غريغوري التاسع حول الأمر نفسه

«نحن نرسم، بأن المترهبين في أيام اختبارهم، وقبل ارتدائهم لرداء الرهينة، الذي يعطى بالعادة إلى الذين عملوا تكريسهم المطلوب، هم أحرار في أن يغادروا ويعودوا إلى أوضاعهم المتقدمة، وذلك خلال سنة، اللهم مالم يظهر بشكل واضح بأن مثل هؤلاء الأشخاص قد اتخذوا قرارهم بشكل حاسم بتغيير طريقتهم في الحياة، وأن يخدموا الرب في تكريس تقوي مستمر، الذي معه يمكن أن يكون مفيداً للتخلي عن ذلك الذي معروف أنه أضيف على فضائله الخاصة، ومع هذا نحن نرسم — في سبيل إزالة كل شك — بما أن أردية المترهبين، في بعض البيوت الدينية لا يمكن تمييزها عن أردية المكرسين، ينبغي أن تجري مباركة الملابس التي تعطى إلى المكرسين وقت التكريس، وبذلك يمكن تمييز ألبسة المترهبين عن ألبسة المكرسين».

المزيد حول الموضوع نفسه

«خشية من أن يتعرض بعض رجال الدين في بعض المناسبات إلى السفر، ومن ثم الحصول على بعض الأذى بالنسبة لصحتهم، وأن تجري المطالبة بدمائهم على أيدي رؤسائهم، نحن نرسم، بأنه يتوجب على الرؤساء، أثناء شغلهم لمنصب رئيس الهيئة الرهبانية، وذلك تماشياً مع قانون المجمع العام، سواء أكانوا آباء، أو رعاة ديرة، أو رؤساء كهنة،

البحث بدقة كل سنة عن الرهبان الذين هربوا، أو الذين طردوا من طائفتهم، وإذا ما أمكن فيما بعد استقباهم وفقاً للنظام القائم، أن يجري استقباهم في ديرتهم، وأن يتم بموجب الروادع اللاهوتية إرغام رعاة ديرهم أو رؤساء رهبانياتهم، على استقباهم، وذلك وفقاً لنظام الطائفة، لكن إذا كانت الطائفة لا تسمح بفعل ذلك، على الرئيس المذكور، القيام بموجب سلطاتنا، تأمين عزلهم في ديرة تابعة للطائفة نفسها، وفي أماكن مناسبة، على شرط أن يعمل ذلك من دون أي فضائح، وينبغي تأمين الضرورات المعاشية، وتزويد مثل هؤلاء الأشخاص بها في البيوت الدينية الأخرى للطائفة نفسها، ليقوموا هناك بالتوبة، لكنهم إذا وجدوا عدم طاعة من أي نوع، سوف يتولون حرمانهم كنسياً، وسوف يعلن عنهم أمام الملأ ويشهر بهم على أنهم محرومين كنسياً، من قبل رؤساء الكنائس، حتى يعودوا بكل تواضع لدى استدعائهم».

وضع الرهبان

«لن يجري قبول الرهبان في الديرة بوساطة دفع المال، كما لن يكون لديهم أية ممتلكات خاصة بهم، وسوف لن يجري توزيعهم واحداً واحداً فيما بين الكنائس في البلدان المختلفة، وفي القرى، حتى لا يكونوا هم أنفسهم بين المدنيين، لانتظار الصراع من الأعداء الروحيين، لأن سليمان قد قال: «ويل له، الذي يكون وحيداً عندما يقع، لأنه ليس لديه آخر ليساعده على القيام»، وإذا ما قام أي واحد لدى سؤاله، فأعطى أي شيء في سبيل القبول، إنه سوف لن يرتفع إلى الطوائف المقدسة، وسوف يجري تعليق المتسلم وإيقافه عن عمله، وكل من سوف يبقى أي شيء لنفسه، ما لم يكن قد سمح له من قبل راعي الدير، من أجل بعض الخدمات المفروضة عليه، سوف ينقل مبعداً عن المشاركة بقداس العشاء الرباني عند المذبح، وإذا ما وجد أي إنسان، في لحظته الأخيرة، مع أي ممتلكات خاصة، ولم يقم بالتوبة بشكل موثم، سوف لن تعمل أية

تقدمة إليه، كما أنه لن يتلقى دفناً بين جميع الطوائف الدينية، وليعلم راعي الدير الذي سوف لن يحترس بعناية ضد هذه الذنوب، بأنه سوف ينال الحرمان من منصبه، كما أنه لا يجوز إعطاء رئاسات الرهبان أو المناصب، إلى أي واحد مقابل الدفع، وإذا حدث ذلك، فإن كلا من المعطي والمتسلم سوف يجري طردهم من مناصبهم، أما بالنسبة لرؤساء الرهبان، فإنهم بعد تعيينهم بشكل قانوني في كنائس ديرية، بوساطة الانتخاب من قبل هيئاتهم الرهبانية، لن يجري تغييرهم، إلا لسبب واضح ومعقول، مثل التخريب، أو الفسوق أو شيئاً من هذا القبيل يبدو أنها تؤهل للعزل، أو أيضاً إذا جرى نقلهم بناء على نصيحة رهبانهم إلى منصب أعلى».

المزيد حول الموضوع نفسه

«ونحن نمنع من الآن فصاعداً، بكل دقة، أيّاً من الرهبان، من ارتداء قمصان كتانية، كما اننا نحرم أيضاً على أي من الرهبان، بحكم فضيلة طاعتهم، وتحت تهديد الحساب اللاهوتي من امتلاك أية مقتنيات بأية طريقة من الطرق، وعلى الذي لديه أي شيء خاص به، التخلي عنه على الفور، وإذا ما وجد فيما بعد، لديه أية ممتلكات خاصة، وكان ذلك بعد تسليمه انداراً نظامياً، سوف يطرد من الدير، كما لن يسمح له ثانية بالقبول به، ما لم يكن قد قام بالتكفير، وفقاً لأنظمة الدير، وإذا ما جرى اكتشاف وجود أية مقتنيات، عند موت أي واحد، سوف يجري دفنها معه، في كومة من القاذورات، وذلك وفقاً لما قاله المبارك غريغوري وفعله، وبناء عليه إن أي شيء سوف يجري إرساله إلى أي واحد، بشكل خاص، يتوجب عليه عدم التجرؤ على استلامه، بل عليه تسليمه إلى راعي ديره أو إلى رئيس رهبانه، ويتوجب الالتزام بصمت مستمر في القلاية، وفي المطعم، وفي مهجع النوم، وفي الدير في بعض الأوقات، وفي بعض الأماكن، وذلك وفقاً للعادة القديمة للدير، ولا يجوز لأحد

أن يأكل لحماً في المطعم، ولا في المناسبات العامة الوقورة، حسبما كانت العادة أحياناً في الدير، ولكن على الراهب أن يترك قليلاً في المطعم، وأن يخرج مع الراهب ليأكل لحماً في الخارج، لأنه في هذه الأيام تتوجب مراعاة نظام خاص بدقة أعظم، ومع ذلك على الرهبان أن لا يعتقدوا أنه مسموح لهم بأكل اللحم خارج المطعم، مالم يكن ذلك في مأوى المرضى، مع أنه يمكن أحياناً لراعي الدير، عن طريق الرعاية، أن يدعو بعض الرهبان إليه، أحياناً واحداً، وأحياناً واحداً آخر، ليقدّم لهم وجبة خاصة في غرفته، بالإضافة إلى هذا يمكن للرهبان المرضى والضعفاء الذين يحتاجون للتقوية، أو لبعض الأدوية، أن يتسلموا كمية مناسبة، مما هو ضروري لهم، من كل من اللحم ومن الأشياء الأخرى، وإذا كان أحدهم ناقهاً، أو حتى ضعيفاً، ولا يمكن أن يكتفي بالطعام العام، ينبغي تدبر ذلك له هكذا، من دون فضائح بالنسبة للآخرين، أي إذا مارغب راعي الدير أو رئيس الرهبان، أن يقدم له معروفاً خاصاً في المطعم، يمكنه أن يتدبر تقديم كمية كافية من الطعام أو جلبها له، لكن ليس أمام الناس المرضى، بل أمامه نفسه، ومن ذلك يمكن للرجل المريض أن يأخذ كمية صغيرة ليدعم الطبيعة، ويتوجب تعيين مثل هؤلاء الأشخاص لتأدية واجبات الدير بشكل مخلص وأمين، وما من منصب، يجوز أن يعهد به إلى أي واحد، ليحتفظ به إلى الأبد، أي كأنه عين له مدى الحياة، لكن عندما يتوجب عزله، هو سوف يعزل من دون أية معارضة مهما كان نوعها، وسوف يكون رئيس الرهبان هو التالي لراعي الدير، وينبغي أن يكون فوق البقية، مؤثراً في أعماله وفي كلامه، وبذلك يمكن بمثل حياته، وبكلام عقيدته، أن يكون قادراً على توجيه رهبانه نحو ما هو خير، وأن يبعدهم عما هو شر، وأن تتوفر لديه الغيرة على الدين، وفقاً لمعارفه، وذلك حتى يتمكن من تقديم الرعاية اللطيفة، وأن يعتني بنيل طاعة مريحة، وراعي الدير هو الذي على الجميع إطاعته في جميع القضايا، ويتوجب أن يكون دوماً — بقدر ما هو ممكن — مع

رهبانه في الدير، وأن تكون لديه رعاية يقظة، واهتمام متواصل بشأن جميع الرهبان، حتى يتمكن أن يقدم إلى الرب حساباً صحيحاً عن المنصب الذي أسند إليه، ولكن إنه إذا ما سيكون خائناً لطائفته، أو مستخفاً بها، أو مهملاً، أو مبدداً، عليه أن يعرف بشكل مؤكد، أنه لن يخلع فقط من منصبه، بل إنه سوف يعاقب بطريقة أخرى، وفقاً لذنبه، وكان ذلك ليس ذنبه الخاص، بل ذنب الآخرين، فهو سوف يكون مطلوباً على يديه، ولا يجوز لأي راعي دير أن يفكر بأن بإمكانه إعطاء أي راهب ترخيصاً بامتلاك مقتنيات، لأن التخلي عن المقتنيات، والمحافظة على الإحسان أمران مرتبطان تماماً مع الأنظمة الرهبانية، ذلك أنه حتى الخبر الأعظم لا يمكنه أن يمنحه ترخيصاً في هذه القضايا».

المزيد حول الموضوع نفسه

سوف يكون في كل مملكة، أو مقاطعة — كل ثلاث سنوات — باستثناء امتياز أساقفة الأبرشيات — اجتماع عام للهيئة العامة لرعاة الدير ولرؤساء الرهبان، الذين ليس لديهم رعاة ديرة مرتبطون بهم، والذين غير معتادين على عقد مثل هذه الهيئات، حيث يتوجب أن يجتمع فيها جميع الذين ليس لديهم معيقات قانونية، في واحد من الدير يكون مناسباً لهذه الغاية، مع التحذير التالي الذي يقضي بأن لا يجلب أي واحد منهم معه أكثر من ست عربات وثمانية أشخاص، وعليهم أيضاً لدى شروعههم بهذه المسألة الجديدة، استدعاء اثنين من رعاة الدير المجاورين من طائفة السسترشيان، لإعطائهم فرصة للنصيحة، ومساعدة، بحكم أنهم، منذ زمن بعيد معتادين، ولديهم معارف أفضل في عقد هيئات من هذا النوع، ودعوهم يوحدوا مع أنفسهم أي اثنين يرون أنها موثمين، وليقم هؤلاء الأربعة بالترؤس على الهيئة كلها، وبذلك لا يمكن لأي واحد منهم أن يدعي لنفسه الرئاسة الأسقفية، وعندما يكون موثماً، من الممكن عمل تغيير، بعد تداول وتفكير دقيق،

ويتوجب عقد اجتماع هذه الهيئة الرهبانية يومياً، لمدة عدة أيام، وفقاً
لعادة طائفة الرهبان السسترشيان، ويتوجب الدخول في الاجتماع
المذكور للهيئة الرهبانية بمناقشات دقيقة حول إصلاح الطائفة، والمراعاة
المنتظمة للنظم، وكل مايجري تقريره مع التعاون مع هؤلاء الأربعة،
سوف تجري مراعاته من دون أي تحفظ، أو معارضة، أو مرافعة
استئناف، لكن مع تقرير موعد عقد اجتماع الهيئة الرهبانية في الحقة
المقبلة، والذين سوف يجتمعون هناك، سوف يعيشون مع بعضهم،
وسوف يتوازعون فيما بينهم المشاركة بالنفقات بشكل عام، ولكن إذا لم
يكن بإمكان الجميع العيش في البيت نفسه يمكن لعدد منهم العيش مع
بعضهم في بيوت متنوعة، وسوف يجري أيضاً في هذا الاجتماع للهيئة
الرهبانية تعيين أشخاص دينيين وواعين، عوضاً عنا، ووفقاً لنظام جرى
تعيينه من قبل لهم، للقيام بزيارات تفقدية لكل رعوية في المملكة
المذكورة أو في المقاطعة، ليس فقط للرهبان، بل للراهبات أيضاً، حيث
يقومون بتقويم وإصلاح، كل مايعتقدون أنه يحتاج إلى الإصلاح
والتقويم، وإذا ما وجدوا أن القسيس في أي مكان ينبغي عزله كلياً من
منصبه، عليهم القيام على الفور إعلام أسقفهم بقرارهم بعزله، وبذلك
يقوم هذا الأخير بادخال العزل حيز التنفيذ، وإذا ماتقاعس الأسقف ولم
ينفذ، على الزوار التفقيدين رفع القضية إلى الكرسي الرسولي، ونحن
نقضي ونأمر، أن على جميع الكهنة النظاميين —تبعاً لطوائفهم— مراعاة
هذا النظام نفسه، وإذا ماانبعثت في هذه المسألة الجديدة، أية مصاعب،
من غير الممكن إزالتها من قبل الأشخاص المتقدم ذكرهم، يتوجب
إحالتها، من دون أي أذى، إلى الكرسي الرسولي، حتى يجري حلها،
وبالنسبة لجميع الأشياء الأخرى، التي من الممكن الاتفاق حولها بشكل
اجماعي، من المتوجب مراعاتها من دون موارد، وزيادة على هذا،
يتوجب على أساقفة الأبرشيات السعي لإصلاح الديرة الخاضعة لهم،
من أجل أنه عندما يصل الزوار التفقيديون، يمكنهم أن يجدوا أنهم

يستحقون المزيد من الثناء، وليس التقويم، وعليهم أيضاً الاحتراز بالعناية الأعظم، حتى لايجري تحميل الأديرة المذكورة، واثقالها بحمولات غير مستحقة، لأننا نرغب بمراعاة امتيازات الرؤساء بقدر عدم رغبتنا في أن يتعرض الأدنى مرتبة للأذى، وبالإضافة إلى هذه الأشياء، تقضي إرادتنا أن يقوم أساقفة الأبرشيات وكذلك الأشخاص الذين يتأرون على اجتماعات الهيئات المذكورة، بأن يلقوا جانباً جميع مرافعات الاستئناف، وأن يمتنعوا جميع المحامين، والنصرء، والقسس من خارج الأبرشيات، والكونتات، والنبلاء، والفرسان، وجميع الآخرين، من الإقدام على انزال الأذى بالديرة سواء في الأشخاص أو في المقتنيات، وإذا صدف وألحقوا بهم الأذى شخصياً، لإرغامهم من دون تقاعس على عمل التكفير، وذلك من أجل أن يتمكنوا من عبادة الرب بحرية أكبر، وبهدوء أعظم».

المزيد حول الموضوع نفسه

«هذه أشياء هي من أجل كرامة الدين، النخ، النخ: علاوة على ذلك، بعدما يكون قد جرى تعيين الزوار التفقدين، وفقاً لقانون المجمع العام، من قبل الهيئة العامة لرعاة الديرة، عليهم الاقلاع للعمل على شغل مناصبهم كزوار تفقدين، وهنا يتوجب عليهم البحث بكل عناية في أوضاع الرهبان، وفي مدى التزامهم بالأنظمة، ومن ثم تقويم وإصلاح كل مايعتقدون من المتوجب إصلاحه وتقويمه، سواء في المسائل الروحية أو المسائل الدنيوية، بشكل حكيم، بحيث يجعلون الرهبان المذنبين يجري تقويمهم من قبل راعي المكان، وأن تفرض عليهم العقوبة المدنية وفقاً لنظام القديس بندكت، وأنظمة المؤسسة الرسولية، وليس وفقاً لأنظمة العادات الشريرة، التي نمت حتى عدت بمثابة شريعة في بعض الكنائس، ويتوجب على هؤلاء الزوار التفقدين، أن يضربوا، بالنيابة عنا بأنظمة المعاقبات والروادع الرهبان الذين

يجدونهم متمردين وعصاة، وذلك وفقاً لدرجة ذنوبهم، وذلك دونما تقدير للأشخاص، وأن لا يوفروا الأشخاص العصاة على أساس العلاقات والقرابات، أو قوة أصدقائهم، بل سوف «يلقون بالشاة المريضة خارج القطيع، حتى لاتعدي الشياه الصحيحة»، وإذا ماتبين أن الرعاية أثناء تنفيذهم للعقوبات، وفقاً لأوامر الزوار التفقيدين، وللقوانين المرعية، مهملين، إما في أنفسهم، أو بالنسبة للرهبان، سوف يعلن عنهم، ويعتقلون ومن ثم يعاقبون لدى الاجتماع العام للهيئة، حتى تأتي عقوبتهم بمثابة مثل رادع للآخرين، وإذا ما وجد راعي دير، هو ليس معفياً، من قبل الزوار التفقيدين، مهملاً، ومتغافلاً، عليهم القيام من دون تأخير، بشجبه، وإبلاغ ذلك إلى أسقف المكان نفسه، حتى يتولى تعيين معاون لذلك الراعي يكون مستقيماً وحريصاً، حتى يجري عقد اجتماع الهيئة العامة، وإذا كان مخرباً، أو يستحق العزل لسبب من الأسباب، يتوجب بعد اخبار الأسقف عنه، عزله من منصب حكم رعية الدير، ومن الدير من دون هياج أو محاكمة، وأن يتولى في الوقت نفسه مدير موائم تسيير الشؤون الدنيوية للدير، حتى يجري تزويده براعي، لكن إذا مارفض الأسقف أو أهمل تنفيذ هذه الأوامر، يتوجب على الزوار التفقيدين، أو على رئاسة الهيئة الرهبانية العامة، عدم التراخي عن الإعلان عن هذا التقاعس الذي قام به الأسقف، وإعلام الكرسي الرسولي به.

ونحن نأمر بعمل هذه الأشياء نفسها في مسألة إعفاء رعاة ديرة، بعدم عزلهم من قبل الزوار التفقيدين، أو من قبل رؤساء الهيئة الرهبانية العامة، محتفظين بعزلهم، للعرض أمام الكرسي الرسولي، وبناء عليه إذا ظهر أن أي راعي دير يستحق النقل أو العزل، هو سوف يتعرض، إما من قبل الزوار التفقيدين، أو من قبل رؤساء الهيئة الرهبانية العامة، إلى التعليق ومن ثم التوقف عن ممارسة الأعمال الادارية لمنصبه، ويتوجب

هنا تعيين اداري موائم لبعض الوقت لشغل ذلك المنصب، وبالنسبة لأخطائهم وللأشياء الأخرى التي تبدو مهمة، وأنها ينبغي أن تعرض على الهيئة الرهبانية العامة، سوف ترسل الرئاسة رسالة إلينا بوساطة رسل مستقيمين وحذرين وعقلاء، يتم صرف نفقات سفرهم بوساطة مبلغ كاف يجري أخذه من الاسهام العام، وذلك وفقاً لإمكانات كل فئة، ويتوجب على الزوار التفقدين الذين يقدمون فيما بعد، القيام بفحص آثار الزوار التفقدين المتقدمين بكل دقة، وأن يرفعوا تقارير حول إهمالهم وأخطائهم إلى اجتماع الهيئة الرهبانية العامة المقبل، حتى يتلقوا بشكل معلن عقوبات موائمة، وتتوافق مع أخطائهم، وهذا الشيء نفسه نحن نأمر بمراعاته من قبل رعاة الديرة المترشحين أثناء اجتماع الهيئة الرهبانية العامة، ونحن نأمر أيضاً، بأنه لا يجوز لرعاة الديرة أو لرؤساء الرهبان أن يقبلوا في أي دير من الديرة كهنة علمانيين للأوقاف الكنسية، كما أنه لا يجوز للذين جرى من قبل قبولهم في الديرة السعي للدعاء لأنفسهم، والحصول على مكان، أو صوت في الهيئة الرهبانية العامة، أو في مهجع النوم، أو في المطعم، أو في القلاية، كما لا يجوز لهم ممارسة اختلاط غير منطقي في تجمعات الرهبان، بل المتوجب أن يسلكوا بأنفسهم بشكل شريف، وأن يكونوا راضين بالمنافع الممنوحة إليهم، وأن يقدموا بشكل صحيح تعبداتهم الموسمية في الديرة، وعليهم أن لا يطلبوا، أو أن يغتصبوا أي شيء أكثر، سواء في مجالات الأمور الروحية أو الدنيوية في الديرة، وإذا ما وجد أي من هؤلاء مذنباً أو مسيئاً من قبل الزوار التفقدين، سوف يجري حرمانهم من المنافع المذكورة، ويكون ذلك بوساطة الأسقف، في الديرة غير المعفية، وبوساطة الزوار التفقديون، أو بوساطة رؤساء الهيئة الرهبانية العامة في الديرة المعفية، ونحن نأمر أيضاً بمراعاة جميع هذه الأحكام في الديرة التي ليس لها رعاة ديرة خاصين بها، بل لها رؤساء رهبان فقط، وكذلك في ديرة الراهبات، وذلك في جميع النقاط الموائمة لرعايات الديرة وللراهبات».

حول السيمونية

«وبما أن وصمة السيمونية قد لوئت بالعدوى عدداً من الرهبانيات النسائية، إلى حد أن هذه الرهبانيات نادراً ماتقبل أي راهبة من دون دفع، وسعياً منا لتلطيف هذا الشر الذي لا يَحتمل، والفضيحة لكل الدين، بالدعوة من أجل الفقر، نحن نمنع كلياً من عمل هذا من الآن وصاعداً، ونرسم أنه إذا ما أقدم انسان ثانية على اقتراف مثل هذه الجريمة (سواء أكان من مرتبة عليا أو دنيا) من كل من المستقبل والراهبة المقبولة، سوف يجري طردها من الرهبانية النسائية من دون أي أمل بأن يتم قبولها ثانية، بل سوف تحتجز في مكان له أحكام أكثر دقة وأكثر قسوة، للقيام بالتوبة، أما بالنسبة للآثي جرى قبولهن من قبل على هذه الصورة، قبل هذا المرسوم الصادر عن المجمع الديني، نحن نأمر بطردهن من الرهبانيات التي جرى إدخالهن بها بشكل طائش، ومن ثم قبولهن، وأن يوضعن في بيوت أخرى تابعة للطائفة نفسها، ولكن إذا حدث أنه بسبب عددهن الكبير، من غير الممكن وضعهن بشكل موائم، في مكان آخر، من الممكن استقبالهن، ومن ثم توزيعهن في الرهبانيات النسائية نفسها، لمنعهن من الجولان ثانية في العالم ومن ثم دمارهن، وبهذا تكون أماكنهن الماضية قد تبدلت، وجرى توزيعهن وتعيينهن في أماكن أدنى منزلة، وهذا نرسم بمراعاته أيضاً بالنسبة للرهبان وللتنظيمات الأخرى، ولكي لا يكون بإمكانهم تسويق أنفسهم بإدعاء السذاجة، أو الجهل، نحن نأمر أن يقوم أساقفة الأبرشيات في كل سنة بتأمين نشر هذا بشكل مخلص وأمين، كلمة كلمة».

حول قرار الحرمان الكنسي

«في أية طريقة من الطرق يقوم فيها واحد من الرهبان، أو من الكهنة النظاميين، بضرب أحدهما الآخر في الدير، ليست هناك حاجة لهذا السبب للإرسال إلى الكرسي الرسولي، بل ينبغي إخضاع المتضاربين

للنظام تحت الاشراف العقلاني المتحفظ لراعيهم، وإذا لم تكن عقلانية الراعي غير كافية لتقرير عقوبتهم، لا بد له من تلقي المساعدة من حكاء أسقفية».

بند حول الموضوع نفسه

«لقد سمعنا السؤال الذي أثير من قبل جماعتكم، حول هل الرجل العلماني الذي يقدم على مدّ يده بالضرب بطيش لرجل دين، أو لراهب، أو لمختلس، بناء على توجيه أو أمر الرجل الذي يعمل في خدمته، هل سينال عقوبة الحرمان الكنسي، لاسيما إذا لم يكن هناك من سبب لضرب المضروب، يبدو لنا أنه — ما لم يكن قد وجه الضربة أثناء القيام ببعض التدريبات الدورية النظامية — يتوجب على الراعي شخصياً، أن يتفوه بالحكم، أو في حال الضرورات المستعجلة، عليه أن يؤمن التفوه بالحكم من قبل أحد الرهبان، أو واحد من رجال الدين ذوي المرتبة الدنيا، ويتوجب عدم نجاة الذي أمر بالضرب للذين ضربوا، وكذلك الذين مارسوا عملية الضرب (حتى لو توفر سبب لفعل ذلك) من عقوبة الحرمان الكنسي مع الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى يصلوا إلى الكرسي الرسولي نفسه».

حول الموضوع نفسه

«مع أن تحليل هؤلاء الذين مدّوا أيديهم بالعنف على رجال الدين، ونالوا مهانة عقوبة الحرمان الكنسي — باستثناء بعض القضايا من قبل أسلافنا — محفوظة للكرسي الرسولي، فإن بعض الواقعين تحت الحرمان الكنسي، يقومون من دون مبالاة بقرار الكنيسة، فلا يخافون من أخذ طوائف مقدسة، وغالباً ما جاء السؤال إلى الاستفتاء الرسولي، حول ما الذي ينبغي فعله بالنسبة إليهم، وبالنسبة إلى هؤلاء، نعتقد أن علينا القيام بعملية تمييز، لمعرفة هل مثل هؤلاء الناس يعرفون أنهم مقيدين بأغلال الحرمان الكنسي، أو أنهم لا يتذكرون الحقيقة التي من أجلها

وقعوا تحت حكم القرار الصادر، أو أنهم على الرغم من معرفتهم بالحقيقة، هم يجهلون الشريعة، ولا يعرفون أنهم لذلك مقيدون بها، ونحن نقدر أنهم إذا كانوا أولاً علمانيين، يتوجب عزلهم بشكل أبدي من جميع الطوائف التي تسلموها، وفي الحالات الأخرى على رؤساء الأساقفة والأساقفة أن يعرفوا أنهم لا يمتلكون السلطة بمنح التحليل من دون وصاية الكرسي الرسولي، وأن منح الغفران لمثل هؤلاء الأشخاص هو مدمر كلياً إليهم، وأن المسائل الكبرى، يتوجب أن يفهم أنها محظورة على الذين محظور عليهم بشكل واضح المسائل الصغرى فقط، وقضايا من هذا النوع من المتوجب نقلها إلى أذني الحبر الروماني، حيث منه فقط يمكن الحصول على جواب، وفقاً لصرامة القضية، أو عدالتها، وذلك حسبما تراه حكمته مناسباً، لكن إذا ما اقترف الرهبان جرائم من هذا النوع، ومع أنه قد رسم من قبل البابا الاسكندر، أن الرهبان والكهنة النظاميين، أينما ضرب أحدهم الآخر في الدير، لا يجوز إرسالهم — لهذا السبب — إلى الكرسي الرسولي، بل ينبغي إخضاعهم للنظام، بموجب حكمة الراعي وحسن تدبره، وإذا لم يكن حسن تدبر الراعي كافياً لتقرير العقوبة، يتوجب مساعدته من قبل حكمة الأسقفية، ومع أنه قد قال في مكان آخر، بأن هؤلاء الذين فرّوا من الدنيا، ولبسوا الرداء الديني في الدير، والذين اعترفوا فيما بعد، بين أشياء أخرى، بأنهم اقترفوا مثل هذا الذنب، وأنهم نتيجة لمواجهة هذه الحقيقة قد نالوا عقوبة الحرمان الكنسي، ولكن من دون اذن الحبر الروماني، لا يمكن للراعي ولا يجوز له تحليلهم، مع أنه يستطيع معاقبة المذنبين بتقويم مواعيدهم، ونحن في سبيل مصلحة الدين، ومن أجل سحب مادة المراءوغ، نرغب في اظهار أكبر مراعاة لهم، ولذلك نمنح الإذن إلى أساقفتهم، في منح منفعة التحليل إلى مثل هؤلاء الأشخاص، ما لم تكن ذنوبهم كبيرة، وهائلة (من ذلك مثلاً إذا أقدموا على مدّ أيديهم بعنف على أسقف أو على راعي دير، من أجل تشويه أطرافه، أو من أجل

سفك دمه) فوقتها لا يمكنهم المرور بمثل هذه الجرائم وتجاوزها من دون فضيحة، وإذا ما مدّ أي واحد من سكان الدير، يديه بعنف ضد أي رجل دين من دير آخر، من الممكن تحليله من قبل راعيه وراعي الشخص الذي تعرض للأذى، ولكن إذا ما ضرب علماني رجل دين، هو فقط (في سبيل تجنب الفضيحة) سيحصل على نعمة التحليل من خلال الكرسي الرسولي، لكن إذا —وفقاً للتمييز الذي تقدم ذكره— حدث بأن هؤلاء الأشخاص قد جرت ترقيتهم إلى الطوائف، فإن الذي يعرف أنه نال التكريس، على الرغم من نظام الكنيسة، نحن نرسم بوجود استمرار تعليقهم عن ممارسة واجبات الطائفة التي تسلموها، أما بالنسبة للآخرين الذين إما أنهم لا يتذكرون الحقيقة، أو أنهم جاهلين بالشرعية، وهنا مقدرين الاستعمالات التي حدثت حتى الآن للديرة، يمكن لراعيهم، بعد فرض توبة نظامية عليهم، وبعد قيامهم بتنفيذها، أن يمنحهم تحليلاً، ما لم تكن الجريمة جادة وجريمة متميزة بضخامتها، أو أن الذي اقترفها قد تقدمت به السن، وصار في عمر مميز، وأنه بالتالي عندما اقترف الذنب، اقترفه من دون نسيان أو جهل، ونحن نفرض على جميع الرعاة الالتزام بكل دقة بهذا النظام، وإلا إذا ما قام أي واحد منهم بإساءة استخدام السلطة الممنوحة لهم، سوف يستحق خسارة امتيازهم».

بند حول الموضوع نفسه

«وبالنسبة للراهبات، فإن اخوتكم قد سألتنا، بوساطة من تضيفن عليهن منفعة التحليل، إذا ما حدث، وأقدمت إحداهن بطيش بمدّ يدها بعنف ضد واحدة أخرى، أو ضد رجل مختلس، أو ضد مختلسيهن، أو حتى ضد رجال دين، وفي ردّ على سؤالكم هذا نحن نجيب، ونرسم بشكل ثابت، ونقرر، بأنه يتوجب تحليلهن من قبل الأسقف الذي يوجد ديرهن في أسقفيته. البابا انوسنت الثالث، في المجمع العام».

حول الضمانات

«إن الذي جرى تحريمه من قبل الكرسي الرسولي بالنسبة إلى بعض البيوت الدينية، نحن نرغب ونأمر بمدّه إلى الجميع، وأن تجري مراعاته من قبل كل واحد، ومن قبل الجميع، أي أنه لا يجوز لأي رجل دين، من دون إذن الأكثرية من الهيئة الرهبانية، ومن راعيه، أن يصبح ضامناً لأي واحد، أو أن يستلم مالاً كقرض من أي واحد، أكبر من المبلغ المفروض من قبل المجمع العام، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الدير لن يكون مسؤولاً بأي حال من الأحوال، أو مرغماً على التسديد عنه، مالم يكن واضحاً، أن المقصود من ذلك كان منفعة البيت نفسه ولصالحه، وكل من يحاول العمل معاكسة هذا القانون، أو أن يعمل ضده، سوف يكون خاضعاً لعقوبة نظامية قاسية».

حول المدفوعات

«إذا أي واحد، الخ: نحن نمنع بدقة أي واحد من الإقدام على تحميل الكنيسة المعهود بها إليه ديون آخرين، أو أن يعطي بذلك كتابة إلى أي واحد، أو أن يضع الأختام على أي شيء، يمكن به للكنيسة أن تثقل، ونحن نرسم بكل دقة، ونأمر، بأن أي واحد سوف يعمل العكس، سوف تكون الكنيسة غير ملزمة بدفع هذه الديون، وأي واحد، يمكن أن يقدم من الآن فصاعداً على معاكسة الأحكام المتقدم ذكرها، عليه أن يكون متأكداً من أنه سوف يعلق ويوقف عن إدارة المسائل الروحية».

قبول القوانين

بعد الفراغ من قراءة هذه القوانين، سمع رعاية الدير ورؤساء الرهبان المجتمعين بأن الديانة المقدسة، بعد إصلاحها على هذا الشكل، سوف تتلقى زيادة سعيدة، وبناء عليه تلقوا بتشوق، وبموافقة عامة،

هذا المنهج، وكأنه منحة أرسلت من السماء وأمروا بنشره في جميع هيئاتهم الرهبانية، وإنزال العقوبات النظامية الصارمة على جميع المتجاوزين لهذا، وتدبر كثيرون كتابة المراسيم في كتب الشهداء، من أجل أن تتم تلاوتها في بيت الهيئة الرهبانية، وفقاً لأحكام القديس بندكت، من أن يدخلوا إلى قلوب الذين سمعواهم.

تضييق الحصار على بلنسية المدينة الإسبانية

وشرن في هذا العام النبيل والمسيحي الممتاز، ملك أراغون مع حلفائه، الحرب، بنشاط متميز ضد مدينة بلنسية العظيمة، حيث جرى تضييق الحصار عليها من جميع الجهات، حتى أنها ضعفت وقاربت على الهلاك.

تكريس بعض الكنائس الفخمة

وجرى في حوالي الوقت نفسه تكريس بعض الكنائس الديرية الفخمة من قبل روبرت أسقف لنكولن، في مارش Marsh في أسقفية لنكولن، وكان ذلك في: رامسي Ramesy وبورغ Burg [بيتر بورا Peter borough] وسوتري Sautery وجرى تكريس كنيسة رامسي في ٢٢- أيلول، وكان ذلك يوم عيد القديس موريس ورفاقه، وكنيسة بورغ في ٢٨- أيلول، وكنيسة سوتري في الأسبوع نفسه، وكنائس أخرى كثيرة في جميع أرجاء انكلترا، وفقاً للمؤسسات والأحكام التي نشرت في لندن من قبل النائب البابوي أوتو.

بلدوين امبراطور القسطنطينية يزحف في بلاد الإغريق

مع قوة مسلحة

وانطلق في هذه الآونة الامبراطور بلدوين، امبراطور القسطنطينية،

يريد المقاطعات الاغريقية مع قوة كبيرة، واستهدف اخضاع الذين ثاروا ضده شخصياً، وضد الكنيسة الرومانية، تحيط به قوة كبيرة، وذلك بقدر ما أمكن لحلفائه وأقربائه أن يمدّوه به، وفي سبيل تزويد خزينته بالمال، باع أكثر آثاره قيمة إلى الملك الفرنسي، ورهن بعض أكثر مقتنياته ثمناً، لأنه (كما تقدم الذكر أعلاه) قد جاء من النبالة الفرنسية، وقام البابا، في سبيل ازعاج منافسه واغضابه، أي الامبراطور فردريك، فقدم إليه يد المساعدة، بقدر ما أوتي من قوة.

ولادة ولد ذكر لسيمون دي مونتفورت

ومع مقدم العام الجديد، عندما كان أ. A أسقف شيلستر يسير متوجهاً إلى لندن بناء على استدعاء من الملك، ولد الابن الأكبر لسيمون دي مونتفورت من إيلانور زوجته في نيلوورث، وذلك ليزيد من قوة المملكة وسعادتها، لأنه كان يخشى بأن تكون الملكة عاقراً، وبناء عليه، ولكي يزيد الأسقف من مكانته شخصياً لدى الملك، أقام هناك بعض الوقت، وقام بتعميد الطفل، وحمل في اليوم نفسه إلى فراشه، لأنه هوجم من قبل مرض شديد، أوصله إلى حافة الموت.

رئيس أساقفة أنطاكية يدعي التفوق على الحبر الروماني

وفي العام نفسه، قام رئيس أساقفة أنطاكية (مع موافقة جرمان، رئيس أساقفة القسطنطينية، والمحامي عن الاغريق، ونائب البابا المضاد) فأقدم بطيش وعنف واندفع بوقاحة كبيرة، أوصلته إلى حد أنه أعلن من خلال سلطات فارغة عن الحرمان الكنسي للبابا، مع جميع الكنيسة الرومانية وبلاطها، وبشر بوقار بالتجديف، ووضع نفسه وكنيسته أمام قداسة البابا والكنيسة الرومانية، في مجالي العمر والرتبة، أي أن كنيسته كانت متفوقة على الكنيسة الرومانية، لأن القديس بطرس قد تولى في المقام الأول حكم كنيسة أنطاكية لمدة سبعة أعوام مع الشريف الأعظم،

لأنه قد استقبل هناك بأعظم احترام ممكن، ومثل ذلك جرى تنويجه بشكل مشرف، لكنه تعرض في روما للمضايقة الشديدة، وأوذي مراراً، ووجه إليه اللوم، وأخيراً بعدما عانى وتألم مع تابعه الرسول بولص، في أيام الامبراطور نيرون، أنهى تعذيبه بموت مرعب، وبناء عليه الاستحقاق جدير بالمدينة والمقاطعة مع أهلها وسكانها، الذين كانوا الأعز والأكثر محبة لدى القديس بطرس، وبالذين أظهروا نحوه الاحترام، وليس للذين أنزلوا به العذاب، وأهانوه، وهكذا كان من الواضح أنه أضفى بكرم منه سلطة الربط والخل على الكنيسة الاغريقية، وليس على كنيسة روما، التي تلطخت الآن بوصمة السيمونية، والربا، والشر، وذنوباً أخرى كثيرة.

وبوساطة هذه المناقشات الخرافية وسواها، أغلق البابا المضاد المذكور مواضع تشوّهاته وأخفاها، من أجل دماره، وعمل تسويغاً لذنوبه، لكن عمود الكنيسة، وهو البابا الصحيح، والخليفة لبطرس الرباني (مع أنه غير مقلد له تماماً) قد بقي ثابتاً دون أن يتحرك، واحتفظ بجميع انتقاماته حتى يوم الحساب.

فيضان للأنهار غير اعتيادي وغير طبيعي

وفي العام نفسه، تدفقت الأنهار بشدة، وفاضت فوق عدد كبير من الحقول والأراضي المستوية، وجاء ذلك بشكل غير اعتيادي وغير طبيعي، وكانت الأماكن التي غمرتها ليس فيها ماء من قبل وجافة تماماً، وازدادت فجأة، وبشكل سريع مرعب، إلى حد أن الأسماك سبحت في أرجائها، وسببت قسوة الأنواء وأمراضها سريان كثير من الأوبئة المتنوعة، وبذلك كانت قسوة الأنواء أشبه بطاعون على الأرض، وشعر شعب المنطقة مع المزارعين، وكذلك الفرسان، والنبلاء، ورجال الدين بسوط عذاب الرب هذا.

كيف أودع روبرت بيغر

وهو راهب ومحقق مع الهراطقة السجن الدائم بسبب وحشيته

وكان هناك في هذا الوقت نفسه راهب من طائفة المبشرين (الدومنيكان) اسمه روبرت بيغر Bugre وكان رجل علم وأدب، وكان قديراً وفصيحاً في عمله بالتبشير، وقد اكتشف وجود عدد كبير من الناس في مملكة فرنسا، قد تلطخوا بشرور الهراطقة، وبشكل خاص في فلاندرز، حيث بوساطة عادة قديمة، كان السكان مشهورين دوماً بشرور الربا، أكثر من أي شعوب أخرى، ولذلك غالباً ماتولى تفحص هؤلاء الناس بكل دقة بشأن إيمانهم، فوجدهم قد ابتعدوا أو بالحري ضلوا عن الطريق الصحيح، وبالتعاون مع السلاح المدني، مع عون ملك فرنسا، تدبر الراهب روبرت المذكور احراقهم، وقد تميز هؤلاء جميعاً وعرفوا باسم عام هو «البيغريين»، سواء أكانوا: بطرسيين، أو يهويين، أو ألبينيين، أو تلووثوا بهرطقات أخرى، وكان روبرت هذا نفسه قبل أن يرتدي الرداء الرهباني من جماعة «البيغريين»، ونتيجة لهذا عرف جميع رفاقه من الطائفة نفسها، فأصبح المتهم لهم، والمطرقة، والعدو الخاص، وأساء أخيراً استخدام السلطة التي أسندت إليه، وأصبح متشاكساً، وقوياً، ومرعباً، مزج الصالح بالطالح، وعاقب الأبرياء وذوي العقول الساذجة، ولذلك منع من متابعة ممارسة غضبه، في ذلك المنصب الرهيب، ولكن بما أن جرائمه (التي أعتقد أنه من الأفضل السكوت عنها بدلاً من حكايتها) أصبحت فيما بعد واضحة أكثر، ومشهورة، أدين وحكم عليه بسجن أبدي.

كيف بهتت شهرة الامبراطور فردريك

وفي خلال العام نفسه، أعتمت شهرة الامبراطور فردريك وتلطخت من قبل الأعداء الحسودين والخصوم، فقد عزي إليه أنه كان متشاكساً

بالعقيدة الكاثوليكية، أو بالحري قد ضلّ وابتعد عن الطريق القويم، وقد تفوه في بعض خطبه بما يمكن أن يستخرج منه ويشك، بأنه لم يكن فقط ضعيفاً بالإيمان الكاثوليكي، بل إن الجريمة التي كانت أعظم وأشدّ خطورة هي أنه كان فيه هرطقة كبيرة جداً، وتجديف مخيف وكفر مكروه من قبل المسيحيين كلهم وملفوظ، لأنه قد روي بأن الامبراطور فردريك قد قال (مع أنه ربما من غير الموائم ذكر ذلك) بأن ثلاثة مشعوذين، قد قادوا براءة متناهية، وضلّلوا معاصريهم ليحصلوا لأنفسهم على سيادة العالم، وكان هؤلاء هم:

موسى، ويسوع، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه قدم بشكل غير تقوي بعض الهذيان الشرير، والذي لا يمكن تصديقه مع التجديف، فيما يتعلق بالقربان الأعظم قداسة، ليكن هذا بعيداً، وليكن نائياً، عن أي رجل مستقيم، على الأقل هو مسيحي، بأن يفتح فمه ويحرك لسانه للتفوه بمثل هذا الهذيان، التجديفي، ولقد قيل أيضاً من قبل منافسيه، بأن الامبراطور وافق، لابل آمن بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) أكثر من إيمانه بشريعة يسوع المسيح، وأنه عمل بعض العاهرات المسلمات خليات له، وسرت اشاعة بين الناس (لاسمح الرب أن تكون صحيحة بالنسبة لمثل هذا الأمير العظيم) بأنه متحالف منذ زمن طويل مضى مع المسلمين، وأن صداقته نحوهم أعظم من صداقته مع المسيحيين، وأن خصومه الذين يسعون نحو تشويه سمعته، قد حاولوا أن يؤكدوا هذا بعدة براهين، وسواء أأذنبوا أم لا، وحده الذي هو غير جاهل بشيء يعرف.

روبرت الناسك يصبح مشهوراً

وفي العام نفسه، أصبحت أيضاً شهرة روبرت الناسك معروفة في الخارج، لأن قبره في نيربورا Knaresborough أخذ — كما قيل — يرشح زيتاً دوائياً بكميات كبيرة.

نهاية السنة

كان الشطر الأخير من هذا العام كثيف الغيوم وممطراً، واستمر ذلك حتى مضي الربيع، عندما تداعت كل الثقة بالموسم، وخلال شهرين أو أكثر من أشهر الصيف، كان المناخ جافاً إلى أبعد الحدود، وبشكل غير اعتيادي، وحاراً، ومع اقتراب الخريف أصبح المناخ رطباً، وممطراً، وبذلك استرد الموسم بشكل رائع، وأينعت نباتات جديدة مكان النباتات التي ذبلت، وكانت هناك كميات وافرة من القمح، وفي نهاية الخريف، حدث على كل حال، أن الذين أخرجوا قطافهم قد حرموا من مواسمهم، بسبب تساقط أمطار غزيرة متواصلة، حتى أن القش والقمح قد تعفن، وتسبب هذا الخريف غير الاعتيادي، الذي عدّ بشكل عام جافاً وبارداً بمرتين عدة أنواع من الأمراض الخطيرة، وما من أحد قد رأى من قبل مثل كثرة الذين أصيبوا بالحمى الربعية، ويتوجب أن نوضح أيضاً، أنه في هذا العام كان حرف يوم الأحد هو ب. B وأن يوم الاستعداد كان يوم جمعة، وقد دعي يوماً مقدساً، وأن اليوم التالي قبل عيد الفصح (عند اليهود) كان يوم بشارة مولانا، وكذلك يوم آلامه، واليوم الثالث بعد الفصح الحقيقي هو يوم قيامة ربنا، لأن ربنا قام ثانية في السادس والعشرين من نيسان وتأكد في اليوم الرابع [كذا] قبل ذلك، أي في الرابع والعشرين من نيسان، وهكذا وقع كل شيء في هذا العام في وقته الصحيح.

خلاف بين الملك وبين غيلبرت الإيرل مارشال

في سنة النعمة ١٢٣٩، التي كانت السنة الثالثة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، مع وفرة عظيمة من التشريف الصحيح، والسخاء الكبير، لأن الكنيسة في ذلك المكان استمرت بالحصول على ما يكفي وتزويد الملك به، لا بل بوافر الحاجيات من أجل جميع هذه النفقات الخاصة بالقصف والشرب،

وهذا لم يكن الملك أسفاً البتة من أجله، لأنه من أجل هذا العمل، لو كان لديه موبخ صادق، وله نفوذه، ودقيقاً، لاستحق عليه ملامة شديدة، ولولا أن أعطيات صدقاته، التي استمر يمنحها بشكل واسع وبكرم (التي كما ورد في كتاباتنا المقدسة تغطي ذنوبنا) أنقذت مثل هذه الأعمال، لسببت رعباً عظيماً له نفسه وللمملكة، وذلك بإثارة غضب الرب ضده، وعندما — على كل حال — أقيم القديس في يوم عيد الميلاد، وأكمل بشكل مهيب، وبصورة فخمة، ومن أجل أن لا تأتي بهجة هذا العالم من دون شوائب، إن عدم النظر إلى الحادثة أزعج تماماً جميع سرورهم وقصفهم وأفسده.

وعندما عمل الملك ظهوره في قصره الملكي ليتناول طعام افطاره، وصل غيلبرت، الايرل مارشال إلى الباب، مع أتباعه الفرسان، ليحصل على قبول، لكن عندما صعد نحو الباب، ورغب بالدخول، حرمة حفظة أبواب الملك والمارشالات بفجاجة من الدخول، وردوه بعصيتهم مع حاشيته بمهانة وازعاج، وعندما رأى الايرل ذلك، شعر عن قناعة بأن بعض النمامين قد زرع بذور الخلاف بينه وبين الملك، وأن هذا الذي فعل لم يكن من دون تفويض الملك، وقام هو — على كل حال — فكبت مشاعره، وعاد إلى بيته في المدينة، ثم إنه في سبيل استمرار هدوء العيد، ولكي لا يفسد وئامه، دعا بوساطة صوت البوق، ليس فقط أصدقائه، بل عدداً كبيراً من الآخرين، اختارهم للاجتماع على مأدته، من أجل تناول طعام الإفطار، وفي صباح اليوم التالي، أرسل — على كل حال — بعض الرجال من ذوي المراتب العليا إلى الملك، وطلب منه أن يعلم لماذا أنزل به من دون سبب مثل هذا الأذى العظيم، مع أنه الايرل الذي كان خاضعاً باخلاص له، وهو صاحب أصل نبيل، ولا سيما في مثل ذلك اليوم، وأعلن أنه على استعداد لتبرئة نفسه بالمحاكمة، حول جميع النقاط التي أثرت ضده، وضد جميع الذين أثاروا العداوة بين مثل

هاتين الشخصيتين المشهورتين، وأجابهم الملك وهو غاضب:

«من أين حصل الايرل غيلبرت على قرنيه؟ وكيف حدث أنه يهدد برفع كعبه فوقى، ضدي أنا الذي من الصعب بالنسبة له أن يرطم؟ وأخوه ايرل رتشارد الذي كان خائناً دمويًا، وقد ثار ضدي وضد مملكتي، أنا جعلته سجيناً، عندما اشتبك بصراع مميت ضدي في ايرلندا، وقد جرد من ممتلكاته، ووضع في السجن وهو جريح، حتى أنهى انتقام الرب، الذي استحقه، حياته، وإلى الايرل غيلبرت هذا منحتة ميراثه، بناء على الالتماسات المستمرة لادموند رئيس أساقفة كانتربري، وقد منحتة ذلك كمعروف، وليس لأنه استحق ذلك البتة، مع أنني أرغب بسحبها منه».

ولدى سماع الايرل هذا، ارتعب إلى درجة كبيرة جداً، وسحب نفسه إلى المقاطعات الشمالية، لأنه الآن بدأ يعاني من غضب الملك المعلن، كما أنه بعد هذا لم يحب الملك، هو أو أخوه وولتر بعاطفة صادقة، كما فعلا من قبل، كما أنهما لم يعودا يتمتعان بالازدهار.

موت إدموند أسقف شيستر

في يوم القديس اسطفان، أغلق ادموند، أسقف شيستر حياته.

الملك يمنح كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت

في يوم طهارة العذراء المباركة، منح الملك كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت، وكان قبل ذلك قد استدعى أخاه الأكبر ايرل أماريك Almaric وطمأنه وأرضاه حتى لا يثير في أي وقت أي خلاف حول هذه المسألة.

استدعاء الملك ستيفن سيغريف إلى مجالسه

وفي هذه الأونة، استدعى الملك، ستيفن سيغريف إلى مجالسه.

النائب البابوي يستدعي رعاة طوائف الرهبان السود للاجتماع في لندن

وفي الوقت نفسه، استدعى النائب البابوي جميع أساقفة انكلترا، للاجتماع في اليوم الذي يغنى فيه مزمور: «دعوا القدس تبتهج» في لندن، ليناقدشوا هناك شؤون الكنيسة، وهناك أعطى بعد مداولات دقيقة، إلى رهبان الطائفة السوداء، بعض القوانين، القصيرة والمحكمة، حتى تنفذ من قبلهم من دون جدل، وقد لطف النظام الشديد لديهم، في عدد من النقاط.

إلغاء انتخابي الأسقفين المنتخبين لنورويك وشيستر

وفي الوقت نفسه جرى بتدخل من الملك (بسبب أن هدفه بانتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية لم ينجح) إلغاء انتخاب الأسقف المنتخب لنورويك، الذي كان رئيس رهبان البيت نفسه، وكان رجلاً جديراً بالاحترام، من جميع الجهات، ومستقيماً، وفعل الشيء نفسه بالنسبة لانتخاب أسقف شيستر، أي ر. R مستشار الملك، الذي طُلب ليكون أسقفاً لوينكستر، وكان رجلاً صادقاً، ومستقيماً، وكان وحده تقريباً ركيزة الصدق بين رجال البلاط.

انتخاب وليم دي ريل أسقفاً لشيستر

وفي هذه الآونة، رأى رهبان كوفنتري أن الملك استمر دوماً يعيق الكهنة النظاميين ويمنعهم من القيام بانتخابهم، وأنه لم يوافق على أي واحد جرى انتخابه من قبلهم، ما لم ينل الخطوة الملكية والقبول، ولكي لا تعاني كنيستهم من خسائر لا يمكن تعويضها، ومن الأذى من خلال التأخير والتأجيل المتواصل والتوقعات، قاموا في حوالي أيام عيد القديس متى، فانتخبوا بالاجماع وليم دي ريل، وكان كاهناً خاصاً لدى الملك، وكان رجلاً مستقيماً، وواحداً من البارعين في شريعة البلاد، ولقد

انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، لأنه بدا أنه كان رجلاً غير ملطخ بأي سوء، يمكن أن يثير الرفض أو الاعتراض.

استدعاء النائب البابوي للعودة إلى الوطن لكنه بقي في انكلترا بناء على طلب الملك

وفي تلك الآونة كان صاحب القداسة البابا، يسمع بشكل متواصل، لابلحري يومياً، ويتلقى اتصالات، بأن الفضائح التي تسبب بها الطمع الذي لا يعرف الكفاية مع شره الرومان، قد ازدادت يوماً من سيء إلى أسوأ في انكلترا، فاستدعى نائبه أوتو، وطلب منه العودة فوراً إلى روما، وبناء عليه دعا النائب البابوي أساقفة انكلترا للاجتماع في لندن، للتباحث حول عودته، وللترتيب من أجل أمان مروره، وعندما سمع الملك بهذا، بات مرعوباً كثيراً على نفسه، من الاجتماع العام الذي كان على وشك الانعقاد في ثمانية الفصح، وذلك عندما كان متوقفاً وصول أسقف بلنسية المنتخب، ووضع ثقته كلها بالنائب البابوي، لأنه كان حاضراً، ومع ذلك كان حزينا جداً وخائفاً، خشية أن يشور النبلاء والرجال ذوي المراتب في المملكة ضده باتفاق عام، بسبب تجاوزاته المتنوعة، وأعمال خروقاته المتكررة ضد القوانين التي طالما وعد وأقسم على مراعاتها والحفاظ عليها، ولذلك تقدم بالتماسات سريعة وملحة إلى النائب البابوي، حتى يرسل أكثر الرسل مواءمة، بكل سرعة ممكنة إلى البابا، لكي يبقى في انكلترا، حتى يمكن بوسائطه قمع الاضطراب الوشيك، وبقي النائب البابوي، لأنه لم يرغب في ازعاج الملك برفض طلبه.

بطرس المسلم يقدم إلى الامبراطور

مبلغاً كبيراً من المال مقابل فديته

وعرض في هذه الآونة بطرس المسلم، الذي احتجزه الامبراطور

فردريك أسيراً لديه، دفع مبلغ عشرة آلاف باوند استيرليني فدية، ولكي يحصل على حظوة الامبراطور، وبذلك يجري اطلاق سراحه ويتحرر، وكان الامبراطور قد وافق على هذا، على شرط أن يصبح صديقه ملك انكلترا، ضامناً من أجل دفع مثل هذا المبلغ الكبير من المال، وأن لا يقوم بطرس المسلم المذكور ولا أي من أتباعه، منذ ذلك الحين فصاعداً، بتسبب إلحاق الضرر بالجلالة الامبراطورية، بأي شكل من الأشكال، ثم إن بطرس المذكور كتب إلى صاحب القداسة البابا، وإلى أصدقائه الآخرين، يرجوهم، بما أنه كان دوماً على استعداد، وجاهزاً وراضياً بانفاق أمواله في سبيل رفع شأن الرومان ومصالحهم، لحث ملك انكلترا المذكور، بوساطة كل من النائب البابوي، وأصدقائه المقربين الآخرين ليتعهد باسمه شخصياً وباسم مملكته بالقبول بالشروط المذكورة.

وعندئذ صار النائب البابوي وسيطاً نشيطاً، ووكيلاً في هذا العمل، وقال بأنه لا يستطيع بشرف أن يرفض تقديم المساعدة لرسوله السجين، لكن الملك رأى أن الفخ كان منصوباً له، وعرف مقدار الخطر الذي يمكن أن يحقق بمملكته، وأن ذلك ليس من شأن الرومان، مادامت مقتنياتهم محفوظة إليهم، وانفجر متفوهاً بكلمات غاضبة، وأقسم أنه أسف لأنه تخلى عن الرجال الانكليز الأمناء، واستدعى النائب البابوي إلى انكلترا، وهو الذي بدد ثروات البلاد، ومزج الصواب مع الخطأ، وفي ظل مثل هؤلاء الحكام أصبحت انكلترا آتئذ — وبالفعل كانت كذلك — كرماء، كل من يمر على الطريق يلتقط منه عناقيد، لأنه ليس له سور يحميه ويحيط به، ولا حارس يحرسه، لأن الذي حرّمه اللاهوتيون مرة بحرارة، سمحوا به مرة أخرى.

إعطاء سردينيا إلى الامبراطور

في هذا العام، عندما كان الامبراطور يمضي الشتاء في إيطاليا، أعطيت له الجزر الغنية، الواقعة في البحر المتوسط، والمجاورة لمدينة بيزا، والتي

كانت أكبرها وأعظمها قوة جزيرة سردينيا، وتمّ التخلي له عنها، وقد قيل بأن امتياز هذه الجزيرة، كان يعود بشكل خاص إلى ميراث القديس بطرس ووقفه، لكن الامبراطور أكد أنها تعود منذ زمن قديم إلى الامبراطورية، إنما بسبب انشغالات الأباطرة، ولكثرة الضغوط الأخرى والضرورات الامبراطورية قد جرت خسارتها، وأنه قام الآن باستردادها إلى جسم الامبراطورية، وقال:

«لقد أقسمت، كما يعرف العالم تمام المعرفة، بأنني سوف أسترده الأجزاء المتفرقة من الامبراطورية، وهذا لن أكون متراخياً في انجازه»، وبناء عليه هو لم يعبأ بتحريم البابا، وبعث ابنه، لتسلم حصّة الجزيرة المتقدم ذكرها، التي منحت إليه، وعندما سمع البابا بهذا امتلاً بأعظم الغضب، ونهض للقيام بانتقام علني، لأنه عدّ فقدانها خسارة عظيمة، لأن جزيرة سردينيا — كما قيل — كانت في الحقيقة، مكان لجوء للتجار، وموضع راحة للناس الذين جنحت سفنهم، وملاذاً للمنفيين، وقد حكمت من قبل أربعة مقدمين، هم الذين أطلقوا عليهم اسم قضاة، وكانت الخسارة ثقيلة، لكن طريقة خسارتها كانت أثقل في تحملها، وقد بدت كإيذاء كبير، وظهر أن الكراهية التي تفجرت بين الامبراطور وبين البابا، كانت أشبه بجرح قديم، أنتج قضايا قدرة.

رئيس أساقفة كانتربري يرهق الرهبان

وفي هذه الآونة ألقى ادموند رئيس أساقفة كانتربري يده بثقل أكثر على رهبانه، وجرى وضع رهبان كانتربري تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، كما أن رئيس الرهبان الجديد الذين انتخبوه، قد وضعه أيضاً تحت الحرمان الكنسي، وكذلك وضع الذين انتخبوه.

خلاف بين أسقف لنكولن وبين كهنته

وأصبح أسقف لنكولن أيضاً مطرقة ومعذباً وحشياً للرجال الدينيين

في أسقفيته، لأنه ثار بدون تردد ضد الكهنة النظاميين العائدين لكنيستته الكاتدرائية، الذين أوجدوه، وطالب بكل حرارة بعزل عميد لنكولن، وأنهم ينبغي زيارتهم زيارة تفقدية من قبل الأسقف نفسه، وذلك على عكس ما كانت عليه عادة الكنيسة منذ زمن مغرق بالقدم، وتقدم الكهنة على كل حال بشكوى مستعجلة، وقاموا بعد أعمال تأخير واعاقة طويلة، وخلافات كبيرة، فأحالوا القضية إلى محكمين هم: وولتر أسقف ووركستر، ورئيس شمامسة المكان نفسه، والمعلم أ. A. أوف بكل Beccles وأنهم إذا لم يقوموا بالاجراءات بشكل قانوني، جرى السماح لكل واحد من الطرفين بالترافع ثانية إلى البابا، وفي الوقت نفسه توقفت الفتتان عن الزيارة، وهذه الإضافة، أي «توقف الفريقان في الوقت نفسه عن الزيارة» كان معنى هذا أن فريق الرهبان كان في خطر، لأن الأسقف لم يزرهم قط، والذي لم يبدأ قط لا يمكن إيقافه، لأنه كما جاء بالأمثال، الذي ليس لديه قرنين، لا يمكن أن يحسر أياً منهما، ومع هذا أن يتوقف العميد عن الزيارة، الأمر الذي كان في سبيله يناضل الكهنة، قد ظهر بذلك أنه قد جرد من ممتلكاته، ولو للوقت الحالي، وبذلك ازداد الخلاف، ونشأت فضيحة كبيرة، وهكذا ثار الخلاف والصراع فيما بينهم، ووصل بذلك إلى حد إثارة مشاعر الغضب، فلم يسمح الكهنة للأسقف بالدخول إلى هيئة رهبانيتهم، أو القيام بأية زيارة تفقدية بينهم، وأعلنوا بوضوح أمام الأسقف نفسه بأنهم كانوا آسفين جداً، أنهم أوجدوا أسقفاً من مثل هذا الشخص الدنيء، ونشب خلاف كبير، وبعد قليل من الإنفاق بلا فائدة من على الجانبين، عملت مرافعة لتقديمها إلى البابا، وجرى تعيين المعلم أودو دي كنكلني Kinkelny محامياً عن الهيئة الكهنوتية، وفي أحد الأيام وقعت واقعة مدهشة:

عندما كان واحد من الكهنة المؤيدين لموقف الهيئة الكهنوتية، يعظ

الناس في بناء كنيسة لنكولن الفخم، قدّم إليهم جميعاً شكوى جادة ضد ظلم الأسقف، وتفوه بالكلمات التالية:

«نحن وإن كنا صامتين، فإن الحجارة سوف تصرخ رافعة صوتها عالياً»، وعندما تفوه بهذه الكلمات، تحطم جزء كبير من الكنيسة وتهاوى.

عواصف جديدة من المطر

ومع اقتراب الربيع، وفي حوالي أيام عيد الفصح، توقفت عواصف الريح، والأمطار الغزيرة، وذلك بعدما استمرت بشكل متواصل لمدة أربعة أشهر، عاملة الوحل على الأرض، إلى حد أن البحيرات والمستنقعات، كادت تختنق القمح، وتفسد الأجواء.

مقتلة المسلمين في إسبانيا

وفي العام نفسه، في يوم الثلاثاء بعد الفصح، عملت مذبحة كبيرة بين المسلمين في منطقة قرطبة، من قبل ملك قشتالة، أخو بلانشي، ملكة فرنسا، وأم الملك.

وفاة وليم دي كانتلوب

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في السابع من نيسان، مات البارون الشهير، وليم دي كانتلوب Cantelupe والد أسقف ووركستر، عن عمر متقدم.

الملك يسعى لإعادة مستشاره

وفي هذه الآونة، وبالتحديد، في الأسبوع الذي أعقب عيد الفصح، أصبح الملك آسفاً، بسبب عمله غير النظامي وغير المستقيم، في انتزاعه ختمه، وإبعاده عن نفسه وعن بلاطه مستشاره، أسقف شيلستر، الذي شغل من قبل ولمدة طويلة منصبه بأمانة، وقد سعى الآن بوساطة

مختلف وسائل الجذب والوعود إلى إعادته، لكنه كان — على كل حال — يؤثر التقاعد والاعتزال، والهدوء للعناية بنفسه، والاستمرار بربحه ونجاته من خطر حمل الخاتم، ولذلك رفض الوقوع ثانية بالمصائد التي نجا منها مرة، وتذكر كيف أنه دعي وجرت تسميته لأسقفية وينكستر، وكيف أن انتخابه قد ألغي من قبل الملك، الذي كان قد خدمه لمدة طويلة بكل اخلاص، وهو أيضاً قد خدم والده في منصب آخر.

ملك اسكوتلندا يتزوج من ابنة اينغلرام دي كوسي

وفي هذه الآونة اقترن الاسكندر، ملك اسكوتلندا بابنة اينغلرام دي كوسي Engelram de coucy وكان باروناً نبيلاً من المملكة الفرنسية، وكانت فتاة جميلة اسمها مريم، وجرى الاحتفال بالعرس بشكل مهيب في روكسبورغ Roxburgh في يوم أحد الشعانين.

عدم مغادرة النائب البابوي بناء على طلب الملك

كان النائب البابوي، وكأنه على وشك المغادرة، والعودة إلى البلاط الروماني، ولذلك استأذن الملك بتواضع، وكذلك رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وسكان لندن، في قداس أعدّه خصيصاً لهذه الغاية، وقد باع الخيول الأصيلية التي أعطيت له، بشروط جيدة، واشترى خيولاً عادية مكانهم، وأعدّ حقائبه، وهياً سرج ظهور المطايا، وكان الملك يعتقد أنه سوف يموت بغيابه، فبذل جميع الجهود التي كانت بطاقته، لاقناعه، بالمكوث ولو لمدة صغيرة أطول، ذلك أنه كان قد بعث إلى البلاط الروماني واحداً من محاميه، الذين احتفظ بكثيرين منهم (مثلما يحتفظ الصياد بكلاب الصيد) ليبقي منتخبي الأساقفة متفرقين، وكان هذا المحامي هو سيمون النورماني، وكانت مهمته الحصول من البابا على أمر إلى النائب البابوي ليظل مكوثه في انكلترا، ليتحاشى كثيراً من المخاطر

هناك، ولم يكن في هذا الرأي مخدوعاً، لأنه عندما كان جميع أثاث النائب البابوي وحقائبه قد اكتمل إعدادهم، رجع سيمون النورماني، جالباً معه رسائل، حصل عليها بما يتوافق مع رغبة الملك، ولدى إطاعة النائب البابوي لمحتوياتهم غلب السرور على الملك، أما النبلاء الذين كانوا يعرفون تقلبات الملك مثل مراوغة الثعلب، فقد غادروا غاضبين، دون أن يحققوا هدفهم، ومقتوا كلام الملك مثل مقتهم كلام المغالطات السوفسطائية.

انتخاب وليم دي ريل إلى أسقفية نورويك

وكان رهبان كوفن تري قد فرغوا الآن من إعداد شروط مشرفة من أجل انتخاب الأسقف مع كهنة كنيسة ليشفيلد Lichfield ووافقوا — كما ذكرنا من قبل — بالاجماع، على انتخاب وليم ريل، ليكون أسقفاً لهم، وذلك من خلال الخوف، أنهم إذا ما انتخبوا أي واحد آخر، غير محظي لدى الملك، سوف يعارضهم الملك مواجهة، وسوف يسبب لهم الاضطراب، كما هي العادة، وفي الوقت الذي بقي فيه وليم المذكور في حالة تردد، وتعليق، ومثل رجل حكيم ومجرب، يزن حوادث المستقبل بميزان العقل، رأى رهبان نورويك، أنهم قد انتظروا لوقت طويل، لأنهم لم ينتخبوا وليم المذكور، أسقفاً لأنفسهم، ذلك أنهم بهذا الانتخاب سوف لن يزعجوا الملك ولا أي واحد آخر، ولذلك اجتمعوا على الفور مع بعضهم، وانتخبوا وليم دي ريل المذكور بمثابة أسقف لأنفسهم، وعند ذلك رفض وليم المذكور الأسقفية الأخرى التي حصل عليها بالخطوة وقبل أسقفية نورويك، ذلك أنه فضّل البقاء في انكلترا مع الانكليز، على الذهاب إلى ويلز، والبقاء مع الويلزيين غير المدجنين.

تحصين برج لندن

وجرى في هذا العام تحصين برج لندن، مما جعل سكان لندن يخشون

بأن يتحول هذا لإيذائهم، ولدى تقديمهم شكوى حول هذه المسألة إلى الملك، أجاہم بأن ذلك لم يكن للإضرار بهم أو لإهانتهم، وقال:

«بل إنني سوف أسعى، من الآن فصاعداً، بإعادة بناء قلاعي، لأن أقلد إخواني، الذين أفادت عنهم التقارير، أنهم أكثر حكمة مما أنا عليه».

تزايد العدوانية والكراهية بين الامبراطور وبين البابا

وفي أيام الصوم الكبير من العام نفسه، رأى البابا المسيرة الطائشة للامبراطور، وسمع كلامه الذي سوغ به ذنوبه، حيث أنه بتقديمه الخطوة والمساعدة لبعض نبلاء سردينيا وقضاها، استمر حتى استولى عليها، وأدخلها في حوزته، ومازال مستولياً على أرض وقلاع أسقف سردينيا، وقد أعلن باستمرار، بأنهم حصّة من الامبراطورية، وأنه يمينه الرئيسي والأول قد أعلن أنه سوف يحافظ على حقوق الامبراطورية، بقدر ما أمكنه من قوة، وأنه سوف يجمع الأجزاء المتفرقة منها، وأنه بعمله هذا قد زاد الغضب عنفاً ضده، ورفع ضده بعض الشكاوى الثقيلة والدعاوى، وغالباً ما كتب بجرأة وبدقة إليه، وكثيراً ما نصحه بوساطة عدد كبير من الرسل الخاصين، الذين كانت سلطاتهم تستوجب أن ينالوا منه، أعظم الاهتمام، وأن يقلع عن حرمان الكنيسة من ممتلكاتها، التي منحت إليها بوساطة سجلات قديمة، وتعامل معه مثل الطبيب الماهر، الذي استخدم أحياناً الكمادات، ولجأ في وقت آخر إلى استخدام أداة الكي، ومزج التهديد مع الاقناع، والرسائل الصديقة مع الانتقادات المرعبة، وبقي الامبراطور — على كل حال — عاصياً رافضاً لطلبه، وعلل أعماله وسوغها على حجج تأسست على المنطق، وبناء عليه قام صاحب القداسة البابا في أحد السعف، بحضور عدد كبير من الكرادلة، وفي حالة كان يغلي بها من الغضب في روحه، فحرم بشكل مهيب كنسياً الامبراطور فردريك المذكور، وكأنه كان يريد أن يخلعه من

منصبه الامبراطوري على الفور، وألصق به تهماً كثيرة، وأعلن أنه سيظل مملوكاً من قبل الشيطان حتى وفاته، وفي استخدامه لهذه الكلمات، التي كان وقعها مثل صواعق غضبه، أثار الرعب في قلوب جميع الذين سمعوه.

نص قرار الحرمان الكنسي الذي أعلن ضد الإمبراطور فردريك

«باسم الرب القدير، الأب، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطتي الرسولين: بطرس، وبولص، نحن نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور فردريك المذكور، لأنه أثار عصياناً ضد الكنيسة الرومانية في المدينة، وحيث سعى لطرد الحبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، كما قام في معاداة للإمتيازات، وللمرتبة، وللأشخاص، فداس على حرية الكرسي الرسولي، وعلى الكنيسة أيضاً، وذلك بوساطة العنف الطائش للقسم الذي ربط به هذه المسألة بالنسبة للكنيسة الرومانية، ونحن أيضاً نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور المذكور، لأنه أمر بعضاً من رعيته، فأقدموا على حرمان أخانا المبجل أسقف برانستي Praeneste ونائب الكرسي الرسولي، من ممارسة أعمال نيابته التي عهدنا بها إليه، في مقاطعات الألبينيين، في سبيل تثبيت الإيمان الكاثوليكي، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، بسبب أنه لم يسمح لإحدى الكاتدرائيات وكنائس أخرى شاغرة لأن تملأ، وبهذه الوسائط تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، لأنه لم يعد هناك من أحد يعرض كلمة الرب، أو يحكم أرواحهم بغياب راعي الأرواح، وأسماء الكنائس الشاغرة هي كما يلي:

كاتانا Catana، وريغيو Reggio، وأكريفيارا Accriviara،
وسكويلاتا Squilata، وريسا Resa، وبوتنزا Potenza،
وأوترانتو Otranto، وبوليكاسترو Policastro، وساريتينا
Saretina، وأفيرسانا Aversana، وفالفا Valva،

ومونوبولي Monopoli، وبولوغناغنو Polognagno، وملفي Melfi، ورايلا Rappella، وكريبوتو Cributo، وألفانا Alifana، ومزارا Mazara، وفيجيليرا Vigiliara، وفريثينا Frethina، مع الديرة في فينوسيا Venusia، والمخلص المقدس في مسينا Messina، ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، ونحرمة من شراكة المؤمنين، لأن الكهنة في مملكته يعتقلون، ويسجنون، ويحكم عليهم بالموت، ويقتلون، ومن جديد نحن نحرمه كنسياً، ونحرمة من شراكة المؤمنين، لأن الكنائس المكرسة في مملكته للرب قد دمرت ودنست، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمة من شراكة المؤمنين، لأنه لم يسمح بترميم سورانو Sorano، ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، ونحرمة من شراكة المؤمنين، لأنه عندما كان حفيد ملك تونس قادماً إلى كنيسة روما لتلقي قداس التعميد، احتجزه، ولم يسمح له بالوصول، ومجدداً إننا نحرم الامبراطور المذكور كنسياً، ونحرمة من شراكة المؤمنين، لأنه اعتقل، ووضع بالسجن بطرس المسلم، مع واحد من نبلاء سكان روما، عندما كانا قادمين إلى الكرسي الرسولي لصالح ملك انكلترا، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمة من شراكة المؤمنين، لأنه استولى على أراضي الكنيسة في:

فيرارا Ferrara، وبنغنوغوما Pingnogoma، وبولونا Bologna، وأسقفية فيرارا، وأسقفية بولونا، وأسقفية لوكا Lucca، وكذلك مقاطعة سردينيا، بعنف طائش وخرق لليمين الذي ارتبط به إلى الكنيسة حول هذه المسألة، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً، ونحرمة من شراكة المؤمنين لأنه استولى على أراضي بعض نبلاء مملكته وعاث فيها فساداً، وذلك حيث الحكم للكنيسة، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً، ونحرمة من شراكة المؤمنين، لأنه حرم بعض الكنائس الكاتدرائية من مقتنياتها، وهي:

كنيسة مونت رويال، وسيفيلادا Cephelada، وكساتانا Catana، وسكويلاتا Squilata، وأيضاً ديرة:

ميليتو Mileto، والقديسة يوفيميا Eufemia الكبير،
والقديس يوحنا في لامنتانو Lamentano، ومجدداً نحن نحرم
كنسياً الامبراطور المذكور، بسبب أن كثيراً من الكاتدرائيات، وكنائس
أخرى، وديرة في مملكته قام بموجب تفتيش غير عادل، بحرمانهم من
جميع مقتنياتهم تقريباً، ومجدداً نحن نحرمه كنسياً ونحرمه من شراكة
المؤمنين، لأن الداوية والاستتارية في مملكته الذين حرموا من ممتلكاتهم
المتحركة وغير المتحركة، لم يتم تعويضهم تماماً، وفقاً لشروط السلام،
ومجدداً نحن نحرمه كنسياً ونحرمه من شراكة المؤمنين، بسبب أن
قساوسة الكنائس، ورعاة طائفة رهبان السسترشيان والطوائف الأخرى
في مملكته، مرغمين شهرياً على دفع مبلغ محدد من المال، في سبيل بناء
قلاع جديدة، ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، ونحرمه من
شراكة المؤمنين، لأنه بمخالفته لبنود السلام، أرغم الذين وقفوا إلى
جانب الكنيسة، على مغادرة مناطقهم، وكأنهم قوم محكوم عليهم
بالإعدام، وذلك في الوقت الذي جرى فيه وضع زوجاتهم وأولادهم
في السجن، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه
بسببه تعطلت الحملة الصليبية، وكذلك استرداد الامبراطورية الرومانية،
وبالنسبة إلى جميع الذين مرتبطين به بموجب يمينهم بالتابعة، هم
محللون من مراعاة ذلك اليمين وتطبيقه، ونمنعهم بكل دقة من مراعاة
مسألة تابعيتهم إليه، وذلك مادام مغلولاً بسلسلة الحرمان الكنسي، وأما
بالنسبة لظلمه وأعمال الإيذاء الأخرى التي أنزلها بالنبلاء، والفقراء،
والأرامل، والأيتام، والآخرين في المملكة، الذين لصالحهم كان
الامبراطور فردريك المذكور، قد أقسم على الالتزام بأوامر الكنيسة،
نحن ننوي أن نخلعه، وبالنسبة لهذه المسألة، سوف نسير بعون الرب،

وفقاً لما توجهه العدالة علينا أن نفعل، وإنه علاوة على ذلك، بالنسبة لجميع الذنوب المتقدم ذكرها أعلاه، جماعياً وإفرادياً، والتي من أجلها كان فردريك المذكور قد جرى تنبيهه من قبلنا بكل دقة، وغالباً ما جرى لومه، ومع ذلك هو لم يكلف نفسه القيام بطاعتنا، إنه من أجل هذا كله نحن نحرم كنسياً فردريك المذكور ونحرمه من شراكة المؤمنين، ومجدداً لأن فردريك المذكور قد ساءت سمعته بشكل جاد بأفاعيله هذه، فإن عدداً كبيراً من الناس يصرخون، في جميع أنحاء العالم، بأنه لا يلتزم بالرأي الصحيح فيما يتعلق بالإيمان الكاثوليكي، وبعون الرب، سوف نسير في هذه القضية في وقتها المناسب، ومكانها الموائم، وذلك وفقاً لأحكام الشريعة».

كيف اشتعل غضب الامبراطور ضد البابا

ولدى سماع الامبراطور بهذا اشتعل بغضب عنيف، وغالباً ما تردد اللوم، واتهم الكنيسة وحكامها بعدم الوفاء له، وأنهم أعادوا إليه الشر مقابل الخير، وذكرهم، كيف أنه عرض نفسه وتملكاته إلى الأمواج العاتية الكبيرة، وإلى ألف نوع من المخاطر، في سبيل تقدم الكنيسة وازدهارها، ومن أجل زيادة الإيمان الكاثوليكي، وأكد أن جميع التشریف الذي تمتلكه الكنيسة في الأرض المقدسة، قد جاء الحصول عليه بفضل جهوده وتعبه، ثم قال:

«لكن البابا غيور من مثل هذه الزيادة السعيدة، لأنه تم الحصول عليها لصالح الكنيسة بوساطة رجل علماني، والذي يرغب بالذهب والفضة أكثر من رغبته بزيادة الإيمان، كما يشهد على ذلك أعماله، والذي يستخرج المال من جميع البلدان المسيحية، باسم العشور، قد بذل كل الإمكانيات التي توفرت له، وعمل كل مايمكنه، لأن يخلعني ويحلل آخر محلي، وحاول حرمانني وسعى في سبيل ذلك عندما كنتُ أقاتل في سبيل الرب، معرضاً جسدي لأسلحة الحرب، وللأمراض، ولمصائد أعدائه،

وبعد التصدي للأمواج العاتية المدمرة، انظروا أي نوع من الحماية التي قدمها لنا أبونا، وأية أنواع من المساعدة وقت المصاعب، قدمت لنا من قبل نائب يسوع المسيح! والآن لم يقنع غضب هذا المضطهد، بل رأى أن عليه أن يربكني ويدمرني، ولهذا نصب أمامي رجلاً معادياً لي هو جون دي بريين، الذي كان من قبل ملك القدس، والذي عرف أنه جريء في الحرب، وبارع في النظام العسكري، وحاول أن يجعل منه أكثر الأعداء مرارة لي، وذلك في وقت لم يكن لدي أي تصور لشيء من هذا النوع، كما أنه أغنى نفسه بمبلغ كبير من المال، استخرج بظلم من قساوسة الكنيسة الفقراء في جميع أنحاء العالم، وليس من السهل أن أكشف أية نحيب، وأية دموع، أنتجه هذا الأسى ووضعه في قلبي، عندما سمعتُ بهذه الأشياء من رعتي، وهو لا بد أنه يعرف الذي لا يجهل شيئاً، وقمتُ وقتها على الفور بإخفاء هذه الآلام التي شعرتُ بها بالقلب، وتحت ملامح هادئة، بدأت أفاوض من أجل السلام، وتمت الموافقة على هدنة، وبادرت مسرعاً بالعودة، وذلك خشية من أن يحدث فيعلم عدونا بهذا، فيصبح أكثر حماساً بنجاحاتهم، وبذلك يغدو أكثر عدوانية بالنسبة لنا، وعندما عدتُ إلى الوطن وجدتُ أراضي مستولى عليها، وهي محتلة من قبل أقرباء البابا وأصدقائه، الذين كان قائدهم جون دي بريين المتقدم الذكر، ولقد اعتقلت هؤلاء، ومع عون الرب المنتقم لي، توليتُ معاقبة الذين أعاقوا شؤون الصليب، حسب استحقاقاتهم، وليكن الرب الحكم بيني، الذي أنا جندي، وبين البابا نائبه، والمسيح يعرف، والعالم يعرف بأنني لم أبتعد عن جادة الصواب، وهذا هو جذر، وأصل كراهيته، ولقد نشب خلاف بين الناس، وانقسموا، لكن بوجود سيدهم الطبيعي، أي الامبراطور، عاودوا الاتحاد، وتم استرداد قوة الامبرطورية في وقت قصير».

كيف وصل رهبان مونت كازينو إلى البابا في روما

ووصل في العام نفسه رهبان مونت كازينو Monte Casino، (حيث غرس القديس بندكت ديراً) الذين بلغ تعدادهم ثلاثة عشر راهباً، إلى البابا، في ثياب عتيقة وممزقة، وبشعر أشعث، ولحي غير مهذبة، والدموع في أعينهم، ولدى إدخالهم إلى حضرة قداسته، سقطوا على قدميه، وقدموا شكواهم بأن الامبراطور قد طردهم من بيتهم في جبل كازينو، وكان هذا الجبل لا يرام، وفي الحقيقة لا يمكن لأي واحد الوصول إليه، إلا بموافقة الرهبان، وبموافقة الآخرين الذين يسكنون عليه، غير أن ر. R غويسكارد Guiscard استطاع الاستيلاء على قلعة الرهبان، بحيلة تظاهره بأنه كان ميتاً، وقد حمل إلى هناك على محفة، وبذلك استولى — كما قلنا — على القلعة، وعندما سمع البابا بهذا أخفى أساه، وسأل عن السبب، وعلى هذا أجابه الرهبان: «بسبب أننا في طاعة لك حررنا كنسياً الامبراطور»، وعندها قال لهم البابا: «إن طاعتكم سوف تنقذكم»، وبعد هذا ذهب الرهبان دون أن يتلقوا أي شيء زيادة من البابا.

كتابة مدهشة

وظهرت في العام نفسه لواحد من الرهبان من طائفة السسترشيان، يد بيضاء مكتوب عليها جسدياً الكلمات التالية:

«سوف يقطع الأرز العالي للبنان، وسوف يسيطر المريخ على زحل والمشتري، وسوف يعمل زحل مصائد للمشتري في كل شيء، وسوف يكون هناك رب واحد، أي ملك، فقد جاء الرب الثاني، وسوف يجري إطلاق سراح بني اسرائيل من السبي خلال أحد عشر عاماً، وشعب عدّ بلا قائد سوف يصل أثناء تجواله، وأأسفاه على رجال الدين، إذا ماسقطوا، فإن طائفة جديدة سوف تزدهر، ووأسفاه على إيمان الكنيسة،

وعلى الشرائع، وعلى الممالك، التغيير سوف يقع، وسوف يجري دمار أمة الإسلام».

كسوف الشمس

كان في الثالث من حزيران، من هذا العام كسوف للشمس، في حوالي الساعة السادسة من النهار، وفي حوالي الوقت نفسه من العام، جرى استدعاء وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية بتدخل من البابا (الذي رغب — كما قيل — بتعيينه قائداً للجيش ضد الامبراطور)، إلى الحلف الأسقفي بشأن الاحتفاظ بالحصول على الكرسي البلنسي، وكأنه غير ملطخ بتهمة القتل، ولذلك إنه لاعجب أن الناس قد اعترتهم الدهشة لدى سماع هذا، وأنه ما يزال يسعى وراء كرسي وينكستر، وقد عيّن ملك انكلترا وكيلاً متحمساً لتأمين هذا الهدف، وأسفاه، وأسفاه، كيف أن كمية من المال جعلت بلاط روما يميل إلى إعطاء موافقته وإذنه.

ولادة إدوارد الأول ابن الملك هنري الثالث

في ليلة السادس عشر من حزيران، ولد صبي في ويستمنستر للملك من زوجته اليانور، وبمناسبة هذه الحادثة قدم جميع نبلاء المملكة تهانيم ولا سيما سكان لندن، لأن الصبي قد ولد في لندن، وتجمعوا على شكل جماعات من الراقصين مع طبول ودفوف، وأضاءوا في الليل الشوارع بمصابيح كبيرة، وقام أسقف كارلايل بطقوس تلقين الطفل، وتولى النائب البابوي تعميده مع أنه لم يكن كاهناً، لكن ادموند رئيس أساقفة كانتربري قد ساندته وثبته، وبناء على رغبة من الملك أعطي له اسم ادوارد، وجرى إرسال عدد كبير من الرسل لنقل خبر هذه الحادثة، وقد عادوا وهم محملين بهدايا ثمينة، وقد هبت الآن بعمق سمعة الملك بسلوكه، لأنه عند عودة الرسل إلى الملك، سأل كل واحد منهم عن الذي تسلمه، والذين كانوا قد تسلموا الأقل، مع أنهم جلبوا معهم

هدايا ثمينة، أمر بإعادتهم مع غضب ولم ينطفئ غضبه، حتى أعطى كل واحد هدايا مرضية بناء على طلب الرسل، وعلى هذا علق أحد النورمان الأذكياء بقوله: «الرب أعطانا هذا الطفل، لكن الملك باعه إلينا»، ولم يعف النائب البابوي أيضاً من الحصاد الذي لم يجنه، فأعطى الشخص الذي جلب له الأنباء على حساب الآخرين، وكما قلت من قبل، جرى تعميد هذا الطفل من قبل النائب البابوي في اليوم الرابع من ميلاده، ورفع من الأمام من قبل الأسقف روجر أسقف لندن، ومن قبل وولتر أسقف كارلايل، وكذلك من قبل وليم الأسقف المنتخب لنورويك، وأيضاً من قبل رتشارد إيرل كورنول، أخو الملك، ومن قبل الأيرلات:

سيمون إيرل مونتفورت، وإيرل ليستر، وهوغ دي بوهون Bohun إيرل هارتفورد واسكس، وكذلك من قبل سيمون النورماني، رئيس شامسة نورويك، والنيل بطرس دي مولاك Maulac وألماريك دي سينت أماند Almaric de Amand وبحضور عدد كبير من النبلاء والسيدات.

وفي هذه الآونة، قام رالف دي ثوني، وهو بارون نبيل، بتوديع أصدقائه، وغادر في سبيل الحروب الصليبية مع عدد كبير من النبلاء، وخاصة من مملكة فرنسا، وبعد استعدادات كبيرة انطلق بجرأة في رحلته إلى القدس، من أجل أن الناس عندما يجازون في اليوم الأخير من أجل أعمالهم الصالحة، يمكن أن يتوجوا بأكاليل الغار، ويحصلوا على مكافأتهم النهائية.

انتخاب المعلم نيقولا أوف فانهارم أسقفاً لشيستر

وفي العام نفسه، بعدما جرى استدعاء وليم دي ريل، ومن ثم انتخابه ليتولى حكومة كنيسة نورويك، بموافقة من رجال الدين

والناس، قام رهبان كوفنتري على الفور، فساروا في إجراءات قضية انتخاب أسقف موائم لأنفسهم، حتى لا يتعرضوا للمزيد من الغضب بالقيام بانتخاب يكون عرضة للروادع والرفض، ولذلك انتخبوا المعلم نيقولا أوف فارنهام Farnham وكان رجلاً مزيناً بكثير من الفضائل، وصاحب قامة جميلة، وفصيحا في خطاباته، وناضجاً ومتواضعاً في سلوكه، وتصرفاته، ولذلك كان لا يمكن لحديث تجريحي أن يقف في طريق مقاصدهم، ولكن بعدما قبله الملك وكذلك رجال الدين والناس، رأى المعلم نيقولا، وكان رجلاً عميق الفهم، أن المسألة عرضة لخلاف شرعي مكشوف، وأن الأسقفية موجودة على أقصى حدود انكلترا، وقدر بمثابة رجل متواضع ومستقيم، أنه غير قادر على تحمل مثل هذا العبء الثقيل، وأنه سيكون خطيراً بالنسبة له تقديم حساب عن المسؤولية عن مثل ذلك العدد من الأرواح، لذلك رفض قبول العرض ولا بشكل من الأشكال، ورفض بثبات أن يتحمل ثقل هذا المنصب، واستقال من شرفه، لأنه كانت هناك قضية خلاف بين الرهبان والكهنة، لأن فريق الكهنة قد أكد أن أفرادهم الذين ينبغي أن ينتخبوا الأسقف هذه المرة، وذلك وفقاً لشروط الاتفاقية، التي بها جرت تسوية الخلاف فيما بينهما، وهي أنه بعد عمل انتخاب أول من قبل الرهبان، فإن مسؤولية الانتخاب الثاني تقع على عاتق الكهنة، لكن عندما عرض الكهنة هذا الإدعاء، ردّ عليهم الرهبان، بأن الانتخاب قد ألغي، ولم يصل إلى أية محصلة، وأنهم لم ينالوا ما أرادوه، ومردّ ذلك إلى حادثة غير متوقعة، تسببت ليس بتصميم منهم، بل بالقضاء الرباني، الذي يقضي بجميع الأشياء حسبما يشاء، وقال الكهنة في رد على هذا:

«نحن نرغب منكم أن تعرفوا، أنه ليس أسقفكم المنتخب هو الذي لا يرضينا، ذلك أنه أهل تماماً لمثل هذا الانتخاب الرفيع، بل هو شكل

انتخابكم هو الذي لم يرضينا، بما أن دور الانتخاب يقع علينا، وليس عليكم، وهذا قد برهنا عليه بشكل جيد بوساطة أعمالنا، لأننا انتخبنا عميدنا بمثابة أسقف لنا، وحارساً لأرواحنا»، ثم إنه عندما ارتفع صوت الاضطراب، الذي هدد بأن يجلب خلافاً مدمراً، قام العميد الذي كان رجلاً تقياً، برغبة منه لوضع حد لعدم الاتفاق، فقال بصوت مرتفع أمام الناس:

«ليكن معلوماً، وليكن معلوماً، أنني لا أدري على أية أسس انتخبتموني أنا الذي تماماً لستُ أهلاً لحمل أعباء منصب الأسقفية، ولذلك إنني من صميم قلبي وعقلي أعارض مثل هذا الانتخاب، وأتنازل عنه، ولنعمل على إنهاء هذا الاضطراب، ودعونا الآن جميعاً في هذا الوقت الحالي، بموافقة عامة نقف إلى جانب ذلك الرجل الجيد، الذي أفاد التقرير عنه بشكل طيب»، وفي سبيل المحافظة على حق كنيستهم من على الجانبين، قاموا جميعاً أي الرهبان وكذلك الكهنة فاتفقوا بالاجماع، فبعثوا إلى المعلم نيقولا المتقدم الذكر، وأخبروه أن جميع الذين لم يوافقوا من قبل، قد اتخذوا الآن قرارهم بالاجماع، وقد انتخبوه، وهم بتواضع يرجونه أن يتكرم بقبول هذا الشرف، مهما كان ثقيلاً، وعرضوه عليه وقدموه إليه باسم الرب ونيابة عنه، وردّ عليهم المعلم نيقولا، وأجابهم قائلاً:

«وهو يصفق بيديه، إنني أعيد إليكم شكري أضعافاً مضاعفة، يا أصدقائي ومعلمي من كل من الكهنة والرهبان، الذين كنت بأعينهم بالنهاية مستحقاً لأن تنتخبوني لأن أكون راعياً لكم، لكن يا أصدقائي إن وضعي الحالي يكفي، وعبء المنصب المعهود به الآن إليّ يثقلني ويضغط عليّ بشدة، وإن العناية، والمسؤولية، وكذلك الحساب الذي ينبغي تقديمه إلى الأرواح التي عهد بها إليّ يزعجني ويخيفني، ولذلك توقفوا يا إخواني الأحباء، توقفوا عن متابعة تعذيبي وإغصابي في هذه

المسألة، وأود أن أخبركم بوضوح، سواء أوافقتم على ذلك أم لم توافقوا، أنا لا أوافق على هذا الانتخاب»، ولدى سماع هذا تشاور الآخرون، وفقاً للشكل الذي تقدم ذكره، وانتخبوا ليكون أسقفاً لهم، وحارساً لأرواحهم، المعلم هوغ دي بيتهل Pateshull (الذي كان ابناً للنبييل المشهور سيمون دي بيتهل، الذي بآرائه الحكيمة حكمت انكلترا من قبل في بعض الوقت الماضي) وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، ومستشاراً للملك، وكان هو أيضاً مثل أبيه، ورجلاً مستقيماً، وبعد تقليب طويل للقضية، وتفكير حول قول الرسول: «كل من يريد أن يكون إدارياً جيداً، عليه أن يحصل لنفسه على مرتبة جيدة»، وقوله في مكان آخر: «إذا مارغب إنسان بمنصب الأسقف هو قد رغب بعمل جيد»، وبعد طويل وقت تحركت عاطفته بسبب الوضع السيء للكنيسة وبكى بدموع المتضرع، ووافق على حمل العبء، والعناية بنفقات المنصب، حتى يتحول أسفهم إلى بهجة.

آلام اليهود

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس ألبان، رائد الشهداء في انكلترا، وفي اليوم التالي، وقعت مذبحه كبيرة، ولحق دمار كبير باليهود، بناء على أوامر من غيوفري الداوي، الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، فقد تولى ظلمهم، وسجنهم، واستخرج المال منهم، وأخيراً وبعد كثير من الآلام، قام هؤلاء التعساء اليهود، في سبيل التمتع بالحياة والهدوء، وبسبب دمارهم واضطرابهم، فدفعوا إلى الملك ثلث جميع أموالهم، وديونهم وكذلك أثاثهم، وكان السبب الأساسي لهذه النازلة اقتراف جريمة قتل مفضوحة من قبل يهود المدينة، وماحدث ليس بعد هذا بوقت طويل، وتعلق بالصبي الذي جرى خثانه من قبل اليهود، ولقد أدين نتيجة ذلك أربعة من أغنى أفراد تلك الطائفة بشكل واضح، وشنقوا في نورويك.

وقوع رالف بریتون بالأسر

في مجريات أحداث السنة التي منح الرب فيها ولداً ذكراً للملك، وذلك استجابة لشكاوى الملك، وكذلك لرغبات الكثيرين، جاء هذا الولد وسط كثير من التهليل، وبما أن كأس هذه الحياة لا يحتوي شيئاً صرفاً بلا مرارة الصفراء، قد كان هناك واحداً من رسل الملك اسمه وليم، قد أدين بعدد كبير جداً من الجرائم المضاعفة، وحكم عليه بالموت، ولدى جلوسه في سجن مضيقاً عليه قذف عدداً من نبلات انكلترا وجاهة بتهم زائفة هي تهم الخيانة، وكان بين الكثيرين الذين وجه التهم ضدهم باقتراف الجرائم رالف بریتون Briton وكان رجل دين وكاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، وكان لبعض الوقت صديقاً مقرباً من الملك، لابل كان خازنه، ولدى سماع الملك بهذا، أمر به بوساطة رسالة إلى عمدة لندن وليم غرومير Gromer (أوجيرارد بات Gerad Batt) ليلقى القبض عليه، وليسجن في برج لندن، وفضل العمدة إطاعته على إطاعة الرب، وحمل أوامر الملك ووضعها قيد التنفيذ، وجرّ رالف المذكور بعنف من بيته، في جوار كنيسة القديس بولص، وسجنه في البرج، ووثقه بسلاسل تدعى الخواتم، وعند سماع عميد لندن، المعلم غ. G دي لوسي Lucy بهذا العمل، قام مع أتباعه من الكهنة (لأن الأسقف لم يكن حاضراً وقتذاك) فقفوه بقرار حكم عام بالحرمان الكنسي ضد جميع الذين مارسوا هذا الاضطهاد والتجاوزات، ووضع كنيسة القديس بولص تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وصحیح أن الملك جرى تحذيره من قبل الأسقف، غير أنه لم يصحح هذه الأخطاء، بل إنه تابع بالتهديد تكديس الشرور على الشرور، وبناء عليه كان الأسقف على وشك وضع لندن كلها، التي كانت خاضعة له، تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن عندما كان رئيس أساقفة كانتربري، وكذلك النائب البابوي،

وأسقف لندن، وعدد كبير آخر من القساوسة قد استعدوا لإلقاء يد ثقيلة على المدينة، أمر الملك، وهو مكره، بإطلاق سراح رالف المتقدم ذكره، وسمح له بالمغادرة بسلام، وعندما كان قد رغب بإضافة شرط، بوجوب الاحتفاظ به، ليكون جاهزاً لتقديم توضيح، عندما يختار الملك توجيه الاتهام إليه، ردت الكنيسة بأنها لن تقبل بأي حال من الأحوال بإبقائه هكذا على هذه الصورة وكأنه رجل سجين، وهي تقبل فقط بتسلمه بمثابة رجل حرّ تماماً، مثلما كان حاله عندما قام أتباع الملك بانتزاعه بالقوة من بيته، وعندما جرى إطلاق سراح رالف على هذه الصورة، وهو الذي تعلم بالتجربة ماذا يمكن لتقلبات الحظ أن تلحق أتباعها، انسحب بعد هذه النازلة، من بلاط الملك، أما ستيفن سيغريف، الذي غالباً ما عانى من مثل هذا الظلم فقد مزج نفسه مع شؤون البلاط، دون أن يقيم وزناً لعمره، وأصبح هذه المرة المستشار الرئيسي للملك، وتمكن بوساطة براعته الأصبيلة من ممارسة قيود أكثر مما هو معتاد على خطط الملك، وبعد ذلك بوقت قصير، جرى شق ذلك الشرير الذي تقدم ذكره، والذي كما ذكرنا أعلاه إتهم النبلاء مع رالف المتقدم ذكره، وجاء شنقه بشكل مهين خارج مدينة لندن، ووضع معلقاً على أداة التعذيب التي اسمها المشنقة، وكان عندما رأى أن موته بات حقيقياً ومؤكداً، قام — مع أن ذلك جاء متأخراً — فاعترف بشكل مكشوف أمام الناس وأمام منفذي العقوبة به، بأنه عمل الاتهامات الزائفة المتقدم ذكرها من أجل إطالة حياته.

نشر قرار الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور فردريك

وفي هذه الآونة، تمّ بناء على أوامر من البابا، إعلان قرار الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور فردريك المذكور، وجاءت إدانة الإمبراطور هذه في كنيسة القديس بولص في لندن، وكذلك خلال جميع أرجاء أسقفية لندن، وبعد ذلك في جميع أرجاء المملكة كلها، ولم يتوفر هناك

ولا واحد ليرفع ترس المعارضة ضد ذلك، مع أن الملك كانت لديه أسباب وجيهة لفعل ذلك، أمام جميع أمراء العالم، وذلك بسبب قرب العلاقات القائمة بينه وبين الامبراطور.

رسائل من الإمبراطور إلى شيوخ روما وشعبها

وفي العام نفسه، عجب صاحب الجلالة الامبراطورية من الضعف الشديد لقوة الرومان، ومن تراجعهم ونكوصهم عن ثباتهم في مراعاة خضوعهم باخلاص له، حسبا كانوا قد وعدوه من قبل، وذلك بسماحهم لقرار الحرمان الكنسي بأن يجري التفوه به ضده، وهو مولاهم، في مدينتهم، فكتب إلى كرادلة بلاط روما، وكذلك إلى شيوخ المدينة، وكذلك إلى سكانها كما يلي:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى شيوخ المدينة وأتباعه الرومان، تحيات:

بما أن روما هي رأس امبراطوريتنا وسلطانتها، وأن الامبراطور عرف باسم الروماني من اسم مدينة روما، وبما أننا ندين لها بتقدم اسمنا وبسمعته، دهشنا دهشة عظيمة كيف أنه حدث، حيث من المتوجب رفع شأن شرفنا، وصدّ الإهانات الموجهة ضدنا، أن نواجه معاملة مضادة، بين الذين متوجب عليهم، والذين واجبههم، أن يعرضوا أنفسهم بمثابة سور للدفاع عن عرشنا الامبراطوري، والعجب أن يحدث هذا وهم أنفسهم يسمعون ويخفون الحقائق، وبناء عليه نحن في غاية الأسى، لأن الأسقف الروماني — كما روي لنا — قد تجرأ على أن يتصرف في المدينة، ضد الأمير الروماني، بطريقة ما كان له ليتجرأ على عملها في مكان آخر، وقام بشكل غير تقوي بتكفير الامبراطور الروماني، أساس المدينة، وجالب المنفعة للشعب الروماني، من دون أية مقاومة من قبلهم، وبناء

عليه، يمكننا أن نقول صادقين بأن نبلاء روما وكذلك الشعب الروماني، الذي من أجلهم درسنا تقديم ما يحتاجونه بكرم، وبجود تطوعي، ومازلنا نكافح في سبيل استمرار تقدمهم، إلى حد أننا بتنا غير مهتمين بمنافعنا، قد لازمتهم بلادة النوم، ولذلك لم يكن بينهم، ولا حتى رجل واحد بين ذلك العدد الكبير من النبلاء، وذلك الحشد كله من السادة، أو بين الآلاف المؤلفة من الشعب الروماني، قد نهض للدفاع عنا، أو تكلم بكلمة واحدة لصالحنا، أو كان مواسياً لنا ومتعاطفاً معنا أثناء تعرضنا للأذى، مع أننا نتابع الاضافة إلى شرف المدينة، ونزيد شهرتها بالانتصارات القديمة والأعجاد، بوساطة انتصاراتنا المتوالية الآن، ومازلنا مستمرين في توجيه اهتمامنا لتقويم الاسم الروماني، وجعله كما كان في العصور القديمة، وأن نرفع من شأن وأوضاع الامبراطورية الرومانية، وبناء عليه لقد دفعتنا الضرورة لأن نطلب منكم بتحذير وحث لكم، إذا كنتم قد عملتم بعض التقصير من خلال الاهمال أو البلادة أن تظهروا الآن أنفسكم بأنكم جاهزين، وبالكلمة وضرب المثل أن تقوموا باقناع الآخرين بالنهوض فوراً، أفراداً وجماعات، للانتقام للأذى الذي أنزل بنا، وبكم بشكل عام، لأن المسيء إلينا ما كان ليتجراً في مكان آخر على التشهير باسمنا وتكفيرنا، وما كان له ليتفاخر بأنه حرض على مثل هذه الأشياء ضدنا، سواء أرغبنا أم لم نرغب، لولا أنه عزا إليكم نكران المعروف حول كل ما فعلتموه، قبل حقيقة معارضته، وبعد حقيقة أنكم كنتم تتجنبون الانتقام لأذانا وأذاكم العام، لأننا كنا نحن وأنتم مرتبطون من الجانبين، بأن نقوم نحن بالدفاع عن الشرف الروماني، ويقوم الرومان بالدفاع عن شرفنا، وإذا ما وجدناكم ووجدناهم معكم مهملين في هذه القضية، كنا سنجد أنفسنا مرغمين، على سحب إحساننا من جميع الذين أظهرناه نحوهم حتى الآن، لأنه ليس الخوف من الرومان هو الذي أرغمنا على إضفاء المنافع عليهم، بل بالحري كان لطفنا هو الذي أقنعنا أن نفعل

ذلك. صدر في تريفيسو Treviso في اليوم العشرين من شهر نيسان».

وكان الامبراطور قد كتب أيضاً قبل وقت قصير مضي إلى الكرادلة، وسعى إلى إثارة الرومان في تلك الجهة، وقد حثهم بعنف أكثر في الرسالة التالية:

رسائل أخرى من الإمبراطور إلى الكرادلة

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب أغسطس، وامبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية، إلى أصدقائه الأحباء، جماعة كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، تمنيات الصحة وعواطف خالصة:

بما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وباسم بطرس قد أسس كنيسته على صخرة، وعيّنكم بمثابة خلفاء للرسول، هكذا عمل بطرس القداس من أجل الجميع، وأنتم الذين هم شموع الكنيسة، قد وضعتهم فوق رابية، وليس تحت ستارة، حتى يمكن بأعمالكم الصالحة أن: «تعطوا الضوء إلى كل البيت»، وأن لاتسعوا بموافقة عامة بأن تسحبوا أنفسكم من الصوت العام للعالم، بما أنه قدر أنكم أهل لحمل حصة مساوية لأي واحد سوف يترأس على كرسي بطرس، ومهما اقترح أن يعمل، أو قرر أن يعلنه إلى العالم، مالم تكن الأوضاع المتقدمة للكنيسة، والرغبة الجامحة بتجنب عدوان عام، سوف تقترح تحذيراً لكم من أجل المستقبل، لأنه من الذي لن يتساءل بأن الذي هو جالس على عرش الكنيسة، والذي قد قوي بوساطة الاجتماع العام لمثل هذا العدد الكبير من الآباء المحترمين، (والمتوجب أن يكون قاضياً عادلاً) سوف يعمل هكذا بشكل غير مستقيم؟ وليس عجباً بأنه سوف يتخذ موقفاً —بناء على مجرد انفعال— ضد الأمير الروماني، مع أنه هو المحامي عن الكنيسة، والذي واجبه هو الحفاظ على التبشير بالانجيل، وذلك بوساطة تجريد

السيف الروحي بشكل غير عادل لصالح العصاة اللومبارد؟، ودون أن نعبأ بهذا، وبوساطة المعايير السلمية، فإن جميع الإساءات ضد الكنيسة التي ترفع من أجلها، مهما كانت عناوينها العامة مغیظة وتضاعفت في أعمال فردية، هي إما أنها تلقت التقويم، أو أنها بوساطة تفكيرنا جرى الإعداد لها وهي على طريق الإصلاح، لأن أوامرنا قد قضت بذلك، ولسوف يتلو ذلك تعويض كامل، لأنه بوساطة رسائل موثقة من القساوسة الذين عيّنتهم الوصاية الرسولية بمثابة مشرفين، هناك شواهد من النوع نفسه قد أعطيت، ومرسومنا الجاري فيما يتعلق بإعادة دعوة القساوسة الذين عانوا من الأذى وتقديم توزيع ثاني لهؤلاء القساوسة، يعطي برهاناً واضحاً على المصادقية وذلك بوساطة رسائل رئيس أساقفة مسينا المبعجل، التي أرسلت إلى مقومنا، المعين لهذه الغاية، وبناء عليه، إنه ليس من دون سبب جيد أن ننتحب لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد جداً للاعتداء علينا، وعندما ينزل مثل هذا الأذى الكبير على رجل شجاع، مع أننا نرغب بتحمل ذلك بصبر، إن ضخامة الاعتداء لا تسمح لنا بأن نفعل ذلك، لابل إن عنف الفعلة يرغمنا على الانتقام، وهو ما اعتاد القياصرة أن يفعلوه ويمارسوه، لكن لدى تقديرنا لإنعدام الصبر لدى الذي يسير على هذا الطريق ويمارس هذا المنهج، والوضع الصعب للمدافع، علينا تقديرها أكثر تحملاً، لو أنه سمح لنا بحيادية أن نمارس انتقاماً خاصاً على الشخص الذي تسبب بالعدوان، وبذلك نتمكن من إنزال جزاء على الذين هم من دمه، وهذه المحاولة لإيذاء الكرسي سوف ترتد عليه وعلى آله، لكن بما أنه لا هو ولا جميع آله هم الذين سيعانون لهذا السبب، لهم أهميتهم، حتى تتشوق الكرامة الامبراطورية للانتقام منهم، ولأن سلطات الكرسي، تركت أعنة سلطاتها مرخية، وعمدت أن تظهر جماعة الرهبان المحترمة كلها وكأنها تؤثر ذلك في إصرارها، ألمنا هذا الاضطراب عقلياً، لأننا أثناء الدفاع عن أنفسنا ضد المضطهدين لنا، علينا في دفاعنا عن أنفسنا أن نكون

أكثر حدة في قتال الذين يقفون ضدنا، باستثناء قداسة الكنيسة من جميع الجوانب، التي نجلّها بتعبّد مقدس وباحترام جدير بها، وبناء عليه نحن نلتمس من جماعتكم الجليّة، وصدوراً عن مداولاتكم اللطيفة أن توقفوا إجراءات الحبر الأعظم، التي من الواضح أنها كما يعرف العالم، هي غير عادلة، وبلا مسوغ، وأن تهيئوا الأوضاع من أجل تقديم سلام لعقولنا، لأننا وإن كنا مرتبطين بإيثار رفع شأن أعمالكم الصالحة جميعاً، نحن لا يمكننا أن نفعل ذلك بتوازن في التفكير متمنع عن العدوان تجاه الأذى الذي يعمل ضدنا، كما أننا لن نكون قادرين على إيقاف البدايات، كما أن الأذى الذي لا يمكن رده وإرجاعه، يمكن بتسويق صده بأذى آخر. صدر في بادوا Padua في العاشر من آذار من الإحدى عشرة الأولى من الخمسة عشرية.

كتابات تكهنية

وفي هذه الآونة، استدعيت بعض الكتابات التي ظهر أنها تتكهن بالمستقبل، إلى الذاكرة، وغالباً ما ذكرت، وذلك بسبب المخاطر العظيمة للوقت، والخلاف الذي تفجر بين مثل هذه الشخصيات القوية، والتي لم يكن يعادلها بالقوة أي واحد، وكانت إحدى هذه الكتابات كما يلي:

«سوف تثار روما ضد الرومان، وبديل روماني سوف يفرغ روما من الرومان، وستصبح عصي الرعاة مضيئة، وسوف تكون راحتهم في اطمئنان، والحريص سوف يضطرب، وسوف يصلي، ودموع الحشود سوف ترتاح هناك، وسوف يلعب الرجل الضعيف مع المجنون، والجنون سوف يكون منطفئاً، وسوف يصبح لطيفاً، وسوف يزحف قطيع جديد إلى الراية، والذين كانوا يستحقون منذ القدم، سوف يعلفون على طعام خفيف، والمستثنون من الثقة قد دمروا، والطمأنينة التي تنتج راحة هي مستقرة، والذين ساروا في الظلام سوف يعودون إلى الضوء، والأشياء التي كانت منفصلة وموزعة في الخارج سوف تتمتن،

وغيمة كبيرة سوف تبدأ بالامطار، لأن مغيراً للعالم قد ولد، والحمل سوف يحل محل الأسد، وسوف تفترس الحملان الأسود، وسيثور الجنون ضد ذوي العقول الساذجة، وسوف تتنفس السذاجة وهناً، وسوف يتحول الشرف إلى عار، وسرور الكثيرين سيصبح حزناً، وجرى التفوه بهذه الكلمات في سنة النعمة ١١١٩، وقد فهمت لتعني بأن التهديدات المذكورة كانت بالفعل قد وقعت.

وهناك كتابة أخرى، يبدو أن الامبراطور قد حصل عليها، قد قيل بأنها ذكرت الصدق، فقد قيل بأن أبيات الشعر التالية قد وجدت مكتوبة في غرفة نوم البابا، لكن كيف حصل هذا ومن الذي كتبهم؟ أمر غير معروف:

تقضي النجوم والمنايا وطيران الطيور

بأن عالمنا هذا سوف يضرب

روما تقاد مترنجة وسط أكوام من الآثام

وفي العالم سوف تتوقف أن تكون الرئيسة

وبما أن الامبراطور مع كثير آخرين قد فسروا هذه الأبيات على أنها تبشر بدمار البابا وعزلته مع البلاط الروماني، ردّ قداسته بالأبيات التالية ضد الامبراطور:

الشهر، والكتابات المقدسة، وذنوبك تخبر بصوت مرتفع

أنك بعد الموت سوف تلقى العذاب مؤبداً في جهنم

الامبراطور يرى نفسه بوساطة مرشدين

ولدى رؤية الامبراطور في هذه الآونة أن سمعته الآن عرضة للخطر، وفي سبيل البرهنة على براءته، جعل بعض الرسل الذين كانوا

ذوي مكانة عظيمة، ولهم سلطان خاص يكتبون إلى البابا عارضين براءتهم مع براءة الامبرطور، وعدالتهم وعدله.

رسائل الرسل

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، غريغوري، الذي هو بنعمة الرب، الحبر الأعظم، يرسل إليكم عبيدكم المخلصون، أساقفة ويتزبورغ Wirtzburg وورمز Worms وفيرسلي Vercelli وبارما Parma تحياتهم بتواضع، وبجميع احتراماتهم المخلصة:

مع جميع الاحترام المستحق والاخلاص قد تسلمنا رسائل قداستكم الرسولية، التي أرسلت لتقريع صاحب السمو الأمير الروماني حول بعض النقاط، التي ورد ذكرها في الرسائل المذكورة، وقمنا نحن كما يفرض علينا الواجب — ومع ذلك شاكين فيما إذا كان سيتلقى تحذيراتنا بصبر — وذهبنا إليه باحترام وتقوى، وبعد شرح كل نقطة وردت في هذه الفقرات، وبعدما أعطيناه نسخة عن رسائلنا، وبنعمة من الرب، الذي يحكم قلوب الملوك ويوجهها بإرادته، أظهر نفسه بتقوى رائعة، وبتواضع غير متوقع جاهزاً لأن يصغي لانتقاداتنا، ومالت أذنا سيادته الامبراطورية نحونا، وعندما مثلنا أمامه كان هناك أيضاً موجوداً رئيس أساقفة بلرم «باليرمو» ومسينا، وأساقفة:

كريمونا، ولودي Lodi ونوفارا Novara، ومودينا Modena، وراعي دير القديس فينسنت Vincent إلى جانب عدد من الرهبان الفرنسيين والدومينيكان، الذين جمعوا من قبله، وقد ردّ على اقتراحاتنا واحداً تلو آخر، حسبما هو وارد بشكل كامل ومتميز في السطور المقبلة، ووفقاً للوصاية الرسولية، نحن نخبركم في الرسائل الحالية، ونحن على استعداد للبرهنة على صحة ذلك».

«قضية الكنيسة: إن كنائس مونت رويال، وسيفيلدي Cephaledi،

وكاتانيا Catania, وسكويلا Squillata, وأديرية مايليتو Mileto, والقديسة يوفيميا Euphemia, وتيرا- ماجوري Terra- Magiore, والقديس يوحنا في لاما Lama, قد جردت من جميع مقتنياتها تقريباً، وكذلك تقريباً جميع الكاتدرائيات والكنائس الأخرى والأديرة، قد حرمت بتفتيش غير عادل، من جميع متعلقاتها.

جواب الامبراطور: فيما يتعلق بالأذى الذي لحق بالكنائس، اللائي ورد ذكرهن بدون تحديد، فإن بعض ذلك قد اقترف من خلال الجهل، وقد صدر الأمر بانقاذهن من دون تأخير، وبعضهن قد جرى إصلاحه، كما هو واضح من تقرير رسولنا المخلص والعامل وليم دي توكتو Tocto, الذي أنيب من أجل الغاية الخاصة، والذي أمر أيضاً بالذهاب إلى البلاط الروماني، وبعدما حصل على نصيحة المحترم رئيس أساقفة مسينا، في أن يسير وفقاً لنصائحه، في إصلاح تلك الأشياء التي من الممكن أن يجدها بشكل مكشوف خاطئة، وبعد دخوله المملكة، وجد في تلك المناطق بعض الأشياء التي كانت بين أيدي بعض الأتباع الامبراطوريين، وإلى هؤلاء لم يظهر رحمة، بل جردهم على الفور، وأعاد الذين قد جردوا من قبلهم، علماً بأنه كان قد أمر بأن يأخذ من الخزينة الامبراطورية كل الذي يجده قد تم الحصول عليه بشكل غير شرعي، وهكذا عندما وصل التقرير عما فعله إلى بلاط روما، يقال بأن البابا قد وافق على بصيرة المرسل، وعلى يقظة الشخص الذي أرسل، ولكن بما أن المملكة مقسمة إلى مقاطعات، لم يكن بإمكانه الترحال خلالهم جميعاً لإصلاح الذي اعتقد أنه بحاجة إلى الإصلاح.

ومجدداً، في إجابة إلى التهمة المتعلقة بكنيسة مونت رويال، لقد أفاد أنها لم تتلق أي ضرر على أيدي الامبراطور، ما لم يرغب بالإشارة إلى المسلمين الذين استولوا على مقتنيات الكنيسة أثناء الحرب، وأنهم لم يعترفوا لا بالامبراطور، ولا بالكنيسة، وأنهم لم يوفرُوا شيئاً وصل إلى

أيديهم ووقع تحت سلطانهم، حتى أنهم دمروا تلك الكنيسة ونهبوها إلى حد أنهم تركوها مجرد جدران عارية، وهم أيضاً لم يوفروا أحداً في صقلية، ولذلك كان الذين بقيوا من المسيحيين في تلك الجزيرة عددهم قليل، هذا إن بقي أحد.

واعترف الامبراطور بالواقع، بأنه محق هؤلاء الناس وأزالهم كلية من صقلية، وذلك بعد كثير من الاضطراب والنفقات، وإذا عدّوا ذلك إلحاق ضرر بالكنيسة، فإنه لا يعرف قط أنه آذاها بأية طريقة من الطرق، كما أنه لم يرغب بإيذائها، ولقد قال الشيء نفسه فيما يتعلق بكنيسة سيفيلدي التي هي أفضل قلعة محصنة على ساحل البحر، وقائمة على حدود سردينيا، وهذه تملكها دوماً ملك صقلية، وكان البابا انوسنت —صاحب الذكرى الطيبة— قد أعطى أوامر إلى نائبه الذي كان آنذاك في صقلية، في خدمتنا، بأن يتسلمها من الأسقف، الذي وهي بين يديه أصابها الاضطراب، وليس بموجب الحق، وتدبر ذلك النائب، أثناء طفولتنا الاستحواذ عليها، والحفاظ عليها من أجلنا، وهي لم ترد إلى ذلك الأسقف، أو إلى الأسقف الحالي، كما أنه لا ينبغي أن تعاد، لأنها لا حق لهما فيها، وإلى جانب هذا، لقد أدين بوساطة بينات واضحة بأنه رجل زائف، ولوطي، وخائن، ومنشق، ولهذا إذا كان لديه أي ادعاء في القضية، (لاسمح الرب بذلك) ليس من الضروري بأن تعطى إليه، وكذلك بالنسبة لكنيسة كاتانا، لقد قال الشيء نفسه، وأنه مالم يكن رجال حاشية الملك هم المشار إليهم، هم الذين ذهبوا في أيام الحرب إلى كاتانا، بسبب حصانة المكان وخصبه، وأعلن الامبراطور بأنه قد استدعاهم إلى عزبته الخاصة، فوفقاً لبنود القانون العام للمملكة، يتوجب على الإيرلات، والبارونات وجميع رعايا المملكة، استدعاء رجال عزبهم، حيثما وجدوهم، سواء على أراضي الكنائس أو في مدن الامبراطور، ومع ذلك لقد صدرت صيغة مرسوم حول هذه القضية،

وجرى تحديد وقت وتثبيتته وقبوله بناء على طلب الحبر الأعظم، كما ظهر من الرسائل الوصائية لبطريرك أنطاكية، ورئيسي أساقفة باليرمو (بلرم) ومسينا، ومجدداً إنه بالنسبة لقضية كنيسة مايليتو، والقديسة يوفيميا، مع أنه كان تغيير موائم، وتبديل جرى تنفيذه مع رعاة ديرة ورهبان تيرا— ماجوري، وذلك بناء على رغبة القساوسة أنفسهم مع الجماعات الديرية، وفقاً لصيغة الشريعة، وهم أنفسهم حتى الآن بين أيديهم الممتلكات البديلة ومستحوذون عليها، وفيما يتعلق بقرية القديس سيفريوس Severius، التي هي ليست بشكل مطلق تابعة لراعي دير تيرا— ماجوري صاحب أنكونا Ancona، بل هناك فيها بعض الحقوق الموجودة في اقطاعية الامبراطور، وقد كانت بعد محاكمة قد دمرت لسبب صحيح، لأن سكان ذلك المكان، قد قتلوا أثناء الاضطرابات رجلاً اسمه بولص أوف لونغوثان Longothan، وكان حاملاً لعلم الامبراطور ونهبوا مواشي الامبراطور، ومع ذلك، وحسبما تقدم الذكر، أعطي بديل إلى راعي الدير والجماعة الديرية، وكان البديل لصالحهم، وهم مايزالون يحتفظون به حتى هذا اليوم، وموضع «لاما» هو مغلق وفقاً لقرار صدر عن راعي دير القديس يوحنا المستدير، وقد يكون من العدل الدعوة إلى اجتماع من أجله وفقاً للشريعة المدنية واللاهوتية، وذلك حسبما يكون من أجل ممتلكات اقطاعية جيدة، في البلاط الامبراطوري.

قضية الكنيسة: لقد حرم الداوية والاسبتارية من ممتلكاتهم المتحركة وكذلك من مقتنياتهم الثابتة، ولم يعوض عليهم بشكل كامل، وفقاً لشروط السلام.

جواب الامبراطور: صحيح أنه بموجب قرار الأنظمة القديمة لمملكة صقلية أن بعض الأراضي الاقطاعية والمدنية قد سحبت من الداوية والاسبتارية، وهي قد كانت بين أيديهم بمثابة منحة من غزاة المملكة،

الذين إليهم قدموا الخيول، والسلاح، والميرة، والخمرة، والأشياء الأخرى الضرورية بكميات وافرة، عندما كانوا يغيرون على الامبراطور، وقد رفضوا تمام الرفض تقديم جميع أنواع المساعدات إلى الامبراطور، الذي كان آنذاك مجرد ملك في أيام التلمذة والعطالة، وقد سمح لهم بالاحتفاظ ببعض الأراضي الاقطاعية والمدنية التي كانوا قد حصلوا عليها، وكانت بين أيديهم قبل وفاة الملك وليم الثاني، أو التي كانت بين أيديهم كمنحة من قبل أي واحد من أسلافه، ولكن بعض الأراضي المدنية، التي كانوا قد اشتروها، قد سحبت منهم، وفقاً للقانون القديم لمملكة صقلية، لأنه من غير الممكن عمل أية منحة أرض مدنية بين الأحياء، من دون موافقة أميرهم، كما لا يمكن توريثهم بموجب وصية دائمة، دون أن يكون مشروطاً أن يباعوا أو يمنحوا إلى مدني علماني آخر، إلا بعد مرور سنة، وشهر، واسبوع ويوم، وهذا القانون قد عمل من قبل القدماء للسبب التالي، وهو أنه لو سمح لهم من دون قيود وبشكل دائم بشراء أو بتسلم أراضي مدنية، لأمكنهم في وقت قصير شراء مملكة صقلية كلها، التي كما يبدو هي بموجب جميع قوانين الدنيا ومفاهيمها مناسبة لهم كأحسن ما يكون، وهذا القانون نفسه قيد التنفيذ فيما وراء البحار.

قضية الكنيسة: وكذلك هو لم يسمح للكاتدرائية وللكنائس الأخرى الشاغرة بأن تملأ، وبهذا تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، وبغياب الراعي، ليس هناك من أحد يتولى عرض كلمة الرب، ويتولى حكم أرواحهم:

جواب الامبراطور: وفي جوابه قال الامبراطور بأنه يتمنى ويرغب، بأن يجري تكريس الكاتدرائية والكنائس الأخرى، مع شرط المحافظة على الامتيازات والمرتبات التي تمتع بها الملوك من أسلافه حتى وقته هذا، الأمر الذي استخدمه بكثير من الاعتدال، فاق به أسلافه، وهو لم

يعارض قط ملاً الكنائس.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق بالضرائب والمكوس التي تستخرج من الكنائس والديرة، بشكل معاكس لما قضت به بنود السلام.

جواب الامبراطور: إن العشور والضرائب التي تجمع من الأشخاص اللاهوتيين، هي ليست مفروضة على المقتنيات الكنسية، بل على الممتلكات الاقطاعية والوقفية، وفقاً للقانون العام، وهذا مطبق في جميع أنحاء العالم.

قضية الكنيسة: لا يتجرأ القساوسة على الترافع بالشكوى ضد المرابين، لوجود مرسوم امبراطوري.

جواب الامبراطور: لقد صدر مرسوم عام من قبل الامبراطور ضد المرابين، به أدينوا بشكل علني مع جميع سلعهم، وقد جرت قراءته بحضور القساوسة، وبناء عليه إنهم غير معاقين ويمكنهم الشكوى بفعالية.

قضية الكنيسة: إن رجال الدين عرضة للاعتقال، والسجن، والقضاء عليهم بالاعدام، والاعدام.

جواب الامبراطور: إنه لا يعرف شيئاً عن رجال دين قد اعتقلوا، وسجنوا، ما لم يكن بعضهم قد جرى اعتقاله من قبل الموظفين الامبراطوريين، وسوف يسلمون للمحاكمة من قبل الأساقفة، وفقاً لطبيعة جرائمهم، أما بالنسبة للذين قتلوا، إنه بسبب استثناء رجال الدين والرهبان من العقوبة، فإن كنيسة فينوسيوم Venusium، قد بكت لوفاة قسيسها، الذي قتل من قبل واحد من رهبانه، وفي كنيسة القديس فينسنت قتل راهب راهباً آخر، ولم يتبع ذلك لا إنتقام ولا عقوبة قانونية على الجريمة.

قضية الكنيسة: ما يتعلق بتدنيس الكنائس المكرسة للرب وتهديمها.

جواب الامبراطور: أوضح أنه لا يعرف شيئاً مطلقاً، ما لم تكن الإشارة قد عملت هنا إلى كنيسة لوسيريا Luceria، التي قال بأنها انهارت من نفسها، بسبب العمر، وهي التي لن يسمح الامبراطور فقط بإعادة عمارتها، بل كان أيضاً جاهزاً، من أجل شرف الرب، والكنيسة، شخصياً، لتقديم مساعدة مناسبة للأسقف، من أجل إعادة بنائها.

قضية الكنيسة: إنه لم يسمح بترميم كنيسة سورانو Sorano.

جواب الامبراطور: إنه قد سمح فقط لكنيسة سورانو بالترميم، وليس المدينة، وذلك على الأقل في أيامه، لأنها قد دمرت بموجب حكم قانوني.

قضية الكنيسة: إنه مراغمة لبنود السلام، جرى تجريد الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة في أيام الخلاف، من مقتنياتهم، وطردها إلى المنفى.

جواب الامبراطور: إن الذين وقفوا إلى جانب البابا ضد الامبراطور، أثناء الخلاف، يسكنون في المملكة بأمان، ربما باستثناء الذين كانوا متسلمين لمناصب، أو كانوا من مسؤولي القضاء، فإنهم لخوفهم من تقديم حساب، قد بقيوا خارج المملكة، أو من الآخرين الذين مكثوا في الخارج حتى لا يدعون للمثول أمام القضاء من أجل أسباب إجرامية، وبالنسبة إلى هؤلاء إن الامبراطور على استعداد لقبول عودتهم آمنين، إذا ما قدموا حساباً إليه، وإلى الآخرين الذين اشتكوا ضدهم (ليس — على كل حال — لوقوفهم إلى جانب قضية الكنيسة)، وينبغي — على كل حال — التذكر، أنه عندما جرى إعداد بنود السلام، قام البابا مراغمة لهذه البنود، وفي موقف معارض لآراء جميع الرهبان تقريباً، فاحتفظ بمدينة كاستيلانا Castellana، ولاحتفظ بها، ولايذاء الامبراطورية، تسلم مالا، وذلك في الوقت الذي كان فيه الامبراطور

يعمل في خدمته ضد الرومان، ففي هذا المجال أنفق أكثر من مائة ألف مارك من الفضة، وحصلت الكنيسة على منافع كبيرة، وكذلك أيضاً من الأراضي التي أخذت من الرومان، أعيدت إلى الكنيسة، وكذلك من استرداد امتياز الكنيسة في المدينة، على أساس مرافعة الخدمة المتقدمة الذكر.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق بحفيد ملك تونس، من أنه لم يسمح له بالوصول إلى الكرسي الرسولي، لحضور قداس التعميد، بل احتفظ به سجيناً.

جواب الامبراطور: لقد هرب حفيد ملك تونس من بلاد المغرب إلى صقلية، ليس من أجل التعميد، بل للنجاة من الموت، الذي هدد به من قبل عمه (خاله)، وهو لم يحتفظ به أسيراً، بل ذهب بموجب خياره من خلال أبوليا، ولدى سؤاله عما إذا كان يرغب بالتعميد، أنكر قبول ذلك كلياً، وإنه إذا كان — على كل حال — لديه رغبة بالتعميد، فإن الامبراطور قد سمح بذلك بكل سرور، وهذا ما كان قد ذكره من قبل حول هذه المسألة إلى رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق ببطرس المسلم، الذي هو خادم مخلص للكنيسة والذي احتفظ به سجيناً، وهو في رحلة لصالح الكنيسة، وكذلك فيما يتعلق بالراهب جوردان، الذي احتفظ به أيضاً سجيناً.

جواب الامبراطور: إن بطرس المسلم قد اتخذ سجيناً من قبله، لأنه عدو، ومفتري ضده في المدينة وفي كل مكان آخر، وهو لم يقدم بمهمة عمل لصالح الملك الانكليزي، بل جلب فقط رسائل منه، يتوسل إلينا، أنه إذا ما حدث وأخذ أسيراً، أن يبدي الرحمة نحو الأسير، لكننا لم نول الاهتمام لهما، لأن ذلك الملك لم يعرف أية خيانة قد تأمر بها بطرس المذكور ضدي، وفيما يتعلق بالراهب جوردان، أوضح الامبراطور أنه لم

يعتقله، أو أمر باعتقاله، مع أنه قد أساء إليه في قداساته، لكن بما أنه ظهر لبعض رعيته، أن وضعه وإقامته في تخوم تريفيسو ولومبارديا سوف يكون مؤذياً للامبراطور، وبعدما قدم ضمانه بأنه لن يبقى في التخوم أو في لومبارديا، أمر هو —الامبراطور— بإطلاق سراحه، وتسليمه إلى رئيس أساقفة مسينا، إذا كان على استعداد لتسلمه، بناء على الشروط الذي ورد هنا ذكرها.

قضية الكنيسة: إنه أثار اضطراباً في المدينة ضد الكنيسة، كان بوساطته يسعى لطرد الحبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، وحاول بشكل مضاد لامتيازات، وكرامة، وشرف الكرسي الرسولي، أن يدوس على حرية الكنيسة.

جواب الامبراطور: أنكر أن أي اضطراب قد أثير في المدينة ضد الكنيسة من قبله، ذلك أنه واحد من الرعايا الصالحين في المدينة، مثلما كان أسلافه، كل من الأمراء الرومان وملوك صقلية، ومثلما اعتادوا أن يعملوا، لأنه يحدث في بعض الأحيان أن بعض الشيوخ الذين انتخبوا من قبل أعدائهم، بذلوا جهودهم لمعاداتهم، لذلك وقف دفاعاً عنهم، كما يتوجب عليه أن يفعل في قضايا مماثلة، وذلك حسبما يكون في الغالب مناسباً، ولكن عندما ينتهي السبب، أي عندما يجري انتخاب شيخ آخر بموافقة عامة، يتوقف الاضطراب المذكور أعلاه، حسبما ظهر من القضية نفسها، وفقاً لشهادة رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: إنه أعطى أوامر إلى بعض رعيته من أجل حبس أسقف برانستي Praeneste، الذي كان نائب الكرسي الرسولي.

جواب الامبراطور: إنه بالنسبة لإعطاء أمر باعتقال أسقف برانستي، هو لم يأمر قط بذلك، ولاحتى حلم بفعل شيء من هذا القبيل، مع أنه يمتلك التسويغ لفعل مثل ذلك له، لأنه عدوه، فهو مع أنه أرسل بمثابة

رجل دين من قبل البابا، قام على الرغم من ذلك بناء على أوامر البابا، كما قال، بشكل مضر، فأثار جميع لومبارديا إلى حد كبير ضده — أي الامبراطور — وشجع اللومبارد على الوقوف ضده، بقدر ما تمتلك من قوة.

قضية الكنيسة: أعيقت الحملة الصليبية من قبله، بسبب الخلاف الذي وجد مع بعض اللومبارد، مع أن الكنيسة كانت مستعدة لتقديم عونها، وكانت تسعى بشكل فعال لإرضائه شخصياً ولكي ترضي كرامة الامبرطورية بشكل فعال، بسبب الاعتداءات التي اقترفت ضده من قبل اللومبارد، لابل حتى اللومبارد أنفسهم، كانوا مستعدين لفعل هذا، ومن المتوجب سؤاله حول هذه النقاط ومن ثم إعلامنا بجوابه.

جواب الامبراطور: قال الامبراطور: إنه بالنسبة لقضية لومبارديا، بأنه قد أحالها مراراً إلى الكنيسة، غير أنه لم يحصل على أية فائدة من ذلك، اللهم ما لم يكن أنه في المناسبة الأولى قضي على اللومبارد، أن يقدموا أربعمئة فارس، أمر البابا بأن يزود بهم، بطريقة أنه أرسلهم إلى المملكة ضد الامبراطور نفسه، وفي المناسبة الثانية، أغرموا بخمسمئة جندي، هو لم يأمر بإرسالهم إلى الامبراطور، الذي ضده اقترف العدوان، بل أمر بإرسالهم إلى ما وراء البحر، تحت حماية البابا والكنيسة، وبناء على أمرهما، مع أن البابا لم يكن معرضاً للعدوان، ومع ذلك هذا لم يحدث، وفي المناسبة الثالثة، وبناء على طلب من الكاردينالين وهما: الأسقف المتقدم لسابينوم Sabinum، والمعلم بطرس أوف كابوا، اللذان منحهما البابا سلطات كاملة، فقد أحيل العمل المذكور إلى الكنيسة، ولم يقل بعد ذلك ولا كلمة واحدة حول القضية، باستثناء أنه عندما علم البابا، بأن الامبراطور — الذي غالباً ما خدع من قبله — كان مستعداً للنزول مع جيشه من ألمانيا إلى إيطاليا، عندها رجاء بحرارة بأن يعهد بالقضية ثانية إليه، ومع أن الامبراطور، غالباً ما عانى من جنوح السفينة، في اسناد

المسألة المذكورة إلى الشخص نفسه، كان مع ذلك على استعداد لإحالتها له في يوم محدد، على شرط أن تثبت لصالح شرفه، ولصالح منفعة الامبراطورية، وهذا الشرط، كما ظهر من رسائل البابا، قد رفض أن يقبله، مع أنه يقول الآن في رسائله، بأن الكنيسة كانت مستعدة لتقرير القضية، أي بأن تحافظ على حق الامبراطورية وعلى شرفها، ويظهر من هذا بأن البابا ورسائله يعارض أحدهما الآخر بشكل مكشوف تماماً، ولكي لا يدعى بأن الامبراطور يرغب في تجديد إدعاءاته بايطاليا، من أجل إلحاق الضرر بالأرض المقدسة، كيف إذا حمل صاحب السيادة الامبراطور الصليب، وبعد ذلك لم يهمل الذي تولاه، وهذا واضح برسائله الجوابية التي كتبت إلى مختلف الملوك في جميع أرجاء العالم، وإلى الصليبيين الذين اختاروه سياداً لهم وقائداً، وفي هذه الرسائل هو أيضاً ردّ عليهم حول المسألة المذكورة، بأنه يرغب بإدارة ذلك العمل وتدبره وفقاً لنصيحة الكنيسة، وعلاوة على هذا أضاف الامبراطور في ردّه، بأن الذي هو أكثر فوضوية، وأكثر إثارة للعجب والدهشة لكل من سمع بها، هو أنه بعد مغادرة رئيسي الأساقفة المتقدمي الذكر، أي رئيس أساقفة باليرمو (بلرم) ومسينا، اللذين إليهما كان البابا قد وعد بأن يمدّ حظوة الكنيسة لصالح الامبراطور، وأنه ذكر بأنه يرغب أن تكون له منافع مشتركة، أما الامبراطور، فمن جهته لم يقيم بنشاط كبير لتنفيذ هذا، بعد إعطاء جواب فيه كفاية لرئيسي الأساقفة المذكورين فيما يتعلق ببعض النقاط التي عرضت عليه، كما هو واضح بافادتيهما، جرى إرسال هذه الرسائل وأبلغت هذه العناوين إلى القساوسة، من وراء ظهري رئيسي الأساقفة المذكورين، ولتسبب الارباك لهما، بحكم أنهما كانا جاهلين تماماً بالذي صنع، ومع أن هذه الرسائل تحتوي نوعاً من التحذير، هي تحتوي على براهين فيها تشهير بسمعة الامبراطور، وأخيراً ادعى الامبراطور في جواب عام، بأنه وإن كان غائباً عن المملكة، وكان جاهلاً بأحوالها، هو سوف يصدر أوامر، بأن أية أضرار قد ألحقت

بالكنيسة (بقيت لكي يجري اظهارها) يتوجب إصلاحها تماماً من دون أي خلاف، وعلاوة على ذلك، إنه في سبيل المنفعة العامة، التي تنتج من الاتحاد بينه وبين الكنيسة، هو على استعداد لإعطاء الكنيسة كل الحماية، التي تجعل من الكنيسة والامبراطورية واحداً، وذلك في سبيل شرف ورفعته شأن الإيمان المسيحي، ولحفظ شرف الكنيسة وحريتها سوف يبذل غاية جهده حتى يكون هو وهي واحداً. صدر، إلخ».

شكاوى الامبراطور من الأضرار التي ألحقت به من الخبر الأعظم

عندما جلبت هذه الأجوبة إلى البابا، اشتعل غضبه، وفي تسويغ لنفسه، عدّ جميع المناظرات المتقدمة عبثية، ومراوغة عقيمة، واستخف بها ورفضها كأنها مجرد حكاية، ثم إنه كتب إلى أمراء المسيحية وإلى نبلاء العالم المسيحي، من علمانيين ولاهوتيين، وحلّل جميع الذين كانوا مرتبطين بالولاء مع الامبراطور فردريك، من إطاعته على أنه مولاهم، كما أنه تدبر نشر القرار الذي صدر ضد الامبراطور المذكور، بشكل مهيب في جميع البلدان التي كانت مطيعة له، ولاسيما في جميع أرجاء انكلترا، وأساء إليه وشوّه سمعته بشكل جاد، حيث أعلن عنه أنه عدو مكشوف للرب وللكنيسة، ووصلت بالحال أخبار عن هذا إلى الامبراطور وبناء عليه حزن كثيراً، وكتب إلى أصدقائه كما يلي، مقدماً شكاوى ثقيلة ضد البابا.

رسالة الامبراطور

«من فردريك، إلخ، إلخ: نحن نتحدث من دون رغبة، غير أننا لانستطيع المحافظة على سلامنا، لأن الفأس قد وضع الآن على جذر الشجرة، والسيف قد خرق الروح تقريباً، ففتح شفاهنا وأطلقها، وعلينا أن نكتب كيف أن الشرور قد كسبت حق القانون، ونحن نشعر بالحزن

لأن الأناس المتمردين قد رفعوا أيديهم اليمنى ضد أحشائهم، والخطأ مفضل على الصواب، والإرادة قد انتصرت على العدالة، لأن الشعوب تسعى الآن لطرد حاكم إيطاليا، والصولجان الامبراطوري، وهم غير واعين لمنافعهم فرضوا الحرية غير المسوغة وغير المحدودة على هدوء السلام، وفضلوا ذلك على الانصاف والعدل، ولاتظن على كل حال بأن هذا التمرد نحن من تسبب به أولاً، لأننا نحن نقوم بالانتقام للأذى الذي لحق بأجدادنا وبآبائنا، ونسعى لقمع مجمل هذه الحرية المقيتة، التي امتدت إلى مناطق أخرى، ولاتظن، أننا تمكنا بأية وسائل حتى الآن، من اخفاء هذه الأشياء، كما أننا لم نتجاوزهم بأعين القناعة، لأننا ما ان بلغنا مبلغ الرجال، وبدأت فضائل العقل والجسد تتوهج في داخلنا، حتى جرى ترفيعنا إلى المرتبة الامبراطورية، فوق جميع آمال البشر، وإرادة من الحكمة الربانية وحدها، ووقعت مملكة صقلية، الميراث الطيب من أمنا في حوزتنا، ووجهنا بصيرة عقلنا إلى المسائل المتقدم ذكرها، وبعد أمد، وفي سبيل تحقيق هدفنا، وبسبب المأساة المروعة بفقدان دمياط في ذلك الحين، وبعد التشاور مع الأب المبجل أونوريوس، الحبر الأعظم في فيرولي، وبموافقة عامة، رأينا أنه من الموافق من أجل رفع شأن أحوال الأرض المقدسة، وفي سبيل إصلاح الامبراطورية، أن نعقد بلاطاً خاصاً في فيرونا، على أن نكون نحن وكذلك البابا المتقدم الذكر حضوراً، وتغيرت هذه النية، نظراً لتقلبات المجلس، والحالة المستمرة لاضطراب الأوضاع في ذلك الوقت، ولكن بما أننا لم نكن نرغب في التخلي عن مثل هذه النية الطيبة، وبعد عقد اجتماع آخر مع البابا في فيرينتينو Ferentino، حددنا موعداً لعقد بلاط في كريمونا، إليه دعونا ابننا، وعدداً كبيراً من مقدمي امبراطوريتنا، مع حاشية موائمة من الفرسان، ومع ذلك فقد جلبنا معنا رتلاً كبيراً من الفرسان من المقاطعات الإيطالية، وذلك حسبما هو لائق بشرف المكانة الامبراطورية، وبمثل هذه القضية العظيمة، ومنذ ذلك الحين، بدأ

اللومبارد بالتمرد ضدنا، وضد شرفنا، بروح مضادة، وبمشاعر شاذة، وقد تظاهروا بالخوف، لأننا كنا محاطين برجال مسلحين، وقد رفضوا طاعتنا، بحكم أننا مولاهم الشرعي، وبإغلاق الطرق أعاقوا دخولنا إلى إيطاليا، وأزاحوا ولدنا والمقدمين من أمام أنظارنا، ولزيادة شرورهم، مع أنها خفية وخيانية، أضافوا الاستهزاء، والإهانة المفتوحة، لأنهم في مؤامراتهم ضدنا وضد الامبراطورية، شكلوا — على الرغم من كوننا موجودين بينهم — مؤامرات شائنة، وهكذا أحبطت توقعاتنا في رؤية ولدنا، فعندنا في هذا الحال إلى أبوليا، لأن الوقت قد ضغط آنذاك من أجل عمل استعداداتنا للجواز عبر البحر، الأمر الذي كنا ملزمين به بعهدنا، وعهدنا بهذه القضية، استناداً إلى الترضية التي عملت لنا وإلى الامبراطورية، لأن يجري تقريرها بموجب قرار من الخبر الأعظم، الذين بقرار منه قد فرض عليهم تزويدنا على نفقتهم بخمسمائة جندي من أجل الخدمة في الأرض المقدسة، وبذروا في البداية الخلاف بين الكنيسة وبين الامبراطورية، فأرسلوهم إلى داخل أبوليا ضدنا، وهكذا بحركة ارتدادية بالترضية ضاعفوا ضررهم المتقدم، وعندما عدنا من مناطق ما وراء البحر، وبعد تسوية الخلاف بيننا وبين الكنيسة، بقينا ملتزمين بغايتنا في إصلاح أوضاع الامبراطورية، وبموجب نصيحة من أبينا الأعظم قداسة، الخبر الأعظم غريغوري، حددنا لعقد بلاط عام في رافينا، وسرنا إلى هنالك مع حاشيتنا المنزلية فقط، ومن دون سلاح، في سبيل إزالة جميع أسباب الخوف الطائشة، من وجود رجال مسلحين، وهناك لم يقتصر عمل اللومبارد المتقدم ذكرهم على عدم تقديم علامات الاخلاص والطاعة، بل ألقوا أمام أعيننا جانباً الاحترام الجدير بشخصنا، ونشروا رايتهم وسعوا بعنف لإهانة مدينة فيرونا، واكسيلينو Eccelino، اللتان انضمتا مؤخراً إلينا، خروجاً عن طاعة الرومان، ومنعوا أيضاً ولدنا من القدوم إلينا، وكذلك نحن من الذهاب إليه، وذلك خلال مناطق الامبراطورية، وبوساطة طرقها (والتي مع أنها لهم،

كانت عامة لاستخدام الجميع)، وهكذا لم تتمكن عين الأب من رؤية الابن، وبتحريض من العاطفة الأبوية، التي لا يمكن كبحها، عهدنا بأنفسنا إلى الحظوظ المريبة لعبور البحر، وذهبنا إلى أكويليا، بغرض رؤية ولدنا الحبيب والمقدمين، وباخلاص منهم قدموا إلينا، ولم نتخل حتى في ذلك الوقت عن رحمتنا الثابتة، بل وضعنا جانباً كل غضب، بسبب هجمات أعدائنا ومجدداً عهدنا بإقرار هذه القضية إلى الكنيسة، وقد رفعنا بينهم أبواق عدم الطاعة عوضاً عن الخطبة فيهم، كما كنا ننوي، لإعطاء مثل عن تواضعنا، ولقد أعطونا تمرداً عوضاً عن الطاعة المستحقة لنا، وعدم إخلاص عوضاً عن الإخلاص، كما أن ما من غضب حول القضايا المتقدم ذكرها أعطاهم فهماً.

ظهور مذنب

وفي العام نفسه، وفي عشية عيد القديس جيمس، ومع حلول الظلام، وقبل ظهور النجوم، شوهد في السماء الزرقاء الصافية، نجم كبير مشتعل، نهض من الجنوب، وطار بشكل مستقيم، لكن ليس نحو الأعلى، ومر خارقاً الهواء، شاقاً طريقه نحو الشمال، ليس بشكل سريع، بل مثلما يطير العقاب، وعندما وصل إلى منتصف قبة السماء، الذي هو نصفنا، اختفى، مخلفاً وراءه دخاناً وشرراً في الهواء، وكان هذا النجم إما مذنباً أو «دراغون» أكبر بالنسبة للعين من الزهرة، وله شكل سمكة من سمك البوري، مشع كثيراً من معظم أجزائه الأمامية، غير أنه في الجزء الخلفي دخاني وله شرر، وأصيب جميع الذين شاهدوا هذه العلامة الرائعة بالدهشة، ولم يعرفوا بما هي منذرة أو مبشرة، وشيء واحد هو مؤكد، هو أن الموسم بعدما كان على وشك الاختناق بسبب الأمطار المتوالية، تغير هذا الموسم في هذه الساعة بالذات إلى واحد من أكثر المواسم خصباً، وحفظ الموسم الناضج، الذي كان فقط ينتظر المنجل، والقيام بجني المحصول وجمعه.

مغادرة سيمون إيرل ليستر إنكلترا لأنه جنى غضب الملك

وفي حوالي ذلك الوقت، وبالتحديد في اليوم التاسع من آب، وصل إلى لندن بعض السيدات النييلات لمرافقة الملكة إلى الدير من أجل طهارتها، حسبما كانت هي العادة، وعندما وصل سيمون دي مونتفورت، إيرل أوف ليستر مع زوجته، دعاه الملك باسم رجل محروم كنسياً، ومنعه وكذلك منع زوجته، التي لوئها بشكل دنيء وفاضح، قبل عقد الزواج بينهما، منعه من الحضور أثناء الاحتفالات الوقورة، وبعدما منعه من الاقتراب منه، غادر الايرل مهاناً ومعه زوجته، وبادر مسرعاً عبر الماء إلى بيته (الذي كان قصر أسقف وينكستر المتوفى، والذي بكرم أعاره الملك إياه ليعيش فيه)، وأمر الملك بطردهما على الفور بالقوة، ومع أنها عادا إلى الملك يرجوان عفوهم بدموع ونحيب، لم يتمكنوا من إطفاء غضبه، لأنه قال له:

«أنت أغويت أختي قبل الزواج، وعندما اكتشفت ذلك، أعطيتها لك بالزواج، مع أن ذلك كان ضد إرادتي، حتى أتجنب الفضيحة ولكي لا يعيق نذرهما الزواج، ذهبت إلى روما، ورشوت البلاط الروماني بهدايا ثمينة وبوعود كبيرة، حتى يمنحك الإذن لفعل ما هو غير شرعي، ورئيس أساقفة كانتربري حاضر هنا، ويعرف هذا، وقد أبلغ بحقيقة القضية إلى البابا، ولكن الحقيقة غلبت بالرشوات المتوالية، وهزمت أمام الشره الروماني، وبسبب إخفاقك في دفع الأموال التي وعدت بها، حرمت كنسياً، ولكي تزيد حجم شرورك، قمت بوساطة بينة مزيفة، فسميتني الضامن لك، من دون استشارتي ودون أن أعرف شيئاً حول القضية»، ولدى سماع الايرل هذه الكلمات قهره الخجل، ومع نهاية النهار، ركب في قارب صغير فوق التيمس مع زوجته وحاشية صغيرة، وسار بكل سرعة إلى شاطئ البحر، وأبحر من هناك على الفور من إنكلترا.

عقد مؤتمر في لندن بين أساقفة انكلترا وبين النائب البابوي

وفي هذه الآونة نفسها، وفي التحديد في الحادي والثلاثين من تموز، اجتمع جميع الأساقفة في لندن، للبحث في مظالم الكنيسة، لأن النائب البابوي بعد جبايات يومية، كان الآن يطالب بوكالات، وبعد عقد المؤتمر، أجاب الأساقفة برأي واحد بأن المطالب الملحة للرومان قد أنهكت ممتلكات الكنيسة، ولم يعد بإمكانهم التحمل أكثر مثل هذه المطالب، وقالوا:

«ليقم بإمدادك الذي دعاك من دون استشارة أي واحد حول القضية»، وهكذا تركوا المؤتمر، لكن ليس من دون تمتمة بعدم الرضا.

ذهاب النائب البابوي إلى سكوتلندا

وعمل في هذه الآونة النائب البابوي الاستعدادات، من أجل مغادرة سريعة إلى سكوتلندا، وبعدما قام بالترتيبات الضرورية، وبعدما أرسل أدلاء انكليز، للكشف عما إذا كانت هناك أية مؤامرة خيانية مدبرة ضده، شرع برحلته إلى هناك، مختاراً إقامات منظمة في الرعويات الديرية، وفي الكنائس الكاتدرائية، وقبل أن يدخل إلى الأراضي السكوتلندية، قوبل من قبل ملك تلك المنطقة، الذي لم يكن مسروراً لدخوله إلى مملكته، لأنه قال بأن مامن نائب بابوي قد دخل قط إلى سكوتلندا باستثنائه هو وحده، كما أنه أعلن، أنه ليست هناك من حاجة لفعله هكذا، لأن المسيحية قد ازدهرت هناك، وكانت الكنيسة في أوضاع متنامية، وأخيراً وبعد تضاعف المناقشات، وبعدما أثير الملك إلى حد منعه من الدخول إلى مملكته، تم الوصول إلى اتفاقية مكتوبة، جرى إعدادها بواسطة بعض النبلاء بينهما من كلا المملكتين، كان فحواها بأن مثل هذه العادة لن تصبح مسألة جارية بسبب قدومه إلى هناك، وعلاوة على ذلك يتوجب عليه توقيع هذه الكتابة عند مغادرته، وجرى ترتيب

هذا حتى لا يعود إلى انكلترا بحال مضطرب، وكأنه رجل مطرود، ولم يقيم — على كل حال — بعبور البحر، بل بقي في المدن الغنية على هذا الجانب من البحر، حيث رتب جميع القضايا اللاهوتية حسب رغبته، وجمع مبلغاً كبيراً من المال، وبعد ذلك، وعندما كان الملك في المنطقة الداخلية، قام بالمغادرة بشكل سري، ومن دون إذن الملك، وأخذ الاتفاقية المكتوبة، المتقدم ذكرها، معه.

قراءة قرار الحرمان الكنسي الصادر ضدّ الامبراطور في إنكلترا

وعندما كان النائب البابوي على طريقه نحو سكوتلندا، ذهب إلى بيت هيئة الرهبان في سينت ألبان، وبعدما قام أولاً بالوعظ بقديس بمناسبة صعود العذراء المباركة (لأن هذا وقع خلال ثمانية ذلك العيد)، تولى حرمان الامبراطور كنسياً، لأن الرهبان كانوا قد حصلوا على رسائل تعفيهم من أداء هذا الواجب، وجرى في الوقت نفسه حرمان الامبراطور المذكور كنسياً بشكل مهيب، ولعدة مرات في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بوساطة إجازة معتمدة من البابا، جرى إرسالها إلى النائب البابوي.

رسالة حادة من البابا ضدّ الإمبراطور أرسلت إلى النائب البابوي

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولده المحبوب أوتو، الكاردينال الشماس لسينت نيقولا في كارسير **Carcere**، توليانو **Tulliano**، نائب الكرسي الرسولي، صحة ومباركات رسولية:

الكرسي الرسولي، مثله مثل بقية العالم كله تقريباً، قد علم ببيانات الحقيقة، أن الكنيسة منذ أن تسلمته من رحم أمه، على ركبتيها، قد أرضعت بعواظها الأبوية الامبراطور فردريك، وحملته بين ذراعيها، وتلقته ليتربى تحت حمايتها، وهو الذي كان من قبل بلا أمل تماماً، ومهملاً، وموكلاً إلى مستقبل مشكوك به، ووقفت بكل قدرتها ضد

جميع غزاة مملكته، الذي ألقوا بأعين الشره على أراضيهم، والذين كانوا قد دخلوا إلى داخل حدود أراضيهم، وكانوا يقدمون إدعاءات بها من دون معارضة، وحميناه من الذين تأمروا ضد حياته، لأنهم حسدوا خلاصه، وكانوا يسعون لوضع حدًا لحياته، وليجتثوا ذكره من على وجه الأرض.

وعندما وصل الامبراطور المذكور إلى عمر أكثر نضوجاً، مدافع عنه بوساطة ترس الحماية اللاهوتية لكل من شخصه وللمملكة، وكان قد جرى ندب غ. G، دي غولغانم Gualganem، صاحب الذكرى الطيبة، والكاهن في هيئة كهنة القديس أناستاسيوس، والكاردينال، فقد بقي مناباً لعدة سنوات، ليكون مسؤولاً عنه، وذلك من قبل الكرسي الرسولي، ورفع أخيراً بوساطة الكرسي المذكور إلى قمة المناصب، ولكن يبدو أنه قد فقد منافع العناية التي أضفيت على شخصه، ونسي المتاعب التي عانت منها الكنيسة لصالحه، وذلك منذ أن أصبح ناسياً لمثل تلك المنافع، وغير ممتن لمثل ذلك المعروف العظيم، وكنا نرغب أنه لم يتجاوز حدود النكران للمعروف بشكل متوازن، الذي يكون به مكثفياً بنكران أن تلقى مثل تلك المنافع جانباً، بالإضافة إلى هذا إن كل ذنب يجعل الإنسان يشعر باللدغة المريرة للأسف، وهذا — على كل حال — كيف حل النكران محل الإحسان، وعاد الشر بدلاً من الصلاح، ضارباً بسلاح ثقيل، ومع أن الكرسي الرسولي يحبه، وقد رفعه إلى قمة السلطة المدنية، مع هذا فإنه نظراً لذنوبه الملحة، التي مع أننا في الغالب، حللناه منها، قد رفض التكفير عنها، وهكذا أرغمنا، فأقدمنا ونحن غير راضين على توبيخه، لأنه مع أن الحكمة الربانية قد رفعت آدم إلى أعلى المراتب والسلطة، ووضعت جميع الأشياء المخلوقة تحت سلطانه، مع ذلك لأنه تجاوز أوامر صانعه، لم توفر خطيئته، والتعويضات التي تسلمتها الكنيسة من فردريك المتقدم الذكر على جميع

المنافع التي أضفيت عليه، لانرغب أن تكون جاهلاً بها، وسوف نعرض في هذه الرسالة أمثلة قليلة من بين الكثير.

فقد أثار في المدينة اضطراباً شديداً، وسعى بكل الوسائل التي توفرت لديه وفي قدرته، لمنعنا مع إخواننا واخراجنا من هناك، وبهذا جلب الإهانة إلى الكرسي الرسولي، وداس على حرية الكنيسة نفسها، وخرق بطيش الأيمان التي كان قد قطعها على نفسه، وقد تسبب بإعاقة أخينا المحترم أسقف برانستي، وإيقاف رحلته بوساطة بعض رعيته، وكان ذلك أثناء ارسال ذلك الأسقف إلى مناطق الألبانيين من أجل تقوية الإيمان الكاثوليكي، كما أنه لم يسمح ولا بأي شكل من الأشكال بملأ الكاتدرائيات والكنائس الشاغرة في مملكته، مسبباً بذلك الرعب والأذى الشديد لأرواح المؤمنين، ولم يكتف بهذا بل نهبهم وجردهم وجرد كنائس أخرى من جميع مقتنياتها، وفرض ضرائب واستخرج مكوساً ثقيلة من القساوسة، والرهبان، ومن رجال الدين العلمانيين الآخرين، وجرى انزال النبلاء، والقوم الفقراء، واليتامى، والأرامل إلى أقصى درجات الدمار، ولم تمنحهم قسوة وشدة جباياته ولا حتى فرصة للتنفس، وهكذا أنزل — بقدر ما استطاع — مملكته كلها إلى رماد وخبث، التي هي الوقف الروحي للقديس بطرس، والتي من أجلها هو مرتبط بيمين التبعية للكرسي الرسولي، وهو من مقطعيه، وبما أنه، بعد تلقيه التحذيرات من قبلنا، لم ير أن عليه أن يقوم سلوكه، فإننا سوف نقوم بعون الرب، بالتعامل مع القضية، حسبما نرى ذلك مناسباً، وبالإضافة إلى هذا لقد أعاق قضية الأرض المقدسة والامبراطورية الرومانية، ومع أنه، في الأيام التي كان السلام قد أعيد تأسيسه بينه وبين الكنيسة، قد أقسم على ידי نواب الكرسي الرسولي في أن يطيع أوامر الوصاية التي تلقاها منهم، قد رفض تنفيذ الوصاية التي تسلمها منهم، ولا بأي شكل من الأشكال، أو السماح لهم بشغل الأراضي المصادرة

والتابعة للكنيسة، أو أراضيهم التي استولى عليها ووضعها بين يديه، لابل استولى على أراضي الكنائس، وخاصة أراضي فيرارا Ferrara، وبولونا Bologna، وفوسينانو Fusignano، في لومبارديا، ومنطقة سردينيا، ومسينا، ولوكا، ولقد استولى على الأسقفيات، وخلع الأساقفة، واستبقى الكنائس لنفسه، ونهب أراضيهم وعاث فيها فساداً على الرغم من أن النواب البابويين قد تفوهوا بقرار الحرمان الكنسي ضده، وفي حضوره، وذلك إذا لم يعمل في هذه القضية وفق أوامرهم.

ومجدداً يحتجز هذا الامبراطور سجيناً لديه حفيد ملك تونس، الذي كان قادماً إلى بلاط كنيسة روما، ليتلقى طقوس التعميد، كما أنه فعل الشيء نفسه مع ابننا المحبوب، بطرس المسلم، والمواطن الروماني النبيل، اللذين قد أرسلنا إلينا من قبل ولدنا المحبوب بالمسيح، الملك المشهور لانكلترا، ولقد كانا قادمين إلى الكرسي الرسولي، ومثل ذلك فعل بابن بطرس المذكور، ومع أنه تلقى التنبيه مراراً من قبلنا، لم يشعر بوجوب القيام بالإصلاح المخلص، وبما أن قروح ذنوبه أصبحت أشد قسوة، وصار يقدم يومياً على اقتراف المزيد من الجرائم الأسوأ، وبما أننا لم يعد بإمكاننا التحمل مدة أطول — دون أن نذنب بحق المسيح — ولا أن نمر مرور الكرام بهذه الأشياء ونحن صامتين، وبوساطة نصيحة إخواننا، وباسم الرب القدير (الذي نحن نائبه على الأرض)، وبوساطة سلطتي المباركين: بطرس وبولص، وبموجب سلطاتنا — ومهما كنا غير راغبين — لقد رأينا من المناسب إعلان قرار الحرمان الكنسي، وقرار الحرمان من شراكة المؤمنين والتكفير ضد الامبراطور فردريك المذكور، والعهد به إلى الشيطان، حتى لا يمكن تخليص روحه في يوم الرب، بعد وفاة جسده، وبالنسبة إلى جميع المرتبطين به بيمين الولاء، نحن نرسم بتحليلهم من مراعاة هذا اليمين، مادام مغلولاً بسلسلة الحرمان الكنسي، وطوال بقائه كذلك، وبناء عليه نحن ننذرهم، ونحثكم بناء

على اخلاصكم، ونأمركم بوساطة هذه الرسائل الرسولية، أن تدبروا نشر قرار الحرمان الكنسي والتكفير المتقدم الذكر، بشكل مهيب، في كل يوم أحد، وفي كل يوم عيد، والأجراس تقرع، والشموع مشتعلة، وأن تدبروا نشر التحليل المذكور مع الحظر، والتفوه بهما في جميع أنحاء نيابتك الرسولية، وحين تنفذ أوامرنا وفق هذه الطريقة، فإن اخلاصكم يستحق المكافأة من قبلنا، ومجدداً بما أن فردريك المتقدم الذكر أصبح مشهوراً بسبب جرائم أخرى عظيمة وثقيلة، نحن سوف نتابع السير في هذه المسائل، في وقتهم المحدد ومكانهم المعين، وذلك حسبما تتطلبه طبيعة القضية، وبما أن صوت الرعب يصرخ دوماً في أذني الشرير، والأشرار دوماً يتوجسون من الخيانة حتى عندما يكونون في أوضاع سلام، لأن الضمير المضطرب يتوقع دوماً الشر، نجد أن فردريك المذكور، حتى قبل إعلان قرار الحرمان الكنسي ضده، قرر أن يرسل بعض الرسائل إلى إخواننا، وهي الرسائل التي أشير جزئياً إليها من قبل، والتي وصلت إلى علمنا وإلى علمهم، بعد صدور القرار المذكور، وبما أن الرب يتولى دوماً كشف الأشياء المخفية والمخبة في الظلام، وإباحة أسرار جميع القلوب، قد رغب في كشف الأفكار الخفية لقلبه، ذلك أننا استنتجنا من محتويات تلك الرسائل أية تقوى يشعر بها نحو الكنيسة الرومانية التي هي أمه، وأي احترام أو تقدير متوفر لديه للحبر الأعظم ولإخوانه وللكرسي الرسولي، الذي هو من أتباعه الاقطاعيين بالنسبة لمملكته، لأنه كما يبدو قد تأمر ضدنا وضدهم، وظهر من ذلك بما فيه الكفاية أية نوع من الجرائم، وكم هي كبيرة الجريمة التي اقترفها، وكان بين كثير من الأشياء الواردة في رسالته هذه الكلمات المقحمة:

«وبناء عليه نحن نتحجب، ليس من دون سبب مسوغ، لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد لإلحاق الضرر بنا، لأنه عندما ينزل مثل هذا الأذى على إنسان ثابت، ومع أننا نرغب بتحمل ذلك بصبر، إن

ضخامة الذنب لاتسمح لنا بفعل ذلك، بل إن عنف الواقعة يرغمنا على أخذ الانتقام، الأمر الذي اعتاد القياصرة أن يمارسوه»، وإننا —على كل حال— عندما نقدر انعدام صبر المهاجم، والوضع الصعب للمدافع، وإذا سمح لنا بحياد، أن نضع بالممارسة الانتقام الخاص الذي يمكن أن نمارسه على الرجل الذي كان أصل هذا العدوان وحلفائه بالدم، علينا أن نعتقد أنها أكثر احتمالاً، وأن محاولة إلحاق الأذى بكرسينا سوف تطاله وتنزل به وبالذي له، لكن بما أنه لاهو ولاجميع بني قومه، هم الذين سوف يعانون من أجل هذا، سوف يكون عظيم الأهمية بأن تكون جلالة الامبراطورية متشوقة جداً من أجل معاقبتهم، وبما أن سلطات الوضع قد سحبت كل الموانع من الوقاحة، ويبدو أن وزن العدد الكبير للإخوان المحترمين يدعمه على الثبات في العناد الذي تصوره مسبباً للغضب الذي مايزال يزعج عقلنا بعمق أكبر، ذلك أننا مادمننا نسعى لحماية أنفسنا من أي مهاجم، نحن قد أرغمنا في الدفاع عن أنفسنا، بأن نعطي هجوماً أعظم بوساطة مقاومتنا. صدر في اللاتيران، في الحادي عشر من نيسان، في السنة الثالثة عشرة لحيريتنا.

الغضب العظيم للإمبراطور ضد البابا وشكاياته الثقيلة ضده

وعندما أخبر الامبراطور بهذا التشويه لأخلاقه، وفي أنه طاغية وليس ملكاً، ثار غضبه —ليس من دون سبب— أكثر فأكثر ضد الميلانيين، وضد الخونة الآخرين له، الذين ساعدتهم البابا بشكل مؤثر، وشجعهم ضده، وأصبح الميلانيون أكثر جرأة، بسبب المساعدة التي قدمها لهم البابا، ووجدوا أن المسألة هي مسألة حياة أو موت، فأقلعوا بهجمات شديدة جداً، يرافقهم نائب بابوي، كان قد أرسل من قبل البابا لمساعدتهم، وعندما كان الامبراطور قد ذهب إلى مناطق نائية، استولوا بالقوة على فيرارا، ومدن أخرى، وقلاع تابعة للامبراطور، ونهبوا المناطق المجاورة ونشروا الدمار والموت، والذين تعرضوا للحصار، قوبلوا من

دون رحمة، ومع أنهم توسلوا إلى النائب البابوي بدموع، في أنهم إذا ماسلموه مدّهم ومقتنياتهم كلها، ووضعوها بين يديه، أن تستثنى أشخاصهم وحدها باسم الرب، ولم يصغ إليهم، مالم يخضعوا أنفسهم وممتلكاتهم إليه بشكل كامل ومن دون شروط، واعترت الدهشة العظيمة رجال الدين المقدسين والرهبان، الذين سكنوا في المقاطعات المسيحية تجاه انعدام الانسانية والوحشية الدموية التي توفرت في نائب بابوي للكنيسة، وتفوهوا باللعنات ضده، لأنه باستخدامه السيف المادي فقط على هذه الصورة، هو تذكّر فقط عدم إبداء الرحمة، وقد استبد الخوف والرعب بقلوبهم، خشية أن يصب المولى رب الحشود غضبه على هؤلاء المخلوقات القساة، وأن تعاني الكنيسة من سقوط كبير، خاصة وأن حزب البابا لم يهتم بالصلوات، أو بالصوم، أو بالمسيرات، كما أنه لم يفرض على الجماعة العمل على تجنب غضب الرب، بتقديم الصلوات إليه، فبوساطة الصلوات تسترد الكنيسة بالعادة أنفاسها في أوقاتها العصبية، وغالباً ما تحصل على الانتصارات على الظالمين لها، لكن بوضعها جميع ثقتها في ثرواتها، وفي السلب جعلها تندفع بدون توقف إلى السيف ولأن تقوم بانتقامها، ومن هذا قام حزن ودمار للمسيحيين، وتهديد للنبل، وغضب، وحقد، وكراهية، وعداء بين الكنيسة والامبراطورية، وهددت بدايات هذه الوقائع المحزنة بنهايات أكثر حزناً، وهكذا طعن الامبراطور بآلام حزنه، ولذلك سعى لتسويغ نفسه، ولإتهام البابا، ولهذا كتب الرسالة التالية إلى عدد من الملوك والأمراء، وخاصة إلى ملك انكلترا، وإلى أخيه رتشارد إيرل أوف كورنول، بحكم أنه ابن ختنه المحبوب، والذي فيه وضع ثقة خاصة:

رسالة الإمبراطور إلى رتشارد إيرل أوف كورنول

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد إيرل كورنول، وابن ختنه

العزیز، صحة وكل المبارکات:

ألق عیناک من حولک، وانظر إلى أبناء الناس، وابک على فضائح الدنيا، والصراع بين الشعوب، والإقصاء العام للعدالة، بما أن شرور بابل قد صدرت عن شیوخ الناس، الذين ظهروا بأنهم حکامها، وفي ذلك حولوا القضاء إلى مرارة، وثمار العدل إلى دود الخشب، قف حيث أنت، أيها الأمير، ويا أيتها الشعوب افهمي قضيتک، واتركي أحكامک تصدر تحت نظر الرب، واجعلي عیونک تشاهد الانصاف لأننا نعرف، ونثق في فضيلة القاضي الأعلى، وحيث لا يوجد معک أوزاناً مختلفة، ولا مقاييس مختلفة أيضاً، فإنک بكل تأكيد سوف ترى تسامحنا، والبراءة الموزونة في میزان حکمک، وکلمات الافتراء صادرة من شفاه المنتقصين لنا، واختراعاتهم السامة وزيفهم، ولكن نحن نعلم إنها ليست الآن المرة الأولى أن عدالة قضيتنا، وشرور الذي هو جالس على كرسي الرب، قد جلبت للعرض أمام معرفة العالم، وإلى جانب بدايات الشهرة السريعة التي غالباً ماتأخذ بريق الجدة من آذاننا، في جميع الحالات الهامة، ونحن أنفسنا نستطيع أن نؤكد بعروضنا التالية، أن الذي هو إشاعة، قد أعلن في الفرصة الأولى، أي كيف جرى تعيين هذا المقاتل الجديد رئيساً لکھنتنا تحت رعاية شريرة، فهو صديقنا الخاص مادام في مرتبة دنيا، لكن فور ترقيته، نسي أعمال المعروف التي أغنت بها امبراطوريتنا الكنيسة المقدسة، وغيّر الإخلاص مع تغيّر الظروف، وبدّل أخلاقه مع کرامته، وهو متأثر من بعض الجوانب برغبة شهوانية في إحداث اضطراب عام، فقد شحذ حد خبثه ضدنا، مع أنه هو رئيس الكنيسة وابنها الخاص، وقد اقتنص فرصته، عندما — حتى يتجنب فضيحة كبيرة — تفوه بالحرمان الكنسي ضدنا، وكان ذلك بعدما أخذنا يميناً، وربطنا أنفسنا بالعبور في وقت محدد إلى الأرض المقدسة، ثم إنه بسبب أننا تأخرنا لسوء الصحة (مضيفاً كثيراً من التهم الأخرى، نحن فيما يتعلق بها لم يتقدم قط بتحذيرنا أو بتذکيرنا) قام على الرغم من رغبة

الرب والعدل، فرفض كلياً تسويغنا، واتخذ ذلك سبباً للحرمان الكنسي، ولهذا خضعنا بكل تواضع وكأن الحرمان جرى التفوه به في المقام الأول بناء على رغبتنا، ووصلتنا من أجل التحليل، ووعدنا أنه عندما تعود إلينا صحتنا الجسدية، سوف نستعد على الفور لعمل عبورنا، ومع أن شكوانا التي قدمناها بتواضع قد رفضت بشكل مهين، فقد عبرنا لانقازها، بتنفيذ تقوي لتعهدنا، معتقدين أن نائب يسوع المسيح قد استهدف تنفيذ هذه المسألة، وليس زيادة كراهيته ضدنا، لكن الذي أملنا أن يكون منقذاً فقط للأشياء التي هي بالأعلى، والذي افترضنا أنه يتأمل الأشياء السماوية بعينه، والذي يركز عليهم في تفكيره، وجدناه كلياً على الفور ليس فقط رجلاً فارغاً من الصدق، بأعماله الوحشية، لابل حتى منفصلاً عن جميع مشاعر الانسانية، لأنه إلى جانب المعينات التي رماها في طريقنا في سورية، بوساطة رسله، ونوابه، ومثل ذلك برسائل منه —الحاملين لهم قد ألقينا القبض عليهم، ونحتفظ بالرسائل بمثابة بينات — فقد حذروا السلطان من التخلي لنا عن الأرض، التي أوقفت للعبادة اللاهوتية، ولشرائع مملكة القدس، وعمل دخولاً بالقوة إلى مملكتنا في صقلية، مقدماً سبباً مسوغاً لهذا الصنيع هو أن ر. R, ابن الدوق الماضي لسبوليتو Spoleto, كان يعدّ العدة لدخول أراضي الكنيسة، مع أن ذلك كان من دون موافقتنا، ومن دون معرفتنا، وقدمنا فيما بعد برهاناً على ذلك بمعاقبته، كما أنهم لم يزحفوا إلى هناك كما يفعل الرجال المقدسين، ومن ثم الاستيلاء على الممالك بالإيمان، بل زحفوا بالغدر والحنث باليمين للجميع، وإذا لم يكن من السهولة إيجاد أحد يمكن إغوائه بسهولة بالحنث باليمين بوساطة تأكيد بسيط، لقد كان هناك أولئك، حيث أغويوا على الفور، عندما قام قادة القوات البابوية أنفسهم، في سبيل الحصول بسهولة على أراضينا، فأكدوا باليمين، بأننا كنا أسرى في سورية، ومجدداً بعد عودتنا مما وراء البحار، قمنا ببساطة برد الخطأ الذي وضع علينا، وتمنعنا عن جميع المحاولات

للانتقام لأنفسنا، وفقاً لعادة كرامة وسمعة امبراطوريتنا، ثم قمنا عن طواعية بالاصغاء إلى كلام السلام، الذي دفع به الوسطاء.

ونحن نعلم من اعترافنا بالإيمان الكاثوليكي، أننا قد وجدنا أمماً حقيقية في الكنيسة، لكن أبانا وجدناه دوماً زائفاً، لأنه في اليوم نفسه لصلحنا، اخترع خطة لتدميرنا، حيث نصحنا بكل حرارة بالعودة إلى إيطاليا مع حاشية غير مسلحة وخاصة، محدداً سبباً لذلك الخوف من أننا قد نقدم فرصة لخوف رعيتنا المخلصة، إذا ما قدمنا وبصحبتنا — كما كان الأمر من قبل — مرافقة مسلحة، وبالإضافة إلى هذا، لقد أعلن بأنه سوف يعمل كل شيء لتأمين الحماية لنا، وسعى في الوقت نفسه لفعل كل ما هو معاكس لهذا، برسائله وبرسله، كما هو واضح من شهادة عدد كبير من رعيتنا المخلصين، الذين كانوا في ذلك الحين مطلعين على كل شيء، وكأنهم كانوا مشاركين في هذه المؤامرات، وكذلك من مقدمين آخرين من ذلك الحزب.

وبناء عليه، بما أن جميع الطرق العامة كانت مغلقة في كل مكان من قبل رعايانا المتمردين ضد ابننا وبعض مقدمينا، الذين كانوا قادمين إلينا من ألمانيا، علاوة على ذلك، عندما كان ابننا المذكور في أكويليا، ويريد الذهاب من هناك إلى ألمانيا، استرد بصعوبة الحماية لسفنه، ونحن أرغمنا على العودة إلى مملكتنا، بسبب النصيحة — أو بالحري المؤامرة الماكرة — الصادرة عن أبينا، التي قد جاءت إلينا، أنه على غير استعداد لضبط تمرد رعيتنا، وهنا مجدداً، عندما كنا إلى بعض الحدود نتنفس بحرية أكبر، وأخذين راحة بعدما أنهكتنا متاعبنا، هاجم أبونا المقدس راحتنا، حيث اتخذ لنفسه سمة المستشار، وحرصنا بحرارة ملتبهة بأن نزحف بكل نشاط ضد الرومان، الذين كانوا مخلصين لنا، وضد رعايا متمردين آخرين تابعين لنا في توسكانيا، كانوا ممسكين بحقوق الكنيسة والامبراطورية، وكنا واثقين من ضمان معروفه، لأنه رغب في مشاركتنا

بما لدينا وبأعباء الامبراطورية، وبناء عليه قمنا تماشياً مع نصيحته المخلصة، بما هو متوجب علينا، فأعلننا الحرب لصالح الكنيسة، ضد الرومان، الذين كانوا في ذلك الوقت يهاجمون فيتربو، وكان هو في الوقت نفسه يرسل رسائل سرية إلى المدينة، بهدف القول، بأننا كنا نعمل على هذه الصورة صدوراً عن كراهيتنا للرومان، وبناء على رغبتنا وإرادتنا، من دون معرفته أو تعليماته، وقام في الوقت نفسه اضطراب في صقلية، وبذلك أرغمنا على زيارة مسينا، حتى نتمكن من مواجهة ذلك، في المراحل الأولى، وكان حزب يتشكل هناك، مقدماً لنا سبباً وحيداً، هو أننا كنا غير راغبين بالتخلي عن جزيرتنا الفخمة صقلية، وحدث في تلك المناسبة، من دون طلب رأينا، لابل في الحقيقة بإخفاء الحقيقة كلها وإبعادها عن معرفتنا، مع أن ذلك كان مضاداً لشرعية الشعوب، التي تقضي، بأن المتحالفين، والمتشاركين في مهمة واحدة، وعمل عسكري هو نفسه، عليهم عدم التخلي أحدهم عن الآخر، حدث أنه عمل معاهدة مع الرومان، الذين أعلنوا ضدهم الحرب، بناء على طلبه، كما ذكرنا أعلاه، وكان هذا أيضاً من دون الاهتمام بحقيقة، أننا بقينا ليس من دون مخاطرة، ورعب على كرامتنا، بقينا بلا دفاع بين الرعايا العصاة والمنشقين، وأنا كنا قد أرسلنا عدداً كبيراً من الجنود الأقوياء لمساعدته، مع أننا لم نكن قادرين على الحضور شخصياً.

بالإضافة إلى هذا، بما أن استقامة ضميرنا، وإخلاصنا النقي الذي شعرنا به نحو الكنيسة، التي هي أمنا، لم يسمح للابن بملاحظة الحماقات غير الطبيعية لأبيه، فعزونا ما حدث إلى الحظ الذي هو عائد إلى المهارة، وكنا باستمرار على استعداد للإشارة إلى تسوية لإعادة المستحقة لنا على تحكيم زوج الأم هذا، الذي تولى في كل مناسبة خداعنا بخشونة أعظم، وسخر منا بمرارة أكبر، وفق نسبة كأن وعوده بتحكيم كامل كانت أكثر حسماً، وفي الوقت نفسه، عندما حكمنا من خلال

خلافاتنا الماضية، وجدنا أنه لم يبق أمل، أو الذي بقي هو شيء قليل لنا من أجل تسوية شؤون إيطاليا، بما يتوافق مع شرف الامبراطور، بوسائط البابا، وعندما كنا متوقعين الاضطهاد نفسه، وفي وقت كنا فيه ننتظر هكذا، اعتقد الجميع بأن الحظ قد ابتسم لنا، لأن الخصام بين الكنيسة والرومان بدأ مجدداً، وفي هذا الخصام كان تصرفنا نبيل جداً، فبإخلاص قدمنا أموالنا، وعرضنا شخصنا، لأننا اعتقدنا بأننا أزلنا تماماً صداً المشاعر الشريرة من قلب رغباتنا السيئة، ولم نكن قانعين بهذا كله، بل رغبتنا بأن نمنح الكنيسة أماناً لاجدل حوله، لأن مشاعرنا اشتعلت بأكثر العواطف حرارة نحوها مع الاخلاص، وكذلك ببواعث الاحسان بالرب، وهكذا ذهبنا شخصياً للمثول أمام هذا الحبر الأعظم، حتى من دون استدعاء، وأخذنا معنا ولدنا العزيز كونراد، المنتخب الآن ملكاً للرومان، والذي هو ولي العهد لمملكة القدس، وهو قد كان في ذلك الوقت الابن الوحيد الذي ترك لنا ل يتمتع بعواطفنا الأبوية، وذلك بعد الاعتداءات الساطعة لأخيه علينا.

وبعدما قدمنا شخصنا إلى الكنيسة، لم نكن نظن أنه نجباً لنا القيام بتقديم ولدنا هذا، ليكون رهينة كاملة إلى الحبر الأعظم، ونسأل بكل تواضع، وندعو الرب ليكون شاهداً على اخلاصنا، أننا كنا نريد اتحاداً كاملاً بيننا أنفسنا وبين الكنيسة، لأن هذا الأسقف على الكنيسة كلها، عندما كان منذ زمن طويل مضى، أسقفاً لأوستيا، قد أقنعنا بأن هذا هو واجبنا الذي علينا أن نطلب، وبناء على ذلك كله، وحيث أن العرض الذي تقدم ذكره لاقى تأييداً طيباً من جانب البلاط كله، وبما أن الخطابات الشاكرة ظهرت أنها تبدي نوايا مخلصية، وذلك من قبل الحبر الأعظم وبالقدر نفسه من الذين هم في بلاطه، وظناً منا بأننا تدبرنا كل شيء معهم بوساطة اقتراح نوايانا المخلصة، وليس أقل اعتماداً على خضوعنا، اعتقدنا أنه من الموائم، أن نشرح — بتقوى عالية — سبب

الخلافات بيننا أنفسنا وبين اللومبارد، الذي غالباً ما سبب الحشجة لصدر قاض فاسد، وتسوية الخلاف بيننا أنفسنا وبين سكان ونبلاء أنكونا، ونظراً لأننا كنا نشعر بشكل أكيد بتفهم لصالحنا لكل قضايانا، سرنا شخصياً، بنية صالحة لخدمة الكنيسة، مع جيش كبير، كنا بوساطة اتفاق ثقیل من خزانتنا قد تدبرنا جمعه من جميع أرجاء ألمانيا، وكذلك من إيطاليا، كما أننا لم نتمكن عن مواصلة تنفيذ هدفنا، قبل أن تكون قوتنا قد أعادت إلى وضعها السالف والصحيح، حرية الكنيسة، التي ديس عليها بالأقدام في المدينة وفي مناطقها، التي جرى الاستيلاء على خارجها، معتقدين بدون أدنى شك أن خضوعنا التقوي سوف يجني لصالحنا الخطوة المستحقة لاستقامتنا، والتي لم نكن قادرين على نيلها.

لكن استمعوا لتعرفوا الربح الذي أعيد إلينا بشكل رائع، وذلك مقابل إخلاصنا العظيم، ومقابل المنافع الكبيرة التي أسديناها، وتثبيتنا لمثل ذلك الإخلاص الذي لاشك فيه، الذي أعيد إلينا في كل قضية سعيّاً من قبل نائب المسيح هذا، هذا الذي هو راعي كنيستنا الكاثوليكية، وهذا المبشر بالإيمان.

ولنبداً أولاً حول مسألة ما وراء البحر:

إن جميع الذي جرى ترتيبه بشكل منطقي من خلال وكالة رئيس أساقفة رافينا، وأميرنا المحبوب، والنائب الرسولي، وفقاً للصيغة المعبر عنها التي أعطيت إليه من قبل الكنيسة بشأن إعادتنا نحن أنفسنا، وابنا كونراد المتقدم ذكره، إلى التملك الكامل، كما كان من قبل، لجميع حقوقنا في المملكة، وفقاً للمعاهدة، وذلك فور وصول رئيس الأساقفة إلى قيسارية، من دون انتظار النائب البابوي المتقدم الذكر، أو رسلنا الذين كانوا قادمين إلى البلاط، ومن دون المزيد من التأخير، أكثر من ذلك الذي يمكن أن يعتمد فيه على وصول اليزنطات (نقود ذهبية) صار العمل كله المتعلق قد تحول إلى غير منتظم كلياً، هذا دون أن نقول

شيئاً عن ترتيب الأمور، كما كان قد وعد، لصالح كرامتنا، وكرامة
الامبراطورية، أو أيضاً عن إهماله عندما رجونا وكنا ملحين معه من
أجل إعادة استدعاء أعدائنا، كما أنه لم يسمح لنا بالذهاب مع الجنود،
الذين — كما قلنا — كانوا معسكرين في تلك النواحي، من أجل الدفاع
عن مناطق الكنيسة، كما أنه لم يرغب بإرسال أي رسول أو رسائل، مما
نجم عن ذلك سقوط أعداد كبيرة من الرجال قتلى في المعارك التي
وقعت، وإحراق الكنائس.

ومجدداً أيضاً، هو لم يكتف بمثل تلك الدناءة غير الاعتيادية، فعندما
كنا مقيمين معه في ريت Reate، ونحن ننفق آلافاً من الماركات في
سبيله، رفض أن يتنازل لنا عن مدينة كاستيلانا Castellana، التي
كان قد استولى عليها في بداية خصومتنا، وذلك حسبما كان ملزماً
بموجب بنود السلام، وحسبما تلقى النصيحة من إخوانه، لأنه كان قد
استلم مبلغ خمسين ألف مارك من ذلك المال فقط، فانظر كيف أحبنا
أبانا هذا الأعظم قداسة!

وبعد هذا، وفي منفعتنا جميعاً، ومن أجل تهذبة إيطاليا (خاصة وأنا
كنا قد أجبرنا على التخلي عن جميع الآمال بإبداء نوايا طيبة نحونا من
قبل أبينا، أو بالحري زوج الأم) حملنا سلاحنا وترسنا، وجمعنا قواتنا من
مقاطعات ألمانيا (التي إليها كنا قد دعينا في ذلك الوقت بحكم
الضرورات، نتيجة للعب القذر لولدنا)، من أجل غزو إيطاليا وثمانين
قضيتنا العادلة بجنود شجعان، لأننا كنا غير قادرين على الوصول إلى
غاياتنا بالالتماسات، وعندما وصل هذا إلى علم الخبر الأعظم، قام هو،
بناء على التماس الهدنة التي وافق عليها جميع الناس المؤمنين وأمراء
الأرض، وفي سبيل مساعدة الأرض المقدسة، قام برسائل رسولية، فمنع
دخولنا إلى إيطاليا، مع قوة مسلحة، ثم إنه نسي هذا، في اليوم نفسه
الذي أعلن فيه الهدنة المتقدم ذكرها، وطلب منا بحكم كوننا المدافع عن

الكنيسة والمحامي عنها، بالزحف بقوة ضد الرومان، الذين — كما قال — قد استولوا على بعض مقتنيات الكنيسة، ومع أنه عدّ أمراً ليس شرعياً بالنسبة لنا، أن نسعى لشق طريقنا بالقوة لندخل إلى بيتنا، وإلى ممتلكاتنا التي أعطيت إلينا من قبل آبائنا، والتي أغلقها دوننا بعض العصاة الحمقى من رعايانا المخلصين، مع ذلك اعتقد أنه عدل بالنسبة له أن يعمل وفق هذا المنهج مع الرومان، الذين لم يكونوا مرتبطين بأي شكل من الأشكال بأبيه، أو بجده، أو بأي واحد من أسلافه.

وأضاف أيضاً بالرسائل المتقدم ذكرها، أنه بالنسبة لمسألة لومبارديا، يتوجب علينا من دون تأخير، ومن دون شروط، ومن دون التقيّد بكرامة أو إدعاء إلى الامبراطورية، عمل تسوية معه، بها يستطيع أن يمنعنا إلى الأبد من المطالبة بأي إدعاء لنا، أو أنه يستطيع، إذا ما رغب، خنق حقوق وكرامة الامبراطورية، لكن بما أنه لانصيحة مقدمينا، ولاذكرى الخسائر الماضية، أوصتنا بفعل هذا، قام آنذاك باللجوء إلى بدع أخرى، فأرسل ذنباً مفترساً، يلبس ثوب حمل لمقابلتنا، والمعني بذلك هو أسقف برانستي، وقد أوصى به إلينا برسائل رسولية واصفاً إياه كرجل صاحب حياة هي الأكثر قداسة، الذي بوسائله، سحب لصالح حزب الميلانيين الناقضين للعهد مدينة بلاستيا Placentia التي كانت خاضعة لنا، وصديقة، معتقداً بثبات أنه بهذه الوسائل يستطيع بث الاضطراب بشكل عام بين رعايانا المخلصين، وذلك إلى درجة يستطيع بها أن يوهن هدفنا في الزحف إلى إيطاليا، وكان — على كل حال — في هذا الأمل، بفضل الرب، الذي يحمي امبراطوريته، مخدوعاً تماماً، والنار التي انتشرت بين رعايانا المتمردين، ونقص السكان وافراغ المدن الذي تسبب به المجرمون، نادى فوق رأسه بصوت مرتفع، موجهاً اللوم إليه، لأنه بث فيهم روح الثقة في عصيانهم، ولخرقه للصدق، لأنه كان قد وعدهم بأن يساعدهم ضدنا، وضد

الامبراطورية، ولأنه لم يستطع، تجاوباً مع طلبهم، انزال عقوبة الحرمان الكنسي بشكل مسوغ، أثناء الفرصة المتقدمة الذكر، فقام بشكل سري برمي المعينات في طريق زحوفنا في جميع الاتجاهات، بارسال رسائل ورسلاً إلى جميع أنحاء الامبراطورية، وإلى جميع أنحاء العالم، ليضلل كل من يستطيع تضليله عن متابعة الاخلاص لنا، وللتوقف عن إعلان الولاء لنا، لكن بما أن الوفاء الطيب لرعايانا، والعواطف الجيدة لأصدقائنا لم تسمح ببقاء أخبار هذه الأوضاع بعيدة عن علمنا، ولأننا لم نختر أن نغلب بالشر، ولأننا رغبتنا بقهر الشر بالصلاح، قررنا ارسال رسل خاصين إلى الكرسي الرسولي، وبناء عليه بعثنا إلى هناك رئيس أساقفة بلرم المحترم، وأسقف فيلورسنا وراتسبون، والمعلم ثاديوس دي سيسا Thaddeus de Sessa، الذي هو القاضي لمحكمتنا العليا، والمعلم ر. R أسقف بورتاستيلانا Portastellana، وهو واحد من رعايانا المقربين لنا والمخلصين، وبما أننا منحناهم كل الثقة من قبلنا ولصالحنا، جرت النقاشات لنقض اتهام الهرطقة الذي عمل ضدنا، وكذلك ماتعلق بامتياز الكنيسة، وإعادة تأسيس امتيازات الكنيسة والامبراطورية (وهو أمر مرغوب به منذ زمن طويل ومتطلع إليه بيننا وبين الكنيسة)، وكان الخبر الأعظم آنذاك حاضراً بناء على نصيحة جميع إخوانه، وقد وافق على طلب سفارتنا، في جميع النقاط، ومن خلاهم وبوساطة رئيس أساقفة مسينا، الذي بعث به رسولاً إلينا ليحصل على سلامه، وعدنا بأنه سوف يأمر بإيقاف جميع المعينات في جميع الأنحاء، وهي المعينات التي ألقاها في طرق زحفنا، وذلك حسبما اعترف بشكل مكشوف بحضور إخوانه ورسلنا، وهذه الأشياء كلها مبرهن عليها بوضوح بشهادات رسائل جميع الأساقفة المتقدم ذكرهم.

وهذا الجواب عاد رسلنا إلينا، لكن قبل أن يكونوا على بعد سفر ثلاثة أيام من البلاط، ومن دون معرفتهم، وفي سبيل إرباكهم، منح

منصب نائب بابوي في لومبارديا إلى غ. G دي مونت لونغو Monte Longo, الذي كان قد أرسله في المقام الأول بمثابة رسول إلينا، وجرى تعيينه فيما بعد لاختضاع مانتوا Mantua, ولتضليل رعايانا المخلصين، معتقداً أنه كلما ازدادت الصلاحيات المعطاة له، سوف يكون أكثر قدرة على رمي المعوقات في طريقنا وطريق أتباعنا، وإلى مقدمينا وإلى القساوسة في إيطاليا وألمانيا، الذين كانوا مقيمين معنا في بلاطنا، أرسل رسائل ليس فيها القليل من التشهير بسمعتنا، مع تضمين بعض الفقرات، التي تعلقت بشكل خاص بالظلم الذي قيل بأننا مارسناه ضد بعض الكنائس في مملكتنا، والتي بشأنها قد أمرنا بإزالتها بوساطة المقدمين المذكورين، وحول جميع هذه القضايا للشكوى، وردودنا حول كل منها، قد بعثنا إليكم برواية عنه، تحت التوثيق العام، من أجل تفحصكم، وجرى إيضاح هذه الأشياء كلها إلى الأمراء والقساوسة، وإلى عدد من رجال الدين من كل طائفة، واحداً بعد الآخر (مع ان الأبناء شعروا بالخجل في أنفسهم من التقلبات الكبيرة للأب، وصدوراً عن الاحترام له، غطى الخجل وجوههم) ومع ذلك أعدنا بناء على نصيحتهم إلى الكرسي الرسولي رئيس أساقفة بلرم المتقدم الذكر، والمعلم ت. T, والمعلم ر. R, أوف بورتاستيلانا، الذين هم رسلنا، مع رسل مدننا المخلصة، الذين من خلاهم أعلننا أننا أنفسنا جاهزين من دون أي تأخير، أو صعوبة، لتقديم كل ترضية، لكن حتى بوساطة هذا كله، لم يمكن إزاحة غضبه عنا، لكن هذا الذي يدعى باسم نائب المسيح، والمبشر بالسلام، والذي هو بالحقيقة المحرك للانشقاقات وصديق الخلافات، قام بمعارضة من قبله لنصائح الآباء المقدسين، عندما سمع بأن رسلنا كانوا يحملون إليه عرضنا بالطاعة في جميع القضايا، وخشية منه أنهم إذا ما وصلوه سوف يحجز بحواجز العدل وسيكون ربما غير قادر على السير أكثر من دون إثارة فضيحة عامة بادر مسرعاً بشكل كبير، فأبدع خطة مجهضة، وتصرف على

عكس العادة الخاصة للكنيسة المقدسة الأم، فقذف في أحد السعف بقرار ضدنا، نحن الأمير الأعلى للمسيحية، ثم كرر بعد ذلك القرار نفسه، في يوم عشاء ربنا بموجبه (كما سمعنا من خلال تقرير، ينبغي أن نضع قليلاً من الثقة به) قام — كما قيل — بغلنا بسلاسل الحرمان الكنسي، وذلك بناء على نصيحة بعض الكرادلة اللومبارد، مع أن الشرط الأعقل من إخوانه قد عارضوه. كما أنه قام أيضاً بوسائط محرضيه على الشر، والذين يدورون بفلكه، والذين يعيشون على أوقاف الناس الفقراء، فمنع رسلنا الذين كانوا الآن قد وصلوا، من المثول في حضرته، ومن الظهور أمام الناس، للبرهنة على عدالة قضيتنا، وعلى براءتنا، وفي الحقيقة لتقديم ترضية تصل إلى حد تقديم ضمان، وإنه فيما يتعلق بها، كان ذلك لسببين إفرادي وخاص، ونظراً لعدالة قضيتنا، ولسوء سمعة دعواه وإجراءاته، توجب، بشكل مسوغ أن نكون فضّلنا ذلك، ومع ذلك استمر بإجراءاته بطيش وبشكل غير نظامي، لنيل مخرج لشروره، ما كان — ربما من قبل — سيصبح معروفاً، ونحن نحزن ونشعر بالأسى في قلوبنا، بسبب العار الذي تسبب للكنيسة الأم المقدسة، التي عهد بها ربنا يسوع المسيح — تحت ظهور العذراء المباركة — إلى تلاميذه، بميثاق آلامه، وعدا عن ذلك، ولولا ذلك نحن ما كان من الممكن أن نعتقد أن أي أذى كان من الممكن أن يلحق بنا من قبل هذا الرجل، الذي نعتقد — لسبب صحيح — أنه ليس قاضينا، لأنه كان قد أعلن من قبل عن نفسه أنه عدونا الرئيسي، وكذلك قاضينا، بالقول والعمل، ورعى بشكل مكشوف العصاة ضدنا وضد الامبراطورية، علاوة على ذلك لقد حوّل نفسه بجعلها غير جديرة بأن يخضع لها مثل هذا الأمير العظيم، وفي الحقيقة هو غير جدير بالسلطات الحبرية بشكل مطلق، لأنه وقف ضدنا وضد الامبراطورية، وقدم برعايته المكشوفة الحماية لمدينة ميلان، التي هي — وفقاً لشهادة عدد كبير من الناس الموثوقين من رجال الدين — مسكونة في الجزء الأكبر منها من قبل الهراطقة، وكذلك عندما

أصدر أسقف فلورنسا — وهو رجل صاحب حياة مستقيمة، وأخلاق حميدة — عدة أحكام هرطقية ضد ر. R دي مانديلو Mandello, وهو رجل من أهل ميلان، وكان من قبل عمدة ميلان وكليرنشيا Clarentia, لم يصنع إليه وذلك صدوراً عن كراهيتنا ومحابة للميلانيين، وعلاوة على ذلك نحن نعتقد أنه غير جدير بأن يعدّ نائباً للمسيح، وخليفة لبطرس، ومحللاً لأرواح المسيحيين، ليس بسبب الأضرار التي ألحقها بكرامتنا، بل للأخطاء الشخصية، وبسبب أعمال التحليل، المتوجب عدم منحها إلا فقط بعد مداولات كبيرة مع إخوانه، فهو يزن بميزان المقايضة، مثله مثل تاجر، ويمنحها في غرفته، مخفياً آرائه عن إخوانه (الذين متوجب عليه التشاور معهم، وفقاً للنظام اللاهوتي) وبذلك جعل من نفسه الذي يتولى الختم لنفسه، والكاتب، وربما أيضاً المحاسب، ومثل هذا هناك مسائل لانرغب نحن بالمرور بها صامتين، مثل التحليل المدهش، الذي عمله بناء على تسلم مبلغ صغير من المال، وسمح به لسيفا Sipa, ابنة المفوض المتوفى لمملكة قبرص، بأن تصبح زوجة لبالين دي جوسلين، وذلك مراغمة لقرار التفريق الذي تفوه به أسقف نيقوسيا في تلك المسألة، واليمين الذي أقسمه في الوقت نفسه بأنه لن يراجعها ثانية، وسمح كذلك لأخت جون صاحب قيسارية بالزواج من جيمس أوف أميندوليا Amendolia, الذي كان قد تزوج أختها من قبل، وذلك لأن كلاهما خائنين لنا، والامراتين قريبتين له من الدرجة الثالثة، وكل ماهو معيب، رتق بمبلغ المال الذي دفع إليه، لأن هذا قد عمل بموجب درجة كراهيته لنا.

ونحن أيضاً نحزن لذنبه ولما رآه حول حقيقته أن لم يرض بإنفاق المال في سبيل كسب نبلاء ومقدمي الرومان إلى جانبه، ولأن يصبحوا أتباعه ومرتبطين به، لقد بدّد مقتنيات الكنيسة الرومانية، التي عهد إلينا بالحماية الخاصة لها، عوضاً عن أن يمنح الرومان القلاع والمقتنيات التي

أعطيت إلى الآباء المقدسين من قبل المؤمنين المسيحيين المخلصين الأتقياء، وبناء عليه يتوجب على الكنيسة العالمية، أو الشعب المسيحي، أن لا يعجب، من أننا لانخاف من قرار مثل هذا القاضي، ليس تحدياً للمنصب البابوي، أو للمكانة الرسولية (التي يتوجب على جميع ذوي الإيمان المستقيم الخضوع إليها، ونحن أكثر من غيرنا نفعل ذلك)، ونحن نلوم مراوغة هذا الشخص، الذي برهن عن نفسه أنه غير جدير بعرش مثل هذه الحكومة الكبيرة، ويتوجب على جميع النبلاء والأمرأ الذين يحملون اسم مسيحيين، أن يعرفوا نيتي المقدسة، والغيرة والتقوى المخلصة المتوفرة في، وأنه ليس من الكراهية القذرة، بل انطلاقاً من سبب هو الأكثر عدالة، استثير الأمير الروماني ضد الكاهن الأعلى الروماني، لأنه يخشى أن يقاد قطيع الرب، من قبل مثل هذا الراعي، فيقوده خلال ممرات مغلقة، انتبهوا، أننا ندعو برسائلنا ورسائلنا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، وبحق دم المسيح، وتحت شهادة الحكم اللاهوتي، أن يقوموا بالدعوة لاجتماع مجمع مسكوني للأساقفة ولآخرين من أتباع المسيح المخلصين، ونبعث نحن أيضاً لرسائلنا، ولبقية الأمرأ الذين نحن على استعداد أن نقف أمامهم، وأن نشرح، وأن نبرهن كل الذي قلناه، لابل حتى مسائل أسوأ منهم، ولسنا نحن الأقل انزعاجاً، بالسبب المحتمل، لأن حاكم الكنيسة هذا، الذي ينبغي أن يمتلك جميع أنواع الفضائل، وأن يكون الأعظم مثابرة، وأن يكون تابعاً منتخباً، من دون وصمة الشره، خشية أن أخطاء الزعماء، تتوالد وتزداد بين الذين هم رعية لهم، سعى لأن يدوس على حقوق الامبراطورية، وذلك على عكس وعده الذي أعطاه بناء على نصيحة إخوانه، وعبر عنه برسائله، حيث وعدنا بأن لا يتخلى عنا، بل أن يقدم لنا النصيحة برأيه، ومساعدته، ورعايته، في استعادة قوة الامبراطورية المذكورة، وهو زيادة على ذلك يكدر الشهير بنا، إن لم نقل يتولى تكفيرنا، وقذف شخصنا، ولا سيما عندما نوازن الأمور في ضميرنا، فلا نجد في أنفسنا لامناسبة

ولاسبب يدفع هذا الإنسان غير الودود، لأن يكون مثاراً إلى هذه الدرجة من الحقد المرير علينا، ما لم يكن أن جلالتنا قد رأى أنه من غير اللائق، وعدّه أنه لا يناسبنا، لأن ندخل معه باتفاقية من أجل زواج حفيدته بابننا الطبيعي هنري، الذي هو الآن ملك توري Torres وغالوري Galluri.

شاركنا بالعزاء —بناء عليه— أيها الصديق العزيز، وكذلك الذين هم أحياء لديكم، ذلك أنك أمير سيفيد العالم، ليس معنا فقط، بل مع الكنيسة أيضاً، التي هي مجمع المؤمنين المسيحيين، لأن رأس الكنيسة مريض، وأميرها في الوسط مثل أسد جوال، ونيّها مجنون، ورجل بلا إيمان، وكاهنها يتولى تلويث معبدها، ويتصرف بشكل ظالم ضد الشريعة، وهنا أن تكون ذنوب هذا الخبر موضع شجب من قبلنا أكثر من قبل بقية أمراء الدنيا، فهذا أمر مسوغ، لأننا الأقرب إليه من حيث مكان الإقامة، والأكثر تحالفاً معه في منصبنا، ولذلك كنا نزيد من تشریفنا له، ونشعر بأعبائه.

هذا وينبغي أن لاننسى أن نذكر هنا، صدوراً عن قرابتكم لنا، أننا نرجوكم أن تقدرُوا وأن تعدوا الازدراء التي تكسدس علينا هو أذى لكم، وأن تبادر مسرعاً نحو بيتكم مع الماء، عندما تكون النيران مستعرة في بيوت الجيران، وانتبه إلى أن سبب إجراءات الخبر ضدنا، لأنه يقدم الرعاية والمحابة للمتمردين علينا، وهذه مسألة، مع أنها غير مذكورة الآن، من الممكن أن نستنتج بسهولة، أن عليكم أن تخافوا، أن مثل هذه الإجراءات من الممكن أن تقام ضدكم في أعمالكم، لأن المعتقد أن إذلال الآخرين والأمراء سيكون أمراً هيناً، إذا ما أمكن أولاً الاطاحة بقدرة قيصر الرومان، لأن ترسه يتحمل هزات رمايات نشاب العدو، هذا وإن السبب الحقيقي الذي أثار قلب البابا وجعله يتحرق في داخله، هو مشكلة اللومبارد، وهو لم يتجرأ على جلب القضية إلى العلن، خوفاً

من إثارة فضيحة بيننا وبين جميع الذين سمعوا بها، ومن أجل هذه القضية، بعث إلينا برسول خاص موثوق من قبله (من الممكن جلب شهادة لتكون برهاناً على مصداقية هذا) قد وعد أننا إذا ما تركنا قضية اللومبارد تحل وفق إرادته، هو لن يتوقف فقط عن إلحاق الضرر بجلالتنا في أي شيء، بل إنه سوف يضع تحت استخداماتنا عشر جميع العالم، المكرس لتقديم المعونة الضرورية إلى الأرض المقدسة، ولا عجب حول هذا، لأنه كان مخروفاً بسفستائية اللومبارد المتعجلة والحادة، وإليهم قد وعد — كما علمت من اعترافات بعض القساوسة — بأنه أعطاهم يمينه شخصياً بالعمل ضدنا وضد الامبراطورية، وعندما كنا في الحج في سورية، في خدمة يسوع المسيح، أرسلهم إلى المملكة، لكن عندما جاء وقت الوفاء بوعدنا المذكور أعلاه، أمكنه بشكل قانوني الحنث بوعدنا، وتغيير المرسوم الذي كان قد أصدره، ومحابة منه لهم، هو لم يتردد أيضاً عن اقتراح عمل مرعب أن تسمع به، ومفرغ من كل منطق وحكمة، لأنه تولى من خلال غ. G أسقف بريشيا، وهـ. H أسقف كوما Cuma، وآخرين، تقديم النصيحة لنا: إما أن نتلقى ترضية من اللومبارد من خلاله، أو أن نعمل معهم — كما قال — هدنة لمدة أربع سنوات، في سبيل رفع شأن قضية الأرض المقدسة، علماً بأن خمس سنوات كانت قد انقضت منذ عقد الهدنة المذكورة، وأجلنا نحن — على كل حال — البت في المسألة، واحتفظنا بها للوقت الحالي، لتداول حولها مع مستشارينا المخلصين، في حين كانت أعمال التحذير المتعلقة بموافقة النائب البابوي المتقدم ذكره غ. G دي مونت لونغو (الذي كان في الوقت ذاته مقيماً بين الميلانيين) قد وافقت على الهدنة المتقدمة الذكر، وهذه المسائل مبرهن عليها بوضوح بشهادات هؤلاء الأساقفة وقام في الوقت نفسه، من دون انتظار لقرارنا، أو لقيامنا بالتشاور مع مستشارينا، فتقياً ولفظاً ضدنا السم الذي كان محقوناً به، كما أوضح أقرباء بعض الأشخاص، وأخيراً، إنه من أجلنا نناشئ بذلك

ونسأل مساعدتك، ومساعدة جميع آلك وذويك، وأعيان وأمراء جميع العالم، ليس بسبب أن قوتنا غير كافية لإبعاد هذا الضرر عن أنفسنا، بل ليعلم العالم كله بأن مكانة جميع الأمراء العلمانيين عرضة للخطر، عندما يتعرض أمير واحد للخطر. صدر في تريفيسو في اليوم العشرين من نيسان، في العلامة التاسعة [الثانية عشرة].

حول الفضيحة المؤسفة التي تفجرت من الأعلى

وكان الامبراطور قد بعث بهذه الرسالة مع شيء طفيف من تغيير العبارات، وبعض الكلمات القليلة في النهاية، إلى ملك انكلترا، وإلى أمراء آخرين في جميع أرجاء العالم، من أجل أن يبرهن على براءته، وليظهر خداع البابا، وبدأت الفضيحة تنتشر في جميع أرجاء العالم، وقام البابا الذي عرف بالحقائق التالية من بعض الأشخاص الموثوقين، فشهر بالامبراطور أكثر فأكثر، وكدس الملامات عليه، وأعلن عنه مجرمًا بهرطقة فوضوية، وفي سبيل إدانته، وجعله سيء السمعة في أعين العالم كله، بعث برسالة تنديدية إلى جميع أمراء وأساقفة العالم، هي كما يلي:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف وعبد عبيد الرب، إلى أخيه المحترم، رئيس أساقفة كانتربري وإلى أساقفته المساعدين، صحة ومباركات رسولية:

لقد قام من البحر وحش مليء بكلام الكفر، قد صيغ بقدمي دب، وبفم أسد هائج، وكان مثله مثل نمر في بقية أعضائه الأخرى، وقد فتح فمه بالتجديف ضد اسم الرب، وهو مستمر بالمهاجمة بأسلحة مماثلة خيمة عهده، والقديسين المقيمين في السماء، ويسعى هذا الوحش إلى تمزيق كل شيء إلى قطع بفكيه وبأسنانه المعمولة من حديد، ولأن يدوس بقدميه على العالم كله، حيث أعدّ من قبل بشكل سري آلات قذف ضد الإيمان، وهو الآن قد صوّف بشكل مكشوف آلات قذف

الاسماعيليين، صارفاً الأرواح عن الطريق المستقيم، وثائراً ضد المسيح، مخلص العالم، (الذي أفادت تقارير بأنه يسعى إلى تدمير سجلات انجيله بقلم هرطقة شريرة).

وبناء عليه توقفوا، لتعجبوا أنتم جميعاً، ولتسمعوا القذف والتجديف ضدنا، الذي صدر عن هذا الوحش، وإلى أي حد وصل ذلك، وإذا كنا نحن، الذين عبيد للرب في جميع أشكال العبودية، قد هوجمنا بنشاب مغتاب، لاعجب في ذلك، فالرب نفسه ليس بمنجاة من هذه الإهانات، وقفوا واعجبوا، إذا ما كان قد جرد سيف الأذى ضدنا، لأنه يستهدف الآن اجتثاث اسم الرب من على الأرض تماماً، هذا ويمكنكم أن تكونوا أفضل قدرة على التصدي لكذبه بصدق مكشوف، ودحض خداعه بحجج الصفاء، وقوموا بالتفحص بكل دقة، لرأس، ولوسط، وللأجزاء المنخفضة من هذا الوحش فردريك، المدعو باسم امبراطور، وبما أنكم سوف تجدون في كلامه البغضاء فقط والشرور، سلخوا قلوبكم المخلصة بترس الصدق، وقدروا كيف أن فردريك المذكور، قد سعى من خلال رسائله التي بعث بها إلى مختلف أنحاء العالم وبلدانه، أن يلطخ وأن يشوه اخلاص الكرسي الرسولي، وشخصنا بوساطة تصاريحه الملوثة، وهو الذي يعدّ مقترفاً للزيف، وجاهلاً بكل تسامح، ولايستحي من العار، قد قام بشكل زائف بالتأكيد على أننا بعدما ارتقينا إلى منصب الرسولية، قد تخلىنا عنه، وهو الذي كان صديقاً لنا منذ القدم، منذ أن كنا في مرتبة أدنى، وأنا خرقنا عهودنا، وغيّرنا سلوكنا، وأنه عندما كان مقيداً بيمين، وبقرار الحرمان الكنسي الذي كان سيصدر ضده، إذا لم يسر لمساعدة الأرض المقدسة والدفاع عنها، في الوقت الذي جرى إعداده، وأنه كان غير قادر على الذهاب بسبب المرض، وأنا حاولنا أن نفرض عليه الحرمان الكنسي ونوجب تنفيذه ضده، وأنا رفضنا منحه منفعة التحليل لدى استرداده لصحته، وأنه عندما

كان متوجهاً لانقاذ الأرض المذكورة، أعقناه في أهدافه بوسائط رسلنا والنواب البابويين، وبارسالنا رسائل إلى السلطان، ليقف ضد تقدمه، حتى يمكن بذلك اعاقته في آماله التي تصورها في استرداد مملكة القدس، وعمل أيضاً شكوى زائفة، بأننا قمنا بشكل غير عادل وبالقوة فهاجمنا مملكة صقلية وغزوناها، وحرصنا الناس على اقرار حث اليمين بسبب أن رينالد ابن الدوق السالف لسبوليتو قد غزا أراضي الكنيسة، وأن ذلك عمل من دون علمه، وتفاخر بأنه عندما عاد من سورية إلى أبوليا، قد تمنع عن الانتقام للأذى الذي ألحق به، وقبل بعرضنا بالسلام والنوايا الطيبة، وعاد إلى الكنيسة الأم، لكن مع أن المعرفة العامة بالحقائق ترفض هذا الزيف وتنقضه، نجد في بعض الأحيان أن الكذب الخفي يستولي على مقعد الصدق في أذن الاخلاص، وذلك عندما لا يجد الصدق محامياً عنه هناك، ولكي لا يتسلل الزيف، ويجد سبيله بوسائل الغش إلى قلوبكم، من المتوجب عدم ترككم جاهلين لخواصنا ولطريقة سلوكنا، وكنا قبل، وبعد أن حملنا على أكتافنا أعباء المنصب الرسولي قد حيننا هذا المذكور فردريك بعناية خاصة، الذي هو مثل ذئب، في ثياب شاة، حتى تدمرت فينا جميع الآمال التي يتصورها ويتأملها أب في ابنه، لأن فردريك المذكور يتبجح بعظمته، وثل سكران بالسلطة التي حصل عليها، وقد أعاد الشر مقابل الخير إلى أمه الكنيسة، وبدأ مثل ثعبان، واللدغة في ذيله، بنشر السم فيها، في الوقت الذي كان فيه يسعى إلى تخديرها بكلامه الملوث بالزيف، فهو كان منذ بعض الوقت الذي مضى، عندما استدعت ضرورات الأرض المقدسة، والقرار المتقدم الذكر، ويمينه، والوقت الذي جرى تحديده من أجل مغادرته حيث تطلب ذلك اقلاعه، فقد كانت هناك عدة آلاف من الصليبيين تنتظره في برنديزي، وقد طالبت به بإلحاح أن يفعل ذلك، وقد حبس الصليبيين المذكورين هناك، حتى ولت مواسم أنواء كانوا غير معتادين عليها، فهلكوا بشكل مؤسف وتعيش بسبب مختلف الأمراض،

وبذلك نال متطوعاً تهمة الحنث باليمين، وقرار الحرمان الكنسي، فقد أهمل هذا الرجل صاحب الإيمان غير السليم، لكن السليم بالجسد، العبور الذي كان قد وعد به، حتى يتمكن، وهو آمن، من نشر الأكاذيب ضد الرب، وخداع الكنيسة، وقد تمدد، لبضعة أيام، على فراش المرض، متظاهراً بالضعف، ولم يتردد في ترك الأرض المقدسة معرضة لغارات أعداء المسيح، كما أنه لم يحزن البتة لموت النبيل لانغريف أوف ثورنجيا، صاحب الذكرى الطيبة، الذي واجه الموت هناك، ولا سمح الرب بأن كان ذلك قد تسبب بوساطة السم، حسبما راجت الأخبار في الدنيا، وعندما أخبرنا برسائل من الأساقفة الساكنين هناك، بمرضه الذي تظاهر به، وبالمسائل الأخرى المتقدم ذكرها، وخفنا نحن مع أسفنا، وخشنا من أن نصبح مع الكرسي الرسولي مفضوحين بسبب الاخفاق في استخدام عصا النظام ضد مثل هذه الجريمة الثقيلة، ولقد أسفنا لموت الصليبيين، والمخاطر التي تعرضت لها الأرض المقدسة، ورغبنا على الأقل في مسألة واحدة، هي أن نمسح دموع أسف الكنيسة باليد اليمنى بوساطة مواساة صحيحة، ولذلك قررنا بأنه خاضع لقرار الحرمان الكنسي، الذي صدر ضده وأجيز من قبله وبموافقته، بوساطة سلطات سلفنا، صاحب الذكرى الطيبة، البابا أونوريوس، ورعينا باخلاص فكرة إمكانية أن نسمع بأنه قوّم طرائقه، مع الاعتراف بأخطائه الكبيرة، وأن ذلك سوف يعطينا أملاً لتقديم العون، فعرضنا عليه برسائلنا بأننا سوف نمنحه منفعة التحليل بصيغة صحيحة، فور قيامه بالانطلاق للمشاركة بالصليبية المتقدمة الذكر، لكنه وهو الذي كان في صدره قليلاً من الاهتمام حول هذه المسائل، قدم قليلاً من الاهتمام لمفاتيح الكنيسة، وعبر إلى سورية دون الحصول على التحليل، ودخل هناك بمعاهدة لمدة ست سنوات مع السلطان، على شرط واحد هو فقط أن تعاد إليه أسوار القدس، وقد أرسل إليه عدداً كبيراً من الخيول والرجال المسلحين لمهاجمة المسيحيين، وترك هيكल الرب للجماعة

المسلمين، الذين أنشدوا هناك مدائح محمد (ﷺ) وقد تحوّل إلى مدافع عن العدو، وهاجم بكل امكاناته أخانا المحترم بطريرك القدس والداوية، وينبغي على كل حال أن لا يعتقد من قبل أي إنسان صاحب عقل سليم، أننا نحن، أو نوابنا قد سعينا إلى إعاقته ومنعه من استرداد مملكة القدس، لأن الكنيسة قد حثت نفسها كثيراً لتحقيق هذا الهدف، وقد تحملت كثيراً من أعباء النفقات العظيمة، إنما من المعروف بشكل جيد بالنسبة للعالم أجمع، بأن فردريك المذكور، كان بالطريق نفسه مضطهداً لكنيسة الرب في سورية، وكذلك فعل من خلال وكالة رينالد المذكور، الذي — على الرغم من نصيحتنا — تركه بمثابة وكيله في مملكته، فقام بالتضييق على الكنيسة على هذا الجانب من البحر، لأن رينالد المذكور غزا أراضي الكنيسة، محمياً برسائل مختومة بالختم الذهبي، ومدعوماً بالمال، ومحاطاً بإقطاعي فردريك المذكور، وأقدم على تعليق، وتشويه وقتل بعض الكهنة ورجال الدين، وسعى أيضاً — بحكم أننا كنا في وضع مضطرب — إلى الاستيلاء على مقاطعة بيروسيوم Perusium، العائدة إلى أراضي الكنيسة المذكورة، ومع أن رعايانا الأوفياء والمخلصين، الذين لم يعد بإمكانهم تحمل مثل هذا الزحف، قد طردوه من ذلك الجزء من البلاد، فإن المسيح قد أعطى النصر إلى قرينته، ومع ذلك وبسبب أن رينالد المذكور لم يكن يلقح عن اضطهاده ولا بوسيلة من الوسائل، رأوا أنه من الحكمة قطع عروق أصل الشر، بدلاً من انتظار عنف السيل الذي قام بالازعاج، والذي كان يزداد ضخامة بوساطة بعض الجداول الجديدة، ولذلك دخلوا إلى مملكة صقلية، التي هي الوقف الروحي للكنيسة، حتى لا يطلبوا منا شاباً من تلك الجهة، التي منها ينبغي توقع وصول المساعدة، ومع أن كثيراً من سكان تلك المملكة صاروا مطيعين للكرسي الرسولي، ينبغي عدم عدّهم — لهذا السبب — من أي جانب من الجوانب مجرمين بالحنث باليمين، لأنهم قد حرروا من يمين الولاء الذي كانوا قد أعطوه إلى فردريك

المذكور بوساطة قرار الحرمان الكنسي الذي كان قد صدر ضده.

وعندما عاد فردريك المذكور من مناطق ماوراء البحر، ورجع إلى صدر الكنيسة الأم، فتحنا له صدر العاطفة الرسولية، وأعرناه أذنًا صاغية، واستجبنا لطلبه بالسلم، ومنحناه منفعة التحليل، وبالإضافة إلى هذه الأشياء، فإن ابن الكذب هذا، تولى تكديس الزيف فوق الزيف، من أجل أنه كلما زاد تعثره في شباك الزيف، كلما كان الرعب الذي نصبه أعظم، هذا الرجل أعلن الآن بكتابة كاذبة، أننا في سبيل تدميره، وعدناه أنه إن كان سيذهب إلى لومبارديا بسلام، ومن دون جيش سوف نلطف جميع الصعوبات، وأننا من خلال المعارضة التي عملت برسائلكم وبمراسلينا أعقناه ومنعناه من الوصول إلى هدف نواياه، وأنه بسبب أنه لم يكن مدعوماً بالسلاح، قد أرغم على العودة إلى مملكته، وقد أكد بشكل زائف أنه بموجب مبادرتنا قد تحدى الرومان الذين كانوا آنذاك يهاجمون فيتربو، وأرسل كتلة كبيرة من الرجال لمساعدة شعب تلك البلدة، وقد اشتكى بأننا قد كتبنا إلى الرومان، قائلين بأن هذا قد عمل من دون معرفتنا، ومن دون استشارته، عُمل سلام معهم مرة ثانية، مطرياً نفسه بزيف جديد، بأن الرومان قد أبعادوا ثانية عن سلام الكنيسة، وجاء هذا الرجل نفسه، من دون دعوة، مع ابنه كونراد، الذي منحه لنا ليكون رهينة، ومثل أماننا، وأخضع لتحكيمنا مسألة الخلاف الذي نشب بينه وبين اللومبارد، وأعاد إلى امتيازات الكرسي الرسولي، الأرض التي جرى احتلالها، وأعاد حرية الكنيسة إلى وضعها السالف والصحيح، فهل من الممكن أن يكون هذا الرجل الذي يتكلم الزيف، رجلاً يمتلك روحاً؟ وهل من الممكن أن يمتلك رجل الدولة هذا نتيجة صحيحة؟ وبالنسبة لقضية الإعادة إليه وإلى كونراد المذكور امتيازاتهما في مدينة القدس، التي حرما منها، وهي القضية التي جرى ترتيبها من قبل أخينا المحترم أسقف رافينا، اشتكى، من دون تقدير

للصدق، بأنه ما أن جُلب المال ودفع، حتى قمنا بتوزيعه بين المسيحيين (الذين كانوا متضررين بهجمات معادية، مترافقة باحراق الكنائس وقتل الرجال) وأنا حرّمنا جميع المساعدات عنه، وأنه لهذا السبب لم يقم بإرسال رسول أو رسائل، وكذلك هو لم يستح أن يكتب بقلمه الكاذب رسائل ذكر فيها، أنه على الرغم من شروط السلام، ومن نصيحة إخواننا، جرى الاحتفاظ بمدينة كاستيلانا من قبلنا، لإلحاق الأذى بحقوقه، هذا ومع أنه لا توجد حتى ذرة واحدة من الصدق ممزوجة مع هذا الزيف، على الأقل لإعطائهم شيئاً من التلوين، من أجل أن تكون أكثر قدرة على الفهم بوضوح أنه ولا نقطة من الزيف لم تلون هذه الافادات كلها، نحن نرغب منكم أن تعرفوا بشكل مؤكد، أنه كما هو معلوم من خلال مجرى الأحداث، يبدو من الموائم لعقل مستقيم أنه كان يمكنه بشكل أفضل الحصول على غاياته بالنسبة للومبارد، لو أنه أظهر نفسه أباً عاطفياً، وسيداً رحيماً لهم، بحكم أنهم كانوا أقوياء بعدد شعبهم، وبسماكة شرافات أسوارهم، وبعظم جيشهم وسعته، وبعلو أسوارهم، وذلك بدلاً من إقدامه على تجريد سيف الانتقام ضد رعيته، التي كانت ترتجف، بسبب الذنب المعزو إليهم، وأن يث الرعب بينهم بالزحف ضدهم مع فيالق جنوده، أما نحن الذين كنا ملزمين برفع شأن منافع السلام، فقد نصحناه بكل اخلاص، بأن يتخلى عن فكرة الاستحواذ عليهم بوساطة عساكره، وأن يعيدهم إلى جادة الاخلاص المتوجب للامبراطورية بإلغاء التهديدات بالعقوبة، وبأن يظهر نحوهم العطف، ومع أنه سار إلى لومبارديا، محاطاً بحاشية غير مسلحة، ومع ذلك لتخليه عن نصيحتنا الودية، شارك في مذبحه الكريمونيين، وصار وكيلاً للانشقاق، وسعى للتسبب في فتق أوسع في لومبارديا، التي كانت ممزقة بالخلافات، وقام بوساطة الرعب والتهديد بابعاد الميلانيين عنه، وذلك على عكس ما كان عليه أن يفعل بجذبهم إليه برباط العاطفة، ونحن، في برائتنا، ينبغي أن لانلام لأنه عاد إلى أبوليا، محبطاً في آماله،

ذلك أنه هو شخصياً جلب الموت وأنزله على آماله.

وبعد هذا، إنه بالنسبة لقضية حماية حرية الكنيسة، ولمحق الهرطقة، هو أعلن عن نفسه بأنه مستعد لإطاعة رغباتنا، وفي رد على ذلك أجبنا برسالة جاء فيها، بأنه طالما أن الوضع في مملكته هو أن ما من أحد حرك يداً أو قدماً من دون أوامره، وبناء عليه تنشر الهرطقة سموها بالطول وبالعرض فوق الإيوان الكاثوليكي، وحيث أن حرية الكنيسة قد ديس عليها تماماً تحت الأقدام حيث كانت، ولذلك من المعتقد أنه ليس مناسباً استخدام الدواء للرأس حيث أن القدم نقلت المرض بوساطة الاتصال، وخلال مدة قصيرة من الزمن تبرهنت صحة هذا الجواب، لأنه لدى سماعه بأن بعض الأشخاص، الذين ضللوا من قبل رأي شرير، كانوا يرغبون بدخول أراضي الكنيسة، فما كان منه إلا أن ذهب بعيداً إلى صقلية، وكأنه منهزم، وذلك بغية أن لا يسبب له وعده المخروق تهمة الزيف، وهو لم يسر ضدهم بأية طريقة من الطرق، سواء بالقول أو بالعمل، موجهاً الملامة إلينا، بسبب أننا برعاية أبوية سعيينا إلى أن نعيد إلى إخلاصهم ونرجع إلى الكنيسة الرومانية الأم، الابن الخاص بالكنيسة، الذي عاد إلى المدينة، وقد فهم أيضاً أن بعض أبناء الفساد كانوا يبذلون جهودهم في سبيل إبعادهم عن التعاطف نحو الكنيسة، والاعتقاد أنه بسهولة أكبر يستطيع أن يجمعها ويقمعهم، إذا تمكن، بوساطة خداعه المعتاد، وأن يؤدي مشاعرهم وعواطفهم بعمق أكبر، فأسرع — مع أنه لم يكن مدعواً — إلى الكرسي الرسولي، حيث كنا آنذاك في رياتي Rieti، وهناك وعد — مع كثير من التواضع — بأنه سوف يعيد المناطق المفقودة من الكنيسة إلى أحوالها الماضية، وسوف يدافع عنها بأقصى ما يمتلك من قوة، ومع ذلك فإنه أعاق في توسكانيا — التي قدّم إليها مساعدته — ووقف ضد استرداد إحدى القلاع التي كان من السهل إعادتها إلى حكم الكنيسة بقليل من الجهد، وفي الوقت

الذي كانت فيه يد الخائن معنا على المنضدة، كان نائبه — بناء على إشارة معطاة منه، حسبما تبرهن ذلك بشكل مكشوف ضده، من خلال نتائج عمله، وبوساطة رسائله، التي احتفظ بها بمثابة برهان على خيائته الكبرى — قد عقد اجتماعاً مع أعداء الكنيسة، حول موضوع تلك القلعة، التي كان من المتوجب تسليمها في يوم محدد، وبذلك أعطاهم مسوغاً للبقاء تحت السلاح، فانظر أية خدمة قدمها هذا العدو السري، إلى الكنيسة، الذي لم يستح من تحويل نفسه إلى خادم لها نفسها، من أجل أن يمتلك وسائل أكثر تأثيراً في سبيل إلحاق الأضرار بنا، وعلى كل حال، نحن نرغب أن تكون متأكداً أننا مررنا بهذه القضايا المتعلقة به، صامتين، ولم نسمح للصفاء الرسولي أن يتعرض لأي تغيير، بل أمرنا بإعادة الحقوق، التي انتزعت منه ومن كونراد المتقدم الذكر، في مملكة القدس، إليهما بوساطة رئيس الأساقفة المذكور، الذي إليه كانت واجبات النيابة البابوية قد أسندت، والذي فعل ذلك، ومع ذلك تجاوز الترخيص الذي أعطي له، بسبب التماس رفع إلينا من قبله، وبعد التماس رفع ضد هذا القرار، وضعت الأرض المقدسة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وهو إجراء لم يسمع بمثل له من قبل في أي وقت مضى، وبناء عليه، وتقديراً منا أنه نتيجة لهذا الإجراء، وبسبب الخطر العظيم الذي تعرضت له الأرض المذكورة، وكذلك الحجاج الذين كانوا يرغبون بمغادرتها، وكذلك أن الآخرين سوف يؤجلون عبورهم إليها، وبعدما تسلمنا ضماناً من البارونات، والنبلاء، ومن مناطق المملكة المذكورة، رأينا بكل اخلاص، وبناء على نصيحة إخواننا، أنه من الموائم سحب القرار المذكور، الذي جرى التفوه به بعد عمل التماس قانوني صار *Ipsa Jure*، وملغياً وفارغاً، وجرى اتخاذ عناية خاصة بعدم خرق إجراءات رئيس الأساقفة المذكور في جميع النقاط الأخرى، وبناء عليه يتوجب أن لا ينزعج تفكيركم، لأنه بسبب هذا، قد انتقدنا بشفتيه الملوئين، لأنه مع أن الإناء مليء بخبث الشر، يظن بأن

لدغات الجريمة التي أصابت عقله، قد انتشرت إلى الآخرين، وبناء عليه بما أن التجريح الصادر عن الرجال الأشرار يتردد صدها ويعود مديحاً، ومديحهم تجريح، نحن نفضل كثيراً، أن نهجم بافتراءات هذا الرجل، الذي كل كلمة من كلامه تعج بسوء السمعة، على المديح من قبله، ولعله يظن أنه يستطيع أن يغسل دنس آرائه بوساطة هذه الانتقادات، لأنه عندما كان مقيماً في فيتربو، ملوثاً ذلك المكان ومفسداً إياه، هرب بشكل مشين من أمام أعداء الكنيسة، وجاد بشرف الامبراطورية، وتراجع ووقف حيث هو خائفاً، ولم يذهب للدفاع عن رعاياه المخلصين، الذين كان أعداؤه يحاصرونهم أمام ناظريه، والذين لم يجدوا أحداً يمنعهم من العيث فساداً في المنطقة، وقد ادعى وأعلن أن زحفه لمساعدتهم قد منع من قبلنا، واتهمنا — ونحن أبرياء — لعدم إرسالنا رسولاً *alatre* لمنع الخسائر التي جنت بوساطة هذه الحرب، وينبغي عدم التعجب تجاه هذا، لأن الكنيسة كانت آنذاك مرهقة بضغوط شديدة من قبل مضطهديها، ووصلنا إلى مدينة كاستيلانا، التي خرق سكانها يمينهم بالتابعة، وخانوا تلك الكنيسة من دون معرفة الكنيسة، وتخلوا عن أنفسهم واستسلموا إليه، لكنهم لم يتمكنوا بوساطة هذا الإجراء من نيل أي حق لأنفسهم، كما أنهم لم يستطيعوا إلحاق أي ضرر بنا، سواء بالنسبة لامتلاك المدينة، وكذلك بالقدر نفسه لما تعلق بامتلاكنا الإشراف القضائي، سواء ماتعلق بالمدينة وبسكانها، لأن الناس إذا ما تملكوا لمنفعة الآخرين، وليس لمنفعة أنفسهم، إنه من العبث أن نعمل مطالبات منهم، فبداية التملك لا يمكن أن تدمر شرائع التملك، أو أن تضيف على غرباء حقوق الممتلكين الحقيقيين، وكذلك أيضاً، بما أنه غالباً ما أعطى يمينه بأن يسترد الممتلكات العائدة إليه وبالنسبة للكنيسة، لقد بدا أنه يعمل بشكل غير حكيم في طلبه منا الذي لم نستطع الاحتفاظ بتملكه من دون أن يكون مداناً بالحنث باليمين، هذا ولا يجوز أن يعتقد في هذا المقام وبالنسبة لهذه القضية أننا نزدري مشورة

إخواننا، لأننا على استعداد لأن نقدم له كل نوع من أنواع العدالة وفقاً لقرار محكمين، أو وفق أية طريقة أخرى، ولكن بما أن رسله رفضوا متابعة إجراءات المحاكمة، التي كانت قد بدأت، وهي لم تطلب منا، بل كان بالحري تصميمه متابعة السير بإجراءات تلك الشكوى، فقط في سبيل مقصد مخادع، بأنه بذلك قد نال فرصة لإلحاق الشرور بالكنيسة وشتمها، ولتدمير السلام الذي كان قد عمل بيننا وبينه.

والأوضاع التي أشارت إليها رسالته الممقوتة، فيما يتعلق بمصير الامبراطورية، وذلك بين أشياء أخرى، قد تولى قلمنا وصفها في هذه الرسالة الحالية، من أجل أنها كلما صارت معروفة أكثر لدى الناس، الأكثر يمكن أن يضع الاضطراب فيما قاله، وقد اشتكى منا، بأننا عندما سمعنا بأنه كان زاحفاً في لومبارديا مع آلاف كثيرة من الجنود، لاسترداد حقوق الامبراطورية، قد أمرناه بوساطة كتابة رسولية، بعدم الدخول إلى إيطاليا بقوة السلاح، وأن يوسطنا في قضية اللومبارد من أجل أن نتمكن من تعليق ذلك فوقه أبدياً، أو خنق الحق الامبراطوري من دون إعاقة، وإرسالنا ضده، أخانا المحترم أسقف برانستي، الذي يمكننا من خلال نيابته، إلغاء نواياه، وأن نثير ضده عدداً غير محدود من المعينات السرية، بوساطة نوابنا، والرسائل من كل جهة من جهات العالم، وهذا الذي حرم —ربما— بإرادة ربانية، القدرة على الاعتراف بالصدق، أو التفوه بالعدل، ولذلك هو لم ينجح —على أسس زائفة— من النيل من شخصنا، ومثل ذلك هو لم يخش من عمل اعتذاره وتسويغه وفق تأكيد مماثل، وأعلن من خلال رسله الذين هم أخونا المحترم رئيس أساقفة بلرم، وبعض الآخرين، الذين كانوا قد أرسلوا إلى المقام الرسولي، بأنه قد عرض إظهار إخلاصه في جميع القضايا المتعلقة بإعادة تأسيس الكنيسة، واسترداد حقوقها وحقوق الامبراطورية، وقد أكد، أنه عندما كان رسله عائدين إليه، قمنا نحن —مع أننا كنا قد وعدناه بأن نسعى

لأن نبتعد عن إعاقته بأي طريق من الطرق — فعهدنا بواجبات النيابة البابوية، إلى ولدنا المحبوب كثيراً غ. G دي مونت لونغسو، الموثق لدينا، من أجل تدمير رعيته، وختم بأن أفاد بشكل زائف بأنه لم يعبأ بهذا ولم يقف عنده، فأرجع رئيس الأساقفة المذكور مع رسله الآخرين، إلى المقام الرسولي، وأنه عرض من خلالهم تقديم كل نوع من أنواع الترضيات، وأتينا قمنا على الرغم من الوصايا التي ورثناها عن الآباء المقدسين، ومن العادة الخاصة للكنيسة، فحرمانه كنسياً بشكل غير عادل، مع أننا كنا معارضين من قبل الشطر الأكبر من إخواننا، وأضاف لعاره، بأننا نحن، النائب للقديس بطرس ليس لدينا سلطة الربط والحل، وكأنه أراد أن يعلن بأننا قد كنا من دون سلطة المفاتيح التي أعطيت إلى رئيس الرسل، واحمل بناء عليه — نحن نرجوكم — ميزان العقل، وزن به فردريك المتقدم الذكر، مقابل الكنيسة، وزن أخطائه مقابل المنافع التي تسلمها منها، ولسوف ترى بوضوح، أن هذا التين وإن كان قد صيغ لخداعنا، وأنه قد أعطي بمثابة طعام للشعب الاثيوبي، قد لفظ من فمه مياه الاضطهاد مثل نهر، في سبيل اخضاع الكنيسة، ومع ذلك تغلب المقام الرسولي على دناءاته، بالرحمة التي لا يمكن تقديرها لمنفعه، لأنه منذ أن كان في سنين الضعف، عندما كان معرضاً — بشكل كامل ويعيش في بحيرة من الفوضى — لهجمات الذين تشوقوا بنهم للاستيلاء على أرضه، والذين استهدفوا حياته، وذلك عندما كان محروماً كلياً من مواساة أقربائه وأصدقائه، وعريانياً تقريباً، ووقتها رأت الكنيسة الأم أحواله هذه، فرعته واحتضنته، وقامت بواجباتها كحاضنة وغطته برداء المقام الرسولي، وانتزعت من شباك الصيادين، ومع كثير من الجهد والنفقات رفعتة إلى عرش الامبراطورية وتاجها، وعلاوة على ذلك، إنها تقدر أنها بعملها هذا قد قدمت إليه القليل فقط، ذلك أنها ضمنت له حكومة مملكة القدس، ورفعت من شأنه في جميع أنحاء العالم، ومع ذلك ولحزنها، ومع شعورها بنفسها أنها جرحت من قبله،

وتأذت أضعافاً مضاعفة بطرق مختلفة، قامت قبل وقت قصير مضى بمساعدته بقوة ضد ابنه هنري، الذي أغوى شطراً كبيراً من ألمانيا، حيث تم التخلي عن الولاء له، ونسيت الجراحات التي لحقت بها من قبله، فرفعته مجدداً إلى المقام الامبراطوري، كما أنها قامت بناء على طلبه، باصلاح ألمانيا، بوساطة رسائل رسولية، وبهذا وبمنافع أخرى، نحن لا يمكننا تذكرها، نهضت بالدفاع عن شرفه، ولكن عصا عدم التقوى هذا، وهذا الذي هو مطرقة الأرض، لديه رغبة في خلق الاضطراب في جميع العالم، وأن يسحق الممالك، وأن يجعل العالم صحراء، وأن ينزل حرية الكنيسة في مملكة صقلية المذكورة إلى حالة من المهانة هي حالة أخفض أحوال العبودية، وأن يقهرها بالقذارة، والأعباء، والمظالم الأخرى، والكنائس التي أراد أن يملأ كرشه من وهنها، قد جردها تماماً حتى العظم، وكما كانت، جردها من مقتنياتها المقدسة، التي عينت لاستخدامات الرجال المقدسين، وقضى بوضع اللاهوتيين بالسجن، وأرغمهم على التعرض للاتهامات، وأن يدفعوا الضرائب والمكوس، وأن ينهكوا ممتلكات الكنيسة، حتى يتمكنوا من انقاذ أنفسهم وتخليصها من مظالمه، وقام أخيراً بطردهم، وأبعدهم إلى المنفى، فقد حرمت الكنائس الأرامل من رعاتها، ولم يسمح لها بأن تتولى كل منها اختيار قرين لها، وأن تلقي جانباً ملابس الترميل، حتى تدع نفسها مرغمة بأن ترتقي بالزنا في حضن أي واحد، وقد بنى خارج أماكن سكنى المسيحيين أسوار بابل، ونقل الأبنية التي يعبد فيها اسم الرب إلى ذلك المكان الذي فيه محمد (ﷺ) محل تبجيل، ومنع التبشير المعلن بعقيدة واسم الذي صلب، في مملكته المذكورة، وذلك إلى الحشود التي اجتمعت من جميع الجهات، وقد أحبط استرداد الأرض المقدسة، وأحبط الحملة الصليبية، بمنعه إعطاء أي من ممتلكات رعيته في سنبل انجاز هذا الهدف، ومراغمة ليمينه الذي تعهد به، ولبنود السلام الذي أقيم بينه وبين الكنيسة، جرد النبلاء من قلاعهم، ومن ممتلكاتهم

الأخرى، وسجن أزواجهم وأطفالهم، وأرغمهم على مغادرة أماكنهم الخاصة، وعلى نقل أماكن سكنهم إلى أماكن سكنى الآخرين، وقد أرغم الذين نشأوا في الأجواء الأرجوانية على التمدد فوق الوحل، وأنزلهم إلى أدنى درجات الشقاء، وكما أنه قام في الوقت نفسه بظلم الفقراء بوسائل أذى مماثلة، ونحن نعتقد أنه كلما زاد أكثر فأكثر من عدم إرضاء الرب، كلما زاد اعتقادنا أنهم أبرياء، وماذا يمكن أن أقول أكثر؟ فقد قام بوحشية لم يشهد بمثلها بانزال بارونات، وفرسان، وأناس آخرين من مملكة صقلية المذكورة، إلى أوضاع العبودية، والآن لا يمتلك معظم سكان تلك المملكة، إمكانات الاستراحة على فراش هو ملكهم، وكم هو شرير أنهم يغطون عوراتهم بمسوح خشنة، ويستطيعون بصعوبة ملء أمعائهم بخبز جاف، وبما أن بكاء وشكاوى الكنائس المذكورة والناس قد أقلقت مسامع الكنيسة بشكل مستمر، وذلك منذ أيام سلفنا أونوريوس المذكور، وبما أنه كان من الصعب المرور بهم صامتين من دون التآلم في ضميرنا، قمنا بوساطة الرسل والرسائل، ليس مرة واحدة، بل عدة مرات، بانذاره بوجوب تصحيح أخطائه، وانتظرنا بصبر عظيم لبعض الوقت الذي مضى، لنرى أنه ربما سيصدف أن يرفع عينيه نحو السماء، وأن يخلع إنسانه القديم وأن يرتدي إنساناً جديداً، وأن يوقف يديه عن اقتراف مثل هذه الجرائم الكبرى، وعلاوة على ذلك مع أننا ظللنا شاكين حول الإصلاح المطلوب، لقد رغبتنا بتقديم التهنئة إليه على تقدمه في إصلاح وضعه، وعندما دخل إلى لومبارديا بقوة السلاح، بعثنا أوامر، أنه في الأماكن الواقعة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، ومهما كان سبب ذلك، ينبغي التوقف عن مراعاة الحرمان من شراكة المؤمنين، حيثما كان موجوداً، وحذرنا برسائلنا فردريك المذكور، بأن يعطينا وعداً دقيقاً، بعدم إعاقه قضية الصليب، التي تولاه في سبيل منفعة الكنيسة، والامبراطورية وجميع الجماعة المسيحية، وأن لا يزحف بقوة السلاح ضد اللومبارد، حتى لا يضرب

مثلاً فاسداً، سوف يعطي سبباً إلى كثير من الناس ليفترضوا بأن الكنيسة سوف تخدع البقية، ومجدداً إنه كما هو مفروض علينا في منصبنا، وهو منصب عبد عبيد الرب، في أن نرمم الرتوق التي تسببت بالانشقاق وفي سبيل أن ننهي جميع الخلافات القائمة بين الامبراطورية واللومبارد، رأينا من الموائم إرسال أسقف برانستي، المكلف بمنصب النيابة البابوية، ليعمل في سبيل اللومبارد وجميع المتخاصمين الآخرين، ولأن يكون في وضع غير مرتاب به في التوزيع والانصاف وكذلك في أعماله، وأن لا يتسبب حتى ولو قليلاً في الكراهية والمحابة، لأنه هو الذي انسحب من العالم ومن الجسد، في سبيل العمل للدين المقدس، وارتقى إلى أعالي الحب اللاهوتي، ودعوا المتتقص يحيب نفسه، أية تهم يمكنه أن يجلب ضدنا على هذه الأرضيات، وضد الأسقف نفسه، لو أن الوثام تحقق في بليستيا بين الآباء والأبناء، وذوي القربى والأعمام، وهو نفسه حاضراً، ومحتجاً بأن هذا قد أنجز دون إلحاق أذى بمراتب الامبراطور وامتيازاته، وبالامبراطورية، وأية آخرين من الممكن أن تكون لهم علاقة، وعلاوة على ذلك، على هذا المجدف المذكور أن يفهم، أنه بالفعل يعد أمراً مهيناً بالنسبة له، أننا وإن قمنا بناء على طلبه وعلى طلب رسله، فبعثنا بأخيना المحترم أسقف أوستيا، وبولدنا ت. T الكاهن الكاردينال للقديسة ساينا، إلى تلك المناطق، لهدف إعادة تأسيس السلام بين الامبراطورية واللومبارد، وفقاً للبنود التي قدمت من رسله المذكورين، ومع أن النائب البابوي المذكور كان مستعداً لتنفيذ البنود المطلوبة، لابل حتى لمنح المزيد، قد وجدنا أنفسنا قد خدعنا، عندما رفض الموافقة على إعادة تأسيس السلام بناء على البنود الممنوحة من قبلهم.

وافهم الآن كيف أننا دسنا على امتيازات الامبراطورية، وافهم من المسائل المتقدمة كيف أنه كان معاقاً من قبلنا، لأنه قد قرر وجوب كدم

كتفيه، وأكتاف أولئك الذين هم أتباعه بوساطة جهد طويل وبلا فائدة، بدلاً من السماح لأن يعاد تأسيس امتيازات الامبراطورية من قبلنا، فضلاً عن هذا، لم يكن الرجل نفسه قانعاً ولا مكتفياً بالأذى الذي ألحقه بالكنيسة، وذلك بوسائط مبلغ كبير من المال لبعض المتمردين ضدنا، وسعى مراراً لإثارة عصيان ضدنا في المدينة، من أجل أنه بطردنا نحن مع اخواننا من مقامنا، وأنه بعدما يجري ترشح الرأس الذي وضعه الرب فوق الإيمان، البناء نفسه يصبح من السهل تدبر انهيائه بأقل جهد يبذل من جهته، كما أنه جاء، وهو خارق لقسمه، إلى لومبارديا، واستولى على فيراراً مع أراضي أخرى من أراضي الكنيسة، وفيما يتعلق بهذا الإجراء، وكذلك بأمور أخرى، أرسل إلينا أسقف بلرم المتقدم ذكره مع رسالة اعتماد، ظاناً أنه يمكنه خداعنا بخطابات فارغة، وبينما كانوا يعرضون علينا تقديم ترضية محترمة، ويحاولون إصلاح الأخطاء المتقدم ذكرها، قام قبل مغادرتهم من بلاطنا، وبعد مغادرتهم، فشغل نفسه بالاستيلاء على بلاد سردينيا، وعلى أسقفية مسينا لونينسيس Lunensis وكلاهما عائدتين إلى الكنيسة الرومانية، وقد علمنا بهذا الإجراء، أن لا نتوقع منه أبداً أي إصلاح، وبرهن ببينة أعماله، أنه لا يجوز وضع أية ثقة به أو برسله، وبناء عليه ومع هذا المقصد في فكره، كان قلبه موجهاً نحو تدمير الكنائس والإيمان الكاثوليكي، ولذلك لسبب صحيح هو مشكوك به من قبلنا، من قبلنا نحن الذين لا يمكن له الاستمرار بالتخفي أمامهم تحت رداء الزيف، لأننا نحن قد صرنا شاكين بقوته، وذلك صدوراً عن التقدير للعدل، ولأنه من الأفضل منع الإصابة بالجراح على إيجاد العلاج بعد الاصابات بهم، عهدنا بمنصب النائب البابوي إلى الموثق المذكور، من أجل إيقاف تقدمه، الأمر الذي لم نعمله إلا بوسائل الشك به، وكنا نأمل بوسائل النائب البابوي المذكور، أن نكون قادرين على منع مذابح الحرب، وعلى تفادي الرعب الذي أحاق بالأرواح والأجساد، وبحكم أننا كنا غير قادرين، بناء عليه على

الانطلاق من الظروف المتقدم ذكرها، ومن ظروف أخرى إلى جانبها، رعاية لآمال تقويمه، وحزناً منا أننا غالباً ما جرى تضليلنا بوعوده التي غالباً ما عملها، قمنا بناء على نصيحة إخواننا، فتفوهنا بقرار الحرمان الكنسي ضد فردريك المتقدم ذكره، ومع أنه وفقاً لهذا، كان عليه أن يسترد مداركه الضائعة، وأن يتواضع بنفسه أكثر أمام الرب، كان الذي عمله هو فقط الهذيان أكثر بغضب، وبناء عليه لأنه اكتشف اضطرابه، ولأنه خاف بشدة، من أن ذنب الأفعى لن يفتح بوساطة اليد الوسيطة للكنيسة، أعلن أننا غير جديرين بفضائلنا الشخصية بتسلم سلطات المنصب البابوي، وأعلن برسائله أنه لا يمكنه أن يرتبط بالقرار المتقدم الذكر، الصادر عنا، وكذلك نحن الذين ضاعفنا في أيامنا — بنعمة من الرب — أوقاف الكنيسة بدرجة كبيرة، نحن متهمون من قبله بتبديد ممتلكات الكنيسة، وبالقيام بأعمال توزيع وتحليل، وتسلم هدايا، ووسمنا بجريمة الشره الشريرة، وأكد أيضاً بشكل زائف، بأننا نأثرين ضده، لأنه رفض منح موافقته على عقد زواج بين حفيدة لنا وبين ابنه الطبيعي، وأعلن بشكل مكشوف بأننا أعطينا يميننا الشخصي إلى اللومبارد للعمل ضده وضد الامبراطورية، وأننا قد وعدنا بأن نحول لاستخدامه عشر جميع العالم، الذي كان محفوظاً لمنفعة الأرض المقدسة، إذا ما أخضع شؤون اللومبارد إلى قرارنا، ونحن نعتز بأننا مفتقرين إلى الفضيلة حتى نكون نائب المسيح، وأعترف أيضاً أنه ليس فينا كفاية لمثل هذا العبء الثقيل، الذي لا يمكن لأي إنسان حي، مهما كان حاله، أن يتحمله من دون عون الرب، ومع هذا إننا نمارس واجبات المنصب الذي عهد به إلينا بشكل جيد، وبقدر ما يسمح لنا ضعفنا، ونسعى إلى تقرير الأمور، حسبما تتطلب طبيعة المكان، والوقت، والأشخاص والظروف، وعندما تتطلب الضرورات، نحن نمنح التحليل إلى أقصى درجات قدرتنا، بشكل حر، ووفقاً لواجبنا نحو الرب، وذلك إلى الذين يستحقونه، ومع هذا، إنه ليس سبباً للأسف أنه جرح الكنيسة بمثل هذا

العمق، مثلما أنه أيضاً لدى تجاوزه حدود المنصب الملكي، كان غير قادر على الإغارة على واجبات الكهنة، وبحكم الظروف، فإن هذا الرجل لتعطشه للذهب، قد أنزل مملكة صقلية المذكورة إلى درجة الرماد، وهو الذي لم يقدم طوال حياته شيئاً من العدالة النقية إلا لقليلين، وفي الوقت الذي باعها فيه بشكل فاسد إلى كثيرين، أحيا في شخصه سيمون الكبير، وقد يكون قادراً على تلويث الكنيسة بتهمة الربح الديوي، إنه يفعل ذلك حتى يُسمح له بالاغارة على المسائل الروحية، ولكي يبقى في دنسه الخاص، قد حاول بشتى السبل، بأن يحرق ويمر من خلال سور نقاء الكنيسة، وخاصة بمنح القلاع، وبرعاية مشاعر القرابة بين شعبه وشعبنا، وهو غالباً ما طلبه منا من خلال بعض كبار الأساقفة وبوساطة رسله كذلك، ولكن بما أنه لم يستطع الحصول على ذلك بوساطة أية التماسات، أو بوساطة أية نصيحة (كما هو معروف بشكل جيد في بلاطنا) ووجد نفسه ومعه أعوانه قد تركوا الآن إلى خداع نصائحهم، ويظل الأسوأ، هو أنه، طالما لم يعد يعرف الذي يمكن أن يفعله أكثر، أهان نفسه بالخط من شأن الآخرين بأقواله الزائفة، مثل العاهرة المصرية التي دعت يوسف لينام معها، ولأنه رفض ذلك، اتهمته، أمام زوجها وشكته إليه، وهناك شيء واحد، مع أننا ينبغي أن ننتحب من أجل رجل ضائع، عليكم الابتهاج كثيراً، لابل عليكم أن ترجعوا الشكر إلى الرب وتعيده، لأن هذا الرجل الذي يعتليه السرور لدعوته باسم الممهد للمسيح الدجال، إنه بإرادة الرب، لم يكن بإمكانه تحمل الاستتار بالظلام، وهو غير متوقع بأن إهانتته ومحاکمته صارت قريبة، فهو بيديه ذاته، قد لغم سور بغضائه، وقد قام برسائله بجلب أعماله الظلامية إلى النور، حيث ذكر بهم بكل وقاحة أنه لايمكن حرمانه كنسياً من قبلنا، مع أنني نائب المسيح، وبذلك أكد بأن الكنيسة لا تمتلك سلطة الربط والحل، التي أعطيت إلى مولانا القديس بطرس، وإلى خلفائه، وبهذا أكد الهرطقة، وختم بمناقشة ناسبته، حيث برهن بأنه ينظر نظرة سيئة إلى

بقية بنود الإيمان المستقيم، وذلك بقدر ما يسعى إليه لحرمان الكنيسة، التي عليها تأسس الإيمان ودعم، هذا وليس من السهل الاعتقاد من قبل بعض الناس، بأنه ألقى بنفسه بالشراك بكلام فمه، الذي برهانه جاهز لنصرة الإيمان، لأن ملك الوباء هذا قد أكد بشكل مكشوف بأن العالم كله قد خدع من قبل ثلاثة، هم يسوع المسيح، وموسى، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وأن اثنين منهما قد ماتا بشكل مجيد، أما يسوع المذكور فجرى تعليقه على الصليب، كما أنه أقدم على التأكيد (أو بالحري على الكذب) بأن الحمقى هم الذين يؤمنون، بأن الرب الذي خلق الطبيعة، ويمكنه أن يفعل كل شيء، قد ولد من العذراء، وأكد هذه الهرطقة بعقيدة زائفة بأن ما من واحد يمكن أن يلد ما لم يكن الحمل به قد جرى من خلال الاتصال بين رجل وامرأة، وما من انسان ينبغي أن يعتقد بأي شيء لا يمكن البرهنة عليه بقوة ومنطق الطبيعة، وهذه الأشياء وكلام كثير آخر، وكذلك أفعال، التي بموجبها قد هاجم، وما زال يهاجم الإيمان الكاثوليكي، يمكن بوضوح البرهنة عليه في الوقت المناسب وكذلك في الوقت الموائم، وذلك حسبما نراه لائقاً وموافقاً، وبناء عليه نحن نسأل، ونحذر، وبإلحاح نحث جماعتكم، ونأمركم بكل دقة بوساطة هذه الرسائل الرسولية، وبفضيلة طاعتكم، أن لاتسمحوا لفردريك المذكور بأية وسيلة من الوسائل بلغم قلوب المسيحيين المؤمنين بوساطة كلامه المخادع، أو أن يلوث قطيع الرب بعدواه، وأن تقوموا أيضاً بنشر المسائل المذكورة أعلاه بشكل كامل ومخلص إلى رجال الدين والناس الخاضعين لكم. صدر في اللاتيران، في الحادي والعشرين من أيار، في السنة الثالثة عشرة من حبريتنا».

وقد أرسلت الفقرة الأخيرة المدونة أعلاه إلى سيد المملكة، مع الرسالة المتقدمة، على هذا الشكل:

«ولهذا رأينا أنه من المناسب أن ننصحكم، وأن نحث سموكم

الملكي، بأن تتسبوا بشرح الذي تقدم بكل يقظة، حتى لا يتعرض نقاء البراءة الملكية إلى التلوث بكلامه المخادع. صدر في اللاتيران، إلخ، كما تقدم أعلاه».

نهم الرومان يرفع ثقتهم

وجرى نشر هذه الرسالة وإرسالها إلى عدد كبير من الملوك، والأمراء، والنبلاء في جميع أرجاء العالم، مع تغيير فقط بالعنوان، وقد أُلقت بالخوف والرعب، وكذلك بالدهشة في قلوب الذين يمتلكون إيماناً صحيحاً، وحولت رسالة الامبراطور لتكون موضع الشك، مع أنها تحتوي على حقائق ممكنة، وأعادت أيضاً تثبيت عقول كثيرين ممن كانوا من قبل في حالة شك وعدم يقين، ولولا أن شره الرومان قد أبعد اخلاص الناس عن البابا، أكثر مما هو موائم، ومما ينبغي، لكان العالم أجمع قد سخط بهذه الرسالة، ولكان ثار بالاجماع ضد الامبراطور، على أساس أنه عدو مكشوف للمسيح وللكنيسة، ولكن يالأسف، الذي حدث هو أن كثيراً من الأبناء صاروا غرباء عن أبيهم، ووقفوا إلى جانب قضية الامبراطور، وأكدوا أن الكراهية التي لم يمكن اخمادها قد صارت الآن أشد فيما بينهم، وأثارت الصراع المتقدم ذكره، وأعمال التشهير، فقد ذكر البابا بشكل غير صحيح بأنه قد أحب فردريك المذكور، وارتقى بمصالحه في بداية ارتقائه، لأن هذا كله فعل صدوراً عن الكراهية لأوثو، الذي قامت الكنيسة، بمساعدة فردريك، بتعذيبه حتى الموت، وكان ذلك بسبب أنه سعى —تماشياً مع يمينه— أن يجمع بالقوة الأجزاء المتفرقة من الامبراطورية، مثلما يسعى الامبراطور الحالي فردريك، وأيضاً يفعل، وبناء عليه، إنه بفعله هذا، نجد أن فردريك قاتل من أجل الكنيسة، وأن كنيسة روما كانت ملزمة أكثر بربط الطاعة إليه أكثر مما كانه الامبراطور للكنيسة الرومانية، وشعرت الكنيسة في الغرب، وبشكل خاص طوائف الرهبان، وكنيسة انكلترا، التي كانت

من بين الكنائس الأخرى الأكثر إخلاصاً وتقوى للرب، يومياً بمظالم الرومان، ولكنها لم تشعر بأي شيء من هذا القبيل بعد من قبل الامبراطور، وأضاف الشعب أيضاً قائلاً:

«ما هو معنى هذا، في الماضي اتهم البابا الامبراطور أنه يؤمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبالشرعية الاسلامية، أكثر من إيمانه بالمسيح وبالعقيدة المسيحية، لكنه الآن في رسالة التجريح هذه اتهمه (بما هو) مرعب أن تذكره) بأنه سمى محمداً (ﷺ) وكذلك عيسى وموسى بأنهم أدعياء، وفي رسائله هذه، كتب الامبراطور بتواضع، وبطريقة كاثوليكية عن الرب، باستثناء أنه في رسالته الأخيرة هذه حطّ من شأن شخص البابا، وليس من المنصب، كما أنه لم يتفوه بأي شيء هرطقي أو مدنت أو أيده، والذي نعرفه أنه لم يرسل مرايين أو نهايين لمواردنا إلى بيننا»، وبهذه الطريقة ازداد التمزق وصار أكثر رعباً في نشوبه بين الناس.

ذهاب الفارس روبرت دي توينغ إلى روما

وفي هذه الآونة رفض فارس من أهالي المقاطعات الشمالية في انكلترا، باذلاً جهوده لعدم ربط رقبتة إلى نير هؤلاء الرومان، وذهب إلى روما، بشأن وقف إحدى الكنائس الذي كان عائداً إليه، وعليه وضع الرومان أيدي الشره من خلال رئيس أساقفة يورك، وقد تقدم بشكوى ثقيلة أمام البابا، حول هذه القضية، وحصل على رسائل، وبهذا يمكن أن نستخلص أية تقوى أمسكت بها الكنيسة الرومانية، وكيف أنها كانت دوماً ملحاحه، وكيف أنها أحبت اللاهوتيين، الذين منهم أخذت دوماً ممتلكاتهم الكنسية، التي تقدم أن أضفيت عليهم من قبل الآباء بنوايا تقوية، وفي سبيل دعم الفقير.

غضب نبلاء انكلترا لحرمانهم من حق رعاية الكنائس

وأصبح في هذه الآونة، إيرلات، وبارونات وباقي نبلاء انكلترا،

الذين إليهم كان معروفاً منذ قديم الزمان يعود حق رعاية الكنائس، أصبحوا غاضبين لأنهم جردوا من حريتهم ومن حق الكنائس المطعمة، وذلك بوساطة شره الكنيسة الرومانية، وذلك في الوقت الذي استغنى الأجانب بهم بناء على أوامر البابا، وكتب هؤلاء الناس الذين شخصياتهم غير معروفة ولا أوضاعهم، وكانوا مجهولين تماماً، إلى البابا مؤخراً، وبعثوا برسالتهم بوساطة روبرت دي توينغ Twenge المذكور، الذي كان قد جرد بوسائل العنف ذاتها من حق رعاية كنيسة لوتون Luton في أسقفية يورك، وعمل شكوى ثقيلة إلى نبلاء المملكة، وبما أن رئيس الأساقفة قد أكد له أنه ليس لديه سلطة، أو أنه لا يرغب بالتحرك ضد الكنيسة الرومانية، ذهب روبرت المذكور بكل سرعة ممكنة إلى البلاط الروماني، وقدم الرسالة التالية نيابة عن نبلاء انكلترا.

رسالة النبلاء الانكليز إلى البابا

«إلى الأب الأكثر سمواً، اللورد غ. G، الذي هو بنعمة الرب، الحبر الأعظم، من عبيده المخلصين في شيلستر ووينكستر، تمنيات الصحة، والاحترام، وإذا كان يرتضي، اخلاص جاهز:

بما أن سفينة حريتنا آخذة بالغرق، وهي التي حصلنا عليها بدماء أجدادنا، وبسبب عواصف أعدائنا التي ثارت ضدنا واندفعت أكثر مما هو معتاد، نحن أرغمنا على إيقاف مولانا، الذي هو نائم في سفينة بطرس، ونحن نصرخ بدون توقف، وبصوت واحد: «أنقذنا يا مولانا، أو أننا سنهلك»، وبما أن الحكم والعدل هما وسيلة الإصلاح لذلك المقام، من الممكن أن تسمح لكل واحد منا بحقوقه، وأن تحفظه له غير فاسد، خشية أنه إذا حدث غير ذلك، فإن الإحسان سوف يتساقط إلى قطع، وسوف يجري دمار التقوى والاخلاص، ومن الممكن أن يثور الأبناء ضد أحشاء الأب، وأن تتلاشى مشاعر العواطف المتبادلة، وبناء

عليه أيها الأب الأعظم قداسة، اعلم أن أجدادنا قاموا منذ أول تأسيس للمسيحية في انكلترا حتى الآن، بالتمتع بامتياز، أن يكونوا بمثابة رعاة للكنائس، وبتعيين أشخاص مناسبين لهم، ولدى وفاة قساوستهن المتقدمين، وبتقديمهم إلى الأساقفة حتى يجرى من قبلهم تثبيتهم في حكومة تلك الكنائس، ولكن في أيامكم، سواء برضاكم وبناء على رغباتكم، نحن لانعرف، فإن معارضة قد كسبت أرضية ضدنا، حيث أنه عندما يموت قساوسة الكنائس، يجري تعيين بعضاً من وكلائكم لهذا الغرض، وهم يقومون في كل مكان بمنح الكنائس التي هي تحت رعايتنا من أجل الاضرار بامتيازنا، ولإلحاق خطر كبير بحق الرعاية، مع أنكم أعطيتُمونا منذ زمن طويل مضى، وعداً حول هذه القضية بضمانة رسائل رسولية، تحتوي أنه عند وفاة لاهوتيين سواء أكانوا روماناً أو طلياناً، كانت قد جرت ترقية لهم إلى الكنائس، بوساطة سلطات حكمتكم، من الممكن أن نمتلك الحق القانوني لتقديم أشخاص مناسبين لخلافتهم، ولكن الذي هو عكس هذا ما نراه يومياً يجري الإصرار عليه، الأمر الذي أدهشنا كثيراً، لأن الماء العذب والماء المالح لا يمكن أن ينبعا من نبع واحد هو النبع نفسه، وبما أن هذا الازعاج يمارس ضدنا جميعاً بشكل عام، ومنه قد يتفجر جدال، ونزاع، وغضب، وصراع، وكذلك مذابح بشرية، قررنا أن نعرض القضية أمامكم، وفي سبيل تقديم مثل، نعرض الأذى الذي أنزل على واحد من رفاقنا، وهو الذي عمل بشكل غير حكيم ضده، والخطر الذي تعرض له حقه بالرعاية، وفي سبيل أن تفضلوا بسلطاتكم، إذا رغبتم بإزالته، وهو أن روبرت دي توينغ، راعي كنيسة لوتون، قام إثر وفاة N. الذي كان قسيساً لتلك الكنيسة، فقدم شخصاً مناسباً لها، لكن بسبب أمر معاكس صادر عنكم، رفض رئيس أساقفة يورك أن يقبله، مع أنه لم يكتشف شيئاً ضد الشخص المقدم، بل عرض فقط تحريمكم، ومثلما عندما «يكون البيت المجاور يحترق، بيتنا عرضة لخطر قريب»، نحن

نرجوكم بحكم كونكم أبانا، بأن تسمحوا لروبرت المذكور، وكذلك لكل واحد منا، ولنا جميعاً، بأن نتمتع بالامتياز المتقدم الذكر، بتقديم كهنتنا إلى كنائسنا الشاغرة، وأن لايجري تطبيق أمركم المتقدم، بأمر رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، بقبول ج. ل. كلارك Clerk الذي من أجله صيبننا صلواتاً تقيّة، وهو الذي جرى تقديمه إلى الكنيسة المتقدمة الذكر، من قبل روبرت المذكور، خاصة وأنه ضروري من أجل تدبير أعمال الملك، وكذلك أعمال مملكتنا، ما لم يكن هناك أي اعتراض قانوني عليه، وإنكم بفعلكم هكذا، ترفعوننا إلى اخلاص موجود أكثر، وإلى خدمة الكنيسة، خشية، بما أن امتياز ابن الواقف المتقدم الذكر، هو واحد من الاقطاعيين، الذي من أجله نحن نخدم مولانا، سوف نكون مرغمين على طلب المساعدة منه الذي هو ملزم بحماية الامتيازات ورعايتها، وكذلك امتيازات الرجال العلمانيين».

رسالة البابا الجوابية إلى نبلاء انكلترا

«من غريغوري الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أولاده المحبوبين، والنبلاء، ورتشارد إيرل أوف كورنويل، وبارونات انكلترا، الذين سوف إليهم تصل هذه التقديمات، الصحة والمباركات الرسولية:

بما أنه واضح من أعمالنا التي توفر برهان كامل على صدقها، أننا من بين جميع الملوك الأرثوذكس، والأمراء، والممالك التي فيها اسم المسيحيين موضع احترام، نحمل احتراماً خاصاً في أعماق العواطف، إلى شخص ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح الملك المشهور لانكلترا، ومملكته، وأعظم الرغبات اخلاصاً تتمنى سلامهم وهدوئهم، ولايمكن الافتراض، كما لاينبغي الاعتقاد، أننا بقدر مانستطيع بعون الرب، منعها، أو أن نرغب، أن نعمل، أو أن نسمح بأي شيء يمكن مع العدل أن يضر بكرامة جلالته الصافية، أو يتسبب بفضيحة في المملكة، بما أنه لم يكن بنيتنا، ولن يكون، السماح بتسيير قواعد ادارة المنافع في انكلترا،

والمعلقة بتقديم الرعايات المدنية، ولا الرضا بأن تضى على أي واحد، بموجب سلطتنا، لأنه قد فهم بشكل واضح بموجب بعض الرسائل التي أرسلت من قبل إلى انكلترا، والتي رأينا أنه من المفيد إرسال محتواها إلى جلالته تحت ختمنا، ولقد اكتشفنا من رسائل الملك المذكور، وكذلك من رسائله، بأن أحد الفرسان من المملكة المتقدمة الذكر مستحوذ على رعاية كنيسة لوتون، في أسقفية يورك، التي قيل من قبل بأننا منحناها لواحد من بلادنا، حيث كنا جاهلين آنذاك بأن التقديم هو عائد إلى رجل علماني، واستجابة منا لالتماسات الملك المتقدم الذكر، ولا لالتماساتكم، فإننا نقوم بموجب السلطات الرسولية بإلغاء المنحة نفسها، ولقد أمرنا برسائلنا أخانا المحترم، رئيس أساقفة يورك، بأن يقبل الكنيسة المتقدمة الذكر، وأن يضع فيها الشخص الذي رآه الفارس المذكور مناسباً بأن يقدم إليها، بحكم أنها عائدة للفارس المذكور، وبالنسبة لمرور الوقت، لقيمة له، بما أنه لم ينشأ عن أي خطأ صادر عنه، على شرط واحد فقط هو أن لا تكون هناك أية أرضية معقولة معارضة له، وبموجب هذه التقديمات نحن نعلن أنه غير قانوني من الآن فصاعداً، بموجب سلطات المقام الرسولي، منح كنائس في المملكة المتقدم ذكرها، التي فيها الرجال العلمانيين رعاة، وذلك من دون نيل موافقة الرعاة المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

رسالة أخرى منه هو نفسه إلى النائب البابوي

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى النائب البابوي، تحيات:

نحن نرغب أن نتبها أنه لم يكن بنيتنا ولن يدور بخلدنا منح المنافع الموجودة في مملكة انكلترا العائدة إلى تقديمات رعاة مدنيين، أو إضافتها على أي واحد بموجب سلطتنا، فلقد اكتشفنا حديثاً من معلومات ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، ملك انكلترا اللامع، ومن إيرلات وبارونات المملكة، بأن واحداً من فرسان انكلترا مستحوذ على حق

الرعاية في كنيسة لوتون، في أسقفية يورك، التي قيل بأننا كنا قد منحاه من قبل وأضيفناه على واحد من الكهنة من بلادنا، ذلك أننا كنا جاهلين بأن حق التقديم عائد إلى رجل علماني، ولقد أصغينا إلى توسلات الملك والنبلاء المذكورين، وبموجب السلطات الرسولية قد ألغينا المنحة المذكورة، وقمنا برسائلنا، فأمرنا أخانا المحترم رئيس أساقفة يورك، بأن يقبل، وبأن يقيم في الكنيسة المذكورة، الشخص الذي رأى الفارس المذكور أنه مناسب لتقديمه لها، لأنها عائدة إليه، وبالنسبة للوقت الذي انقضى، بما أنه غير ناجم عن غلطته، لا يقام له تقدير، شرط أن لا يكون هناك اعتراض آخر معقول على الشخص المقدم، ونحن نعلم بكل دقة، أنه غير قانوني من الآن فصاعداً، منح كنائس — بموجب سلطات المقام الرسولي — في المملكة المذكورة، التي الرعاية فيها رجال علمانيين، من دون موافقة هؤلاء الرعاية المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

ومن هذه الأمثلة وأمثالها، من الممكن بوضوح أن نزن بميزان المنطق، كيف كانت شدة القانون في ذلك الحين مسترخية نائمة، وكذلك احترام الكنيسة، والتقوى الدينية، لأن ممتلكات اللاهوتيين والرهبان المسلمين قد أعطيت لتكون فقط نهياً وأسلاًباً، والعالم الآن مهدد بالسقوط في حالة الفوضى القديمة.

اجتماع الصليبيين في ليون

وفي هذه الآونة اجتمع النبلاء الذين حملوا لصليب في فرنسا وفي المناطق المجاورة، في مدينة مشهورة واقعة على الرون اسمها أغانو Agauno أو لوغدونوم Lugdunum أو بشكل عام ليون، وجاء احتشادهم هناك لعمل الترتيبات من أجل الانطلاق برحلتهم، وأثناء عقدهم لمؤتمر للتداول، وصل رسول قدم بكل سرعة من عند البابا، الذي كان قد حثهم من قبل بشدة وأقنعهم بالانطلاق في حملتهم، لكنه أراد الآن أن يشيهم عن الانطلاق وحثهم بحرارة بعدم الاقلاع في

رحلتهم، وقام الرسل باسم المولى البابا بأمر كل واحد منهم بالعودة إلى موطنه على الفور، وعرض عليهم جميع المذكرات البابوية من أجل هذا العمل، وعلى هذا ردوا بالاجماع قائلين:

«من أين انبعث هذا التقلب في البلاط الروماني ولدى البابا؟ أوليس هذا هو الزمان والمكان اللذين جرى ترتيبهما منذ زمن طويل من قبل النواب البابويين والمبشرين المرسلين من قبل البابا، من أجل جوازنا عبر البحر؟ فوفقاً لكلام المبشرين ووعودهم، اشترينا المؤن، والسلاح، وجميع الأشياء الضرورية من أجل الانطلاق، فلقد رهنا أو بعنا أراضينا مع بيوتنا وجميع أثاثنا، وقمنا بوداع أصدقائنا، ولقد أرسلنا جميع أموالنا قبلنا إلى الأرض المقدسة، وأرسلنا رسالة عن موعد وصولنا، وقدمنا إلى الميناء، والآن تعاق الحملة الصليبية وتمنع من الذهاب والمتابعة، فلقد غير رعاتنا لهجتهم ووقفوا ضدنا»، وقد غضبوا غضباً عظيماً وكادوا أن يقاتلوا رسل البابا، وأرادوا فعل ذلك، لولا أن حكمة الأساقفة ضبطت غضب الناس.

ووصل فوراً بعد هذا، رسل من عند الامبراطور، ونصحوهم بعدم الاقلاع من دون تروي، وأن لا يتسرعوا، من دون توجيه الامبراطور نفسه وحضوره شخصياً، وقد جلبوا معهم رسائل منه لهذه الغاية، فيها قدم براءة، مايكفي من معاذير لاخفاقه في القيام بالجواز، وبناء على هذا أصبحت أوضاع الصليبيين بالفعل محزنة، لأن مؤتمهم ارفض، وهم أصبحوا مثل رمل من دون ممسك، أو مثل جدار بلا ملاط، وعاد كثيرون إلى مواطنهم وهم ييكون، وقد أعطوا أنفسهم متنفساً للنقد ولملت وازدراء التأكيدات الزائفة لبعض القساوسة، وذهب بعضهم إلى ميناء مرسيليا، وعهدوا بأنفسهم لحظوظ البحر، وأبحروا وهم يائسين نحو الأرض المقدسة، وانتظر عدد كبير منهم في صقلية حتى الربيع، متوقعين وصول مقدميهم، في حين سار بعضهم، من خلال نوع من

الاذن من الامبراطور، على شاطئ البحر، وتركوا الخليج الايطالي على اليسار، ومضوا إلى أحواز برنديزي.

اجتماع الأساقفة في لندن

اجتمع جميع الأساقفة في الحادي والثلاثين من تموز، في لندن، مفكرين بعمل بعض الترتيبات مع النائب البابوي، حول مايتعلق بمظالم الكنيسة الانكليزية، لكنه لم يكن مهتماً حول هذه القضية، فقد حصل منهم على بعض الوكالات، وبعدما عقد الأساقفة مؤتمراً أخبروه في إجابة، بأن القبضات الملحة لرومان، بمختلف أنواع الحجج قد أنهكت هكذا بالغالب ممتلكات الكنيسة، إلى حد أن جميع ثرواتهم قد ابتلعت تقريباً، وهم يستطيعون بصعوبة بالغة التنفس لبعض الوقت، وهم ماعادوا يحتملون هذه الجبايات أي وقت أطول، وأضافوا قائلين:

«أية منفعة قد أضفيت على المملكة حتى الآن، أو على الكنيسة بوساطة سلطته الأسطورية، الذي هو الشريك الوحيد للملك، والذي ظلم الكنائس بمختلف أنواع الجبايات، التي منها نأمل الآن ببعض الراحة والمواساة؟ دعوا الملك، الذي استدعاه إلى المملكة من دون نصيحة رعاياه الطبيعيين يزوده»، وعندما رأى النائب البابوي هذا الثبات بين الشطر الرئيسي منهم، توجه بخطابه إلى الفئات الدينية الأكثر تواضعاً، واستخرج منها مبلغاً كبيراً من المال، تحت اسم الوكالات، وارفرض الاجتماع وسط الشكاوى، وتمتمة وانزعاج الأساقفة.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

وفي حوالي عيد صعود مريم المباركة، وصل توماس كونت فلاندرز —عم الملكة— إلى انكلترا، ونزل في دوفر، وعندما أخبر الملك بوصوله، قام بطريقة غير معتادة من قبله، فذهب وهو مسرور إلى

استقباله، وأمر سكان لندن، عند اقتراب وصوله، بإزالة جميع الأعشاب، والأوساخ، والأوحال، وكل شيء معيق من الشوارع، وأن يقوم هؤلاء السكان أنفسهم بالخروج إلى استقباله وهم يرتدون ثياب الأفراح، ومعهم خيولهم وقد أعدت بشكل جميل، وبعمل الملك هكذا، أثار ضحك كثير من الناس وسخريتهم، وبعد مضي عدة أيام، غادر الكونت انكلترا، لأن إذنه بالغياب من ملك فرنسا، لم يكن لمدة طويلة، وقد حمل — على كل حال — معه خمسمائة مارك، كان قد تسلمها من الملك، وهذا هو المورد نفسه، الذي قال بأنه عائد إليه بموجب حق قديم، وكان يتسلمه سنوياً من الخزانة الملكية، وذلك مقابل ولاءه، من دون أية مصاعب أو تأخير.

البابا يمنع الصليبيين من الاقلاع

وفي هذه الآونة أعطى البابا أوامراً إلى النائب البابوي بمنع الصليبيين من الاقلاع بحملتهم إلى الأرض المقدسة حتى الربيع المقبل، وذلك دون أن يعبأ بحلول الموعد الذي كان قد تقرر من قبل بوساطة المبشرين، وعلى عكس نواياهم، والآمال التي تصورها بناء على وعود المبشرين المذكورين، وقضى البابا بأن يكون الجواز في آذار، وأنهم إذا ما فعلوا غير ذلك سوف لن يتمتعوا بالتحليل من ذنوبهم الذي سلف أن منح إليهم.

تكريس وليم دي ريل أسقفاً لنورويك

تسلم في هذا العام، وليم دي ريل، الأسقف المنتخب لنورويك شرف التكريس أسقفاً لذلك المقام من إدموند رئيس أساقفة كانتبري، وكان ذلك في كنيسة القديس بولص في لندن، بحضور عدد كبير جداً من الأساقفة والنبلاء، وبما أن البشارة التكهنية لهذا الرجل قد كانت: «وكان هناك سرور بين ملائكة الرب من أجل توبة مذنب من ذنوبه»،

إلخ، فقد تصور الجميع آمالاً جيدة منه، بأن يكون مثل متى آخر، الذي ارتفع من كونه متسليماً للعشور إلى مقام الرسالة، وسلطة الانجيل، وأنه هو سوف ينهض من العمل في البلاط إلى سمو القداسة نفسها.

إدعاءات الملك ضد هـ إيرل كنت

وشاهد الملك في هذه الآونة أن الايرل المحترم لكنت قد صار الآن عجوزاً وضعيفاً، فوجّه ضده شكاوى جدية، واستخرج منه مبلغاً كبيراً من المال، واتهمه بشكواه بعدة جرائم عظيمة، مع نية مأكرة استهدفت أنه إذا مات الايرل أثناء قيام هذه الشكايات، وتعليقها فوقه، يستطيع الملك وقتها مصادرة جميع ممتلكاته ومقتنياته، وقد اتهمه أنه قام في زمن الملك —والده— فأغوى بشكل خياني، فتاة نبيلة، كانت ابنة ملك سكوتلندا، التي إليه عهد بأمر العناية بها، كما أنه أكد بأنه أضاع روشيل، وبواتو كلها، كما أنه قام بشكل دنيء، وسري، بمنع المال الذي أرسل لمساعدة المدينة والمنطقة، وأرسل سلالاً مليئة بالرمل إلى المحاصرين، وأعاق جنود الملك الذين كانوا ينتظرون مساعدة فقط من انكلترا، وكذلك أنه من خلال خيانتته، جرى تدمير قلعة بدفورد، وخسرهما —أي الملك— وأنه أيضاً عندما كان —أي الملك— تحت وصايته، قام بشكل خياني بتدبير أموره، وتبديد أمواله، وحوّلها لاستخداماته الشخصية، وقد حصل لنفسه على موارد، وأراض شاسعة وغنية، وحول أمواله —أي الملك— طالب الآن بتقديم حساب إليه، كما أنه أثناء الحرب في بريتاني ضد ملك فرنسا، قد خسر، بشكل لايعوض، شرفاً كبيراً، وشطراً كبيراً من الجيش، كما يشهد على ذلك كونت بريتاني، كما أنه اخترع خيانة كبيرة ضد الملك الذي هو مولاه، فيما يتعلق بالزواج السري الذي عقد، أو كان سيعقد، بين رتشارد كليز، وم. M، ابنته، ومجدداً لقد أعاق بدناثة زواج الملك بسيدة نبيلة، بإخبار السيدة المذكورة، وإخبار أسرتها، بشكل سري، بأن الملك كان

أحولاً، وسخيفاً، وعاجزاً، وأن فيه نوع من أنواع الجذام، وأنه كان مخادعاً، حائثاً باليمين، وضعيفاً، وهو امرأة أكثر مما هو رجل، وأنه يجد متنفساً لغضبه فقط في صبه على أتباعه، وأنه كان غير قادر تماماً على التمتع باحتضان أي امرأة نبيلة، ومجدداً اتهمه بأنه قطع الأحراش الملكية، والغابات التي عهد إليه بأمور العناية بها، وبناء عليه هو يطالبه بتقديم حساباً جديداً عن المال الذي تسلمه منهم، وكذلك، أنه عندما كانوا مقيمين في وودستوك، منذ بعض الوقت الذي مضى، وصدف أن كان هو — الملك — وحده في حجرة، فاندفع — الايرل المذكور — بعنف، وانقض عليه مغضباً، وسعى بدناءة وخيانة إلى قطع عنقه، وهو سيده ومولاه، بسكين مجردة، وكان أنه لولا أن رفع صوته بصعوبة، وصرخ طالباً المساعدة، لما كان قد تخلص من بين يديه، ولهذا الجريمة، هو أعلن أنه لم يستحق فقط تعليقه بحبل المشنقة، بل أن يمزق إلى قطع، وعند نهاية هذا الخطاب، الذي ألمه كثيراً وأحزنه، رد الايرل هيوبرت بتواضع، وتذلل بنفسه إلى الملك، وقال: «إنني لم أكن قط خائناً لك أو لأبيك، وبفضل الرب، هذه هي بينة بك» وكأنه أراد أن يقول: «لو أنني رغبت أن أعمل خائناً لك، لما كنت قد تمكنت من الاستحواذ على المملكة»، وبالنسبة إلى جميع التهم المذكورة، أعلاه، ردّ بوسائل صادقة، ويتمثل صحيح، بوساطة واحد اسمه لورانس، وكان كاهناً من كنيسة القديس ألбан، وكان قد بقي مرتبطاً دونما انفصال بالاييرل طوال جميع اضطرابه، وقد نقض جميع التهم وردّها، وعرض براهين كافية على براءته، مما أرضى جميع الذين احتشدوا هناك، مع أن الملك حاول بوساطة الادعاء من وراء منصة القضاء أن يبرهن العكس.

وفي سبيل اطفاء حنق الملك وغضبه، تقرر أنه على الايرل، في سبيل استرداد المشاعر الطيبة السالفة والسلام، أن يتخلى للملك عن الأربع قلاع التي كانت غالية جداً لديه، وهي قلاع:

بلانش Blanch، وغروسموند Grosmond في ويلز،
وسكنفريث Skenefrith، وهاتفيلد Hatfield، وتحمل الايرل
الذي بسنه، وطول تجربته الاقطاعية، تمّ بالغالب الاحتفاظ بانكلترا إلى
الانكليز، كل جحود الملك، ولومه، وإهاناته، وجميع حملات سوء الحظ،
بهدهوء وصبر، وإذا مارغب أحد في أن يعرف بشكل كامل أخبار
الخلاف الذي وقع بين الذين اهتموا هيوبرت المذكور، ايرل كنت،
والمعلم لورانس من سينت ألبان، يمكن أن يجدوا ذلك في كتاب
Additamenta.

الايرل رتشارد وعدد من نبلاء انكلترا يقسمون على الشروع معاً بحملتهم المقترحة

وفي حوالي الوقت نفسه، وفي التحديد في اليوم التالي لعيد
القديس مارتن، التقى النبلاء الصليبيون الانكليز في نورث أمبتون
لإعداد خطط للشروع بحملتهم إلى الأرض المقدسة، وفي سبيل أن
لا يعاق يمينهم الشريف بوساطة الاعتراضات التافهة للكنيسة
الرومانية، ولا أن تصرف جهودهم جانباً — في سبيل سفك دماء
المسيحيين — إلى بلاد اليونان أو إلى إيطاليا، حسبما ألح إليهم بأن ذلك
كان منوباً، أقسموا جميعاً على الانطلاق في ذلك العام إلى الأرض
المقدسة، لتحرير الكنيسة المقدسة للرب، وكان الأول الذي
أقسم بينهم جميعاً الايرل رتشارد، الذي أدى القسم على المذبح
الكبير في كنيسة جميع القديسين، في وسط المدينة وردد بعده
الايرل غ. G. مارشال القسم نفسه، على شرط أن يصبح
متصالحاً أولاً مع الملك، ولكن الايرل رتشارد قال له: «لا تخفق في سبيل
تلك المسألة يابن ختني العزيز، لأن ثقل ذلك العمل أنا آخذه على
نفسي»، وجاء بعد ذلك رتشارد سيوورد Seward، ومن بعده
هنري تربلفيل Trubeville، وعدد كبير من النبلاء، كثير عددهم

حتى نذكرهم، هم جميعاً بإرادة واحدة، وفكر واحد، أعدوا أنفسهم لخدمة الصليب.

الامبراطور والبابا يرهق أحدهما الآخر بشكل متبادل

وعندما رأى البابا في هذه الآونة، أن قوة الامبراطور وجرأته لم تضعف كما أنه لم يرضخ لإرادته أو لإرادة الكنيسة الرومانية، أرسل رسائل تحذير إلى جميع القساوسة والنبلاء المقيمين في ألمانيا والأجزاء الأخرى من الامبراطورية، وأمرهم بشكل بات بالثورة ضد امبراطورهم الذي كان عاصياً ضد الرب، وضد الكنيسة الرومانية، وأساء إلى سمعته بوساطة الكثير من التهم الجادة الأخرى، كما أنه حلل الذين كانوا مرتبطين بيمين الولاء إليه، وأقنعهم أنهم كانوا مخلصين في عدم اخلاص، ومطيعين في عدم طاعة، ولكن وضاعة الكنيسة الرومانية كانت مشجوبة من قبل الجميع إلى أبعد الحدود، حتى وصل الحد أن سلطات البابا كانت محترمة من قبل قلة، هذا إن احترمت من قبل أحد.

خذلان البولونيين والمشايعين الآخرين للبابا

في صيف هذا العام، وقبل وقت قصير من بداية الخريف، رغب الامبراطور منع البولونيين من تقديم المساعدة إلى رعاياه الخونة من الميلانيين، وقام بهجوم مرعب عليهم، لأنهم كانوا يسعون، محابة منهم للبابا ولجيرانهم الميلانيين، أن يزحفوا ومن ثم ينقضوا بهجوم على جيش الامبراطور لكن في أثناء زحفهم، انقض الامبراطور بشكل مفاجئ عليهم، ووضع عساكره بين المدينة وبين سكانها، ومزق فيالقههم، وأوقعهم في حالة من الفوضى مرعبة، وحاول الفارون التراجع عبر الطرق الجانبية، وعرضوا أنفسهم لجروف النهر الذي كان من الضروري عبوره للوصول إلى المدينة، وبناء عليه كان الذين هلكوا منهم

بالموت بتعاسة غرقاً، أكثر من الذين هلكوا بالسيف.

ثم إن الامبراطور، بعدما قدم البولونيون إليه أيديهم اليمنى كعلامة على الصداقة، قاد جيشه ضد ميلان، ولأنه كان قد بنى آلاته، وشيد الجسور، تمكن في وقت قصير، مع جيشه الكبير، من عبور الخنادق، التي كان الميلانيون قد أحاطوا بها أنفسهم من جميع الجهات، ثم استولى الخوف والارتجاف على سكان المدينة، لدى وصول أخبار ما نزل بالبولونيين من مصائب، وتكدس الويل على الويل، وكان هذا العمل سيتهي في وقت قصير، ما لم يتفجر اضطراب خطير، أثاره البابا، واستدعى الامبراطور إلى أماكن نائية، ولدى معرفة سكان المدينة بهذه الظروف المستجدة، أصبحوا أكثر جرأة، ورفعوا رؤوسهم من جديد، فعاثوا فساداً في المناطق المجاورة، وألقوا الحصار على قلاع الامبراطور، ولكونهم أيضاً تقووا وتشجعوا بالنائب البابوي الذي أرسله البابا إلى هناك لطمأنتهم ولمواساتهم، طوقوا فيرازا، وألقوا الحصار عليها وبنصيحة النائب البابوي، الذي كان بلا رحمة، أرغموهم على الاستسلام، ذلك أنهم رفضوا جميع العروض لرفع الحصار، ما لم يستسلموا من دون شرط.

وفي هذه الآونة تم العثور أيضاً على واحد من رفاق القديس أوسوين .Oswin

الملك يفرض بريتانيا ليكون رئيساً للرهبان في دير وينكستر

وفي هذه الآونة مارس الملك ظلماً كبيراً على كنيسة وينكستر، فعلى الرغم من رغبات المجمع الديري، فرض بالقوة رجلاً أجنبياً وأدخله إلى الدير، ليتسلم إدارة الدير، وكان رجلاً صرف نفسه إلى السلوك الشائن، حيث ألقى جانباً الخوف من الرب، فاستولى على الأشياء كلها، وأضل عقول جميع الرهبان، وبدد أموال الكنيسة، وكان كل ماسعى إليه هو أن

يرضي الملك، وتمكن رئيس الرهبان هذا الزائف نفسه، على الرغم من حق حرية الانتخاب الممنوح إلى الرهبان، من جر قرابة نصف النجوم إلى قطاره، وأفسد قلوب العديد منهم، وجعلهم يميلون إلى انتخاب وليم، عم الملكة، لأن الملك كان منصرفاً كلياً من أجل تمرير هذه المسألة.

موت وليم الأسقف المنتخب للييج

مع اقتراب حلول عيد جميع القديسين، ختم وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أتينا على ذكره أعلاه، وأنه حصل على إذن من البابا حتى ينتخب أسقفاً للييج Liege، وأن يستلم أسقفية وينكستر، ختم حياته في فيتربو، حيث قيل بأن السم قد دس له بإيعاز من المعلم لورانس، الذي كان رجلاً انكليزياً، وقد تمكن فيما بعد من تبرئة نفسه تماماً من التهمة، وعندما سمع البابا بهذه الحادثة، حزن كثيراً، لأنه كان بنيته أن يجعل منه قائداً لجيشه في حربه ضد الامبراطور، وبذلك صنع منه تينياً ووحشاً بعدة رؤوس، لأنه عرف بأنه كان متحمساً في القتل، نزاعاً إلى سفك الدماء، ومتشوقاً إلى الإحراق، كما أنه كان سيداً للملك الانكليزي وصديقاً للملك الفرنسي، وابن ختن لكل منهما، وعمّاً للملكيتين، وأخاً لكونت سافوي، وحليفاً لكثيرين آخرين بالقرابة أو بالدم، وجاء موته غير المتوقع محبطاً لخطته كلها.

حزن الملك لموت وليم المتقدم الذكر

وعندما سمع الملك بهذه الأخبار المبكية، لم يستطع منع نفسه عن الحزن، فقد مزق ثيابه وألقى بهم بالنار، وأفسح المجال للبكاء بصوت مرتفع، ورفض قبول المواساة من أي واحد كان، والملكة أيضاً، التي استثيرت، انخرطت في حزن أكبر من المعتاد، وقد بكت موته لمدة طويلة.

وفي هذه الآونة أيضاً ماتت ايفيلين كونتسه ألبارل، وكانت سيدة ذات جمال عظيم، ومات أيضاً في الحادي والعشرين من كانون الأول، هنري دي تربلفيل، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان صاحب خبرة كبيرة في الحملات الحربية.

**البابا وبلاط روما ينتخبان روبرت أخا الملك الفرنسي امبراطوراً
لهما لكنه رفض على الفور قبول هذا المنصب.**

وفي هذه الآونة كتب البابا إلى الملك الفرنسي، وبعث رسلاً خاصين إليه مع رسالة أمر بأن تقرأ بكل وقار ودقة بحضوره هو، مع جميع بارونات فرنسا وكان موضوع هذه الرسالة ومحتواها كما يلي:

«ليكن معلوماً من الولد المحبوب للكنيسة الروحية الملك المشهور لفرنسا، وكذلك من قبل جميع جماعة بارونات تلك المملكة، بأننا، بعد مناقشة دقيقة، ومداولات مع اخواننا، قررنا، وفصلنا، الذي هو مدعو باسم الامبراطور فردريك، عن المنصب الامبراطوري، وقد انتخبنا الكونت روبرت، أخا الملك الفرنسي عوضاً عنه، الذي، ليس فقط كنيسة روما، بل الكنيسة العالمية، رأته مناسباً ومتوافقاً مع جهودها القصوى في السعي لمساعدة ذلك المقام ورفعه، ولا تكن بناء عليه متباطئاً، ولا بأي شكل من الأشكال، في استلام مثل هذا المقام العالي بذراعين مفتوحين، الذي جاء منحه بشكل تطوعي، ولكي يستحوذ عليه، سوف نمنح المساعدات بكرم، في كل من الجهد والمال، فقد جرت إدانة فردريك المتقدم الذكر إدانة قطعية، وذلك بسبب الجرائم المضاعفة التي اقترفها، والتي العالم كله على دراية تامة بها».

ورداً على هذه المنحة اقترح الملك الفرنسي، العظيم الحذر، الجواب التالي: «بأية روح أو بأي طيش أقدم البابا على حرمان مثل هذا الأمير العظيم، وطرده من مقامه الامبراطوري، ذلك أن هذا الأمير العظيم

لا يوجد نظير له، لابل إن المثل له ليس موجوداً بين المسيحيين، وكيف يتم هذا وهو لم يُدن بعد، كما أنه لم يعترف بالتهمة التي أثّرت ضده؟ وهو إذا ما كان قد استحق العزل، بسبب ذنوبه الكبيرة، لا يجوز حرمانه من تاجه، ما لم يكن ذلك بموجب قرار من مجمع عام، وبالنسبة لتهمة تجاوزاته، لا يجوز لنا أن نضع ثقة بأعدائنا، الذين من المعروف بشكل جيد أن البابا هو الرئيس، وهو بالنسبة لنا ما يزال بريئاً، لابل أكثر من هذا، هو جار جيد، ثم إننا لم نشهد أي شيء شائن في سلوكه العلماني، أو في إيمانه الكاثوليكي، والذي نعرفه هو أنه قاتل باخلاص من أجل مولانا يسوع، وعرض نفسه إلى مخاطر البحر، والحرب لصالحه، ومثل هذا التدين لم نكتشفه لدى البابا، وهو الشخص المتوجب عليه رفع شؤونه ومصالحه، وأن يحميه أثناء قتاله في سبيل الرب، لا أن يسعى إلى تدميره، واستبداله، ونحن لانرغب في أن نلقي بأنفسنا في مثل هذه المخاطر العظيمة، من أمثال الاقدام على قتال أمير عظيم وقوي مثل فردريك هذا المذكور، الذي هناك ممالك كثيرة سوف تساعدنا، فمن يرغبون في تقديم تأييدهم لقضية عادلة، وهل سوف يكون الجود بسفك دمائنا، مسألة لها أهميتها لدى الرومان، طالما أرضينا غضبهم؟ وإذا ما كان البابا سيقوم بالتغلب عليه بوسائلنا، أو بمساعدة الآخرين، فإنه سوف يدوس على جميع أمراء الدنيا، مدعياً لنفسه التبجح والفخر، بما أنه قهر أميراً عظيماً مثل فردريك، ولكي لا نبذو بأننا تلقينا الوصاية البابوية، بمثابة رسالة فارغة، مع أن هذا واضح أنه صادر عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بسبب كراهية الامبراطور، وليس بسبب محبتنا، إننا سوف نرسل رسلاً حكماً من عندنا إلى الامبراطور، للقيام بعمل بحث دقيق، حول مواقفه من العقيدة الكاثوليكية، ومن ثم لنحصل على المعلومات من قبلهم، وإذا لم يكتشفوا شيئاً غير صحيح، لماذا بناء عليه تعريضه للانتقاص؟ لكن إذا ما اكتشفوا غير ذلك، إننا سوف نطارده ونعذبه ونعاديّه حتى الموت، لابل إننا نفعل هذا مع البابا نفسه، أو مع

أي مخلوق يفكر بشكل شرير نحو الرب»، ولدى سماع رسل البابا هذا الجواب غادروا باضطراب، وعند ذلك جرى ارسال رسل فرنسيين خاصين إلى الامبراطور ليخبروه بشذوذ الرسالة التي تسلموها من البابا، وعندما سمعهم الامبراطور، اعترته الدهشة تماماً نحو ضخامة كراهية البابا له، وأجاب بأنه كاثوليكي، ومسيحي، ويرعى مواقف وآراء صحيحة نحو جميع أركان الإيمان القويم، وأضاف قائلاً:

«إنه مما يرضي الرب أنني لن أتخلّى عن خطوات آبائي النبلاء وأسلافي، ولن أتبع خطوات هؤلاء المحكوم عليهم بالدمار، ليقم الرب بالحكم بيني وبينه الذي نال مني بدناءة وشوّه سمعتي في جميع أنحاء العالم»، ثم إنه رفع يديه نحو السماء، وهو يتنهد ويبكي ودموعه تتساقط وهو يدعو قائلاً: «لينتقم المولى، رب الانتقام، منه، انتقاماً عادلاً»، ثم إنه التفت نحو الرسل قائلاً:

«أصدقائي، وجيراني الأحباء، إنه مهما قال عدوي هذا، هذا المتعطش الساعي وراء دمي، إنني أعتقد الشيء نفسه الذي يعتقده المسيحيون الآخرون، وإذا ما أردتم شن الحرب ضدي، لاتندهشوا بأنني سوف أقاتل ضد الذين يهاجموني، لأنني واثق من أن الرب، الذي يحمي البريء سوف يحررني بقدرته من أعدائي، لأنه يعرف أن البابا في وضع المحاباة لأعدائي المتمردين، وبشكل خاص الميلانيين الهراطقة، ذلك أنه رفع، في غضبه، كعبه ضدي، وحاربني، وبالنسبة لكم أنا أدين بالامتنان، لأنكم قررتم قبل الاستجابة لطلبه، أن تتأكدوا بأنفسكم من حقائق القضية الحالية بوساطة أجويتي، وعلى هذا أجاب الرسل: «ليمنحنا الرب أن لا يدخل إلى قلوبنا قط التفكير بقتال أي مسيحي، من دون سبب واضح، وأن لاتثيرنا المطامح، لأننا نؤمن بأن مولانا ملك فرنسا الذي خط نسبه الملكي قد دفعه لتسلم صولجان فرنسا، هو أعلى

من أي امبراطور، لأنه الامبراطور يرفعه إلى منصب الامبراطورية مجرد انتخاب حر، وأنه يكفي الكونت روبرت أن يكون أخاً لمثل هذا الملك العظيم»، وبهذه الكلمات غادر الرسل، مع تمنيات طيبة، وشكر للامبراطور. وهكذا أخفق البابا الذي حاول أن يدفع بقضيته اخفاقاً كلياً.

البابا يستخدم كل مساعيه لجمع مال للدفاع عن نفسه

وسعى البابا بوسائل الاكراه والإثارة للناس بوساطة حجج مضاعفة، وعن طريق الدومينيكان والفرنسيسكان، الحصول على المال لنفسه، من أي مكان كان من الممكن الحصول عليه، وذلك في سبيل الحاق الأضرار بالامبراطور، وكان الدومينيكان والفرنسيسكان قد أصبحوا في هذه الآونة المستشارين الخاصين ومراسلي الملوك، فمثلما كان الذين يرتدون الثياب الناعمة من قبل في بيوت الملوك، هكذا صار هؤلاء الذين كانوا حينذاك يرتدون ثياباً خسيصة، في بيوت الأمراء، وغرفهم، وقصورهم، واستدعى الملك في هذا الوقت أخاه جون دي سينت جايلز (صنجيل) للاجتماع به للتشاور معه، واعترت الدهشة كثيراً من الناس، لأن البابا لم يحضر صلوات عيد الميلاد، حسبما قرأنا عن القديس بطرس عندما كان مودعاً في السجن.

الامبراطور يثني الصليبيين عن الإقلاع

وقام الامبراطور الآن، بوساطة رسالة، بنصيحة جماعة الصليبيين كلهم — مع أنهم كانوا مستعدين ووضح أنه تسبب بغضب شديد لهم — بأن ينتظروا بصبر، وأن لا يقوموا بالمغادرة نحو القدس، حتى يكون انفجار غضب البابا قد سكن، فوقتها سوف يتمكن بسرور من مرافقتهم، لأن هناك حشداً لا يحصى من الشعوب الشرقية، مستعدين بالسلاح للاصطدام بهم، وقد رفض البقية على كل حال الاصغاء

لنصيحته، فقام بناء على ذلك، الامبراطور، وهو مغضب، فمنع تزويد أية مواد غذائية، أو إيصالها إلى الجيش الفرنسي، مهما كانت الشروط، وذلك من مناطقه الحدودية المثمرة، أي من أبوليا وقبرص، وعندما سمع المسلمون بهذا، رفعوا رؤوسهم، وأصبحوا أكثر جرأة وأنزلوا أذى كبيراً بالصليبيين، بكل من أشخاصهم وممتلكاتهم، وبجرأة نشروا بينهم النار والقتل، وبالإضافة إلى رمياتهم الكثيفة، أقام الاغريق باباهم المضاد، في وجه الكنيسة الرومانية، وأقام الامبراطور أيضاً، في وجه البابا وضده، الراهب الياس، الذي كان لبعض الوقت رئيس رجال الدين، وواعظاً مشهوراً لدى طائفة الفرنسيين، وهكذا بدأت الشرور تتضاعف على وجه الأرض، لأنه حلل جميع الذين حرمهم البابا، وأثارت الكنيسة فضيحة كبيرة، لأنه بدسائس هذا الوكيل، باتت كنيسة روما مشهورة بتهم: الربا، والسيمنية، والسرقة، وتحول الأبناء ضد أزواج أمهاتهم، وأكد الراهب الياس المتقدم الذكر بأن البابا كان يصب غضبه ضد حقوق الامبراطورية، وأنه كان متعطشاً من أجل المال، وكان يستخرج المال بمختلف الحجج، وأنه كان لا يحضر الصلوات، والقداسات، والمسيرات، والصيام، التي من خلالها يتحرر المظلومون من مضطهديهم»، كما كتب: «حفظ، بناء عليه بطرس في السجن، لكن صلواتاً عملت من قبل الكنيسة من أجله من دون توقف، إلى الرب»، وأنه كان يمارس الغش بالنسبة للمال الذي جمع من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وأنه كان يقوم بشكل سري بختم مواد مكتوبة في غرفته، من دون الحصول على موافقة اخوانه، حتى أنه أعطى إلى رسله كثيراً جداً من البرامج الفارغة، وهي مختومة بختمه، أعطاها لهم على هذه الصورة، ليكتبوا عليها مايرضي رغباتهم، وهي رغبات كانت مرعبة، وقد وجهت إلى البابا وعملت ضده كثيراً من التهم الأخرى، رفعت صوته إلى السماء، ولذلك قام البابا بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بالياس المذكور.

صرف سيمون النورماني والراهب غيوفري من مجلس الملك

وفي العام نفسه، وفي أثناء الاحتفال بعيد الفصح وسط كثير من البهجة، تحول غناء المعلم سيمون النورماندي إلى نحيب، واحتفاله إلى بكاء، لأن هذا الرجل قد كان قبل وقت طويل مضى، سيداً، ليس فقط للمملكة، وللختم الملكي، بل أيضاً الحاكم على الملك نفسه، ومدبر الشؤون في البلاط، حيث كانت جميع القضايا تدار حسب ارادته، وكان رجلاً صارماً، يحصد حيث لم يزرع، ولم يحصل على حظوة بسبب فضائله، بل كان يحمل نفسه فوق نفسه، وكان يوماً إثر يوم يثير غضب وكراهية النبلاء ضده، وعندما لم يعد الملك قادراً على تحمل خساسته أي وقت أطول وعجرفته، أمر به بأن يطرد من بلاطه، وأن يلقي بأمتعته وخزائن ثيابه، وكتبه، وأرديته الثمينة، خارج بيت الملك، وبالإضافة إلى هذا، انتزع منه ختم الملك، وعهد به إلى رتشارد، راعي دير ايفهام Evesham، وكان رجلاً مستقيماً وبارعاً، وحذراً في إدارة الأعمال، وعندما كان الملك مثاراً بروح مشابهة، أمر بالراهب غيوفري، الداوي، بأن يصرف من بلاطه، وهي حادثة، كان كثيرون متشوقين إليها، وأصل غضب الملك هذا وسببه الرئيسي هو أن سيمون المذكور قد رفض التصديق على إجازة بغیضة، مضادة لكرامة تاج الملك، وكان القصد من الإجازة، هو أن توماس كونت أوف فلاندرز ينبغي أن يتسلم ضريبة عشر، قدرها أربعة بنسات مقابل كل جوالق من الصوف يجري حمله من انكلترا، خلال مناطقه، ولم يرض غيوفري الداوي بالموافقة عليها، مع أن الملك رغب بها وتشوق إليها.

رهبان وينكستر يحصلون على انتخاب حر من البابا

وفي هذا الوقت نفسه، حصل رهبان وينكستر، لدى رجوعهم من البلاط الروماني، من البابا، على أمر، بعدم انتخاب أي واحد أجنبي ليكون وصياً على أرواحهم، أو أي واحد يكون ممقوتاً من جماعة

المملكة، وذلك بناء على مبادرة قاسية من الملك، أو بناء على التماس ملكي، بل وفقاً لما هو عادل، وقانوني، وأن يعملوا انتخاباً — من دن فرض — لأي واحد يروونه مناسباً لأن يكون أسقفهم وراعيهم، وبناء على هذا اشتعل غضب الملك ثانية إلى درجة عالية، وكأنه لم يكن بإمكانه أن يعثر على أي واحد انكليزي مناسب لتلك الأسقفية، ومنذ ذلك الحين سعى رئيس الرهبان، الذي فرضه الملك عليهم، وشغل نفسه بكل يقظة لاضعاف ثبات الرهبان وليمزق الاتحاد السلمي لأولئك الذين وقفوا برجولة منذ ذلك الحين، إلى جانب مصلحة الكنيسة.

الامبراطور يوجه زحفه نحو المدينة

وعندما وجد الامبراطور في هذه الآونة أن البابا ليس فقط متعطشاً كثيراً يريد سفك دمه، بل يقف موقف المحاباة تجاه العصاة الميلانيين المراطقة، لأنه كان متشوقاً لتنفيذ اسقاطه المهين، لذلك أجل لبعض الوقت خطته المرسومة للحرب، وبجراحة اقترب من المدينة حتى يمكن أن يظهر بشكل مرعب أكثر، إلى رعيته، ولدى وصوله، خرج سكان فيتربو مع النبلاء ومع سكان المدن الأخرى المتميزة، ومع عدد كبير من الرومان، خرجوا إلى استقباله، مع كل احترام وتشريف، بحكم أنه مولاهم، ومن الممكن البرهنة على هذه الحقيقة من خلال رسالة بعث بها الامبراطور إلى ملك انكلترا.

رسالة الامبراطور إلى ملك انكلترا

«من فردريك، الذي هو بفضل الرب، أغسطس دائم، وامبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية، إلى الملك المشهور لانكلترا، ابن ختنه المحبوب، تحيات وعواطف مخلصنة:

إن اللدغات المضاعفة ثلاث مرات من الحزن التي تحرق قلوبنا

وتثيره، لا تسمح لنا الآن بالبكاء أكثر من دون انفجار حزننا الداخلي، على شكل آهات، وبعد ذلك انفجار آهاتنا على شكل عويل، وبالقدر نفسه بوساطة مواد خلاقات جديدة، التي إليها دفعنا البابا حاكم الكنيسة العالمية، بوساطة بعض وسائل الارغام العنيفة، ولقد اكتشفنا المضار التي لحقت بالإيمان الكاثوليكي، ذلك أننا شاهدنا بوضوح ونحن نتألم الظلال التي سوف تلقى على عدالتنا، وتألماً وأسفنا للخسارة التي سوف تعاني منها الأرض المقدسة، لكن نحن لسنا أقل تأثراً وتضرراً بهذا الحزن، حتى أن عيني الراهب ايلي صارتا لا تبصران، ولم يعد يعي أياً من هذه المخاطر، لأنه أثير بغضب شديد نحونا، وصار مربوطاً بمشاعر كبيرة من التعاطف مع الميلانيين ومع محرضيهم، الذين ثاروا ضد الامبراطور، ذلك أنه مع أن العالم كله بات عرضة لوقائع متوالية مشكوك بها، أو بالحري إلى مخاوف الحظ، نهض ليدوس على عدالة الامبراطورية المقدسة، وليقدم المساعدة إلى رعايانا الميلانيين المتمردين، غير أننا لم نطعن بلدغة صاحب ضمير مجرم في هذه القضية، كما أننا لا نتوقع الحكم المضر لسمعتنا، لأننا منذ وقت طويل تمكنا بوساطة الالهام الرباني لضغوط هذه المخاطر، وبشكل دائم، من تجنب السبب الحالي للفضيحة، وقد سعينا بوساطة جميع الامكانيات التي توفرنا لقدرتنا، أن نحصل على حظوة هذا الخبر الأعظم، لكن عبثاً كان ذلك، حتى أنه لم يوفر تعبنا الشخصي، ولم يهتم بخسائرننا لممتلكاتنا، وغنائساً كثيراً ما عرضنا حياة رعايانا المخلصين، بحرية، في سبيل مسرعة مدته، ومساعدة الكنيسة الرومانية، لكن [ونحن نحكي هذا بأساً] أثناء الوقت كله لصراعاتنا، لم نتلق أي شيء منه، ولا حتى علامة من علامات العاطفة، قد دفعت لنا من أجل طاعتنا، بل إنه عارض دوماً بنفسه تقدم الامبراطورية المقدسة، وأعاقها، هذا والذي ينبغي ويتوجب عده أكثر وحشية لكل واحد، هو أننا عندما كنا مشغولين بخدمة الكنيسة المقدسة، كما هو مبرهن بوضوح من خلال

رسائله، قام بانتزاع مدينة كاستيلانا وسلبها من الامبراطورية، وكانت كاستيلانا هذه قد حولت إلينا مؤخرًا، ولم نتمكن في ذلك الحين — على الرغم من جميع شكاياتنا — من الحصول على أي شيء لصالحنا، أو لصالح الامبراطورية، وقام بعد ذلك بوساطة رسائل سرية معارضة بتجريد النائب البابوي من جميع الصلاحيات، وهو النائب، الذي قال، بأنه أرسله إلى سورية، للحصول على ترضية تجاه المضار التي أنزلت بنا، وبابننا، من قبل سكان عكا، ومن قبل بعض نبلاء مملكة القدس، كما أننا لم نستطع في الوقت نفسه بالذات، الحصول على أية رسائل منه لمنع الميلانيين، من مهاجمة سكان كريمونا، الذين كانوا مخلصين للامبراطورية، ولامنع الفلورنسيين من إلحاق الأذى برعايانا البنادقة المخلصين، علمًا بأنه لم يمنحنا الإذن بالذهاب لمساعدتهم، الأمر الذي رغبنا به، وكان ذلك حتى لانترك الكنيسة من دون دفاع، ومجددًا عندما كنا سائرين نحو ألمانيا، لضبط شرور ابننا الكبير، وعدنا بشكل مؤكد بأن يقدم لنا المحاباة في كل مجال، ومع ذلك قام بوساطة رسول من لدنه، يحمل رسائل اعتماد، بالفرض — بوساطة كل وسيلة وقدرة امتلكها — على المقدمين الذين كانوا موجودين معنا في البلاط في ميني Mayence، بأن لا يوافقوا ولا بأي شكل من الأشكال، على انتخاب ولدنا الأصغر، أو أي واحد من بيتنا ودمنا، ثم بذل بعد ذلك كل براعته وقدرته، في سبيل إعاقه تقدمنا في إيطاليا، من أجل اصلاح أوضاع الامبراطورية وكان ذلك بوساطة رسائله ورساله، وبشكل خاص بوساطة أسقف برانستي، الذي تمكن بكل براعة ومكر، من أن يكسب إلى جانبه بياسينزا Pierenza، ومانتوا Mantua، وأخيرًا عندما تمكنا بفضل نعمة الرب من الحصول على نصر على الميلانيين، بوساطة قتلهم، ولدى رؤيته أن رسائله السرية، مع نوابه البابويين، كانوا بلا فائدة بالنسبة له، وذلك بعد أن حقق سيف عدالتنا النصر على شروره المخادعة، بدأ بشكل أكثر علانية، بإلقاء المعينات في

طريق تقدمنا، ومنع بوضوح مكشوف سكان ونبلاء تخوم أنكونا Ancona، ووادي سبوليتو Spoleto من مساعدتنا، مع أن واجبهم كان مساعدة الامبراطورية وليس إلحاق الأذى بها، وأن يحاولوا القدوم إلى لومبارديا، أو أن يرسلوا عساكرهم إليها، كما أنه قام على الرغم من أمرنا وتحريمنا، ففرض على سكان أنكونا، والبلدات الساحلية الأخرى، وذلك تحت تهديد عقوبة الحرمان الكنسي وغرامة عشرة آلاف مارك، بأن يقدموا كل الأشياء اللازمة إلى البنادقة الذين كانوا ثائرين ضد جلالتنا، وهذا كله مبرهن عليه بوضوح برسائله، وإلى بعض نبلاء تخوم تريفيسو Treviso، الذي حوّلهم إلى ضعفاء ومتقلبين بولائهم إلينا، فبعث برسائل، وأمرهم بشكل مكشوف بالتخلي عن ولائهم، معطياً إليهم فهماً، أننا إذا لم نختر اسناد شؤون لومبارديا تماماً إليه، ووضعها تحت تصرفه، وسلطته، سوف يتفوه بشكل عاصف، بقرار حرمان كنسي ضدنا.

وبعد عقدنا مؤتمراً للتداول حول هذه القضايا مع مقدمينا المحبوبين تماماً لدينا، ومع آخرين كانوا آنذاك يساعدوننا أثناء حصار بريشيا Brescia، ورغبة منا (كما ذكرنا من قبل) بعدم قيام أية أسباب للخلاف بيننا وبين الكنيسة، أرسلنا سفراء خاصين من قبلنا إلى المقام الرسولي، وعرضنا من خلالهم تقديم ترضيات أيضاً من أجل بعض الذنوب التافهة، التي كما قال، قد اقترفت في مملكة صقلية مراغمة لحقوق ولا امتياز الكنيسة، وطالبنا مجدداً بوساطة الرسل أنفسهم، بأن يتم الاتحاد المرغوب بيننا وبين الكنيسة، وهو الاتحاد الذي غالباً ما حاولنا إقامته بوساطة عدد لا يحصى من الرسل، وقد طالبنا بتأكيد بوساطة الرسل، وبوساطة ضمانات متبادلة، وقد قال بأنه على استعداد للموافقة على هذا، وعهد بشكل الضمانات وصياغتها إلى حكمنا، ولكن عندما كان رسلنا ورسله، قد وثقوا تماماً بأن السلام والاتحاد قد تأسسا،

وكانوا عائدتين بنشاط وبهجة، إلينا، وصاروا جميعاً بعيدين عن مشاهدته، عهد بمنصب النيابة البابوية في لومبارديا إلى غريغوري دي مونت لونغو، الذي كان من قبل موضع ريبة لدينا ولدى أصحابنا، عندما تلقيناه بمشابة مجرد سفير بابوي بسيط في تلك المقاطعة، وهو — أي البابا — قد وعد باستدعائه من هناك، ولكي يضيف إلى شروره، أقدم عندما اكتشف أننا كنا بلا حرس، بحكم وثوقنا بوعود الاتحاد، فأمر باهلاطنا، من قبل بعض مقدمينا ورعايانا، وذلك بسبب بعض الذنوب، التي قال بأنها اقترفت من قبل موظفينا ورسلنا في مملكة صقلية، ومدينة روما، ضده وضد الكنيسة.

وبعدما أرسلنا إلى سيد هؤلاء المشرفين، بدلاً من أجل حكم أشخاص دينيين آخرين، جواباً كاملاً عن جميع هذه الأشياء، وحيث أننا كنا غير راضين بكل جواب من أجوبتنا عن كل عنوان، أضفنا ملاحظة عامة، بأننا نترك رغباتنا والجواب في كل شيء إلى حكمه، حسبما تأكد وأجيز بوساطة الرسائل والبراهين العائدة إلى القساوسة، الذين هم جميعاً أهلاً للثقة، وعندما أرسلنا رسلنا حول جميع هذه النقاط، لحمل أجوبتنا، وللقيام بترضية كاملة، مدعين بسلطاننا، لوضع حد لإجراءاته الماكرة ضدنا، قام في يوم أحد السعف، وهو يوم ليس بالعادة كلياً اتخاذه لإجراءات العقوبات، وعلى الرغم من ممارسات الكنيسة، قام بإجراءات حملة ضدنا وإلحاق الأذى بنا، وبما أننا عددنا مثل هذا الإجراء مليئاً بالطيش، وليس فيه عدالة، بعثنا برسائل إلى إخوانه، وإلى النواب البابويين، نطالب بعقد مجمع عام، نشترك فيه للبرهنة، بوساطة حجج واضحة وضوح النور، على انحطاط وفساد القاضي، وعلى براءتنا، وبناء عليه لن نقول فقط كيف ازدريت براهين براءتنا، بل سنذكر كيف أنه مراغمة لشرعية الشعوب، التي لاتسمح بإهانة السفراء أو الرسل، قام هذا الرجل، الذي يقدم نفسه على أنه «عبد عبيد الرب» فأمر برسلنا

المتقدم ذكرهم، الذين هم أساقفتنا، بإلقائهم بالسجن بشكل مهين جداً.

ثم، ليكن موضع انتباهك، فيما إذا كانت هذه الإجراءات جديدة ببابا، وفيما إذا كانت أعمالاً موائمة وفيما إذا كان يليق بواعظ أن يجر العدالة نحو الدمار، وأن يدوس عليها بقدمه، وأن يتجاهل حكم جميع العيون المؤمنة، حكماً لصالح شعب ميلان غير المخلص، لكن ومع جميع هذه الأضرار وعلى الرغم من أنه كان يتحرك ضدنا بطيش، في ظل روحه الغاضبة، لم نتعرض للإثارة حتى نتولى زيارته بالانتقام الامبراطوري، حتى أظهر نفسه، أنه كان مندفعاً نحو الأمام في سبيل تدميرنا دماراً كلياً وتحريرنا من ميراثنا الامبراطوري، ومثل هذا، وبالقدر نفسه، عندما كنا مقيمين في تخوم تريفيسو، من أجل تهدئة تلك المنطقة (التي وجدناها بسبب تمزقات قديمة مستمرة، ملطخة في كل مكان بالدم والقتل) قام بوساطة تقديم مبلغ كبير من المال، بإثارة مركز دي ايستي Este وكونت أوف سينت بونيفاسيو Bonifacio (الذي قام بالتآمر ضد حياتنا بناء على اقتراح الحبر الأعظم) وكذلك مدينة تريفيسو، للثورة ضدنا وضد الامبراطورية، كما أنه قام بوساطة بولص ترافيرساري Traversari —الذي كان من قبل واحداً من أكثر رعايانا إخلاصاً لنا، ولكنه فسد فيما بعد بوساطة البابا— وعن طريق وكالة الكاردينال النائب البابوي، فانتزع منا مدينة رافينا، وأخذها من التخوم، ومن الامبراطورية، ومع أن أميراً وحرراً، قد تسلم منهم يمينهم بالولاء له وللكنيسة، أمر أيضاً بالطرق العامة التي تمر خلال التخوم والدوقية، التي استولى عليها وانتزعها من الامبراطورية، بأن تغلق ضد الرسل الذين كانوا قادمين إلينا، وجالين الأشياء الضرورية إلينا وإلى جيشنا، وقام بعضهم بممارسة أعمال اللصوص وقطاع الطرق، فانتزعوا منهم جميع مقتنياتهم، وإلغائهم بالسجن فيما بعد، وقد فعل هذه الأشياء كلها، إما ليجيعنا ويبيع جنودنا، من الايطاليين والألمان، أو

ليرغمنا على رفع حصارنا عن ميلان، وعن نهب منطقة رعايانا المتمردين، ولم يكتف بهذا كله، بل أعلن صراحة عن نفسه قائداً للحرب ومقدمها ضدنا وضد الامبراطورية، متخذاً قضية الميلانيين والخونة غير المخلصين، قضيته، وحول بشكل مكشوف شؤونهم نحو مايتناسب مع فوائده، وعلاوة على ذلك عيّن قائداً على الميلانيين أو بالحري على الجيش البابوي، رجله المتقدم الذكر، غريغوري دي مونت لونغو، والراهب ليو، الذي هو كاهن طائفة الفرنسييسكان، اللذان لم يكتفيا بتقليد السيوف، واللباس نفسيهما السوايغ والدروع، واطهار نفسيهما، وكأنهما جنديان مزيفين، بل استمرا في ممارسة وظيفة منصبيهما في الوعظ، وفي تحليل الميلانيين وسواهم من ذنوبهم، أثناء قيامهما بتوجيه الاهانات إلى شخصنا، أو الذين هم أتباعنا، وفي هذا الوقت أيضاً، قام النائب البابوي، والراهب الفرنسييسكاني المتقدم الذكر، بتنصيب نفسيهما، حكماً وسادة، ضدنا وضد الامبراطورية، وقد فهمنا من هذا بشكل واضح، بأن البابا ليس فقط صديقاً للكفار، الذين أعلن عنهم صوت العالم أنهم هراطقة، بل أيضاً المؤذي للامبراطورية، والهادف لحرماننا من ميراثنا، والرجل الذي اغتصب الحكم الدنيوي والسيادة على ميلان، وبناء عليه، لقد أثّرنا إلى أبعد الحدود بهذه الخسائر الهائلة، وكنا مزعوجين جداً من هذا الأذى الكبير، ولذلك لم يعد بإمكاننا حبس أيدينا، بل حملنا السيوف والترس بشكل معلن، في سبيل دعم قضيتنا وقضية الامبراطورية، ضد عدونا المعلن، مواجهين قوة دنيوية بقوة دنيوية، كما أنه لم يعد بإمكاننا الاستمرار بإبداء العاطفة البنيوية نحوه، لأنه ليس فقط لم يبد نحونا العاطفة الأبوية، بل سعى لإيذائنا، ولحرماننا من ميراثنا، وهو متعطش بشكل وحشي يريد حياتنا ودمنا.

وبعدما أخضعنا بمساعدة الفرسان، ورماة القسي العقارة، جميع مقاطعة ليغوريا Liguria التي استسلمت لنا، وقمنا أيضاً أثناء

زحفنا خلال توسكانيا، بإصلاح الكثير من قوانين الامبراطورية، وبعثنا بولدنا المحبوب هـ. H. الذي هو الملك اللامع لتوري Torrees وغالبوري، سفيراً للامبراطورية المقدسة في ايطاليا، ليعيد تخوم أنكونا إلى ولائه، وقمنا نحن أنفسنا برفع نسورنا المنتصرة، ووجهنا زحفنا شخصياً نحو دوقية سبوليتو، والمناطق الملاصقة للمدينة، وباستثناء مدن قليلة، أعدنا المنطقة كلها التي عبرناها أثناء تقدمنا، والممتدة حتى فيتربو، إلى طاعتها الصحيحة للامبراطورية، وقد استقبلنا من قبل سكان فيتربو، ومن قبل سكان المدن والمناطق التي من حولها، والقائمة في أحوازها بأعظم اخلاص، وبذلك عندما أرينا عدونا قوتنا، استولى عليه الرعب، وخاف كثيراً من اقترابنا منه، ولم يصدق أنه يستطيع أن يخلص نفسه بوساطة توبة متأخرة، ووقع في أعماق اليأس، وفقد الثقة بقوته، عندما كان الشعب الروماني يصرخ فرحاً أثناء اقترابنا من المدينة، وقد تمكن بوساطة دموع حقيقية غزيرة جداً بشكل غير اعتيادي بالسيطرة على بعض الصبيان والنساء العجائز، ومعهم عدد صغير من الجنود المرتزقة، فحمل الصليب ضدنا، مؤكداً كذباً بمواعظه لهم بأننا كنا نسعى للقيام باجتثاث الكنيسة الرومانية، وخرق حرمة الآثار المقدسة لكل من الرسولين المباركين جداً: بطرس، وبولص.

وبناء عليه، فإن جلالتك، سوف —بفضل تقديركم الصحيح— تتفهمون زحفنا وتعذروننا، فالذي دفعنا إليه هو القذف الخبيث لعدونا، والذي حثنا عليه العدل وعلى تبنيه من أجل شرفنا وشرف الامبراطور، وبالقدر نفسه شرف ومكانة ملوك وأمراء الأرض، وأنت فوق غيرك من الملوك الآخرين، ينبغي أن تقف إلى جانب قضيتنا بمحابة أكبر، وأن تحافظ عليها بثقة أعظم، ولكونك شريكاً لنا في العبء كله والمكانة، قد جرى بثقة منا اختيارك —إذا كنت تتذكر، بشكل صحيح— لتكون حكماً في هذه القضايا، ولأنك أبعدت من قبل الحزب

المعادي، وذلك حتى تتمكن من حماية براءتنا، وعدالتنا الامبراطورية،
بغيرة صافية، وبضمير أكثر اخلاصاً. صدر في فيتربو».

ذعر العالم وتكريس بعض الكنائس

ولدى تداول أخبار هذه الأشياء، وانتشارها ومعرفتها في جميع أرجاء
العالم تلقت سمعة البابا وسلطته صدمة، وتناقصت كثيراً، ونشأت
فضيحة كبيرة، وبدأ رجال حكماء ومقدسون يشعرون بذعر كبير من
أجل شرف الكنيسة، والبابا، ورجال الدين كلهم، وصاروا يخافون أن
ينزل الرب في حالة غضبه العظيم بالناس جرحاً لا يمكن شفاؤه.

وفي هذه الآونة، في التاسع من آب، الذي كان يوم عيد القديس
رومانوس، جرى تكريس كنيسة ديرية في أبينغدون Abingdon،
من قبل روبرت أسقف أوف سالسبري، أسقف ذلك المكان، وجرى في
حوالي الوقت نفسه أيضاً، تكريس كنيسة في ويلز، وجرى في العام نفسه
تكريس كنائس: ايفهام، وغلوستر، وتويكبري Tewkebury،
وويكمبري Wicumbury، وبيرشور Pershore، وألدكستر،
ومعهم جرى تكريس كنائس أخرى في جميع أنحاء انكلترا.

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، مات في البحر،
روبرت دي ثوني، وكان رجلاً من أسرة نبيلة، وفي حوالي الوقت نفسه،
عندما كان أسقف لنكولن يتولى تعذيب كهنته، اشتكى واحد منهم،
أثناء وعظه بقداس إلى الناس، من الأسقف المذكور، وقال:

«ومع أننا يتوجب علينا التمسك بسلامنا، فإن الحجارة سوف ترفع
صوتها صارخة من أجلنا»، وحدث وقتها أن البناء الحجري لبرج
الكنيسة الجديدة في لنكولن قد انهار، وسحق الناس الذين كانوا تحته،
وبسقوطه اهتزت الكنيسة كلها، وتضررت، ونظر إلى هذا، على أنه نذير
سوء، ومع ذلك شرعوا بإعادة بنائه بشكل أفضل.

مذبحة التتار

وفي هذه الآونة، تعرض التتار، الذين هم عرق همجي من الناس، والذين هاجموا البلدان المسيحية، واقترفوا مذابح كبيرة، وكانوا يتجولون هنا وهناك في هنغاريا العظمى، للهزيمة، وأرغموا على التراجع، وقد قتل الشطر الأكبر من هؤلاء بحد السيف، وسقطوا أمام يد القدرة، لأنهم هوجموا من قبل خمسة ملوك مسيحيين ومسلمين اتحدوا لهذا الغرض، بفضل نعمة الروح القدس للرب، وبعد مقتل هؤلاء الهمج، أرسل ملكا داشيا Dacia، وهنغاريا بعض المسيحيين لسكنى البلدان، التي كانت قد تحولت إلى صحراء، من قبل التتار المذكورين، وذهب من داشيا وحدها أكثر من أربعين سفينة مليئة بهم.

وفي هذا العام نفسه، جرى الاستيلاء على مونت كازينو، وكان مكاناً لايرام، من قبل جيش الامبراطور، كما رويننا بشكل أوفى من قبل.

خسارة ملك قشتالة الكبيرة

وجرى في العام نفسه، الاستيلاء على مدينة بلنسية، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، من قبل ملك قشتالة، وبعد ذلك تابع الملك المذكور تقدمه ليلقي الحصار على اشبيلية، بحكم أنه حصل على ثقة كبيرة بنجاح مستقبلي من النصر الماضي، وبناء عليه ألقى الحصار على تلك المدينة، وهاجم سكانها بشدة، وفي أحد الأيام، بعدما رتب صفوف سراياه، وقام ببعض الحملات المميتة على سكان المدينة، خرج إليه مقدم المدينة، وكأنه يحمل نوايا مسالمة، ووعد بتسليم المدينة إلى الملك، على شرط توفير حياة السكان، لكن هذا كله عمل عن طريق الخيانة، ذلك أنه ألح على الملك وحثه على دخول المدينة شخصياً، لتسلم الولاء من الذين قرر سموه الملكي توفير حياتهم، ووضع الملك الثقة بكلامه وتهدياته، ودخل المدينة، لكنه ما ان أصبح داخل المدينة حتى أغلق

سكانها الأبواب، ورفعوا الجسور، وأحاطوا بالملك بسيوف مجردة، بالملك الذي كان محاطاً بعدد قليل فقط من الأتباع، حيث كان لا يخشى شيئاً من هذا القبيل، وعندما رأى الملك نفسه وأصحابه أنفسهم مطوقين من قبل الأعداء، وعرفوا أن القضية باتت قضية حياة أو موت، أوقعوا قتلاً كثيراً، وبقدر ما استطاعوا، ردأ على أعدائهم المتفاجرين، وبعد بعض الوقت ولأن أعداد أعدائهم تزايدت، لم يعودوا قادرين على متابعة تحمل ثقل القتال، وركزوا تفكيرهم فقط على كلمات النبي وصلواته: «يارب أنقذ الملك»، فقاموا بإبعاد ملكهم، وتمكنوا بشيء من الصعوبة من اخراجه من إحدى البوابات الخلفية، وبعد صعوبات جمة نجا هو وعاد إلى جيشه، الذي وجده ممزقاً إلى أبعد الحدود على أيدي الأعداء الذين هاجموا، وذلك وفق ما كان قد جرى إعداده من قبل، من قبل هؤلاء الخونة، وعلى كل حال، لدى رؤيتهم للملك، وهو سليم في بدنه، استردوا شجاعتهم، وهزموا أعداءهم، أما الذين كانوا محاصرين، وهم ملطخين بدماء أعدائهم، فقتلوا واتخذوا أسرى، وعاد الملك مع الذي بقي له من جيشه بشكل مضطرب إلى بلاده، وظل في الوقت نفسه أكثر استنفاراً وعزيمة في سبيل الصراع.

الملك يمنح نطاق الفروسية لبلدوين دي رايفر ويعطيه مرتبة الإيرلية على جزيرة وايت

سنة ١٢٤٠، وهي السنة الثالثة والعشرين من سني حكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في عيد الميلاد في ويستمنستر، حيث منح في يوم الميلاد نطاق الفروسية إلى بلدوين دي رايفر Rivers وكان شاباً لامعاً، وأعطاه مرتبة الإيرلية على جزيرة وايت Wight، وكان ذلك بحضور الإيرل رتشارد وبمبادرة منه، حيث كان بلدوين المذكور تحت عهده منذ سنوات طوال، وكان قد تزوج من أليس Alice ابنة زوجته ايزابيلا، التي كانت كونتيسة غلوستر من قبل.

انتخاب هيوچ دي بيتهل أسقفاً لكوفنتري

وتأكد في هذه الآونة انتخاب هيوچ دي بيتهل Pateshull, الأسقف المنتخب لكوفنتري، وقد كان في بعض السنين الماضية خازناً للملك، وقد سلك في عمله بشكل غير قابل للنقد، وكان عندما اتخذ كرسيه وجلس في الخزينة الملكية، قد ذهب إلى جميع بارونات ذلك المكتب، بطريقته المعتادة، ولدى قيام الجميع كي يدفعوا له الماركات المعتادة للتشريف، كان قد قال لهم:

«أصدقائي الأعزاء ورفاقي، وداعاً، إنني لن أتخلى عنكم قط، بل تخلت عن الخزينة فقط، فلقد استدعاني الرب، مع أنني غير جدير، لأتولى حكم الأرواح»، وقد خرقت كلماته تنهاتهم، فقام بتقبيلهم واحداً واحداً، حيث كانوا في الوقت نفسه يكون بانفعال وعاطفة بسبب مغادرته.

موت إيزابيلا زوجة الايرل رتشارد

وفي هذه الآونة حملت السيدة النبيلة ايزابيلا كونتيسة غلوستر وكورنول مريضة بشكل خطير لاصابتها باليرقان الأصفر، وقد وصلت إلى حافة الموت، ولدى اقتراب وقت تمدها (لأنها كانت حاملاً وقرية الولادة) أصبحت بلاشعور، وبعدما عانت من ضغط شديد جرى قص شعرها، وقامت باعتراف كامل بذنوبها، وغادرت إلى الرب مع ولدها الذي ولدته، فهو عندما وضح أنه لن يعيش، جرى تعميده ومنحه اسم نيقولا، وكان الايرل رتشارد قد ذهب في ذلك الحين إلى كورنول، وعندما سمع بهذه الحادثة، شرع يبكي ويتحب بمرارة، وقد حزن عليها حزناً عظيماً، وعاد بكل سرعة، وتدير دفن جسدها المحترم بكل تشريف في بيوليو Beaulieu, وهو بيت كان الملك جون قد أسسه وبناه، ومنحه إلى طائفة رهبان السسترشيان.

سماع صراخ مدهش في كثير من أجزاء انكلترا

وسمع في هذه الآونة، صوتاً مخيفاً، وكأن جبلاً ضخماً قد رمي بعنف عظيم وسقط وفي وسط البحر، وقد سمع هذا في أماكن كثيرة، كل واحد منها بعيد عن الآخر، مما أربع كثيراً الحشود التي سمعته.

شكاوى الأساقفة حول الظلم الذي لحق بالكنيسة

في ثمانية عيد الغطاس، اجتمع في لندن رؤساء الأساقفة، والأساقفة مع عدد كبير آخر من النبلاء، وكان النائب البابوي أيضاً حاضراً، وقد قدموا للملك شكاوى جادة عرضوها في بلاطه، حول المضار والمظالم، والأذى اليومي الذي ينزل بالكنيسة ويمارس ضدها، بوساطة آراء الملك غير العادلة، وأن ذلك جاء بمشابهة معارضة طائشة لصكوك امتيازاته ويمينه، وأنه لم يسمح للكنائس المحرومة من رعاتها باستردادهم، وباستعادة أنفاسها، وسبب ذلك هو استخراج مقتنيات الكنائس منهم، حيث أنه احتفظ بهم بين يديه لعدة سنوات، مستخدماً حججاً متنوعة، وهو لم يسمح بإجراء انتخابات قانونية، وقد أعلنوا جميعاً أنهم مندهشين كثيراً تجاه هذه الأضرار، التي تتضاعف يومياً، وقد نزل ذلك بهم عندما —الملك— أقسم مراراً على المحافظة على امتيازات الكنائس من دون خرق، وقد فعل ذلك، أثناء السماع، عندما كان شخصياً يحمل شمعداً، فوقتها تفوه جميع الأساقفة بقرار الحرمان الكنسي ضد الذي يخرق الامتيازات اللاهوتية، وفي أثناء إكمال إلقاء ذلك القرار، قام الملك مثل الآخرين فأدار الشمعدان نحو الأسفل وأطفأه، وكان هناك ثلاثين عنواناً في شكاوى الأساقفة ضد الملك، وذهبوا بعيداً إلى حد إعلان القرار المرعب والتفوه به ضد جميع مستشاري الملك، الذين كانوا يسعون إلى تحويل عقل الملك وإدارته نحو التجاوزات المتقدمة الذكر.

الحزن المضاعف لـ غ. G الإيرل مارشال

وجّه الملك في هذه الآونة اتهاماً إجرامياً ضد الإيرل مارشال، حول بعض الأمور الشاذة التي أعتقد أنه من الأفضل السكوت عنها، وعدم ذكرها، وبسبب هذه التهم أثير حزن المارشال إلى درجة مضاعفة، لأنه من الجانب الأول حزن لإعادة ذكرى وفاة أخته اللامعة، أي إيزابيلا المتقدم ذكرها، والآن بسبب إحياء اضطهاد الملك ضده، وجرى على كل حال تعيين يوم يقوم فيه بالإجابة على بنود الاتهام ضده، وكان ذلك في ثمانية الفصح، التي تدعى عادة بشكل عام باسم Pasucha Clausum

مذنب

وأثناء هذه الأيام، وبشكل محدد، خلال شهر شباط كله، ظهر نوع من النجوم كان مظلماً، في المساء، في الجزء الغربي من السماء، وكان يرسل أشعة نحو الشرق، وقد أعلن كثيرون بدون تردد أنه مذنب.

الامبراطور ينتقد الملك لسماحه بنقل مال من أراضيهِ

من أجل إلحاق الأذى بهما معاً

وقبل انتهاء أعمال المؤتمر المتقدم الذكر، قدم رسولان من عند الامبراطور إلى الملك، أرسل الامبراطور بوساطتهما رسالة إلى الملك مكتوبة، بأنه مندهش جداً لأنه سمح هكذا بشكل مهين للامبراطور للتعرض بصورة غير معقولة لعقوبة الحرمان الكنسي، في بلد هو أكثر البلدان تمسكاً بالمسيحية، وأن ذلك تم من دون أية معارضة من جانبه، ودون أن يتذكر المعاهدة والتحالف الذي دخلا به أثناء زواج ايزابيلا، التي هي الآن امبراطورة، وبذلك سمح لوضعه ولاسمه الجيد، كأمر أعلى، بالتعرض للذم، وبناء عليه طالب بطرد الذي ساعد على هذا العمل، أي النائب البابوي، الذي استدعاه الملك بشكل غير حكيم إلى

ممكته، بطرده من المناطق الانكليزية لأنه أعلن عنه عدواً له وكذلك لمملكة انكلترا، ذلك أنه جرف بشكل وقح جميع الأموال التي وصل إليها ومن كل واحد وصل إليه، وذلك من أجل إشباع نهم البابا، ولكي يلحق الأذى بالمقام الامبراطوري.

وإلى هذين الرسولين أجاب الملك، بأن واجبه كان إطاعة أوامر البابا والكنيسة، وأن يبادر إلى ذلك ويفعله، أكثر من طاعة أي أمير آخر في العالم، وبذلك يستطيع أن يبرهن بأنه تابع اقطاعي للبابا يؤدي إليه الجزية بموجب الامتياز، وهكذا بقيامه بهذا الاعتذار، قد جلب الاتهام ضد نفسه، وأمل بأن يحصل على رضا الامبراطور، فكتب إلى البابا يرجوه بحرارة، بسبب عواطف الامبراطور نحوه وقربته، أن يتعامل معه باللطف، وعندما وصل هذا إلى البابا، انفجر غاضباً بعنف وتفوه بكلمات الملامة التالية:

«في الحقيقة لا يمكن العثور على رجل صادق واحد في انكلترا»، وكان رجلاً واقفاً هناك، فعقب على كلامه وكأنه يدافع عن الملك، حيث قال:

«أيها الأب المقدس، حول هذا لاتعجب، إذا لم يضع ملك انكلترا الثقة في رعاياه الانكليز، بل وضعها في الأجانب، لأنه لا يوجد بين الانكليز واحد أهل للثقة»، ويقال بأن الرجل الذي تفوه بهذه الكلمات، هو سيمون النورماني، واستثير المعلم روبرت دي سمر كوت Smer Cote وغضب غضباً عظيماً بسبب الكلمات التي جرى تبادلها من على الطرفين، لكنه —بحكم كونه رجلاً حكيماً— ضبط نفسه، خشية أن يتولى النقد، لأنه كان رجلاً انكليزياً من حيث المولد، لكنه مرتبط باخلاص إلى البابا، الذي عمل منه كاردينالاً، على الرغم من جميع الاعتراضات عليه.

النائب البابوي يرفض العودة إلى وطنه على الرغم من انذاره بفعل ذلك

وصار الملك، يتوقع، نتيجة لما حصل، وقوع شيء في المستقبل له، لأنه اتخذ صديقاً مقرباً إليه من مثل هذا العدو السري للمملكة، أي النائب البابوي، لذلك نصحه بإخلاص، بعدم إثارة غضب الجلالة الامبراطورية بالاقامة مدة أطول في المملكة، بل عليه عبور الألب في أقصى سرعة ممكنة وفي أقرب وقت، والقيام بالتشاور مع البابا، وعلى هذا ردّ عليه النائب البابوي قائلاً:

«إنك أنت الذي دعوتني من بلاطي، وأنا أطالبك بأمان، حتى أتمكن من العودة سالماً»، أما بالنسبة لرسولي الامبراطور، اللذين أشرنا إليهما من قبل، فإنهما عندما علما بجميع هذه الأشياء، عادا إلى مولاها لإخباره، بجميع مآراياه وماسمعه، لأنها كانا أشبه بجاسوسين عاقلين.

النائب البابوي يظهر نفسه جامعاً للمال لا يتعب

ولم ينس النائب البابوي، في الوقت نفسه، عمله الخاص، بالاستيلاء على الأموال وعلى الموارد لصالحه الشخصي، مرغماً الناس على أن يدفعوا ضرائبه الاضطهادية، وفي حوالي أيام عيد بشارة القديسة مريم، أرسل أوامر دقيقة إلى الأساقفة، ورؤساء الشمامسة، كان نصها هو التالي:

رسالة النائب البابوي

«من أوتو، الذي هو برحة الرب، إلخ، إلخ، إلى الرجل المستقيم، كذا وكذا أسقف، أو رئيس شمامسة، تحيات:

تقديراً لحكم الضرورات، ولرسالة أرسلت من الخبر الأعظم، نحن سنطيل إقامتنا هنا، وبما أننا لانستطيع القتال على نفقتنا الذاتية، نحن نأمركم ونطلب منكم، بموجب سلطات المنصب الذي نشغله،

وباسمنا، أن تتدبروا جمع أموال الوكالات التي هي حق لنا في أسقفيتك، أو رئاسة أسقفيتك، وأن ترسل إلينا بأسرع وقت ممكن، وضبط جميع المعارضين بوساطة الروادع الكنسية، شريطة أن لا تتجاوز كل وكالة، في أي حال من الأحوال، مبلغ أربعة ماركات، وإذا لم تتمكن كنيسة واحدة من تقديم مبلغ وكالة، يتوجب اتحاد كنيستين مع بعضهما بوكالة واحدة.

صدر في لندن، في هذا اليوم الخامس عشر من شباط، في العام الثالث عشر من حبرية صاحب القداسة، البابا غريغوري».

في سبيل استخراج المال الرومان يعفون الصليبيين من عهدهم

تلقي في هذه الآونة، النائب البابوي أوامر من البابا، بموجب خطة مأكرة أخرى، لاستخراج المال من أتباع الكنيسة، وهذا ماتوضحه محتويات الرسالة التالية، إلى القارئ الحريص:

«إلى الأسقف كذا وكذا، وإلى جميع أولاده المحبوبين، وإلى رؤساء الشمامسة في أسقفيته، تحيات:

لقد تلقينا رسالة من صاحب السمو النائب البابوي، مقصدها ومحتواها هو مايلي: من أوتو، إلخ: لقد عرفنا بأن بعض الصليبيين من مملكة انكلترا، الذين هم غير لاثقين للقتال، قد ساروا إلى المقام الرسولي، حتى يجري هناك تحليلهم من عهدهم للصليب، وبما أننا تلقينا مؤخراً رسالة من البابا، بأنه يتوجب علينا ليس فقط تحليل هؤلاء الأشخاص، بل أن نرغمهم على انقاذ عهودهم، ونحن نرغب أن نوفر عليهم الاضطراب والنفقات، بموجب فضيلة المنصب الذي نشغله، ولذلك نطلب منكم، ونأمركم أيها الأب المقدس، بأن تتولوا الإعلان عن السلطة التي منحت إلينا من قبل الخبر الأعظم، من دون تأثير في أسقفيتكم، حتى يتمكن الصليبيون المتقدم ذكرهم من نيل

الفرصة المتوفرة، وأن يقدموا إلينا لتسلم المنفعة في هذه القضية، وفقاً للصيغة التي أرسلت إلينا. صدر في لندن في الخامس عشر من شباط، في العام الثالث عشر من حرية صاحب القداسة البابا غريغوري».

الإيرل سيمون يحضر نفسه من أجل رحلته إلى القدس

في الأول من نيسان لهذا العام، وصل سيمون دي مونت فورت، إيرل ليستر، واستقبل بتشريف كبير من قبل الملك، ومن قبل بلاطه، ثم إنه ذهب نحو ممتلكاته، وباع غاباته وأراضيه، وجمع المال لشراء الضروريات من أجل رحلته، لأنه كان على وشك المغادرة إلى القدس، في العبور المقبل، أما زوجته التي كانت حاملاً، فقد بقيت في القارة، ثم باع الإيرل الغابات الفخمة العائدة لليستر إلى الاسبتارية، وإلى كهنة ذلك المكان، وتسلم حوالي الألف باوند من أجلهم.

خلاف بين سكان أوكسفورد والباحثين فيها

وفي تلك الآونة نفسها، نشب خلاف جاد بين الباحثين في أكسفورد وبين سكان المدينة، وبناء عليه، غادر عدد كبير من الباحثين تلك المدينة وذهبوا إلى كليات كمبردج، حيث حصلوا على منحة بعض الامتيازات ضد البورجوازية، وحصلوا على صك الملك من أجلهم.

منع بعض القرصان من الدخول إلى انكلترا

وفي هذه الآونة أيضاً، كان الملك متيقظاً، فقد فتح عينيه، ومنع القرصان من الدخول ثانية إلى ممتلكاته، وبشكل خاص شعب السين Sens، الذين لوثوا بلاده الجميلة، بوساطة مصادراتهم غير العادلة، ورباهم السري، ولقد غضبوا وحزنوا لمجرد التفكير بفقدان مثل هذه البلاد المغذية الجيدة فقاموا عن طريق تقديم الأموال، الأمر الذي يرضي بالعادة الرجال الأشرار وغير العادلين، فبقوا هناك بشكل سري،

وبأعداد كبيرة.

وفاة للويلين ونشوب خلاف بين أولاده

في الحادي عشر من نيسان من هذا العام، الذي وافق عيد القديس غوثلاك Guthlac، غادر الجسد للويلين، أمير شمالي ويلز، وكان ذلك بعدما أخضع غريفين Griffin، الذي رفع كعبة وشن الحرب ضده، وبعدما نشر السلام في المناطق الويلزية العائدة له، وإثر وفاته، قام ابنه داوود الذي إليه عيّن والده امتلاك ويلز، ولتكون ميراثه، وذلك مع موافقة أخيه الأسن غريفين، قام بنوايا خيانية، فاستدعى أخاه —غريفين المذكور— للاجتماع به، وبناء عليه، قدم بشكل مسالم، تحت جوار أسقف بنغور Bangor وبعض النبلاء الآخرين، ولكن داوود على الرغم من علاقة الأخوة، ومن الثقة الحسنة، أمر به فاعتقل، وأودعه السجن على الرغم من اعتراضات الذين منحوه الجوار.

الملك يتدبر تدشين ولاية ابنه ادوارد

وفي هذه الآونة جعل الملك سكان لندن، والمتولين للموانئ الخمسة، مع عدد كبير آخر، يقسمون يمين الولاء إلى ابنه الأسن ادوارد، وكانت في هذه الآونة أيضاً قد راجت تقارير أفادت بأن الداشين Dacians يعدّون العدة لغزو انكلترا، لكن هذه الأخبار صدرت عن شيء لم يتجاوز أنهم كانوا، يستعدون في سفن محملة بالناس من كلا الجنسين، لسكنى المنطقة التي تعرضت للدمار على أيدي التتار، وزراعتها، وإعادة استخدامها للاستخدام من قبل المخلوقات البشرية.

تحليل بعض الصليبيين من عهودهم بدفع مبلغ من المال

بدأ الآن رهبان ووعاظ الفرنسيسكان، ورجال دين آخرون، ولاسيما اللاهوتيون، بتحليل الصليبيين من عهودهم، مقابل تسلم مبلغ من المال

من كل واحد منهم، بدا أنه كان معادلاً لما كان سيفقهه الصليبي لشراء الحاجات الضرورية لرحلته، ونتج عن ذلك قيام فضائح كبيرة وانشقاقات كثيرة بين الناس، لأنه بدا أنه من غير المعقول، حتى بالنسبة لأبسط الناس عقولاً، المصائد المتنوعة التي سعى البلاط الروماني بوساطتها لتجريد شعب الرب الساذج من حاجاته الأساسية، حيث كان يسعى وراء شيء واحد فقط هو الذهب والفضة.

البابا يستخرج جزء الخمس من ممتلكات المنتفعين الأجانب في انكلترا

واقترح البابا الآن، وقرر استخراج جزء الخمس من ممتلكات وموارد منافع الأجانب ورجال الدين في انكلترا، في سبيل اغضاب الامبراطور، الذي كان محاطاً بالمخاطر من جميع الجهات من قبل أعدائه، الذين دعمهم البابا بالمال الذي جمعه عن طريق الاستخراج في انكلترا، كما أنه تابع العمل في تحليلهم جميعاً من التبعية التي كانوا مربوطين بها بالولاء للامبراطور المذكور، وبذلك ثبتت هذه العداوة المرعبة، وازدادت يوماً إثر يوم، وأيضاً قال المستشارون المخلصون للملك:

«مولانا الأكثر شهرة وسيدنا، لماذا سمحت لانكلترا لأن تكون مسلوبة ومنهوبة من قبل هؤلاء الذين قدموا إلى هنا، وجعلتها مثل كرم بلا سور، نهباً لكل عابر، وأن يتعرض للاجتثاث من قبل الأرانب البرية، مع أنك تمتلك امتيازاً فعالاً بمنع مثل هذه الاستخراجات في هذه المملكة، والذي هو غير جدير بذلك الامتياز، هو الذي يسيء استخدامه، بعدما منح إليه»، وعلى هؤلاء الذين نصحوه هكذا ردّ الملك قائلاً: «إنني لا أرغب كما أنني لا أتجرأ على معارضة البابا في أي شيء»، وبذلك استولى على الناس يأس محزن جداً.

قسوة الأنواء

في اليوم الذي أعقب عيد القديسين بيربتوا Perpetua وفيليسيئاس Felicitas (٧- آذار) هبت عواصف من الريح قوية إلى أبعد الحدود وعنيفة، أحدثت الاضطراب في الأجواء كلها، وكان من بين نوادر عجائب الوقائع، أنها حملت حجرة، من الصعب على رجل قوي رفعها من على الأرض، حملتها من رأس الكنيسة إلى مسافة بعيدة جداً عنها.

النائب البابوي يسعى إلى إرغام الأساقفة

على دفع جزء الخمس من مقتنياتهم

اجتمع في هذا العام رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء رعاة الديرة مع بعض نبلاء المملكة، في ردينغ، لسماع رسالة من البابا، أعلنها النائب البابوي، وعندما اجتمعوا كلهم هناك، قام النائب البابوي بعمل قداس طويل، حاول فيه استمالة قلوب الذين استمعوا إليه، ثم قام أخيراً فبين لهم جميع أنواع المصاعب التي يعاني منها البابا، في سبيل الحصول على العدالة للكنيسة، فطالبهم بإلحاح بدفع جزء الخمس من جميع مقتنياتهم، فبذلك يستطيع أن يصدّ الأذى الصادر عن مثل ذلك العدو القوي، وعلى هذا ردّ الأساقفة —بعد عقدتهم مؤتمراً للتشاور— بأنهم لن يستطيعوا مطلقاً تحمل مثل هذا العبء الثقيل جداً، الذي يتعلق بالكنيسة كلها أيضاً، من دون حوار دقيق، وتقليب لأوجه الأمور طويل، وبناء عليه جرى تحديد يوم لهم، في تاريخ بعيد، للحوار حول هذه الرسالة الهامة.

قيام الإيرل رتشارد بوداع الأساقفة الذين اجتمعوا في ردينغ

وقام الإيرل رتشارد، والفرسان الصليبيون الآخرون، الذين كانوا حضوراً في هذا المكان، فقالوا وداعاً لجميع الذين اجتمعوا هناك، لأنهم

كانوا جاهزين للشروع برحلتهم إلى القدس، وعندما رأى الأساقفة هذا، انفجروا كلهم ييكون، وقالوا للايرل رتشارد:

«لماذا أيها الايرل، يأملنا الوحيد تتخلي عنا؟ أو بسبب من أنت تهجرنا؟ سوف نكون معزولين من دونك، ففي أثناء غيابك سوف يغزونا الأجانب الطامعين»، ثم إن الايرل، ردّ وهو ييكي على واحد منهم، وهو رئيس أساقفة كانتربري مثلاً للجميع قائلاً:

«أبانا ومولانا، تريد الصديق، إنني حتى وإن لم أحمل الصليب سوف أذهب، وأغيب نفسي، حتى لأرى الشرور التي لحقت بشعبنا، ولا الدمار الذي ألمّ بالمملكة، الذي من المعتقد أنني قادر على منعه، مع أنني في الحقيقة، أنا غير قادر على فعل ذلك».

تكريس الهيكل الجديد

وجرى في هذه الآونة تكريس كنيسة الهيكل الجديد في لندن، وكانت مبنى مشيداً بطريقة رشيقة، وجرى التكريس بحضور الملك مع كثير من نبلاء المملكة، وفي اليوم نفسه، الذي كان يوم الصعود، وبعد الفراغ من الأعمال الوقورة للتكريس، جرت حفلة ووليمة كبيرة على نفقة الاسبتارية.

إعدام عدد من قطاع الطرق

وفي اليوم الذي أعقب هذا الاحتفال المهيّب، جلبت رؤوس عشرة من قطاع الطرق، كانوا قد اعدموا في المناطق الشمالية من انكلترا، إلى لندن، وكان واحد منهم اسمه جون أوف أكتون Acton، قد قيل بأنه كان مقدمهم وقائدهم.

وفاة إيرل وارني

ووقع في هذا العام وليم إيرل وارني Warrenne مريضاً في

لندن، وقد مات في السابع والعشرين من أيار.

جواب المحكمة حول الميراث الذي ينتقل إلى الأخوات

أرسل في هذا العام موريس فتزجيرالد، المسؤول عن العدالة في أيرلندا، أربعة فرسان إلى بلاط الملك وطالب بمعلومات حول القضية المذكورة أعلاه [فتلقى الجواب التالي]:

«من هـ . H بفضل نعمة الرب، إلخ، إلى المسؤول عن العدالة في أيرلندا، تحيات:

قدم إلينا مؤخراً بعض الفرسان من مقاطعة أيرلندا، وأوضحوا لنا بأن رجال عدالتنا، الذين يتجولون في تلك المناطق، هم غير متأكدين في القضية المتعلقة بالميراث الذي ينتقل إلى الأخوات في مملكتنا في أيرلندا، حيث توجب على الأخوات الأصغر أن يستحوذن على ممتلكاتهن من الأخت الأسن، وأن يقدمن الولاء من أجل حصصهن، أو من سيدهن الرئيسي، وأن يقدمن الولاء له، وبما أن الفرسان المتقدم ذكرهم قد سألوا عن العادة الجارية في مملكتنا في انكلترا في القضايا المماثلة، رأينا —بناء على طلبهم— أن نخبركم، بأن القانون في مملكتنا هو كما يلي:

إنه إذا ما كان هناك مستحوذ منا بشكل رئيس وكانت له بنات ورثة، سوف تكون إجراءاتنا عند وفاة الأب، هو أننا سوف نتسلم بشكل دائم الولاء من جميع البنات، وهن في هذه الحالة إفرادياً وجمعياً يستحوذن منا بشكل رئيسي، وإذا ما كن تحت السن، علينا تقع المسؤولية عنهن وكذلك تزويجهن، وإذا ما كن مستحوذات من أي شخص غيرنا، وكانت الأخوات تحت السن، فإن مولاهن يمتلك الوصاية وتزويج كل واحدة منهن، وسوف تقدم الأخت الكبرى فقط الولاء لمولاهن عنهن جميعاً وبالنسبة للأخريات، فعندما يبلغن السن، فسوف يقدمن خدماتهن إلى السادة أصحاب الاقطاع، بوساطة يد أختهن الكبرى، وسوف لهذا

السبب لن تفرض الابنة الكبرى الولاء، أو الوصاية، أو أي نوع من أنواع الطاعة الأخرى، على الأخوات الأصغر، لأن جميع الأخوات هن ورثة متحدين للملكية واحدة، وإنه إذا ماسمح للأخوات الكبار بتسلم الولاء، أو الوصاية من الأخوات الأخريات، فإن الملكية نفسها سوف تنقسم، وبناء عليه فإن الأخت الكبرى سوف تكون فوراً وبالوقت نفسه السيدة والوارثة لإقطاعية واحدة، أو على الأقل الوارثة لحصتنا وسيدة لأخواتها، وهذا أمر في هذه الحالة لا يمكن أن يكون، لأن الأخت الكبرى لا يمكن أن تطالب بأي شيء أكثر من الأخت الصغرى، ما لم تكن الدار الكبرى تحت عنوان الأسن، وإلى جانب هذا، إذا كانت الأخت الكبرى ستكون الوارثة لجميع الأخوات الأخريات، إذا ما متن من دون ورثة خاصين بهن، وإذا كانت تمتلك الوصاية على أخواتها، أو على أولادهن، فإن ذلك سوف يكون مثل إعطاء حمل ليجري اقتراسه من قبل الذئب، وبناء عليه إننا نأمر في هذه الحالة، بأن تأمر بمراعاة هذه العادة المتقدمة ذكرها كما نراعيها نحن في مملكتنا في انكلترا، وأن يجري الإعلان عنها، وتطبيقها بدقة، كما ذكرنا أعلاه، في مملكتنا في إيرلندا. شهدت بنفسني في نورويك، في هذا اليوم الثالث عشر من آب، في السنة الرابعة والعشرين من حكمنا».

إلغاء إدعاءات رئيس أساقفة من قبل الملك

كان في هذه الآونة، إدموند رئيس أساقفة كانتربري آملاً، ومتوقعاً بثقة، أن ينال المساعدة نفسها أو ما يماثلها، كما نالها الشهيد المبارك توماس —الذي هو سلف رئيس الأساقفة المذكور— من البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، فقد بدأ برسائل حزينة، وبرسل خاصين، بعمل شكاوى محزنة، بها كان واثقاً من التمكن من تحويل القلب الحجري للبابا إلى قلب حي، وقد رجاء وحثه على إلغاء تلك العادة المرفوضة والمدمرة للكنيسة، التي بواسطتها يقوم الملوك، لابل

الطغاة، ومن خلال أعداء الكنيسة والمتمردين ضدها، بعدم السماح للكنائس الكاتدرائية والديرية، المحرومة من رعاتها، بالتنفس، ولا أن تزود أنفسها بشكل حر وقانوني برعاية موائمين، وأن لا يقوم الملك، بإتباعه لرغباته بدلاً من إتباع عقله، بإعاقه انتخابهم، بوساطة وكلائه الماكين الذين احتفظ بهم من أجل هذه الغاية، وأنه إذا ما كانت هناك أية كنيسة بين الكنائس قد حرمت من راعيها وبقيت شاغرة لمدة ستة أشهر، يتوجب تزويدها براعي صاحب كفاءة من قبل رئيس أساقفة المكان، ولكن عندما كان إدموند المذكور كبير التوقع والثقة بأن يصبح —من خلال الوعود المخادعة للبلاط الروماني— توماساً جديداً، ومن خلال جهوده المجيدة، سوف يجري تدمير العادات الشريرة في انكلترا، وأن البابا غريغوري سوف يتقمص شخصية الاسكندر، بالنسبة لتوماس المبارك، الذي كان رفيقه بالمنفى ومساعدته، فلقد تبين أن البابا غريغوري المذكور هو رجل جبان، فبناء على رسالة وصلته من ملك انكلترا، أعلن فيها أن هذا كان معارضاً لكرامته الملكية، وقام بنقض جميع المقاصد التقوية لذلك الرجل وألغاه، وهو المقصد الذي كان رئيس الأساقفة المذكور، قد حصل من أجله على رسائل من البابا مقابل انفاق كبير من المال، ولدى اكتشاف الملك لهذا، أصبح طاغية أكثر مما هو معتاد، ففرض انتخاب بونيفيس Boniface، وذلك على الرغم من امتيازات كنيسة وستمنستر، وأعاق الانتخابات الأخرى التي عملت بشكل محق وبتقوى مهيبة.

رئيس الأساقفة يمنح جزء الخمس من جميع الموارد إلى البابا

وعندما كان في هذه الآونة عقل رئيس أساقفة كانتربري، الذي هو رئيس جميع الأساقفة، في حالة شك وأمل، بالنسبة للحصول على غاياته، أي الحصول على النصر في قضيته ضد الرهبان، وافق —وإن كان بغير رضاه— على طلب منح جزء الخمس من

موارده، وقام بمبادرة طيبة، فدفع إلى وكلاء الجباية البابوية، مبلغ ثمانمائة مارك، قبل استخراجهم منه بالقوة، وعندما رأى الأساقفة الآخرون لانكلترا هذا، كانوا مرغمين على تحمل خسارة مماثلة.

غاسكوني في خطر

وفي هذه الآونة، بعدما جرى طرد كافل المملكة في غاسكوني من تلك المقاطعة، قدم وهو يبكي ويشتكى إلى الملك، مخبراً إياه أنه ما لم يتخذ إجراءات فعالة سريعة، في سبيل الحفاظ على تلك المنطقة، وإبقائها بين يديه، إنه بلا شك سوف يخسر جميع ممتلكاته هناك في وقت قصير جداً.

الامبراطور يستولي أثناء زحفه إلى المدينة على عدة مدن أخرى

وكان الامبراطور قد عمل في هذه الآونة هدنة، أو على الأقل نوعاً من أنواع إيقاف القتال، مع الميلانيين والبولونيين، فعاث فساداً في المقاطعات الواقعة في أحواز المدينة، وكان محاطاً بجيش كبير، وأنزل المدن والبلدات إلى طاعته، وأخذ السكان مثلاً لهم بسكان فيترو، وفقد البابا آنذاك كل أمل ووقع في متاهة اليأس، وكثير من الكرادلة تخلوا عنه وهجروه، وفي الحقيقة لم يبق بينهم ولا واحد تابع اتباعه، باستثناء المعلم روبرت سمركوت Summercote، الذي لم يكن بإمكانه التخلي عنه خجلاً، لأنه هو الذي صنعه كاردينالاً، وجاء تخلي الكرادلة عنه، لأنه كان قد تطرف كثيراً بعنفه لوحده، بدلاً من ضبط نفسه بالعقل والحكمة.

الامبراطور يوجه اللوم إلى ملك إنكلترا لأنه سمح بنشر القرار ضده ويجمع الأموال في أراضيه

وفي هذه الآونة نفسها، أرسل الامبراطور رسالة إلى ملك إنكلترا بأنه

مندهش إلى أبعد الحدود، لأنه قام هكذا بشكل غير حكيم فوزع أمواله بين الأجانب، لإلحاق الأذى به، وهو الامبراطور، وكتب إليه رسالة جاء محتواها كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى السامع ملك انكلترا، تمنيات الصحة وعواطف صادقة:

بما أن التحالف والزواج يعقد التحالفات أحياناً بين ملوك وأمراء العالم، فإن العواطف، أو الاتحاد، بناء عليه، ينبغي أن يكون قائماً فيما بينهم، وذلك بنسبة تصاعدية، بما أنهم أعظم من الآخرين، وكلما ازدادت علواً المكانة التي وضعوا فيها، كلما توجب عليهم أن يضربوا مثلاً بالفضائل للذين هم دونهم، وعندما يشاهدون إجماعهم وإرادتهم الطيبة، فإن السلام والوثام يزداد قوة بين الناس، وبذلك يزداد الحفاظ على مكانتهم المحترمة وتزداد حقوق ممالكهم قوة من أجل المستقبل، ونحن نعتقد حتى الآن، أنه من خلال قرابتنا سوف تقوم المنافع من هذا النوع لكل منا ولكم، (ولاسيما وأن الأطفال، وهم الروابط المقدسة، سوف يرعون ويجري بهم تثبيت رباط قرابتنا) غير أننا وجدنا العكس تماماً لنوايانا، ولذلك إننا نكتب إليكم مكرهين، ونحن آسفين، علاوة على ذلك لقد وجدنا بأنكم عبرتم بعين الرضا واجتزتم بالأذى الواضح الذي أنزل بنا من قبل الحبر الروماني، والذي اعتقدناه أنه غير مؤيد تماماً، بالنسبة لنا نحن الذين فوق جميع أمراء الأرض الآخرين، هو أنكم سمحتم لقراره غير العادل والكريه ضدنا، أن يجري بمعرفتكم، وعلى مسمع منكم، نشره في جميع أرجاء مملكتكم، مما سبب ضرراً كبيراً، وإهانة، وحطاً من شأن الامبراطورية، والآن قد علمنا ما هو حقيقة مؤكدة، أنك في طاعتك المفتونة، لهذا العدو المميت لنا، والمتشوق لتدمير شرفنا، والمتعطش لدمنا، قد سمحت بموارد المال، من مكوس

وتبرعات، أن يزود بها، في سبيل القتال ضدنا، وذلك من كنائس مملكتك، ومن أسلافك (الذين تجبرنا مصاهرتنا على عدّهم أسلاف لنا أيضاً) التي أصبحت غنية من عطاياهم التقوية، وبناء عليه، دع حكمتك الملكية، عندما لا تكون منحرفة بوساطة النصائح الماكرة، تقدر فيما إذا كان لاثقاً بكم تعريض ابن ختن لكم، وأخ لكم، أو على الأقل حليف، أو في جميع الأحوال ملك أو أمير، ضده لم تعلن الحرب، تعريضه للهجوم، والحرب ضده بوساطة المساعدة بمالك، علماً بأن ذلك مخالف لشريعة وعادات الممالك، وماهي الفوارق فيما إذا كنت قد متنت دفاعات عدونا بالذهب والفضة أو بالسلاح من خلال وساطتك، أو أنك توليت الاضرار بنا؟ وخاصة كما نعلم من خلال التجربة أنك لا تستطيع إيقاف يد المساعدة له بشكل فعال عن طريق السماح بتزويده بالمال من مملكتك، الذي وعد بأن يجند به مرتزقة للميلانيين وللخونة الآخرين ضدنا، والذين يسعى بوساطتهم لاغواء أعواننا المخلصين لنا بالتخلي عن ولائهم لنا، وهكذا تمكن بالبرطلة والرشوى من شراء ولاء بعض ضعفاء الرجال، مما سبب الخط من سمعتهم واطهار ذلك، وليس أقل من هذا هلاكهم الأبدي.

وباسم الرب، لاتدع أيها الأخ العزيز، أن يتأسس بوساطتك — على أقل ليس ضدنا — قيام الملوك بشكل جائر بالقتال من قبل الملوك، كما عليك أن لاتدع نير الحكم البابوي يضغط بمثل هذه الشدة على عنقك الملكي، إلى حد يجعلك ترى أنه مما يبعث السرور العظيم في نفسك لاساءة إلى عقائد الانجيل، وقوانين الطبيعة، وإلحاق الأذى بجارك، بابن ختنك، لابل بأخيك، وبشكل خاص في الحالة الحاضرة، فأنت إذا اقامت بتقدير المسألة بشكل حكيم وعن قرب، فإنك سوف تجد قضية ليست لصالحنا وليست لصالحكم أنتم أنفسكم، ولا لصالحك والأمراء الآخرين العرضة للخطر نفسه.

وبناء عليه، إننا بهذا الغرض، نسألك بعاطفة صادقة، ونرجو جلالتك المخلصة، بحكم تقديرك لعواطفنا ولشرفنا، أن تقوم بشجاعة وبشبات، بأن تعارض ببراعتك وقوتك، تلك الإجراءات التي نخشى أنها سوف تلحق ضرراً كبيراً بقضيتنا، وأن لا تسمح بحمل أية أموال إلى البلاط الروماني، جيبت من الموارد، والضرائب، والتقدمات، أو من المصادر الأخرى لمملكته، وإنك لست أنت ولا هو لائق بك، أن تتغاضى أو أن تخدع، أو أن تمر عبر هذا دونما اهتمام، مثلما هو غير لائق بنا أن نقبل تقديم أية مساعدة يمكن أن تطلب منا، أو بوساطتنا لتستخدم ضدك، أو أن نسمح بتقديمها بأية طريقة من الطرق، وغير هذا، من الممكن في حالة مشابهة أو قضية أكثر عدلاً، أن نحتذي بمثلكم، فنقدم المساعدة ضدكم وضد مملكته، وهو مرفضناه حتى الآن، وتمنعنا عن تقديمه للذين لهم مشاكل معكم، وإلى الذين هم مرتبطين معنا بروابط عاطفية قديمة، وانظر إلى البابا، في متابعة الدفاع عن قضيتنا العادلة، قد وجد الخطوة لنفسه لديكم، في حين هو لم يقدم إليكم شيئاً ولا علاقة له البتة معكم، سوى أنه يتبجح — وهذا مانقله ونحن نشعر بالخجل — بأن له سلطة السيد الاقطاعي عليكم.

وفيما يتعلق بجميع القضايا التي جرى ذكرها أعلاه، وكذلك في سبيل تأدية خدمات أخرى لنا في أراضيك، قد أرسلنا هـ . H شالبوست Chalbost، وهو فارس، وتابع مخلص لنا، فهو الحامل لهذه العروض إليكم، ونحن نرجوكم بكل اخلاص، ونسأل عاطفتكم، أن تصدقوا من دون تردد كل مايمكن أن يقوله لكم باسمنا وبالنيابة عنا، كما لو كنا نحن أنفسنا موجودين، وأن تنفذوا مطالبنا، وأن تعطوه جواباً دقيقاً، ونهائياً، حول الذي قررتموه، وجرى ترتيبه من قبلكم بشأن القضايا المتقدم ذكرها، لأننا نرغب في حالات الطوارئ أن نكون على

دراية، وأن نعرف من الذي يمكن أن نتوقع منه النصيحة، ومن الذي ينبغي أن نكون حذرين منه».

وعلى كل حال جرى تشويه الرسالة الشفوية التي عهد بها الامبراطور إلى الرسول المذكور هـ . شالبوست، مع الرسالة ذات اللهجة الصديقة، التي أوردناها أعلاه، وكثير من الأشياء حذفت ولم تذكر من قبله، ومهما يكن من أمر، كتب الملك له جواباً، بيّن فيه أنه لا يتجرأ على معارضة البابا، وأنه مندهش إلى أبعد الحدود، أن أخته الامبراطورة، لم يجر تنويعها بعد بأبهة في الأماكن والمدن المعتادة للامبراطورية.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

قدم في خلال هذا العام، توماس كونت فلاندرز، الذي هو عم الملكة، إلى انكلترا بأبهة عظيمة، وكان ذلك بعد حصوله على إذن من الملك الفرنسي، ولدى وصوله، استقبل ليس فقط من قبل الملك ورجال بلاطه، بل من قبل حشد كبير جداً من سكان لندن، وهم على ظهور خيول مزينة بشكل فخم، مع الأبواق وكل مظاهر السرور والبهجة، وقد استقبل في لندن بكثير من التشریف، وأثقل بالهدايا، وأعطاه الملك على الفور خمسمائة (أو كما قال بعضهم ثلاثمائة) مارك من الأموال الاستيرلينية الجديدة، وعمل له منحة بالمبلغ نفسه سنوياً للعشرين سنة المقبلة، وذلك بتقديرًا للولاء الذي قدمه له الكونت المذكور، وبعد الفراغ من تسوية هذه القضية، توجه الكونت إلى ويندسور، ليزور حفيده الطفل ادوارد، ابن الملك، وعاد بعد هذا على الفور إلى فلاندرز، لأن الإذن بغيابه كان محدوداً بوقت قصير من قبل الملك الفرنسي، وعيّن قبل مغادرته المعلم هنري الفلاندري، وكيلاً له ليتسلم الهدايا التي منحت إليه، وقام الملك على الفور بمنح بعض الموارد اللاهوتية، فصارت فجأة من نصيب الكاهن هنري المذكور، ولدى تحميل الكونت

المذكور بالهدايا الثمينة من الملك، بدأ بإثارة الحرب في مقاطعاته، وحشد بعض الجنود المرتزقة والأتباع التي استأجرهم مقابل أجرة، وبعد حشده هكذا لجيش كبير، في وقت قصير من الزمن، هاجم الأسقف المنتخب للبيج، الذي كان من حزب الامبراطور، ومن أقربائه، وهاجم أيضاً بعض الآخرين التابعين للامبراطورية، الذين كانوا —بناء على أوامر الامبراطور— قد بقيوا مع الأسقف المنتخب المذكور.

كونت فلاندرز يشنّ الحرب على الامبراطور

وعندما سمع صاحب الجلالة الامبراطور بإجراءات الكونت، أرسل إلى المذكور رسالة تهديدات مرعبة، ليتوقف عن إجراءاته الطائشة والجرئية، وإذا لم يتوقف —وذلك على عكس ما يستحقه الامبراطور منه— وتابع مضايقته، وهو المنزعج بسبب كثير من القضايا القاسية، وباغضاب البابا له، وكذلك إذا لم يتوقف عن مضايقة حلفائه، وبشكل خاص الأسقف المنتخب للبيج، الذي هو صديقه وقريبه، والذي دعي إلى مقامه بشكل محق، وإذا لم يتوقف عن إثارة الاضطراب للامبراطورية، هو قد أمر أيضاً دوقي لوفيان Louvain وبرابانت وآخرين من الجيران الأقوياء، بالقيام بالتصدي لحملات كونت فلاندرز واضعافها، ثم إنه كتب أيضاً إلى كونت بروفانس، الذي كان من المعروف أنه من حزب الامبراطور، يأمره بحكم كونه حليفه المخلص بأن يتصدى لخطط كونت فلاندرز وأن يحبط محاولاته، وهي الخطط والمحاولات التي حرض عليها الكونت المذكور برعونة، ولكن بما أن هذين النبيلين: كونت بروفانس وكونت فلاندرز رفضا إطاعة أوامره، كتب الامبراطور إلى كونت طولوز، يأمره تحت طائلة آلام العقوبة المحقة، بأن يشن الحرب ضد كونت بروفانس، الذي تاه عجباً وصار عاصياً بسبب ابنتيه الملكتين، ورفض معاقبة كونت فلاندرز، وقام الامبراطور نفسه بإرسال مساعدة مؤثرة إلى كونت طولوز، من أجل

مضايقة كونت بروفانس، وقام النبيل المتقدم ذكره على الفور بإطاعة أوامره.

إخفاق محاولات كونت فلاندرز

ثم وجد كونت فلاندرز أن حملاته الطائشة والجريئة قد أخفقت في تحقيق الآمال الفعالة التي بنيت عليها، وأن قوة الامبراطور كانت أكثر ثباتاً ضده، وأصبح أكثر خوفاً من تهديداته، وقد أخبر بطرق عديدة بوفاة أخيه وليم، الذي جرى انتخابه من قبل حزب البابا، فأوقف بمهانة الحرب التي دخلها بشكل غير حكيم، وذلك بعد انفاقه مبلغاً كبيراً جداً، وبعدها أثار كثيراً من الأعداء ضده نفسه، ولأن الكونت المذكور كان عائداً لمملكة فرنسا، التي تدخلت وقدمت الحماية له، فقد أخفى مشاعره بالانتقام لبعض الوقت، مقررّاً — على كل حال — أن يسدد له في بعض الوقت المستقبلي.

الحرب بين كونتي طولوز وبروفانس

وكان كونت طولوز على استعداد أكبر لإطاعة أوامر الامبراطور، ومرد ذلك إلى الأذى الذي غالباً ما لحق به على أيدي الفرنسيين، وقد نهض وانبعث شخصياً بناء على استدعاء الامبراطور وزحف برغبة ونشاط ضد كونت بروفانس، الذي أنزل به أضراراً لاتعوض، وقام كونت بروفانس على كل حال بالفرار، ووضع نفسه تحت حماية الملك الفرنسي، ورجاه بتواضع، بسبب مكانة واحترام الملكة الفرنسية التي هي ابنته، بأن يعطيه مساعدة فعالة، لأنه يوجد في أفينيون وبشكل خاص في المقاطعات الواقعة على الرون، بعض النبلاء الفرنسيين، الذين قدموا إلى هناك مع لويس الملك الفرنسي، والذين كانوا قد استولوا بالقوة، على بعض القلاع، والبلدات، والمدن، وانتزعوها من لويس المذكور، وذلك بناء على تحريض من البابا وبمساعدة منه، ومايزالون يحتفظون بهم بالقوة، وهم منتزعين منه، وعندما سمع هؤلاء الرجال

بأن أبا الملكة قد نال السوء في الصراع، وأنه كان يستجدي المساعدة بسبب محبة الملكة، ولكي يتمكن من استرداد أنفاسه احتشدوا، وطاروا إلى السلاح، لمساعدة كونت فلاندرز، وكان كونت طولوز — على كل حال — على دراية بخططهم، فنصب كميناً لهم، وواجههم بقوة عظيمة، وقتل عدداً منهم بحد السيف، وصدّ محاولاتهم حسبما رغب وأراد، ونجحت الحملة على يديه نجاحاً كبيراً، حيث تمكن في وقت قصير من الاستيلاء على حوالي عشرين قلعة، وانتزاعها من الفرنسيين ومن كونت بروفانس، وبعد طرده للعصاة المتمردين لهم، أعادهم إلى حكمهم السالف.

ملك انكلترا يكتب إلى الامبراطور لصالح كونت بروفانس

وعندما سمع ملك انكلترا بأن كونت بروفانس قد عانى من خسارة كبيرة في هذا الصراع المدمر، قام بناء على ضغط ومبادرة من الملكة، فكتب إلى الامبراطور، بطريقة صديقة، ورجاه من أجل خاطر القرابة، التي هي بالعادة توحد الأمراء، وبحكم رحمته الامبراطورية، أن يقوم بتوفير كونت بروفانس والحفاظ عليه، لأنه والد زوجته.

الملك الفرنسي يشنّ الحرب على كونت طولوز

وعندما سمع الملك الفرنسي، القوي جداً، بالأضرار الكبيرة التي أنزلت برعيته، ولأنه اعتقد بأن هذه الأضرار قد نزلت به ولحقت من قبل الامبراطور، انفجر غاضباً بعنف، ضد الامبراطور، وكذلك ضد كونت طولوز، ورغب باستخدام كل الوسائل لترميم خسائره وأضراره، وأن يعاقب هذه الأعمال الطائشة، فقام بوساطة تراخيص ملكية، وبسرعة رهيبة، بحشد جيش كبير من نبلاء فرنسا، وذلك بقدر ما استطاع، ولكي لا يندفع هؤلاء النبلاء، وينزلقوا في صراع طائش متسرع، قاموا بتواضع مناسب، فسألوا الامبراطور نفسه، عما إذا كانت

الحرب قد تأصلت من قبله، وفي الوقت نفسه، وبسبب خسائر جيش الملك في الأرض المقدسة، ولكي لا يخسر البقية بالتعرض للجراحة، أرسل ملك فرنسا سبعمئة من الفرسان مع عدد أكبر من الأتباع لصدّ حملات الأعداء في بروفانس.

تبرئة الامبراطور

وهكذا وجّهت الملامة إلى الامبراطور، ووصل الأمر إلى حد اتهامه بالاجرام، فأنكر ذلك كله بشدة، وقال بأنه لم يخطر بذهنه قط، تعريض أي واحد من المملكة الفرنسية للأذى من قبله، لابل كان هو بالحري على استعداد للوقوف ضد أعداء تلك المملكة، وعن طواعية وبرجولة للقتال ضدهم، لأنه يعرف أنهم لا يستحقون شيئاً آخر منه، وقال بأنه «بعيد عن تعويض الخير بالشر، لكن إذا كان هناك بعض الأشخاص الفرنسيين المجاورين لأراضي كونت طولوز، قد قاموا إرضاء منهم للملكة بمهاجمة عدو أبيها، وذلك بشكل متسرع وبلا حكمة، وأقدموا من دون أمر من مولاهم الملك بشن الحرب علينا، فقام شعبنا الذي تعرض للأذى، بصدّ هذه الحملات، وانتقم للأضرار التي كانت غير متوقعة، فلا عجب في ذلك، يضاف إلى هذا أنه ليس هناك من شك، بأن الذين عملوا الشر أولاً قد أثاروا المخاطر الأولى، والأضرار الأولى، وبناء عليه يتوجب عليهم بقدر ماتوفر لديهم من قدرة، إعادة الممتلكات التي جرى الاستيلاء عليها من الجانبين، وعمل ترضية من أجل جميع الأضرار، حتى لا تتمكن بذور الخلاف التي زرعها عدو الجنس البشري من النمو والتكاثر بين مثل هذه الشخصيات المتميزة، ولكي لا يمتلك أعداؤنا المسوغ لتهنته أنفسهم بسبب خلافاتنا»، وعلاوة على ذلك صرح كونت طولوز إلى ملك فرنسا، بأن الامبراطور كان على غير دراية بما حدث، وبذلك برأه.

ولادة ابنة إلى الملك الفرنسي

ومنح الرب في هذه الآونة ابنة إلى الملك الفرنسي، من زوجته م. M، ليزيد من قوة مملكته وهنائها.

مذبحة مريعة للصليبيين في منطقة دمشق

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث في فرنسا، عانى قومنا —تحت طالع غير سعيد— من خسارة مخزنة لجيشهم في دمشق، وشملت الخسارة الرجال، والخيول، والسلاح، والكرامة، وهو مأسرويه بأسف، وكنا قد علمنا به من رسالة هي التالية:

«من الصديق كذا إلى الصديق كذا، تحيات: ليكون معلوماً من قبلكم بأن كونت بريتاني قد قام بغارة بوساطة الفرسان، أمام دمشق، وحصل على أسلاب كثيرة، جلبها سليمة إلى الجيش، وغار منه إيرلا: بار، ومونتفورت، ودوق بيرغندي، فقاموا بعد مضي ثمانية أيام بغارة أخرى، مراغمة لنصيحة كونت بريتاني، وفي هذه الغارة تعرض للقتل إيرل بار، واللورد سيمون دي كليرمونت، واللورد جون دي باري Barre، وروبرت ماليت، ورتشارد دي بيومونت Beaumont، وعدد كبير آخر، ووقع إيرل الماريك دي مونتفورت بالأسر، واقتيد بعيداً، وحمل إلى القاهرة، كما حدث أيضاً بالنسبة لدوق بيرغندي».

وفي الوقت نفسه، وصلت الرسالة التالية من إيرل أوف مونتفورت إلى زوجته الكونتيسة وقامت هي بتحويلها إلى الايرل رتشارد:

«ليكن معلوماً لديكم، أن دمشق لم يتم الاستيلاء عليها، كما ذكر من قبل، بل عاد الجميع إلى عكا، وإلى جانب هذا عليّ إخباركم بأن الملك الفرنسي قد نقل جميع أمواله من الهيكل، لأن الداوية والاستبارية قد رفضوا مساعدة الفرنسيين في هذه الأزمة، وينبغي أيضاً أن تعلموا بأن

ستين قد أسروا وهم أحياء، ثم بعد ذلك أثناء عودتهم، وقع عشرة نبلاء وفرسان واعددين في الأسر.

الامبراطور يحزن لسوء حظ الصليبيين

وعندما سمع الامبراطور بهذا، حزن كثيراً من أجل الصليبيين، مع أنهم رفضوا نصيحته الصحيحة بعدم الابحار من دونه، وكتب على الفور رسائل تهديد مرعبة إلى المسلمين في دمشق وكذلك في القاهرة، يمنعهم — إذا كانوا يقدرّون حياتهم — من الإقدام على إساءة معاملة النبلاء الصليبيين، العبيد المحبوبين من الرب، الذين يحتفظون بهم أسرى، خشية أنه عندما سينقض عليهم ويهاجمهم بقواته المرعبة، وبنسوره المخيفة والمتنصرة، وقتها سوف يشعرون بالانتقام الامبراطوري، وبغضب الرومان وامبراطورهم، الذي غالباً ماتلطخت سيوفه بالدماء الشرقية.

رسالة الامبراطور حول القضية المذكورة

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى هنري اللامع، ملك انكلترا، وابن ختنه المحبوب، تمنيات الصحة والعواطف الصادقة:

إن الكارثة العامة، وسوء الحظ المبكي للصليبيين، في مقتل الجيش النبيل للصليبيين، الذي وقع مؤخراً في بلدان ما وراء البحر، بانقلاب للحظ غير متوقع، نحن نبكي بحزن داخلي، وبإخلاص وباستحقاق أعظم، لأننا كنا نرى ذلك ونخشاه قبل مغادرتهم، وكان عقلنا يتوجس من المخاطر التي كانوا سيواجهونها، وكان حدسنا القائم على المواسم والأحداث، يقودنا، حتى عندما كانت أحوالهم متقدمة، لأن نرى سلفاً بمشاعر قلقة مصيرهم الحالي، ونحن نعتقد أنه ليس سراً بالنسبة لسموكم المخلص، كيف أننا حصلنا على خبرة حول مكر المسلمين، في

تلك البلدان في هذه الأيام، وكنا نرغب بتوقعات قلقلة أن نكون مستعدين للمستقبل، خشية أن يكون الحظ قد أعدّ لهم شيئاً ليس لصالحهم، وهم الذين كانوا جاهلين بالأعمال، ويقومون بالوفاء بعهودهم من دون التقصي المستحق والمتوجب، ولذلك قمنا بوساطة رسائل متوالية، ومبعوثين خاصين من قبلنا، فحثنا مقدمي الصليبيين، وبعد ذلك جماعتهم كلها، ليقوموا بتأخير موعد جوازهم، لأنه عندما تنهأ الفرصة المناسبة وتقوم، إما أن نكون نحن شخصياً، مستعدين لمرافقتهم وقيادتهم، أو اننا كنا سنرسل ولدنا معهم للانقاذ، وذلك فور تمكننا بأية طريقة من الطرق من تسوية الأعمال الصعبة، التي كانت آنذاك تتطلب اهتمامنا الطارئ في إيطاليا، لأنه ليس بإمكاننا توريط أنفسنا بشكل مفيد باهتمامات أخرى، حتى نتمكن من تحرير أنفسنا من الأعمال التي كنا متولين القيام بها، لأننا عندما نكون متحررين من المسألة الأولى، يمكننا بسهولة معالجة الثانية.

ومع أن الصليبيين أفراداً وجميعاً، قد قبلوا بنصائحنا الصحيحة، والتزموا بخطتنا، التي لم يكن لها غايات مأكرة أو سرية، حمل الحبر الروماني الحالي كلامنا وأعمالنا تفسيراً شريراً، وكأن الخطر سوف يحيق بديانتنا وبالإيمان الكاثوليكي، بتأخير القضية حتى وقت موائم، فحرض الصليبيين وحثهم بوساطة إنذارات متوالية، وأوامر وتهديدات حتى يقوموا بالعبور، وذلك وفقاً لكلمات الكتابات المقدسة: «وضع أعباء ثقيلة على الآخرين، وهي التي لا يمكنه أن يحركها باصبعه».

وعندما علمنا بهذا وعرفناه، قمنا بالتماسات متوالية، ورجونا الخير المذكور أن لا يثق بالتقلبات وأن لا يعهد لمخاطر الحظ مثل هذه المهمة العظيمة، التي تتطلب آراء محكمة، ووقتاً موائماً، واستعدادات عظيمة بالرجال والأشياء، وليس تسرعاً ليس حميداً، بتعريض خدمة يسوع المسيح للخطر، وكذلك مساعدة الأرض المقدسة، التي ألهبت قلوبنا،

وكذلك قلوب كثيرين، ومثل هذا العدد العظيم من الناس، ولفتنا انتباهه وذكرناه أن ترميم مثل تلك الخسارة الكبيرة وتداركها ليس أمراً هيناً، ورجوانه أيضاً أن لا ينظر إلى وعدنا بتقديم مساعدة كبيرة في هذه المسألة، على أنه كلام عابث، لأننا أملنا، بوساطة شخص ولدنا، الذي هو رعية لنا أن نتابع بكل جهودنا خدمة يسوع المسيح، والدفاع عن الأرض المقدسة، وتوليننا تذكيره بحقيقة أن السفك الهائل لدماء الصليبيين، في كثير من المعارك المتعاقبة في الماضي، قد حقق قليلاً — أو لم يحقق شيئاً — من المنافع في هذه القضايا، لأنها غالباً ما أعيقت بوساطة نقص الرجال والأشياء، وكانت الحشود في بعض الأحيان من دون قائد حريص وصاحب نفوذ، فبوساطته من الممكن أثناء قيام الخلافات بين عدة مقدمين، أو أن تقاعس واحد منهم قد يمنعهم من اغتنام منفعة الفرص المواتمة، أو توفر الحاجة لضبط سفاهة كثيرين، هو يمكنه أن يخدم مصالح كل من الحملة والأفراد، إذا ما احتفظ بالآراء الصحيحة من أجل لحظة مناسبة أكثر، ووقتها من الممكن عمل استعدادات وافرة، وتحت قيادة قائد واحد شديد، هو ضروري للحشد، يمكن وقتها للديانة المسيحية أن تتقدم أولاً بالوقت نفسه، نحو الغاية المرجوة، وأن تستقر واثقة بنصر مضمون.

وقد عدّ هذا الخبر الروماني جميع هذه الأشياء، بلا قيمة كبيرة، ونظراً لكراهيته لنا، ولكي يتمكن من تدمير العمل كله، أصر بعناد على الصليبيين بوجوب الاقلاع، من دون أن يعطي تقدير إلى ان الصليبيين الذين بقيوا في المناطق الأجنبية، كانوا مع أعداء الصليب المانح للحياة مستقرين بسلام تبعاً لشروط الهدنة التي عملت معنا، وأنه إذا ما خرقت المعاهدة بوساطة أية حركة من قبل الصليبيين، فإنهم سوف يتعرضون لمخاطر السيف والجوع، لأنه من غير الممكن ارسال مساعدة سريعة إليهم، أو تأمين المؤن إليهم.

وعلمنا أخيراً بأن البابا قد بعث ثانية رسائل إلى الصليبيين، يأمرهم بالقيام بالعبور، فكتبنا رسالة إليهم، بأن يقوموا بالزحف خلال مملكتنا إلى مكان ابحارهم، وأنا كنا مستعدين بسرور وبكرم لمساعدتهم إلى أقصى ما نمتلكه من قدرة، وقد عبر بعضهم من خلال مملكتنا في صقلية، ومن هناك أبحروا، بينما اختار آخرون العبور بوساطة طريق مرسيليا، ولهذا انتصرت الآن يد عدونا العام على مثل تلك الآلاف المؤلفة من الفرسان، الذين كرسوا أنفسهم لخدمة الأرض المقدسة، مع أننا ينبغي أن نبكي في مقتلهم من الإهانة التي أنزلت بيسوع المسيح شفيع البشرية، وأن نبكي على المسيحية كلها، ونحن نشعر في قرارة أنفسنا ونتعاطف مع ما عانوا منه، وللأذى الذي لحقهم، وبشكل خاص بسبب خسارة أولئك الجنود الشجعان من مملكة فرنسا، فهذه المملكة قد عانت من خسائر قاسية أكثر من البلدان الأخرى.

ونحن على كل حال لانسمح للخسارة أن تكون بلا وسائل تعويض، ولا للحزن أن يكون بلا مواساة، لأننا سوف نسهم بسرور وبكرم من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وسنقدم كل ما تسمح به عظمة الامبراطورية، وبقدر ما تأذن لنا الحالة العاصفة للأحوال في الوقت الحالي، التي تسببت بالنصيحة الفاسدة للحبر الروماني، وكذلك غضبه، ونحن نعتقد، لو أن سلطان مصر، والد السلطان الحالي، مازال حياً، لقام إنطلاقاً من عواطفه الطيبة التي اعتاد أن يبدىها نحو شخصنا الملكي، فتولى تلبية طلبنا بالنسبة لمسألة الفرسان النبلاء، الذي وقعوا أسرى أثناء الحروب، ونحن على كل حال سوف نستخدم اهتمامنا الخاص ووسائلنا مع السلطان الحالي، في سبيل اطلاق سراح هؤلاء الأسرى النبلاء، علاوة على ذلك نحن نرغب إليكم أن تضعوا ثقتكم الدقيقة وأن تعتمدوا على كل ما سوف يخبركم به عنا وليم دي كومبيسا Compesa، وهو فارس، ومن رعتنا المخلصين لنا، حيث أننا

اعتدنا أن نرسله في خدمتنا بمثابة رسول إليكم. صدر في فوجيا Foggia، في هذا اليوم الخامس والعشرين من نيسان، في العلامة الثالثة عشرة».

الامبراطور يسترد عواطف كثير من الناس وعقد مجمع عام

وعندما باتت محتويات هذه الرسالة معروفة، استرد الامبراطور قلوب كثير من الناس، مع أعداد كانوا من قبل متقلبين بعواطفهم واحترامهم له، وقد بدأوا بالوقوف إلى جانبه، وبدأ رجال الشعب الروماني — على الرغم من وعود البابا — يقفون ببات إلى جانب جلالته الامبراطورية، وأعطاه الشيوخ ذوي الأصول النبيلة المشهورة عهدودهم، واجتمع بناء على ذلك شيخ كان قد أوجده الامبراطور في روما في السنة الثالثة قبل هذه، والكرادلة، وأعلنوا أنهم ما عاد بإمكانهم تحمل عنف البابا، مما ألحق الخطر بالمسيحية كلها، ولذلك بيّنوا إلى البابا، بناء على طلب الامبراطور، وموافقته، أنهم استجابة لطلبه، يرغبون بعقد مجمع عام بشكل موائم في أسرع وقت ممكن، وتقرر أن يكون يوم الفصح المقبل الموعد لعقد المجمع، حيث بما أن الرب قد قام ثانية في ذلك اليوم، يمكن للكنيسة أيضاً أن تقوم ثانية في ذلك اليوم، وتتنفس بحرية، وبسعادة.

ختان صبي في نورويك من قبل اليهود

وفي هذه الآونة ختن اليهود طفلاً مسيحياً في نورويك، وبعدما ختنوه أطلقوا عليه اسم يورنين Jurnin، ثم إنهم احتفظوا به ليصلبوه، في محاكاة تأملية لصلب يسوع المسيح، وتمكن والد الطفل — على كل حال — الذي منه سرق اليهود الطفل، بعد بحث متواصل، وبعد طويل وقت من اكتشافه، حيث كان مسجوناً لدى اليهود، فصرخ بصوت مرتفع وأشار إلى ابنه، الذي اعتقد بأنه قد ضاع، لكنه كان محبوساً في

غرفة واحد من بيوت اليهود، وعندما وصلت أخبار هذه الجريمة غير الاعتيادية إلى علم وليم دي ريلي Rele، وكان أسقفاً، ورجل دين حكيم ويقظ، وإلى مسامع بعض النبلاء الآخرين، قام باعتقال جميع اليهود في تلك المدينة وسجنهم، حتى لا يتم إهمال هذه الإهانة الموجهة إلى المسيح من دون عقوبة من خلال إهمال المسيحيين، وعندما رغب اليهود في وضع أنفسهم تحت حماية السلطات الملكية قال الأسقف: «هذه قضايا عائدة إلى الكنيسة، وعندما تقوم قضية تتعلق بالختان وبإهانة الدين، فهي لا تقرر من قبل بلاط الملك»، وبناء عليه تبين أن أربعة من اليهود كانوا مجرمين باقتراف الجريمة المتقدم ذكرها، فجرى أولاً سحلهم بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، ثم جرى تعليقهم على المشانق، حيث لفظوا ما بقي من حياتهم التعيسة.

تكريس هـ . H بيت هول واستخراج الموارد

في الأول من تموز في هذا العام جرى تكريس هيوج دي بيت هول Pateshull، الأسقف المنتخب لكوفنتري ولشفيلد، وتولى التكريس إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، في رئاسة الرهبانية الجديدة قرب غولدفورد Guildford، وجرى تعيين وليم دي هيفرهل Haverhull، وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، خازناً في محل هيوج المذكور، وفي هذه الآونة أيضاً جرى عقد أكثر الاتفاقيات ظلماً بين البابا وبين الرومان (كما روي) وكان الاتفاق، أنه حيثما كانت هناك منافع في انكلترا، يمكن للبابا أن يوزعها، ولا سيما منافع رجال الدين، ينبغي توزيعها بين أبناء الرومان وأقربائهم، وفق رغباتهم، على شرط أن يقوموا برأي واحد ضد الامبراطور، وأن يسعوا لخلعه من العرش الامبراطوري، وهكذا استحوذوا لأنفسهم، السمعة المحترمة لجرأتهم القديمة، وبناء عليه، أرسل البابا، بعد مضي عدة أيام، تراخيصه المقدسة إلى إدموند رئيس

أساقفة كانتربري، وإلى أسقفى لنكولن وسالسبري، يأمرهم الإعداد لثلاثمائة روماني لشغل المنافع الأولى التي سوف تشغر، وجعلهم يفهمون أنهم معطلون عن إعطاء أية منفعة حتى يتم الإعداد بشكل موائم للعدد المطلوب، وتجاه هذا الأمر تملك الدهشة قلوب الجميع، وخافوا من أن الذي تجرأ على فعل مثل هذه الأشياء، سوف يغرق في أعماق اليأس.

رئيس أساقفة كانتربري ينفي نفسه

ورأى إدموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان قد خضع — بإرادة أو بدون إرادة — إلى الاستخراجات البغيضة، المتقدم ذكرها، ودفع ثمانمائة مارك إلى البابا، رأى الآن أن الكنيسة الانكليزية يداس عليها كل يوم أكثر فأكثر، وأنها كانت تحرم من ممتلكاتها، وتجرد من امتيازاتها، لهذا بات قلقاً من أن يعيش ليرى مثل هذه الشرور على الأرض، ولذلك بعدما طلب الإذن من الملك، وبعدما حصل على أجوبة غامضة، غادر البلاد، محزناً من قبل هذه الأضرار المتنوعة، وأبحر إلى فرنسا، حيث اتخذ مقراً له مع حاشية صغيرة في بونتني Pontigny، وهو مكان كان سلفه القديس توماس قد عاش به في منفاه، وشغل نفسه في الصلاة والصوم.

إصرار أحد الهراطقة

وفي هذه الآونة كان هناك رجل، قد تظاهر بأنه رجل شريف وصاحب حياة متشددة، وكان يرتدي ثياب طائفة رهبان الكارثوسيين Carthusian، وقد جرى اعتقاله في كمبردج، لرفضه دخول أية كنيسة، وعندما سئل عن هذا الجنون، أجاب بطريقة ملتوية، فجرى حبسه والتضييق عليه، وبعد مضي عدة أيام أرسل إلى النائب البابوي، من أجل سجنه في برج لندن، لأنه أعلن صراحة التصريح

التالي:

«غريغوري ليس هو البابا، وهو ليس رأس الكنيسة، بل هناك رأس آخر للكنيسة، والكنيسة قد تدنس، والخدمات اللاهوتية لا يجوز أن تعمل بها، ما لم يتم تكريسها من جديد، وكذلك أوعيتها وملابسها يتوجب إعادة تكريسها، فالشيطان قد أطلق سراحه، والبابا هرطقي، لابل إن غريغوري هذا الذي يدعى البابا، قد دنس الكنيسة والعالم»، وسمع النائب البابوي هذا، وكان ذلك بحضور ر. R راعي دير إيفهام، والمعلم ن. N دي فينهام Finham، مع المعلمين ب. P أوف بوردو، وهـ. H أوف سوسا Susa، وعدد كبير آخر، وقد قالوا لهذا الرجل المجنون: «أولم تمنح السلطة من عليين إلى البابا بربط الأرواح وحلها، وأيضاً بشغل منصب القديس بطرس على الأرض؟» وبينما كان الحضور ينتظرون جوابه، معتقدين أن الحكم عليه يتوقف على جوابه لهذا السؤال، عمل تأكيداً لكن على شكل سؤال حيث قال:

«كيف يمكنني أن أعتقد هذا برجل هو مجرم بالسيمونية، والربا، وربما متورط بجرائم أكبر، وقد منحت السلطة نفسها عندما منحت إلى القديس بطرس، عندما أصبح رسولاً للرب، وتبعه، ليس فقط في رحلاته وأسفاره، بل أيضاً في اشراقه وفضائله؟»، ولدى سماع النائب البابوي لهذه الكلمات أظهر علامات الخجل، وعمل واحد من الذين كانوا جالسين من حوله التعليق التالي:

الذي يتصارع مع الحمقى هو مطلقاً غير حكيم

فهو مثل الذي ينظر في الفرن حيث يجرح عينيه

وفتح هذا الرجل شفتيه الملوثتين بتجديفات أخرى، لأنه قال للذين استجوبوه:

«إنني أقر بجميع مبادئ الإيمان، ومع هذا أؤكد بأن المسيح أخذ شكل الجسد في العذراء»، وعندما سألوه عما إذا كان يعتقد أنه اتخذ شكل الجسد من العذراء، أجاب بعد بعض التردد: «هذا مالا أقوله»، ذلك أنه لو عمل ذلك التأكيد، لبرهن بشكل واضح على أنه هرطقي، وذلك كما قال الرسول: «ابنه عمل من امرأة»، وحول هذا النص قال الكاهن بيد المبجل:

«عليهم عدم الاصغاء إلى الذي يعد التفسير هو أنه: ولد من امرأة عملت في ظل الشريعة، بل عمل من امرأة، وهو الذي استمد الجسد في رحم عذراء، ليس من لاشيء، وليس من مصدر آخر، إلا من جسد أمه، وإذا كان الأمر غير ذلك لما كان قد دعي باسم ابن الانسان، بكل صدق، وذلك إذا لم يكن قد استقى أصله من انسان، وبناء عليه إننا نقف ضد مقاله يوتيخيا Eutyches، وجميع الأشخاص المفتونين على هذه الشاكلة، الذين أكدوا أنه لم يأخذ الجسد فقط في امرأة، بل من امرأة، هي العذراء مريم، ولو كان الأمر غير ذلك لما كان رحمها قد بورك، ولاثديها اللذين رضع منهما».

موت ج إيرل لنكولن

وفي الثاني والعشرين من تموز لهذا العام، الذي وافق عيد القديسة مريم المجدلية، غادر ج. ل. إيرل لنكولن طريق الجسد، بعدما عانى من مرض طويل.

الملك يرسل قضاة ليقوموا بجولة في إنكلترا

وفي هذه الآونة، أرسل الملك قضاة ليقوموا بجولة في جميع إنكلترا، وقد ارتحلوا وسافروا في جميع المناطق العائدة إلى الملك، مصححين تجاوزات الكثيرين، وتحت حجة إدارة العدالة، جمعوا مبالغ ضخمة من المال، من أجل استخدام الملك، الذي بدد كل شيء، وقد عهد بالأجزاء

الشمالية من انكلترا إلى كفالة وليم أوف يورك، رئيس كنيسة بيفيرلي Beverley وأتباعه، كما أنه عهد بالمقاطعات الشمالية إلى روبرت أوف ليكسينغتون Lexington وزملائه، وفي هذه الآونة أيضاً، أرسل النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال مع كاهن من عنده اسمه مومل Mumel، إلى البابا، الذي تسلمه بسرور، ثم أعاد الرسول ليتسلم المزيد.

استخراج بغيض للمال من قبل البابا

انبعث الآن في انكلترا طرائق جديدة، ولم يسمع بمثناها حتى الآن، لاستخراج المال، لأن أبانا المقدس البابا أرسل مستخرجاً للمال اسمه بطرس لي روج Rouge، إلى انكلترا، وكان بارعاً في استخراج المال، بطرائق لا يمكن تصورها، من الانكليز التعمساء، فقد ذهب إلى مقار هيئات رجال الدين، وأرغمهم أو أكرههم على الوعد بالمال، وعلى دفع المال عندما وعدوا، وذلك مثل بقية القساوسة، حيث أكد كاذباً بأنهم دفعوا المال برضاهم، ذلك أنه قال:

«إن الأسقف كذا والأسقف كذا، وكذلك راعي الدير كذا وكذا، قد لبوا طلباتي بإرادتهم، فلماذا أنتم هكذا متقاعسين كسالى، وكأنكم تريدون فقدان شكركم ومثوبتكم؟» وجعلهم هذا الأفاق أيضاً يقسمون أنهم سوف لن يعلموا أي شخص خلال مدة نصف عام، بطرائق استخراج المال التي مارسها، وبتصرفه هكذا تبع خطة لصوص البيوت الذين يستخرجون الوعود من الفئة المنهوبة، بعدم الكشف عن أسماء الذين سرقوهم إلى أي واحد، لكن صحيح أن الرجال سوف يلتزمون بالصمت، إن حجارة الكنائس سوف تصرخ عالياً ضد الذين يسرقونها، كما أنه من غير الممكن إبقاء هذا العمل الشرير في الظلام، لأنه إلى متى يستطيع القساوسة استخراج المال من الذين هم رعية لهم، مالم يجبروهم بأسباب المطالبات؟

شكوى رعاة الديرة إلى الملك حول عملية الاستخراج المتقدمة الذكر

وبناء عليه ذهب رعاة الديرة إلى الملك وهم يتشكون بوجوه عابسة
قائلين:

«يا صاحب الجلالة لقد ضربنا ولم يسمح لنا بالتشكي ضد ذلك، وقد
قطعت أعناقنا، فنحن لانستطيع أن نصرخ، وعدم الامكان والعجز
فرض علينا من قبل البابا، وجرت ممارسة عمليات الاستخراج البغيضة
في جميع أجزاء العالم، وبارونياتنا التي بين أيدينا هي منك، ونحن
لا يمكننا افقارهن من دون إلحاق الأذى بك، وبالتالي لا يمكننا اجابتك
بالنسبة للعجز الذي لحقنا بهن، وفي الوقت نفسه ارضاء الاستخراج غير
المتوقف للبابا، لأنه بهذه الوسيلة جرى اختراع أساليب جديدة للظلم
من قبل الرومان، وهذه الأساليب تقوم دوماً بشكل غير متوقع ضدنا،
وبذلك لاتسمح لنا بالتنفس بحرية، ولاحتى لوقت قصير، ولذلك
ركضنا لاللتجاء إلى مشورتك، وإلى صدرك الواقى، ونطلب نصيحتك
ومساعدتك في حالة الدمار هذه»، وكان الذين خاطبوا الملك بهذه
الكلمات: راعي دير القديس إدموند، وراعي دير بيوليو Beaulieu،
وعندما سمع الملك شكاويهما، نظر إليهما نظرة عابسة، ولإرعابهما دعا
بصوت مرتفع النائب البابوي، الذي صدف أن كان حاضراً، وقال
مخاطباً له:

«انظر يامولاي النائب البابوي إلى هذين المغويين، إنهما يتوليان كشف
أسرار البابا، مقدمين منفذاً للنقد واللوم، وليسا مذعنين لرغباتك، افعل
معهما الذي يرضيك، ولقد منحتك واحدة من أحسن قلاعي لسجنهما
فيها»، وعندما سمع الراعيان هذه الكلمات أصيبا بقرف لا يمكن وصفه
وبرعب، وقد غادرا بعدما وعدا بإرضاء النائب البابوي وبتلبية جميع

رغباته، وبعض رجال الدين — على كل حال — مع أنهم كانوا قلة رفضوا الاستمرار بالتردد، ورفضوا حني رقابهم لعبودية مثل هذه الحالة المزرية، ووقفوا صامدين في رفضهم الذي كان مطلوباً منهم، وبصعوبة جنبوا أنفسهم الخضوع بذريعة طلب وقت حتى يمنح لهم.

اجتماع للأساقفة في نورثامبتون حول القضية نفسها

عندما فكر النائب البابوي، مع حليفة بطرس لي روج، بالتصرف وفق الطريقة نفسها مع الأساقفة الذين استدعيوا للاجتماع في نورثامبتون لهذه الغاية، وجدوا هؤلاء قد تعلموا من قضية الراعيين فأجاباهما قائلين:

«لدينا رؤساء شمامسة خاضعين لنا، وهم الذين على دراية بمنافع رجال الدين الخاضعين إليهم، الأمر الذي نحن جاهلين به، وهذه القضية تخص جميع الفرقاء، ولذلك يتوجب اجتماعهم جميعاً مع بعضهم، وإنه ليس لائقاً ولا موثقاً إعطاء جواب من دونهم»، وبناء عليه جرى تعيين يوم من أجلهم لإعطاء جوابهم، وأن يكون يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، أي أن يكون ذلك في يوم عيد ميلاده، وبناء عليه، اجتمعوا كلهم بحضور النائب البابوي وأصحابه، وكانوا على غير استعداد للاستجابة للاستخراجات المتقدم ذكرها، وكانوا متصلبين وبدون خجل، ومصرين على رفضها وعلى عدم الموافقة عليها، ومع ذلك عارضوهم بطريقة لطيفة وحذرة، وترافعوا في ردهم بالاعتراضات المنطقية التالية:

اعتراضات الأساقفة على مطالب النائب البابوي

«لقد أفادوا أن عليهم عدم الاسهام، لسبيين، أولهما لأن الاسهام سوف يكون ضد واحد قد عمل تحالفاً مع أميرهم، ولأن هذا الاسهام قد عمل من أجل سفك الدم المسيحي، الأمر الذي هو واضح من كلام

مذكرات التراخيص الرسولية التي ورد فيها كلمات: «لشن الحرب على الامبراطور»، وكذلك لأن الاسهام سوف يكون مضاداً لحرية الكنيسة، وهذا أيضاً واضح من مغزى المذكرة نفسها، التي جاء فيها قوله: «ضبط جميع المعترضين بموجب الروادع الكنسية»، وهذه عبودية وإكراه، وعلاوة على ذلك، لأنهم كانوا قد أعطوا في وقت آخر عشر ممتلكاتهم إلى البابا، مع اعتراض ضد استخراج مماثل قد عمل فيها بعد، وبمنطق أدنى عمل الآن طلب أوجب دفع الخمس، وأيضاً لوجود سبب للخوف من أن يصبح ذلك عادة لأن العمل إذا ما عمل مرتين يصبح عادة كما جاء في القانون قوله: «فيما يتعلق بالاجتماعات الأسقفية: ما من رجل بالقانون، إلخ، إلخ»، وكذلك بسبب أنهم يرون من الضروري تسوية الأعمال في البلاط الروماني، الذي لا يمكن الوصول إليه، ولا يوجد ممر مفتوح إليه إلا من خلال الأراضي الامبراطورية، وهم على هذا يخشون من اعتقال الامبراطور لهم، وايداعهم في السجن، ووقتها هم متأكدون من توفر عقوبة شديدة.

ومرة أخرى، بسبب أن الملك له أعداء كثيرون، يتوجب عليه تحمل أعباء الحرب ضدهم، وخشية من وقوع الأسوأ، لن يكون عملاً سلبياً متابعة افقار البلاد، خاصة وأنها الآن قد أفرغت إلى حد كبير من ثرواتها، وذلك لأن النبلاء قد انطلقوا في حملة صليبية، وقد حملوا معهم كميات ضخمة من المال، من أجل الانفاق على رحلتهم.

ومجدداً إن هذا سوف يتحول إلى ضرر رعاة الكنائس، ولا سيما أنه ليس من الواضح أنهم قد وافقوا على التقديرات المتقدم ذكرها، ومرة أخرى بسبب أن أوضاع الكنيسة بشكل عام كانت خطيرة، وبناء عليه ينبغي عقد مشاورات عامة، حتى يمكن عمل مقدمة عامة، إذا كان ضرورياً في تلك الحالة، وهي ليست الحالة الآن، لأن الأخبار قد تأكدت بأن مجمعاً عاماً سوف يجري عقده، فيه سوف يجري تقرير مثل

هذه القضايا، وإنه لمن الضروري أن يتقرر إزالة السبب العام للعدوان». وعندما سمع النائب البابوي ورفاقه هذه الاعتراضات، أخفوا بصمت اضطرابهم، لكنهم قرروا أنه عندما تتوفر الفرصة، سيعيدون محاولة هذا ثانية، أو تدبر استخراجات أخرى من نوع مماثل.

النائب البابوي يجمع القساوسة في بيركشاير

وكان قد بقي لدى النائب البابوي وأصحابه بعض الأمل في تطويع آخرين للاستجابة لإرادتهم، ومن ثم اقناعهم بالمساهمة، فجمعوا قساوسة الكنائس في بيركشاير Berkshire وجمعوا آخرين، حثوهم بكثير من الحجج، وأضافوا التهديدات إلى التهديدات، والوعود إلى الوعود، وقد أجاب هؤلاء أيضاً بثبات، أنهم سوف لن يتخلون عن بنود جوابهم، واعتماداً على حججهم، التي مع أنها كافية، سوف نضيف هنا أجوبة أخرى.

أجوبة القساوسة المتقدم ذكرهم فيما يتعلق بالتقديرات

قال كل واحد من القساوسة، وقال جميع قساوسة الكنائس في بيركشاير، بأن عليهم عدم الاسهام ضد الامبراطور مثل اسهامهم ضد هرطقي، لأنه لم يدن بوساطة قضاء الكنيسة، ولم يتبين أنه مجرم، مع أنه محروم كنسياً، ولكن ليس بسبب قيامه بالاستيلاء على ممتلكات الكنيسة، أو أنه هاجم ميراث الكنيسة الرومانية، لأن الكنيسة لاتستخدم السلاح الديني ضد الهرطقة.

ومجدداً، وفي الطريقة نفسها للكنيسة الرومانية ميراثها الخاص، الذي إدارته عائدة إلى البابا، وللكنائس الأخرى أيضاً موارثها، التي منحت إليها وأعطيت من قبل الملوك والأمراء، والنبلاء المسيحيين الآخرين، والتي هي غير خاضعة لفرض الضرائب عليها، ولا بأي شكل من الأشكال، ولادفع الجزية إلى الكنيسة الرومانية، ولذلك لايجوز ارغام

القساوسة على المساهمة من ميراث كنائسهم.

ومن جديد، ومع أنه بحرفية الشريعة، قد قيل بأن كل شيء هو عائد إلى الأمير، لكن ليس بالتملك والتسلط والتصرف بالتوزيع، بل الأمور متعلقة بعنايته وحمايته، ومثل هذا، إن الكنائس عائدة إلى البابا، فقط فيما يتعلق بالعناية والحماية، وليس فيما يتعلق بالتملك والسيادة، وبناء عليه، قالوا ينبغي عدم ارغامهم على الاسهام.

ومجدداً كما تقول الحقيقة: «أنت بطرس (الصخرة) وعلى هذه الصخرة سوف أنا أبني كنيسة»، فهو بهذا قد احتفظ لنفسه بالتملك، وعهد إلى بطرس بالعناية، كما هو ظاهر من كلام الانجيل الذي تبع ذلك في قوله: «وإن كل ماسوف تربطه على الأرض سوف يربط في السماء»، إلخ، إلخ، وهو لم يقل: «وإن كل ما سوف تفرضه على الأرض سوف أيضاً يفرض في السماء»، وبناء عليه لقد قالوا بأنهم لا يستطيعون، ولا ينبغي لهم، تماشياً مع كلام الرب والعدل، أن يرغموا على الاسهام.

ومرة أخرى، إنه اعتماداً على سلطات الآباء المقدسين، نجد أن منتجات الكنيسة مكرسة لبعض الاستخدامات المحددة، وهي استعمالات الكنيسة، ورجال الدين العاملين بها، والفقراء، ولا يجوز تحويلها إلى استخدامات أخرى، مالم يكن ذلك بوساطة الكنيسة الأئمية، وبناء عليه، ينبغي عدم إعطاء أية مساهمات من مقتنيات الكنيسة، من أجل شن الحرب، مالم يكن ذلك ضد المسيحيين.

ومجدداً، بما أن موارد كنائسهم هي بالكاد كافية لتأمين الطعام اليومي لرجال الدين، بسبب نقص حجمها وصغره، وبسبب أن المجاعة تهاجم في بعض الأحيان البلاد لدى سوء مواسم الحبوب، وأيضاً بسبب وجود عدد كبير من فقراء الناس والفقراء الذين يأتون إليهم، والذين رأينا بعضهم يموتون بسبب الحاجة إلى التغذية، ولأنه ما من أحد يمكنه أن

يستحوذ أكثر من منفعة واحدة، وبسبب ذلك هم الأفقر، وبصعوبة بالغة يمكنهم تزويد أنفسهم وتزويد الفقراء، ولذلك ينبغي عدم ارغامهم على الاسهام في مثل هذه الحالة.

ومن جديد، إنه مهما كان مفيداً بالنسبة لهم أن يسهموا، ومع ذلك يتوجب، لابل سوف يكون مفيداً أن ندع القضية تسقط، بسبب الفضائح التي قامت، وانتشرت في الخارج في جميع أرجاء العالم ضد الكنيسة الرومانية، فلقد جرى الاعلان على الملأ بأن الاستخراجات من هذا النوع قد عملت في أوقات مضت، وأفقرت رجال الدين بطريقة غير صحيحة البتة، وما أن جرى استخراج المال منهم، حتى توصل الامبراطور والبابا إلى التصالح، ومن ثم لم تجر إعادة ولافلس واحد، لابل أكثر من هذا، لو أن أية بقية كانت قد تركت من دون جباية، لقد جرى استخراجها بخشونة، حتى بعد ابرام الاتفاق بين الاثنين.

وتقول الأحكام القانونية، إنه مع أن الذنب العظيم لايجوز قبوله في سبيل تجنب فضيحة، وإنه بناء على ذلك، ولهذه الغاية يتوجب أحياناً اسقاط ما هو صالح وحذفه، وعلى هذا الأساس يتوجب علينا عدم الاسهام.

ومجدداً، إنهم إذا ما توجب اسهامهم ضد الامبراطور، فإن المقام الرسولي سوف يحقق به خطر الموت، في سبيل احراز العدل، وكذلك سوف يحقق خطر الموت بالذين يقومون بالحج إلى الأرض المقدسة، ومن أجل تحرير تلك البلاد، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومن جديد، ينجم عن العمل المزدوج عادة، لأنه بما أن اسهاماً من هذا النوع قد عمل في وقت آخر، إنه إذا ما عمل الآن سوف يصبح عادة، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومجدداً، إنه من اسهام من هذا النوع، مقدرين قدرة الامبراطور،

وضعف مملكة انكلترا وفقرها، من الواضح أن ملك انكلترا ونبلاء البلاد سوف يكونون عرضة لخطر عظيم بفقدان ميراثهم، وبناء عليه ليس من الموائم الاسهام، كما أنه لايجوز.

ومجدداً، إنه بالنسبة لملك انكلترا والنبلاء يمتلكون بموجب حق الوراثة، وكذلك بموجب العادات الصالحة المصدق عليها، الحق في تقديم الاعطيات إلى كنائس انكلترا، والقساوسة، المعينين بناء على أعطياتهم، لا يرغبون، كما أنه لايجوز لهم، ولا يستطيعون، الموافقة على تقديم أية منحة من دون التشاور مع رعاتهم، لأنهم إذا ما وافقوا على المنح من الممكن أن ينالوا الضرر من كنائسهم الخاصة، وبما أن الكنائس المذكورة، قد أعطيت وأغنت من قبل رعاتها المذكورين، بالأراضي والموارد، في سبيل مقاصد خاصة، هي أن يتمكن قساوستها من استقبال الضيوف سواء منهم الأغنياء وكذلك الفقراء، وأن يظهروا الضيافة إلى العلمانيين وكذلك إلى رجال الدين، وذلك وفقاً لإمكاناتهم، وكذلك حسبما تتطلب عادة المكان، وإنه إذا ما تم استخراج مثل هذه المساهمة منهم، فذلك يوجب عدم استمرارها، لأنه بهذه الطريقة سوف يجري خداع الرعاة وغشهم، في امتيازاتهم وفي نواياهم التي من أجلها منحوا الأعطيات، ولسوف يعيدون النظر في أعطياتهم، أو أنهم سوف يبحثون ويفتشون عن أسى آخر، ولن يؤسسوا كنائس مرة أخرى، أو يضيفون عليهن منافع من ممتلكاتهم.

ومجدداً، بما أن هذا الطلب قد عمل ضد واحد هو داخل بتحالف مع أميرنا، خاصة بالزواج، لايجوز لنا الاسهام ضده من دون التشاور معه.

ومن جديد، بسبب أن العلمانيين، لدى اسهامهم فيما مضى، في قضية مماثلة، قد نالوا وعداً من الذين أعطوهم، بناء على تفويض من هذا البابا الحالي نفسه، أنه لن تكون هناك عملية استخراج ثانية من هذا النوع، ولأنهم أنفسهم مايزالون يشعرون بالظلم بسبب العبء المذكور، ينبغي

أن لا يسهموا، لأنهم يخافون من أنهم بمساهمات متوالية سوف يجروا إلى العبودية وإلى عادات غير اعتيادية، ولا سيما أن كثيراً من البلدان، من بينهم فرنسا لم يوافق سكانها على هذا الاسهام، كما أنه واضح ومعروف بشكل جيد، أنه ما من مربح قد حصلت عليه الكنيسة من أي استخراج من هذا النوع، ليوفق الرب أن لا تكون لاعاققتها، ولقد قوي أعداء الكنيسة وأصبحوا أغنياء بوساطة ذلك، ومن كونهم أقوياء صاروا أقوى، وإنه لمن الصعب علينا أن نموت بأسلحتنا، ولذلك يتوجب علينا عدم الاسهام.

ومجدداً، بما أن الجميع، أو لنقل تقريباً الجميع، قد ارتبطوا بعهد خدمة الصليب، ولكي يفوا بأنفسهم، أو بوساطة أشخاص آخرين أكفاء، تسلموا أوامر من البابا، وإنهم لا يمكنهم في آن، هو الوقت نفسه تلبية وتنفيذ هذا الواجب الصعب والمفيد، وأن يدفعوا أيضاً هذا الاسهام.

ومن جديد، بما أنهم محميين بامتياز أولئك الذين حملوا الصليب، والذين إليهم جرى منح إنتاج ودخول مواردهم جميعاً لمدة ثلاث سنوات، لا يتوجب عليهم لهذا الاسهام في هذه القضية.

ومجدداً، بما أن كثيرين مرتبطين برسائل البابا، لأن يدفعوا إلى رهبان كلوني Clugny، في يوم محدد، من عشور كنائسهم، الذي من المعروف أن الرهبان المذكورين لهم حق الرعاية، أو التي ليس لهم فيها أي ادعاء دنيوي أو روحي، ولهذا ينبغي أن لا يدفعوا.

ومن جديد، بما أن مولانا ملك انكلترا، له اعداء ألداء من جميع الجوانب، والذين هم مستعدون — كما أفيد — لإلحاق الأذى به، وبحكم أن المملكة محرومة من نصيحة ومن عون الرجال الشرفاء الذين يقومون باعداد الترتيبات للانطلاق إلى المناطق الأجنبية، والذين بذلك

سوف يأخذون معهم مبلغاً كبيراً من المال، سوف لن يكون سليماً إفقار الكنائس والمملكة إلى درجة لا يمتلكون فيها امكانيات كافية لحماية الدولة، وسوف يكون هناك بلا شك سبب لدمار المملكة لا يمكن اصلاحه.

علاوة على ذلك، بما أن رجال دين الشعب الانكليزي، كانوا من قبل أغنى منهم الآن، أي عندما استحوذوا جميعاً، أو على الأقل الشطر الأعظم منهم، عدة منافع من دون توزيع، ومن دون عمل أي استخراج من هذا النوع، مع أنه جرى في ذلك الوقت إرسال عدد من الآباء المقدسين إلى المنفى من قبل الأباطرة الطغاة، وعانوا في أنفسهم كثيراً من المصاعب في أشخاصهم وفي ممتلكات الكنيسة، لايتوجب علينا —لذلك السبب— أن ننسهم.

وأخيراً، جرى منح كثير من العشور من قبل الآباء الرسولين إلى فرسان المملكة الفرنسية، لحماية الكنيسة الرومانية، وبما أنه واضح أن مساعدتهم المتوجبة لم ترفض من قبلهم، كما أنها لم تقدم بعد، يتوجب علينا —بناء عليه— أن لانسهم.

النائب البابوي يثير خلافات بين القساوسة المتقدم ذكرهم

وعندما وجد النائب البابوي وأعوانه أن ثباتهم مدعوم بمثل هذه الحجج الصحيحة، وأنهم لا يستطيعون تحطيمهم ماداموا هكذا متحدّين مع بعضهم، لذلك قرروا إحداث شقاق وخلاف فيما بينهم، ولذلك ذهب النائب البابوي إلى الملك، وكسب على الفور ذلك الرجل الضعيف إلى جانبه لتلبية رغباته، ومضى معاونوه أيضاً إلى الأساقفة، وكذلك إلى رؤساء شمامستهم، وبشكل خاص المعلم آلان أوف بيكلي Beccles، رئيس شمامسة سدبري Sudbury، الذي كان من قبل أكثر اصراراً من جميع البقية، وإلى بعض الأشخاص الآخرين

الطموحين الذين كانوا يتطلعون إلى مناصب أعلى، ووعدوهم بمساعدة فعالة إذا لم يوافقوا على اصرار جماعة القساوسة المذكورة وقرارها، وبذلك أغووا بعضهم، لمعارضة الفئة المسيطرة.

إقلاع الإيرل رتشارد مع النبلاء الآخرين

بعدما أكمل في هذا العام، الإيرل رتشارد، جميع الاستعدادات الضرورية من أجل رحلته إلى القدس، ذهب إلى دير القديس ألبان، ودخل إلى بيت هيئة الرهبان، ورجاهم تقديم المساعدة بصلوات الرهبان، وذهب من هنا إلى لندن، وكان ذلك فيما بين يوم الصعود، وأحد الشعانين، وقال وداعاً لأخيه الملك، وإلى النائب البابوي، وإلى بقية النبلاء، وأسرع بعد ذلك الخطى نحو دوفر، ووضع الملك تحت رعايته هنري ابن الإيرل وكذلك ممتلكاته، ورافقه النائب البابوي مع عدد كبير من النبلاء، والأساقفة ورجال الدين في رحلته إلى شاطئ البحر، حيث عهدوا به بتقوى إلى التوجيه اللاهوتي، وبقي الراهب ثيودوريك، رئيس الاستبائية ملازماً له، وكأنه مرافقه غير المفصول عنه، ودليله، وأقلع في الوقت نفسه عدد كبير من نبلاء انكلترا وكان من بينهم وليم لونغيوسبي Longuespee، إيرل أوف سالسبري، وعدد كبير من البارونات والفرسان، الذين ارتبطوا بهم بحكم أنهم قادتهم ومقدميهم.

ملك فرنسا يستقبل الإيرل رتشارد بتشريف عظيم

ووصل الإيرل رتشارد إلى شواطئ القارة، فدخل إلى الأراضي الفرنسية، وأخذ طريقه نحو الملك، وعندما بات قريباً، وصل الملك مع أمه ب. B، وكثير من نبلائه لاستقباله بسرور وبهجة، واستضافه في قصره، واحتفل معه، وكأنه قريب محبوب له، وأثقله بالهدايا الملكية، كما أنه، لدى مغادرة الإيرل أرسل رئيس خيالاته ليكون حامياً له ودليلاً،

خلال أراضيها كلها، وقد زوده بشكل وافر، وبشريف بجميع الضروريات للرحلة، وقدم له المأوى ولأتباعه حتى عبر الرون بسلام.

وخرج سكان أفينون أيضاً إلى استقباله، بمسيرات سرور كبيرة، وبكرم ودون مقابل عرضوا عليه تقديم الضيافة له في مدينتهم، وذلك على نفقتهم، ثم أخذ بعد ذلك مراكب في فين Vienne، مقررراً الأبحار نزولاً على الرون إلى مدينة آرل Arles، لكن سكان فين والمدن الأخرى المجاورة، طلبوا من الايرل رتشارد أن يبيعهم قوارب عبوره، وأنهم سوف يدفعون له ثلاثة أضعاف قيمتهم، ولدى رفض الايرل أن يفعل ذلك، أعلنوا أنه ليس تاجراً، فاستولوا على القوارب، واحتفظوا بهم بالقوة، وغضب الايرل لذلك كثيراً ومع ذلك تابع رحلته بقدر ما أمكنه ووصل إلى مدينة آرل، وندم سكان فين فيما بعد — مع أن ذلك جاء متأخراً — لذنوبهم العظيم الذي اقترفوه، وأرسلوا المراكب التي انتزعوها من الايرل، وأعادوها إليه في بيوكير Beawaire، لكن الايرل، قام وهو مغضب فدمرهم جميعاً، وغضب كونت طولوز كثيراً لإلحاق هذا الأذى بالاييرل رتشارد، في ممتلكاته، لأنها كانا أقرباء.

كونت بروفانس يستقبل الايرل رتشارد

وعندما علم كونت بروفانس، والد ملكة انكلترا، باقتراب وصول الايرل رتشارد، خرج من تاراسكون Tarascon لاستقباله بسرور وبهجة، وكان مستعداً لخدمته، وليقدم له كل لطف ممكن، وكان يأمل أن يتلقى مساعدة منه ضد كونت طولوز، الذي كان معه بحالة حرب، ولأنه تعرض بسببه إلى مخاطر كثيرة.

زيارة الايرل رتشارد لسينت جايل

وبعدما قطع الايرل رتشارد هذه المسافات، وعرف أنه لم يعد بعيداً عن مدينة سينت جايل (صنجيل)، بادر مسرعاً إلى هناك ليقدم تعبداته،

ووفق الطريقة نفسها، عندما وجد نفسه لديه وقت قصير، حضر الاجتماع العام للرهبان السسترشيان، وصرف نفسه بكل تواضع لسماع صلواتهم وحضورها، ولتقواه وتعاطفه منحهم دخلاً سنوياً مقداره عشرين ماركاً لتحسين أوضاع الطائفة، وذلك حتى يتمكن بفضل القديس جايل أن يعبر بسلام ويمر خلال مخاطر البحر.

البابا يمنع الإيرل رتشارد من الإقلاع

عندما وصل الإيرل رتشارد إلى سينت جايل، تقابل مع ناب بابوي ورئيس أساقفة آرل، اللذان منعه بموجب سلطات البابا من الإقلاع، وأصيب الإيرل تجاه ذلك بدهشة عظيمة، وأجابها أنه فيما مضى آمن بوجود صدق في كلام المقام الرسولي، وبالمبشرين الذين أرسلهم، وهو الآن غاضب كثيراً تجاه هذا المنع وقال: «لقد عملت جميع الاستعدادات الضرورية من أجل عبوري، ولقد ودعت أصدقائي، وأرسلت أموالى وأسلحتي أمامي، وجعلت سفني جاهزة ومحملة بالمؤن، والآن تغيرت اللهجة، حيث ما أن وصلت إلى شاطئ وأنا على وشك الإقلاع، قام البابا، الذي يدعى خليفة يسوع المسيح ونائبه، فخرق وعده، ومنعني من الاستمرار في خدمة المسيح، مع أنني الآن مستعد لجميع الطوارئ».

وعندما رأى النواب البابويون أنهم لا يستطيعون منعه من الإقلاع، نصحوه بأن يترك ميناء مرسيليا، وأن يقلع بحرياً من ميناء أيغيو مورتى Aigues Mortes، وكان هذا المكان الأخير ممقوتاً من الجيش كله، بسبب قذارته وأحواله غير الصحية، ولذلك أقنعوا الإيرل بالإقلاع عن فعل ذلك، وبناء عليه، قام على الرغم من الحجج الزائفة والمتناقضة للنواب البابويين، وبمقت منه وازدراء لازدواجية الكنيسة الرومانية، بالتمسك بروح متألّة كثيراً بنية الأبحار من مرسيليا، وبناء عليه ذهب في المقام الأول إلى روشي Roche، حيث استعد وحمل

سفنه، كما أنه أرسل رسالة إلى الامبراطور بوساطة رسل خاصين، هم الفارس روبرت دي تويني Twenge، وآخرين، حيث أخبره عن أحواله، وعن بدع البابا الماكرة، وفي الأسبوع الذي تقدم على ثمانية ميلاد القديسة مريم، ركب متن البحر مقلعاً.

حرب بين ولدي للويلين

في يوم عيد القديس غوثلاك Guthlac، [١١ - نيسان] في هذا العام، تفجرت حرب في ويلز بين ولدي للويلين، واستمرت من دون توقف، من اليوم المتقدم ذكره أعلاه، الذي قيل فيه غادر الأمير المذكور الحياة، حتى نهاية يوم عيد القديس ميكائيل، أي حتى تمّ أخيراً وضع واحد من الأخوين في السجن، وعند ذلك أوقف الويلزيون عنفهم، لأن داوود، الذي كان حفيد الملك، استدعى خيانياً أخاه الأسن منه للتشاور معه، من أجل التوصل إلى بعض الشروط المناسبة للسلام، ولدى قدومه للتفاوض تحت كفالة أسقف بانغور، أمر به أخوه داوود فاعتقل وسجن.

انتخاب بطرس دي ايغيو بلانشي أسقفاً لهيرفورد

وفي يوم عيد القديس بارثولوميو جرى انتخاب المعلم بطرس دي ايغيو بلانشي Aigueblanche، أسقفاً لهيرفورد Hereford، وكان من بروفانس من حيث المولد، وكاهناً مقرباً من وليم الأسقف المنتخب لبلنسية وقهرماناً لديه، وبعد مضي بعض الوقت استقبل بتشريف عظيم من قبل الملك، وجرى تثبيته في كرسيه من دون أية مشاكل أو معارضة، وكان هناك كاهن من ليشفيلد Lichfield، وكان رجلاً جديراً بالثناء، وقد جرى انتخابه من قبل، وقد رأى بأن الأوقات السيئة هي المقبلة، وأن الملك لا يقدر أحداً سوى الأجانب، لذلك تخلى عن دعواه، وعهد بإدارة كنيسته إلى الرب، وإلى إخوانه الرهبان.

ولادة ابنة الملك

بعد انتهاء أيام الاحتفال المهيبة بعيد الملائكة المقدسين [٢- تشرين أول] ولدت الملكة إليانور ابنة إلى الملك، أعطيت اسم مرغريت، الذي كان اسم خالتها، ملكة فرنسا، ولأن الملكة دعت أثناء آلام الولادة القديسة مرغريت.

تكريس آندلم رئيساً لأساقفة أرماغ

وفي العام نفسه، وفي يوم عيد القديس جيروم [٣٠- أيلول] جرى تكريس المعلم آندلم Andelm، وكان من أهل كولون، وكان أيضاً رجلاً متميزاً بأخلاقه وثقافته، تكريسه في ويستمنستر، بشكل مهيب رئيساً لأساقفة أرماغ Armagh، (الكنيسة المطرانية لايرلندا كلها)، وكان ذلك بحضور الملك، والنائب البابوي، وعدة أساقفة، وكان أسقف ووركستر متولياً للأعمال الرسمية.

تكريس معبد القديس بولص في لندن

وجرى في يوم عيد القديس ريميغوس [١٢- أيار] تكريس كنيسة القديس بولص في لندن من قبل روجر أسقف المدينة، وكان ذلك بحضور الملك، وغدد كبير من الأساقفة والنبلاء الذين شاركوا جميعاً في ذلك اليوم بمأدبة احتفالية مع الأسقف والكهنة، وجرى منح جميع الذين قدموا وصلوا بتقوى غفراناً لمدة أربعة عشر عاماً، وجرى تأكيد هذه الأشياء كلها وتثبيتها من قبل النائب البابوي، والأساقفة الذين كانوا حضوراً.

وفاة توماس دي ميولتون

وفي صيف هذا العام، غادر توماس دي ميولتون Muleton هذه الحياة، وكان فارساً مجرباً في البراعة الحربية، عندما ابتسم له سن

الشباب، وعندما صار متقدماً أكثر بالعمر، بات رجلاً لديه وفرة كبيرة من الممتلكات، وبارعاً كثيراً في القانون المدني، وأثناء رغبة هذا الفارس في توسيع أراضيه، غالباً ما تسبب بأضرار كبيرة، وخسائر لدير القديس ألبان، الذي جاورت مزارعه مزارعه.

نشوب خلاف بين دير القديس ألبان وبعض الفرسان

وكان في هذا العام هناك بعض الفرسان مع آخرين، كان دير القديس ألبان بلطف منه قد منحهم الإذن للصيد لبعض الوقت في مطردة حرة تابعة للقديس ألبان، وكانت قد منحت إلى الكنيسة منذ وقت طويل مضى، وجرى تثبيت ذلك من قبل الملوك، ومن قبل مؤسسيها، وذلك كما تبرهن على ذلك الكتابات النبيلة للكنيسة، ولقد أساء هؤلاء استخدام المعروف الذي منح إليهم، وقاموا وهم مصابون بعدوى الشر ونكران المعروف، فادعوا بأن هذا المعروف صار عادة، وحقاً دائماً، وسعوا لحرمان الكنيسة من حقوقها، أو بالحري لحرمانها من ميراثها، وقام الراعي جون، الذي كان آنذاك متسلماً للدير، والذي كان ملتزماً بموجب حق التكريس باسترداد الامتيازات المتضررة، والممتلكات الموزعة للكنيسة، بتقديم شكوى جادة حول هذه القضية إلى الملك، وحصل منه على المصدقة التالية ضدهم.

إجراءات محاكمة مطردة القديس ألبان

«من هنري، بنعمة الرب، إلخ، إلى عمدة هارتفورد Hertford،
تحيات:

إذا قام راعي دير القديس ألبان فعهد إليك بمتابعة دعواه، قم عندئذ باستدعاء، بوساطة استدعاء صالح وقانوني غيوفري دي تشايلدويك Childwick، وأولاده: وليم، وجون، ورتشارد، ووليم دي غورهام Gorham، وتوماس دي ووز Wauz، وولديه: وولتر،

وهنري، وآدم دي سومري Sumery، وداوود دي غرينفيل Grapenville، للظهور أمام رجال عدالتنا، في أول تبليغ، عندما يأتون إلى هذه المناطق، ليظهروا السبب لماذا اصطادوا، وأمسكوا أرانب من دون إذنه (الراعي المذكور) في المطردة الحرة التابعة لكنيسة القديس ألبان، ولتكن معك هذه الاستدعاءات وهذه المذكرة. شهدت بنفسني في ويستمنستر، في هذا اليوم السادس والعشرين من حزيران، في السنة الرابعة والعشرين من حكمنا. عمل في هارتفورد، أثناء شهر واحد من عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، أمام وليم أوف يورك، عمدة بيفرلي وهنري أوف باث، وروجر دي تيركبي Turkby، وغيلبرت بريستون Preston، مسؤول عدالتنا، في دائرة تلك الكونتية، في السنة الرابعة والعشرين من حكم الملك هنري، ابن الملك جون».

دعوة للمثول أمام العدالة

جرى استدعاء غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، ورتشارد، وغيوفري، ووليم دي غورهام، وتوماس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سومري، وداوود دي غرينفيل، بموجب مذكرة مولانا الملك، للإجابة على شكوى راعي دير القديس ألبان، لقيامهم بالصيد، وإمساك أرانب في مطردته الحرة التابعة لدير القديس ألبان من دون إذنه، وكانت شكوى راعي الدير هي، أنه في يوم الأربعاء التالي قبل عيد القديس توماس الرسول، لقد جاءوا مع كلاب، وأمسكوا أرانب في مطرده، ومثل هذا لقد اصطادوا في الحقول الوارد ذكرها أدناه التابعة له، في المطردة وهي: في حقل القديس ألبان، وفي حقل كنغبري Kingsbury، وفي حقل بارك Park، ولانغلي Langley، وكاشيوبري Cashiobury، وركمانورث Rickmansworth، وكوديكت Cuddicote، ووولدن Waldon، وساندردج Sandridge، وبارنت Barnet ووردبـورن Redburn،

وأراضي ممتلكاته وممتلكات أتباعه، وذلك على الرغم من امتياز، الذي تمتع به من أيام الملك هنري الأكبر، والذي من أجله قد دفع غرامة قدرها أربعين ماركاً، وجاء غيوفري وأولاده، وآدم دي سومري، ودافعوا عن هذا الاعتداء والأذى، وقالوا بأنهم هم وأسلافهم منذ أيام الاستيلاء قد اصطادوا في الأماكن المتقدم ذكرها بموجب امتياز، وفي أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، وفي أيام الملك جون وفي أيام الملك الحالي هنري، وهم مستحوذون على هذا الصيد كامتياز لهم، وأنهم يقدمون خمسة ماركات إلى مولاهم الملك، هنا، حتى يمكن عمل إجراء بحث فيما إذا كان غيوفري المتقدم ذكره، وأسلافه وتوماس دي ووز وأسلافه، وآدم دي سومري وأسلافه، قد استحوذوا على هذه المصيدة كامتياز في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين، أو أنهم استحوذوا على امتياز الصيد هذا بالقوة، أو بإذن من أسلاف راعي الدير المقدم ذكره، أو بوساطة البحث، وقد جرى تسلم ادعائهم، وأعطى راعي الدير المذكور خمسة ماركات أيضاً، للقيام بالبحث المذكور، وجرى تعيين يوم هو في ثمانية عيد القديس ميكائيل، من أجلهم للظهور أمام مسؤولي العدالة المذكورين في كمبردج.

الإجراءات في كمبردج في ثمانية عيد القديس ميكائيل أمام مسؤولي العدالة المتقدم ذكرهم

وكان المحلفون الذين جلسوا للبت في القضية، بموافقة الفرقاء هم: بطرس دي ثالي Thaly، ووليم ريفيل Revel، ووليم دي ثورليغ Thorleigh، وسيمون دي فورنل Fornell، وهنري دي هولول Holwell، ورالف فترفولك Fitzfulk، ووليم دي سينت ليغر Leger، وبطرس دي ول Wells، ورتشارد موسكت Muschet، ووليم دي هولول، ولمعرفة فيما إذا غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده غيوفري، ووليم، ورتشارد وتوماس دي ووز

مع ولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سومري، وأسلافهم، قد امتلكوا امتياز الصيد منذ أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، في بلدة القديس ألبان، وكنغبري، وساندرديج، وتايدنهنغر Tidenhanger، وبارك، وكاشيـوبري، ولانغلي، وركمانوورث، وكوديكوت، وولدن، وبارنت، وردبورن، وهل ذلك بموجب امتيازهم، كما ذكر غيوفري المذكور مع البقية، أو هل هم يمتلكون حق الصيد هذا بالقوة، أو بموجب إذن من أسلاف راعي دير القديس ألبان، أو بموجب حق التوريث كما أفاد الراعي المذكور.

ولقد قالوا —بناء على يمينهم— بأنهم قد فهموا بأن رعاة دير القديس ألبان قد احتفظوا بمطردهم حراً في المدينة المتقدمة الذكر، في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، بسبب أنهم —كما قالوا— قد تولوا فحص أحد الصكوك، كان قد منحه الملك هنري المذكور، جد مولانا الملك الحالي إلى بيت رهبان القديس ألبان، والذي ذكر فيه الملك المذكور امتلاك المطردة المذكورة في البلدة المتقدمة الذكر، والتي استحوذ عليها رعاة البيت المذكور في أيام الملك هنري الأكبر، جد الملك الحالي.

وقالوا أيضاً بأن غيوفري المذكور، أو الآخرين، أو أسلافهم، قد قاموا بأعمال مطاردة في البلدات المتقدم ذكرها، وكان ذلك يجري أحياناً ولبعض الوقت بموجب إذن من الرعاة، وأحياناً على الرغم منهم، ولذلك كان الرعاة المذكورون يقومون أحياناً، وبشكل مؤقت باعتقال كلابهم وخدمهم، ولقد ضربوا وأساءوا معاملتهم، مما تسبب في بعض الأحيان بنشوب معارك ووقوعها في تلك الكونتية، ثم كان يجري استرداد الكلاب المحجوزة، ويعاد السلام فيما بينهم بعد ذلك.

ولقد قالوا بشكل واضح بأنهم —الفرقاء المتقدم ذكرهم— لم يقوموا قط بأعمال مطاردة في المطردة المتقدم ذكرها، بموجب أي حق امتلاكه، أو يمكن أن يمتلكوه، ولذلك تقرر بأن راعي الدير وخلفائه سوف

يتملكون من الآن فصاعداً المطردة في القرى المتقدمة الذكر، بلا نزاع وإلى الأبد، وهي متحررة من أي ادعاء من غيوفري المذكور مع الآخرين، أو ورثتهم، إلى الأبد.

وسوف يقوم غيوفري وجميع الآخرين بالتعويض بشكل خلقي على الراعي المذكور مقابل خسائره وذلك بدفع مبلغ أربعين ماركاً، ويتوجب على عمدة هارتفورد، بموجب مذكرة مولانا الملك أن يتدبر جباية المال المذكور من أراضيهم وقطعانهم، ومن ثم أن يجري دفعه من دون تأخير إلى الراعي المتقدم الذكر.

انتخاب فرسان محلفين

جرى انتخاب اثني عشر فارساً بحزام، لدى اجتماع الهيئة القضائية، وبموافقة الفرقاء، ووافق الفرقاء على الالتزام بقرار عشرة منهم، لأن اثنين لم يظهرا، وهما رتشارد بوكس Box، ورتشارد بوتيل Butell صاحب مالدون Maldon في اسكس.

مذكرة المطردة

«من جون أوف وادنغتون Waddington عمدة هارتفورد واسكس إلى المحبوب منه جون دي بيفوري Beyforey، نائبه، تحيات: لقد تلقيت الترخيص التالي من مولانا الملك، ومحتواه، ومقاصده هي كما يلي:

من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، إلى عمدة هارتفورد واسكس، تحيات: نحن نأمركم أن تتدبروا تحصيل مبلغ أربعين مارك من أراضي وقطعان غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، وغيوفري، ورتشارد، وتوماس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وأدم دي سومري، وداوود دي كاربنفيل، في نيابتك، ومن ثم دفع ذلك —من دون تأخير— إلى راعي دير القديس ألبان، مقابل الخسائر التي

عاني منها الراعي المذكور بسبب الخلاف الذي نشب بينه، أي بين الراعي المذكور، وبين غيوفرى المتقدم الذكر، ومعه: وليم، ورتشارد، وتوماس، وهنري، وأدم، وداوود، فيما يتعلق بمطرده الراعي المذكور. شهدت بنفسى، إلخ. وإننى بناء عليه أمرت بتنفيذ أوامر مولانا الملك«إلخ، وجرى التفوه بالحكم فى يوم عيد القديس ديونيسيوس، فى حوالى الساعة التاسعة.

وضع امبراطور القسطنطينية

أرسل فى هذا العام امبراطور القسطنطينية رسالة إلى الملك الانكليزي، بحكم أنه صديقه الخاص، وقريبه، بأنه وصل بنجاح وبقوة كبيرة إلى المناطق الاغريقية، يحيط به جيش قوى من الفرنسيين، وأن اسمه، أي اسم بلدوين، أصبح مرعياً إلى جميع أعدائه، وذكر أنه ألقى الحصار على مدينة كبيرة جداً، ليست بعيدة عن القسطنطينية، وأنه إذا ما تمكن من اخضاعها لحكمه، فإن جميع المنطقة المحيطة لسفر ثلاثة أيام سوف تسقط بين يديه، وأن طريق الوصول إلى القسطنطينية سوف يصبح مفتوحاً وخالياً من الخطر، وأن الحرب تتقدم بين يديه.

استدعاء النائب البابوي إلى البلاط الروماني

وفى هذه الآونة، جرى استدعاء النائب البابوي، بوساطة مذكرة من البابا، بأن يأخذ الطريق إلى بلاط روما، حالما يتمكن من انجاز العمل الذي هو بين يديه، لأن ذلك البلاط كان ينتظر عقد مجمع عام، وأن عليه الاسراع بقدمه بقدر ما يستطيع، لعقد مباحثات حول القضايا الصعبة، مع إخوانه، الذي يحتاجون كثيراً لرأيه الحكيم، ولأن يكون بينهم، مظهراً نفسه فى وسطهم قبل وصول الآخرين، وقام النائب البابوي، بناء على ذلك، وفى إطاعة منه لهذا الاستدعاء، بدون توقف فجمع كميات كبيرة من القش، وأكوام من الحطب، وأشياء أخرى

ضرورية من أجل تمضية الشتاء، ولم يتوقف عن استخراج أموال الوكالات من كثيرين، الذين كانت مقتنياتهم قد أنهكت تقريباً، مما زاد أحزانهم ودهشتهم.

وصول بطرس لى روج من سكوتلندا

في حوالي يوم عيد جميع القديسين، قدم من سكوتلندا لى روج Rouge، وروفينوس Ruffinus، جالين مهما ثلاثة آلاف باوند من أجل استخدام البابا، وقدم من جهة أخرى موميلينوس Mumelinus، جالباً معه أربعة وعشرين رومانياً ليتسلموا منافع في انكلترا، وبهذه الحوادث صار الانكليز في أسوأ وضع، وتورطوا وسحقوا، وباتوا كأنهم بين حجري طاحون من الجهة الأولى، وبين حجرين آخرين من الجهة الأخرى، لأن من الجهة الأولى كان بطرس لى روج، وكان من الجهة الأخرى موميلينوس، ومن جهة أخرى الملك، ومن جهة أخرى النائب البابوي الذي استمر في مضايقة القساوسة، ورجال الدين، والرهبان، وقد سمح ملك سكوتلندا لهذه المضار بالجواز بصمت، مع أن ما من واحد من أسلافه قد تحملها قط.

الإيرل غ. G يتصالح مع الملك

في صيف هذا العام، عندما كان الأيرل رتشارد في لندن، وكان يتباحث مع أخيه الملك، حول هل عليه أن يسافر عبر إيطاليا، أو مره بلياً، وتمّ أخيراً بناء على ترتيبات الراهب ثيودوريك، رئيس رهبان اسبتارية القديس يوحنا، وتقرر القيام بالعبور، مع الراهب المذكور كدليل له، وأن يقلع على ظهر سفينة، لعبور البحر المتوسط، وبينما كان هذا يدور بذهنه، قدم غ. G مارشال إلى الأيرل المذكور، وعرض أن يقوم بحضور الأيرل بتبرئة نفسه من جميع التهم التي عملت ضده، من قبل أي كان، وأن يقدم ترضية للملك قانونية أمام البلاط كله، وفقاً

لقراره، حول القضية التي اشتكى منها، وبناء على ذلك، توسط الايرل رتشارد من أجله لدى الملك، الذي وضع جانباً حقه وغضبه ضده، وإنه على كل حال من المعتقد أن الايرل مارشال، قد نال هذه الخطوة، بوساطة الهدايا، إلى كل من الملك، والايرل رتشارد، وفقاً لما قاله الشاعر:

«إن أفضل الطرق، عليك أن تؤمن

لنيل الخطوة، هي أن تدفع»

موريس مسؤول العدالة يتدبر مصالحة مع الايرل غ مارشال

وعلم موريس، مسؤول العدالة في ايرلندا، بشكل صادق بجميع هذا، فقدم بكل سرعة إلى الملك، الذي كان مقيماً آنذاك في لندن، وكان راغباً في تهدئة مشاعر الايرل غ مارشال، الذي كان يعلم بأنها مشاركة ضده، بسبب موت أخيه الايرل ر. R، الذي قتل في ايرلندا، وقبل كل شيء جاء مستعداً لتبرئة نفسه بكل طريقة بالمحاكمة أمام الملك، وأمام بلاطه، من قتل الايرل المذكور، وذلك وفقاً لقرار النبلاء، وأن يقوم بشكل قانوني بنفي ذلك العار عن نفسه، لأنه يعرف نفسه غير ملطخ بها، وإلى جانب هذا، ومع أنه يعلم بأن ضميره كان نقياً، وعد، أنه في سبيل السلام، ومن أجل إعادة تأسيس صداقتهم الماضية، سوف يؤسس ديراً فخماً، لصالح روح الايرل المذكور، من دون أية اضاءة للوقت، وأنه بكرم سوف يضيف عليه ممتلكات ثمينة، ويجهزه بجمع من الرهبان.

وعندما وجد الملك الثبات في كلامه، وعلم بنواياه التقية، أرسل خلف الايرل غ. مارشال، وتعهد أن يتولى بنفسه أعمال الشفيع والوسيط من أجل إقامة السلام، وادعى بأن النص الذي ورد في الانجيل، حيث أعطي قرار مولانا في قضية الخادم وأتباعه الخدام، كان

صحيحاً تماماً، وينطبق على هذه الحالة، وأعلن بإصرار —وفقاً للقرار اللاهوتي— بأنه هو —أي المارشال— كان غير جدير بعفوه، ما لم يتم بمنح الشيء نفسه، بمشاعر طيبة، إلى جاره، عندما يطلب ذلك منه كتوسل، وهو الذي كان راغباً في تبرئة نفسه من الجريمة التي ألصقت به، لأنه أكد أمام الرب، بأنه لم يكن ملطخاً بذلك القتل الذي اتهم بأنه اقترفه، فبتلك الفرية قد أسىء إلى سمعته بدرجة كبيرة، وهكذا أمكن بوساطة الملك والنبلاء، بأن مال الايرلغ إلى الاصغاء إلى التوسلات وإلى صوت العقل، وبحكم أن موريس، تواضع بحكمة بنفسه، تمت إعادة تأسيس السلام والوثام بين الاثنين.

أمير كونوت يشتكي إلى الملك

وفي هذه الآونة نفسها، قدم أمير صغير من منطقة ايرلندا التي اسمها كونوت Connaught، إلى الملك في لندن، وتقدم بشكوى ثقيلة أمام الملك وأمام بلاطه، حول الأضرار الذي أنزلت به من قبل جون دي بورغ Bourg، الذي عاث بدون توقف فساداً بأراضيه بالنار والسيف، ومن أجل جميع هذه الأضرار، طالب الآن بتقديم العدل، وذلك بضبط العدوان الجريء لذلك النبيل، بوساطة السلطات الامبراطورية، والتمس من الملك أن لايسمح لرجل من رعيته المخلصين، الذي تولى دفع جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف مارك إلى مملكته، وذلك منذ أن سمح له بالاستحواذ على أراضيه بسلام، وتثبيت ذلك من قبل الملك جون، الذي أخضعه بالقوة هو ومملكته، وجعله من رعاياه، أن يسمح بشكل غير عادل بأن يحرم من ميراثه بوساطة (حسبما دعاه) مغامر وضيع.

وأصغى الملك باهتمام إلى مطالبه العادلة، وأمر موريس المذكور، الذي كان آنذاك بحضرته، باقتلاع نباتات شجر الجميز غير المثمرة، التي زرعها هيوبرت، ايرل كنت —في الاستخدام المفرط لقوته— في تلك

المناطق، وأن لايسمح لهم بمتابعة النمو، كما أنه كتب أوامر إلى نبلاء
ايرلندا، بطرد جون دي بورغ من أراضيهم، وأن يعينوا ملكاً، ويقىموه
في مملكتهم على أسس من السلام، وبهذه الطريقة، وبوساطة آراء الملك،
ارتفعت آمال الأمير المتقدم الذكر، وقد عاد إلى ممتلكاته.

البابا يسمى للانسحاب من هدنته مع الامبراطور

علم في نهاية هذا الصيف النائب البابوي، بأن البابا قد وافق على
هدنة مع الامبراطور تستمر حتى المجمع العام، الذي كان سينعقد في
الفصح المقبل، فغضب غضباً كبيراً، وأرسل رسالة إلى قداسته، بأنه قد
بات مشوشاً في تفكيره، وجباناً، حتى أن معنوياته قد تحطمت، وأنه
غرق في حالة من اليأس، ولم يكن هذا من دون سبب، لأنه قد جمع
الآن من فرنسا وحدها من المال مايكفيه ويمكنه من دون خوف أن
يتابع الحرب ضد الامبراطور لمدة سنة كاملة، ولدى سماع البابا هذا
ندم، وبات أسفاً لأنه وافق على الهدنة، واستدعى المعلم جون دي
كولونا Colonna، والمعلم ريموند، رئيس كرادلته، الذي كان
الوسيط في ترتيب الهدنة، وهو الذي تدخل مع الامبراطور، وخاطب
الأول بينهما، وهو جون وقال:

«إنني خجل من نفسي لأنني منحت هدنة إلى عدو الكنيسة هذا،
فردريك، وبناء عليه، بما أنك كنت المترجم بيننا في هذه القضية، عليك
الذهاب بكل سرعة إليه، وأخبره، بأنني لم أختار الموافقة على الهدنة،
وتحدها بجرأة، وأعلن بأنني سوف أكون عدوه من الآن فصاعداً، كما أنا
الآن، وكما كنت من قبل»، وعلى هذا ردّ جون قائلاً:

«بعيداً عن التصديق سماع مثل هذا الكلام المتقلب من فم رجل
عظيم مثلك، وأن يرسل هذا إلى مثل ذلك الأمير العظيم، خاصة من
قبلنا نحن الذين لانعد أشخاصاً عاديين، وعلى هذا التقلب، وهذه

الخطبة الخيانية أنا لن أقدم موافقتي بأية طريقة من الطرق، بل إنني أعارضها بثبات»، وعند ذلك قال له البابا: «إنني لأعدك بعد الآن بمثابة كردينال لدي»، وعلى هذا رد جون قائلاً: «وأنا لن أستمّر بالنظر إليك على أنك بابا»، وبهذه الصورة غادر وذهب بعيداً، وتحول من صديق إلى عدو، وعلى هذه الصورة نفسها حدث عندما قال أحد الأباطرة غير العادلين إلى واحد من شيوخه: «اخرج، إنك لم تعد شيخاً لدي» وعلى هذا رد الشيخ بجرأة: «وأنت أيضاً لم تعد امبراطوري»، لأنه كما أن عضو الرعية مرتبط بمولاه، كذلك المولى مرتبط بالرعية.

كيف جمع النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال في فرنسا

وعندما بات هذا معروفاً من قبل الملك الفرنسي، أمر بجميع المال الذي كان النائب البابوي قد جمعه من أراضيه، بناء على إذن منه، واستخرجه من جماعة رجال الدين، بكلمات معسولة، وبتهديدات قاسية، أمر بالاحتفاظ به، حتى يرى نتيجة الأحداث، ولكي يقوم البابا، الذي كان يدعى بنائب المسيح على الأرض، على الأقل بالبرهنة بالصدق في كلامه بهذه القضية، ولذلك استمرت الهدنة غير مخروقة بينهم، باستثناء ماتعلق بأعداء الامبراطور، أي الميلانيين، وبعض الناس من الايطاليين الآخرين، الذين حولهم لم يكن من شأن البابا أن يقلق، لأن شؤونهم كانت قد سويت في البداية، لدى كتابة المعاهدة.

براعة البابا ومكره في جباية المال في انكلترا

وكان البابا يرقب بدقة كل فرصة من أجل جمع المال، ولأنه كان يتوقع غنيمة كبيرة من انكلترا، وكان ينتظر ذلك، أرسل رسالة إلى النائب البابوي، بأن لا يحاول حشد جميع كل رجال الدين مع بعضهم، كما فعل من قبل، فبذلك لن يتمكنوا من تشجيع أحدهم الآخر، أو

الاعتماد على أسبابهم المتقدمة واعتراضاتهم، ومحاولة ذلك ثانية لمعارضة خطته، بل الذي عليه جمع كل منهم واحداً واحداً والسعي هكذا لتطويعهم للقبول بإرادته، والقيام أولاً بإضعاف ثبات الملك، ذلك لأنه هو الذي وقف من قبل إلى جانب رجال الدين وأعطاهم الدعم، وبذلك يصبح ضعيفاً إلى درجة الدمار.

يقظة النائب البابوي في جمع المال

ولدى تسلم النائب البابوي لهذه الرسالة، تحول من بارع بالأذى إلى أكثر براعة، وقام بموجب سلطات البابا، فجمع كتلة رجال الدين كلهم، الذين بانكلترا، وأمرهم بالظهور أمامه في لندن، في يوم عيد جميع القديسين، وبناء عليه، اجتمع في اليوم المحدد جميع رجال الدين والرهبان، ووقتها وجدوا الملك مضاداً لهم، وظهر بمظهر عدو مكشوف بالنسبة إليهم، ذلك أنه أصبح بالنسبة لهم — وهذا كان حاله — ساق قصبة، من يتكىء عليها وهو واثق، يتعرض للجراحة من شظاياها، وبناء عليه، فإن الرهبان، وكذلك رؤساء الشمامسة، ورجال الدين الذين لديهم منافع، الذين جاءوا إلى هناك للوقوف في وجه النائب البابوي ومعارضته، والذين كانوا معادين له بروح عالية على أساس الترافع إلى المجمع القريب الانعقاد، عندما رأوا أنهم أصبحوا بمثابة شياه سوف يلقي بها بين الأنياب الدموية للذئاب، تنازلوا وقدموا موافقاتهم للكلام المعسول والمغوي للنائب البابوي، الذي حوله فيما بعد إلى رماح عدوانية.

موت رهبان درم في روما

وحدث في تلك الآونة، أن رهبان درم، الذين كانوا مقيمين في روما، للحصول على تثبيت لانتخابهم، قد عانوا كثيراً من الأذى، وذلك بسبب المعوقات التي أُلقيت في سبيل اكمال أعمالهم من قبل الملك،

وبذلك باتوا مرهقين من التأخير، حيث كانوا ينصرفون وقد تملكهم الأسى، لذلك سقطوا مرضى، والتزموا بمضاجعهم، حيث انطبق عليهم كلام سليمان في قوله: «الروح المحطمة تجفف العظام»، ولذلك مات أربعة من الذين كانوا مقيمين هناك، وهم كان قد جرى اختيارهم من قبل اخوانهم، لأنهم كانوا يعدون أكثر حكمة من البقية، ولحق الموت أيضاً بعض رجال الدين والمرافقين الذين كانوا بارعين في القانون، والذين أنبؤوا لمساعدتهم وخدمتهم ومواساتهم، وهكذا هلك الفريق الأكثر نفوذاً في الدير، وكان ذلك لاصابتهم بمرض عادي أو لحزنهم وأساهم الروحي، أو لاصابتهم بوباء، أو أنهم سمموا، فهذا كله غير معروف.

وعندما سمع رئيس رهبان درم بهذه الحالة وكذلك الأسقف المنتخب، قهرهما الحزن، وأصيبا بالرعب، بسبب أن الملك المسبب الرئيسي لها، لأنه لم يسمح للكنائس الشاغرة بالتكريس ومع أنه فعل ذلك، يبدو أنه كان وراء هذه المأساة الكبيرة ومدبرها، لذلك تخلى الأسقف المنتخب على الفور، واستقال عن طوعية من منصبه، وأعلن أنه لن يعرف السرور ثانية ولا البهجة، وهكذا عندما وجد الرهبان أنفسهم يمتلكون الحرية لانتخاب أسقف آخر، ذهبوا إلى الملك بالطريقة المعتادة، ورجوه أن يزودهم بالوسائل المناسبة، لانتخاب أسقف، ومنحهم الملك هذا المطلب، لكن في الوقت نفسه كما قال الشاعر:

بأوامر مزيجة، ووعود، وصلوات،

على الفور سوف يظهر المولى وتظهر الابتهالات.

ذلك أنه رجاهم بحرارة كبيرة وتوسل إليهم بتسمية، وانتخاب المعلم بطرس دي أيغيوبلانشي الذي هو الأسقف المنتخب لهارتفورد، والذي كان من مقاطعة بروفنسال من حيث المولد، أو انتخاب بونيفيشس

Bonifacius خال (عم) الملكة، وهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخلاق ومعارف الرجلين، حيث كانا مجهولين بالنسبة لهم تماماً، والذين عرفوه أنهما كانا من طينة أجنبية، وليس لديهما كفاءة لتبوأ مثل هذا المنصب، ولم تكن هناك حاجة لهما في انكلترا، لأن انكلترا غالباً ما قدمت رجالاً أكفاء ومناسبين لإدارة الكنائس حتى في البلدان الأخرى، ولم تكن بحاجة لاستجداء مثل هؤلاء الناس من خارج حدودها، ومن بلدان نائية.

المسلمون يستطلعون الغيب عن طريق القرعة

وفي العام نفسه، وفي وقت مناسب لممارسة العقائد المندسة لعلم تحضير الأرواح، أو فن الحساب، كان المسلمون في الشرق يرغبون بالحصول على معلومات تتعلق بالأحداث المستقبلية المرتبطة بالجيش الصليبي، الذي كان يزحف ضدهم في ذلك الحين، وقد اقترب وصوله، فعملوا تضحية، ووجهوا دعوة مرعبة إلى الشياطين، وألقوا قرعة، وبعد اكمال هذا العمل الواهم، قام كاهنهم الأعلى، بنظرة كئيبة، وبصوت حزين متهدج، فخطب مقدميهم هكذا: «ليكن معلوماً من قبلكم أيها السادة الأقوياء، أن الأقدار معاكسة لنا»، ثم إنه بعدما قام بحركة رمزية وطلب الإلهام من الروح القدرة، تابع الحديث الذي كان قد بدأه قائلاً: «لاتدعو النصر الذي نلتموه مؤخراً، وأعطي إليكم من الرب، يغركم كثيراً، ويفرحكم، لأن هناك هؤلاء القادمون، سوف يطلبون بجرأة دماء الذين قهروا على أيديكم مؤخراً، مع كثير من رداات الفعل الانتقامية»، ولدى سماع الحاضرين لهذا اعترتهم الدهشة، وسأل واحد من كبار مقدميهم، محضر الأرواح المتقدم ذكره، من كان مقدم الجيش الصليبي، وعلى سؤاله تلقى الجواب التالي: «إنه واحد من الشباب، قد اقترب وصوله وبات وشيكاً»، ثم قال المقدم للساحر: «هل هو من أسرة ذلك الملك الشهير الذي ألقى بالرعب بالشرق كله، في وقت مضى؟» وأجابه

الساحر: «إنه حفيد ذلك الملك، ويحمل اسمه» «وكيف هي سماته؟ وماهي قدرته؟» «إن حكمته أكبر، لكن قوته أقل، ومع ذلك تزداد قوته يوماً إثر يوم»، وبهذا استولى الخوف واليأس على الجميع، لكن الساحر عندما رآهم ييكون بشكل وافر، وآسفين من دون ضوابط تابع يتنبأ قائلاً: «لاتبكوا، فالذي علينا هو بالحري أن نصلي وأن نأمل، بأن يعاق بشباك ذنوبهم، ومن الممكن للصليبيين، مثلاً فعلوا مؤخرأ في دمياط، أن يفقدوا حظوة المسيح، ربهم، الذي يحب نقاء الشرف»، وبهذه الطريقة ضعف خوفهم إلى درجة ما.

الميلانيون يحرقون الهراطقة بينهم

وقام الميلانيون في هذه الآونة، من خلال الخوف من العقوبة، وليس من خلال حب الفضيلة، ولكي ينقذوا اسمهم الصالح، ومن أجل أن يكونوا متحررين أكثر في الاجابة على التهم التي عملت ضدهم من قبل الامبراطور، فأحرقوا الهراطقة الذين سكنوا مدينتهم بأعداد كبيرة، وبهذه العملية نقص عدد سكان المدينة كثيراً، وذلك بسبب أنهم كانوا خائفين على أنفسهم، لأنهم كانوا مثل بقية الايطاليين من أعداء الامبراطور، من الحرمان من التمتع بالهدنة، وكانوا واثقين تماماً بالبابا، الذي وعدهم أنه لن يبرم أي صلح —ولا بأي شكل من الأشكال— مع الامبراطور، من دون أن يخبرهم، ومع ذلك وجدوا أنفسهم مرعوبين من صدور قرار قضائي ضدهم، وتدمير شامل لهم في المجمع العام المزمع عقده.

حرمان سيمون النورماني من جميع منافعه إلا واحدة

في هذه الآونة، وبسبب الغضب الانتقامي للملك، جرى حرمان سيمون النورماني، الذي كان لبعض السنين التي خلت، المستشار الرئيسي للملك، والحافظ للختم الملكي، وجاء حرمانه بموجب

سلطات البابا، من جميع منافع باستثناء منفعة واحدة، وطرد بالقوة من رئاسة شمامسة نورويك، وبما أنه كان مستحوذاً على حصة مؤلفة من عدة منافع، ولكي لا يبدو البابا أنه قد وضع يده عليه ثقيلة جداً، ومع أنه لم يظهر هناك أي واحد قد تدخل من أجل سيمون المذكور، فإن البابا حدّد كمية دخل سيمون المذكور بمبلغ مائة ألف مارك، وبذلك صار علامة للنقد لدى معارفه، وهكذا جمع ثمار طرده، كما قال الشاعر:

إنه إذا ما نهض الرجال الأشرار، إنني لن أشكو الآن،

فهم يمكنهم الصعود فقط حتى السماء، لكنهم سوف يسقطون من جديد.

ولقد كان هذا هو الرجل الذي قدم المشورة الشريرة، والمؤذية للمملكة، وهو الذي تسبب ببقاء النائب البابوي في انكلترا، عندما كان مستعداً للسفر للشطر الآخر من الألب، وهو الذي بحضور البابا، عندما سئل من قبله، لماذا لم يجب ملك انكلترا رعاياه الطبيعيين، بل جلب الأجانب ليكونوا مستشاريه، أجاب: «لا يوجد في هذه الآونة ولا واحد انكليزي برهن على الاخلاص في انكلترا، يمكن للملك أن يثق به وباخلاصه»، وهو الكلام الذي أغضب المعلم روبرت سمرкот، الكاردينال، والذي كان انكليزياً من حيث المولد، حيث قاطعه، ووجه اللوم بحدة إليه.

أخبار سارة من الأرض المقدسة

أثناء هذا العام، وبعد جميع الآلام والمعيقات التي عانى منها عباد خطوات المسيح، من الفرسان الصليبيين جداً في الأرض المقدسة، أعطى الرب مواساة عظيمة إلى شعبه، حسبما ورد خبر ذلك في الرسالة التالية:

«من الراهب هيرمان أوف بيرغورد Hermann of Perigord، الذي هو بنعمة الرب المعلم

المتواضع لفرسان الداوية المساكين، إلى أخيه المحبوب بالمسيح، المعلم روبرت ساندفور رئيس بيت الفرسان المذكورين في انكلترا، تحيات في الرب:

إننا نرغب في أن نعلم جماعتكم، انه بعدما أقام الجيش الصليبي لوقت طويل فوق الرمال، وهو منهك لايعمل شيئاً، ولايستطيع اتخاذ قرار حول الطريق الذي سوف يتبناه، أو ما الذي سوف يعمل، حتى قام الرب أخيراً فزاره وهو الرب القائم في عليين، وذلك ليس بفضل محاسنه، بل بفضل رحمته المعتادة، لأن سلطان دمشق، قد قام ليس لخوفه من الصليبيين، بل لتدخل اعجازي من الرب، فأعاد إلى السلطة الصليبية المنطقة كلها، الممتدة بأكملها من نهر الأردن، ومع هذا ميثاق واتفاقية بين الفريقين، قضت بأن الفريق الأول سوف يساعد الفريق الآخر إلى أقصى طاقته، في الدفاع عن بلاده ضد سلطان مصر، وأن لايعمل أي واحد من الفريقين مصالحه مع السلطان المذكور، من دون موافقة الفريق الآخر، وجرى استقبال هذه الاتفاقية بموافقة عامة، مبارك الرب من أجل كل شيء، الذي أمن هذا، وقد قيل بأن هذا كله قد عمل نتيجة للنبوءة التي لم تكن لصالحهم، وهي النبوءة التي أتينا على ذكرها في الصفحة المتقدمة.

وكان الرسول الذي حمل هذه الأخبار من الأرض المقدسة، قد التقى باسطول الايرل رتشارد وهو مسافر بشكل موفق، كما أنه أعلن، أن سلطان دمشق، قد اقترح بشكل مؤكد تماماً بأنه سوف يتلقى طقوس التعميد».

رسالة الامبراطور إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة، كتب الامبراطور، الرسالة التالية إلى ملك انكلترا:

«من الامبراطور إلى الملك، تحيات:

إنظر إلى أي مدى عمل ضدنا في حالة الضغوط الحالية، اللومبارد،

والكاهن الأعلى للرومان، وذلك بمشورته المريضة الغاضبة، فهذا ما أفادتكم به التقارير العامة، بما فيه الكفاية، وتبصر كيف أنه قبل أن يحمل السلاح، قد ألقى جانباً جميع الاحترام للديانة، ولكرامة منصبه الحبري، وعيّن نفسه قائداً، ومقدماً لرعايانا العصاة، ولذلك نطالب بعقد مجمع عام، وبشكل خاص حضور رسل من عندكم، ولاأعتقد أن هذا سر لجلالتكم المخلصة، وثانية، إنكم فيما أعتقد قد علمتم كيف أنه بمبادرة من قبل بعض إخوانه، الذين كانوا يصممون خطة للتخلص من مثل هذا الخطر، وكيف أن جلالتنا تلطفت بالموافقة أكثر مما توقعوه وسألونا إياه، واستبعدنا اللومبارد فقط، فلم نسمح، باسترداد أنفاسهم، بوساطة الهدنة، وبعيداً عن الغضب، وهو أمر غير معتاد بالنسبة للكهنة، وقد ابتغيّا تجنب فضيحة عامة، وأن نعثر على وسائل لإعادة تأسيس السلام، كي لا نؤخر تحرير الأرض المقدسة.

وهو على كل حال، لم يسمح للومبارد، الذين كان متعاهداً معهم، باستبعادهم من هدنتنا، عادداً معاناة الميلانيين والمرتبطين بهم أكثر أهمية من الانشطار، الذي انقسم به العالم كله، وعندما لم نوافق على هذا بأية وسيلة من الوسائل، ولم نسمح للذين هم مجرمون بالخيانة ضدنا، بأن يكونوا مشمولين بهدنتنا، أو أن نسمح لهم بأن يزدادوا قوة بوساطة الحماية البابوية، بأي شكل من الأشكال، وأخيراً عندما رأى بأن المتمردين المذكورين ضدنا، كانوا ضعفاء بالشجاعة بأنفسهم، وأنه لايمكنه أن يمنحهم الخلاص بوساطة السلام ولو لبعض الوقت، قام بعد ذلك بتحويل عقله لإبداع خطط أخرى، وسعى بوسائط الأسقف المحترم لبريشيا، الذي كان قادماً إلينا، ليتولى اقناعنا، بحكم أنه كان شاغلاً نفسه (كما ذكر) في استدعاء الرسل من لدن عدة ملوك وبعض الأمراء، والأساقفة من البلدان الغربية إلى المجمع، في سبيل إعادة تأسيس السلام بيننا وبين الكنيسة، بأن ندخل العصاة اللومبارد المتقدم

ذكرهم بالهدنة معه، وهي الهدنة التي سوف تستمر حتى العيد المقبل لقيامه ربنا، معطياً سبباً لذلك، أنه من خلال هدنة عامة، سوف يجري تقديم الأمن للذين جرى استدعاءهم إلى المجمع.

أصغ إلى طريقته العجيبة هذه بالتلاعب علينا، وتصاميمه الماكرة جداً في سبيل القضاء على قضيتنا العادلة، حيث تراه أحياناً يتظاهر بأنه يرغب بأن يحتفظ بالسلام معنا، فيقدم مظهراً للوئام معنا، في سبيل أن يتمكن هؤلاء اللومبارد في تأسيس عصيانهم، بأن يكسبوا بوساطة الهدنة فرصة لاسترداد أنفاسهم، ومن ثم التمكن في الوقت نفسه بالحصول بحرية أكبر على مساعدة الأساقفة، القادمين للالتحاق بالخصام ضدنا.

وهكذا يمكنك أن ترى بوضوح بأنه يريد من عقد هذا المجمع، زيادة الخلاف وليس صنع السلام، وانتبه إلى شكل الدعوات، التي لم يرد فيها ذكر قيامه بإعدادات من أجل السلام المقبل، باستثناء تأكيدته بأن الدعوات الحالية هي ضرورية لتسوية القضايا الكبيرة والصعبة للكنيسة الرومانية، وانظر إلى الوقت، عندما سعى إلى فرض النائب البابوي علينا، قبل المجمع، وبعدما قاتلنا بطريقة عدوانية، وقدّر الأشخاص الذين دعاهم، ورفضه رسل جلالتك، الذين غالباً ماعرضت من خلالهم العمل على ترتيب هذا السلام معه، وهو على سبيل المثال وجه الدعوة بالحاح لحضور هذا المجمع إلى كونت بروفانس، الذي هو متمرد مكشوف ضد جلالتك، وإلى دوج البندقية، وإلى مركيز أوستيا، وإلى كونت القديس بونيفاشيو Bonifacio، وإلى الماريك دي رومانديولا Almeric de Romandiola، وبياكوين Biaquin، وغوستينو دي كامينو Giustino de Camino، وبولص ترافيرساري Traversari، فهؤلاء بعدما قدم لهم هدايا مالية، حثهم — كما هو واضح من التقارير العامة — على إلحاق الضرر بنا.

وعلى الرغم من هذا كله، واحتراماً منا للملك الذي هو في عليين، رأينا من المناسب الاجابة على هذا المدعو أسقفاً، لأنه ليس لدينا أية خلافات مع الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمانا، بل إننا ندافع عن القضية العادلة ضد عدوان هذا الحبر الروماني، ونبعد المضار التي عملت من قبله..

ومع هذا، لقد رغبتنا دوماً، ومازلنا نرغب، في أن نكون بسلام، في سبيل أن نتجنب شقاق عام في العالم، ولكي لا تكون الترتيبات من أجل السلام آتية من أطراف نائية، قمنا من خلال هذا الأسقف المذكور، ومن خلال أشخاص صالحين آخرين، كانوا على دراية بعدالة قضيتنا، وكانوا راغبين ومتطلعين لترتيب السلام وإعداده فوراً، في سبيل التمكن من إزالة هذه الشرور على الفور من بيننا، كما أننا وافقنا على الدخول بهدنة مع الحبر المذكور، مع أن ذلك ليس لصالحنا، ومع الذين كانوا مستعدين لجميع فرص الحرب ضدنا، آمليين بالهدنة، مثل الأمل بمرقاة حفظ الحياة، بأن نصعد إلى الأماكن العالية للسلام بسهولة أكثر.

أما بالنسبة إلى اللومبارد المتمردين ضد مقامنا الملكي، سوف نظل على الدوام، وكما فعلنا دوماً، متمسكين بإقصائهم عن جميع العلاقات والارتباطات بهذه الهدنة، كما أننا، في الحالة الحالية الحرجة للأمور بيننا وبينه، لن نسمح بعقد المجمع من قبله، الذي هو مكشوف للامبراطورية، لأنه يتوجب أن نعهده غير موائم البتة لنا وللامبراطورية، كما لن نسمح لجميع نبلاء البلاد بعرض قضيتنا على محكمة مشكوك بها، أو لأن يتخذ قرار بشأنها من قبل المجمع الكنسي، ونرفض منح أي أمان بالمرور للأشخاص أو المقتنيات، للعبور خلال الأراضي الخاضعة لحكمنا، وذلك يشمل جميع المدعويين إلى المجمع.

وبناء عليه، إننا بهذه العروض نحث جلالتكم على نشر إعلاننا الملكي هذا، بوساطة كل واحد من أساقفة مملكتكم، وأن تنشروا ذلك في الخارج، حتى لا يأتي أحد إلى هذا المجمع، ولديه أية ثقة بتسلم أمان عبور منا، لأننا مهما كنا راغبين في اظهار الاحترام لرعايا مملكتكم، على أساس العواطف الخاصة التي نحملها نحوكم، مع ذلك لا يجوز لنا أن نكون متسامحين تجاه الوقاحة الموجهة ضدنا من قبل الذين سوف يأتون بناء على دعوة من عدونا. صدر من معسكرنا، لدى محاصرة فيانزا Faenza، في هذا اليوم الثالث عشر من أيلول، في العلامة الثالثة عشرة».

البواعث التي أقنعت الامبراطور بالسعي للوقوف في وجه المجمع

كان الامبراطور مثاراً لأسباب باطنية، ولأسباب أخرى، وخشية منه، أن الخيانة قد خططت ضده في عقد هذا المجمع، لذلك اتخذ اجراءات للوقوف ضده، كما أنه كان منذراً جزئياً بالأسباب التي ورد ذكرها أعلاه.

وبناء عليه، اشتكى الامبراطور في المقام الأول من الموعد غير الموائم والمفاجيء للتسوية، الأمر الذي لم يكن موافقاً عليه البتة.

ومجدداً لأنه كان قد ترتب من قبل، وتقرر بموجب موافقة متبادلة من البابا وكذلك من الامبراطور، بأن لا يقوم البابا بدعوة المدعوين لحضور المجمع، عندما سيجري عرض قضية الفريقين بشكل خاص للمناقشة.

ومن جديد، صحيح أن المجمع كان سيدعى إليه من أجل إعادة السلام وتثبيتته بقوة، بينهما، وليس من أجل سبب آخر، لم يذكر البابا هذا السبب في مذكرة الدعوات، بل الذي ذكره كان فقط: «تسوية

المشاكل الصعبة للكنيسة»، وبذلك طمس كلياً القضية التي من أجلها بشكل رئيسي توجب الاستدعاء، وبذلك خرق وعوده التي عملها، وكانت قد تأكدت من على الطرفين.

ومجدداً، قال الامبراطور بأن البابا قد دعا إلى المجمع أعداء الامبراطورية المعلنين والمكشوفين (الذين ذكر الامبراطور أسماءهم في رسالته)، وقد رشاهم بهدايا فخمة، حتى يستجيبوا للنية الفاسدة، ولكي يوصموا باسم خونة إلى الأبد، هم وذريتهم، فإلى مثل هؤلاء الناس كان سيعهد بمهمة ترتيب الأمور الصعبة للامبراطورية.

ومن جديد قال الامبراطور:

«إنه سعيّاً من أوتو، النائب البابوي في انكلترا، ومن ملك انكلترا للخط من شأني، قد سحب تقريباً جميع أموال تلك البلاد، وتسبب بالتفوه بتكفيري، وبإعلان ذلك ضدي في تلك المملكة، مما ألحق إهانة كبيرة بالامبراطورية، ولو ث كرامتنا كثيراً، ولذلك يتوجب علينا لسبب جيد أن نعدهما مع جميع أساقفة انكلترا، بمثابة أعداء لنا، وكذلك بقدر ما صبا أموالهما من أجل ائذائنا، وتلويث شرفنا ومحقه، إلى أقصى درجات قوتها، ولم يتأثرا بحال أنني حليف للملك الانكليزي، ومرتبطة به بروابط القرابة، وأنني لم أؤذيها قط، ولذلك سوف يكون أمراً غير طبيعي، ومتناقضاً تماماً مع العقل بالنسبة لي، بأن أحاكم من قبلهما».

وقال الامبراطور مجدداً بأنه «بوساطة التأخير الذي نجم عن الهدنة التي تمّ الاتفاق عليها، والتي هي مشكوك بها من قبلنا، لابل مؤذية لنا، ففي أثناء البحث بشؤون المجمع (التي ربما لن يجري على الفور تقرير تسويتها) سوف يكون بإمكان أعدائنا استرداد أنفاسهم، وبموافقة البابا وتشجيعه، وهو الذي عيّن نفسه مقدمهم، والمدافع عنهم، وبطلهم، سوف ينهضون بقوة جديدة لمهاجمتنا».

ومجدداً قال الامبراطور بأن «البابا كان ينتظر مبلغاً كبيراً من المال، يجري استخراجُه من أساقفة فرنسا وانكلترا بشكل خاص، وهو المبلغ الذي وعد بإعطائه إلى أعداء الامبراطورية، ومن هذا المبلغ يستمد البابا وهم معه ثقتهم، وفخارهم، وأن الامبراطور، بناء على ذلك، لديه سبب مسوغ بأن يخاف من النتيجة على نفسه»، وتستمد هذه العادة المقيمة أصلها من سلفه أنوسنت، الذي قام أثناء المجمع الأخير، لابل بالحري بعد انتهاء المجمع، بعدم السماح للأساقفة بالمغادرة، حتى استخرج البابا المال منهم، واحداً واحداً، دون إعطاء تقدير إلى متاعب ونفقات، واضطرابات الأساقفة أثناء سفرهم.

ومجدداً قال الامبراطور بأن جميع الأساقفة، وبشكل خاص أساقفة انكلترا، يعدّون أنفسهم مرتبطين باختصاصهم ويمينهم بالبابا الذي هو مولاهم الاقطاعي، وليسوا مرتبطين بالامبراطور أو بالامبراطورية، ولذلك عدّ الامبراطور، بأن قرارهم، سوف يكون لسبب جيد، مسألة مشكوك بها، ومخشي منها من قبله، خاصة وأن البابا معروف بأنه عدوه الخاص والمميت، ويمكنه بسهولة أن يحطّ من شأن قرار كهنته، وهو أيضاً يسعى، ويستغل كل معارفه وفنونه لتدمير الامبراطور وكذلك الامبراطورية، ولكن وفقاً لما قاله أوفيد:

«المسافر الحكيم مثله مثل اللص

بالسيف يسلح نفسه،

ليس مثله، لقتال الآخرين

بل ليحفظ نفسه من الأذى».

وبناء عليه، بعدما وزن الامبراطور هذه النقاط، مع نقاط أخرى غير معروفة من قبل الناس، في ميزان البراعة العقلية، ولمعرفته بأن كثيرين كانوا يتآمرون من أجل إلحاق الأذى به، بدأ بشكل حضاري بالرسالة

المتقدم ذكرها، بإنذار جميع الذين استدعوا وكانوا قادمين إلى المجمع، وتحذيرهم من المخاطر المحيطة بهم، وأنه سوف لن يقدم الحماية إلى الذين شقوا طريقهم خلال ممتلكاته.

وصول الإيرل رتشارد إلى الأرض المقدسة بعد رحلة موفقة

في هذه الآونة، كان الإيرل رتشارد، الذي كان مسافراً في رحلته إلى الأرض المقدسة قد وصل أخيراً سالماً إلى الأرض المقدسة، وكان وصوله بعد عشرين يوماً من عيد القديس ميكائيل، إلى ميناء عكا، ووصل معه أيضاً الاسطول الأجنبي الذي التحق به، ولدى نزوله إلى اليايسة استقبل بسرور عارم من قبل الأساقفة، ورجال الدين في مسيرة، وهم يرتدون ملابسهم المقدسة، وأيضاً من قبل مقدمي الفرسان، الذين قدموا لمقابلته باحترام وافر، وذلك وسط هتافات الناس، وقرع الأجراس، وغناء رجال الدين، وموسيقى الصنوج والزامير، بحضور مجموعة من الراقصين، وهكذا بدا وصوله أنه متحد مع سكان السماء، حيث تجددوا مع سرور لا يمكن وصفه وفرح، ولذلك رفعوا أيديهم نحو السماء، وصرخوا قائلين: «مبارك القادم باسم الرب»، وفي اليوم الثالث بعد وصوله، أمر بالإعلان بوساطة صوت المنادي في عكا، بأنه ما من واحد من الحجاج الصليبيين عليه المغادرة، بسبب الحاجة إلى المال، بل عليهم جميعاً البقاء، والقتال بجرأة من أجل المسيح، وهم سوف يعيشون بوساطة الدفع من قبله.

موت إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبينما كان دولا ب الحظ يتغير هكذا، مبدلاً مجرى الأحداث العالمية، تهاوى بالعقل وبالجسد، ادموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان قد ذهب متطوعاً إلى المنفى في القارة، وكان يقول متعجباً مع تهديدات متواصلة: «آه، كم هو أفضل للإنسان أن يموت، على أن يرى معاناة

الناس والقديسين على الأرض»، وبالنسبة للذين ربطهم بالحرمان، والنائب البابوي، قام بدون اهتمام بكرامته، ولا بعدم حظوته، فحللهم، والعكس صحيح، وبناء عليه، كان في رغبته بالتفاني، ولأن يكون مع المسيح، كان يصلي كما يلي: «الويل لي، لقد طال أمد نفسي، لقد بات كافيًا، لابل أكثر مما هو كاف، ذلك أنني رأيت جميع الأشياء المرتبطة بالتدمير والخراب، خذ حياتي، يامولاي وربي»، وكان رئيس الأساقفة المذكور مقيمًا منذ أيام في بونتني، حيث سكن سلفه الشهيد المبارك توماس، في وقت مضى، أثناء نفيسه، وفي هذا المكان، مع الدموع والصوم، كان يقدم الصلوات إلى الرب ليلاً ونهاراً، وإلى المبارك توماس، حول وضع الكنيسة الانكليزية، التي كانت في حالة من الرعب هائلة، وأخيراً أصابه الإعياء بسبب التقشف، وتهاوى بسبب الحزن، ولأن جسده بات فارغاً، فقد تقلص وضعف، فسقط مريضاً مرضاً شديداً، وبناء على نصيحة أطبائه سمح بنقل نفسه إلى سويسري Soissy في سبيل الاستشفاء بهواء أفضل، وبعدما عاني لبعض الوقت من الذرب الشديد، تحرر من روابط الجسد، وقال وداعاً إلى هذا العالم الشرير، وغادر طريق الجسد، وهكذا فإن روحه استبدلت بسعادة النفي في هذه الحياة بالعيش في الديار السماوية، وبالفعل كان هو في منفي، وجسده فقط عمل حجاً في هذه الحياة، وقد أنك تحت كثير من أسباب الغضب، فقد حلل العصاة ضد الكنيسة من عقوبة الحرمان الكنسي المحقة، وكذلك النائب البابوي المتمرد والذي هو بدون احترام، فقد قام هذا بناء على موافقة الملك، فاستأنف بطيش القيام بأعمال أخرى، ليس لها علاقة بمنصبه، من أجل إلحاق الضرر برئيس الأساقفة المذكور، الذي هو الأول في جميع انكلترا، وقام مصدر الازعاج هذا، بإثارة أساقفة انكلترا بالقوة، وكان هناك واحد من الهجائن عندما كان الملك والنائب البابوي، يتمازحان بالحديث مع بعضهما، ويعد أحدهما الآخر بالتعاون معاً ضد كل واحد في كل شيء، وقتها تولى الهجاء

لومهما بما فيه الكفاية بقوله الكلمات التالية:

«امض، امض، الآن سوف أعرف أنه عندما يدخل الراعي والذئب في معاهدة سلام، سوف تقع مذبحه دموية بين الأغنام».

دفن إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبهذه الطريقة، غادر بناء عليه، في السادس عشر من تشرين الثاني، في ثمانية القديس مارتن، إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، من هذا العالم، وهو معترف، ومشابه بكثير من النقاط ذلك القديس والمُعترف، وحدثت وفاته في بيت للكهنة النظاميين في سويسري، وأثناء إقامته هناك، خلال حياته، اعتقد الكهنة مرة بأنه مغادرهم وذهب من عندهم، وبناء على ذلك قال له رئيس ذلك المكان: «لماذا أنت مغادرننا، ومبتعد عنها، يامولاي؟ لماذا سوف تهجرنا، إنك سوف تتضايق أثناء السفر، استرح بسلام معنا»، وعلى هذا ردّ رئيس الأساقفة قائلاً: «إن قلبي سوف يبقى معكم»، غير أنهم لم يفهموا كلامه، فهو على كل حال وقع مريضاً، ومات هناك، وبعد موته جرى فتح جسده، وتم دفن أحشائه وقلبه هناك، وكان ذلك المكان على بعد عشرين فرسخاً، أي أن تقول سفر يومين عن بوننتي، وهكذا انفتحت أعينهم أخيراً، وفهموا معاني الكلمات التي تفوه بها رئيس الأساقفة.

وعند ذلك قام كهنته وخدمه، بلف جسده المقدس (كما كانت العادة) في ثيابه الحبرية، وحملوه إلى بوننتي، على محفة خشبية، ليدفن هناك، لأنه في أثناء حياته، عندما رأى أنه لابد مغادر لهذا العالم بالحال، عهد بقضيته إلى الرب وإلى القديس توماس (الذي عندما نفي من انكلترا للسبب نفسه، مثله هو، وجد ملجأ هناك) ومنح جسده إلى كنيسة بوننتي.

وعندما كانوا مسافرين، حاملين لجسده المقدس، من أجل دفنه، تدفق

المرضى عليه بسبب شهرة قداسته، وبثقة سألوه راجين أن يعودوا إلى الصحة بوساطة المسيح، ومن خلال صلواته، وفي أحد الأيام، وبسبب فضائله الكبرى، تنازل الرب ثلاث مرات فأشار بوضوح إلى هذا الرجل المقدس، وبسبب فضائله الكبرى، ومع معجزات كبيرة، وعنوان القداسة، من أجل ذلك جرى غناء ترنيمة الملائكة: «نحن نثني عليك، يارب» ثلاث مرات بشكل مهيب وتقوي.

وبناء عليه، فإن بونتي، التي كانت في وقت مضى مكان التجاء ومأوى لتوماس المبارك، تسلمت باستحقاق جسد المعترف، الذي عندما جرى دفنه، اكتشف أن الدود قد أكله، وتلاشى بوساطة المسوح، وأن ركبتيه، بسبب الانحناء المتواصل في الصلاة، قد ظهرت عليهما علامة وتجملتا بصلاية مقدسة، وهذا كله قد تحدث عنه بشكل مكشوف القديس توماس المذكور.

انطلاق أساقفة إنكلترا نحو روما

أثناء هذه التبدلات المتنوعة للأحداث، تراجع الامبراطور عن مراعاة الهدنة المتفق عليها من قبل، وذلك مثلما كان البابا قد فعل من قبل، ثم إنه قام بوحشية بالتضييق على المدينة التي كان يحاصرها، وقام الأساقفة الانكليز — على كل حال — والنائب البابوي، في طاعة منهم لأوامر البابا، بالاستعداد بجرأة، مع أن ذلك شكل مخاطرة كبيرة لأنفسهم، لعبور الألب أثناء عيد الميلاد المقبل.

تكريس بطرس دي ايغيوبلانشي أسقفاً على هارتفورد

في هذه الآونة، وفي يوم الأحد التالي قبل عيد الميلاد جرى تكريس المعلم بطرس دي ايغيوبلانشي Aigueblanche أسقفاً على هارتفورد، وكان ذلك في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بحضور الملك، والنبل، ووسط هتافات الجماهير، وفي الوقت نفسه

حرك رهبان كانتربري بنشاط دعواهم ومطلبهم بممارسة امتياز كنيستهم، وعرضوا ذلك على النائب البابوي وعلى رئيس أساقفة يورك، وكذلك على الأساقفة الآخرين، والنبلاء الذين كانوا حاضرين.

جلب تاج الشوك العائد للرب إلى فرنسا

ازدهرت فرنسا في هذا العام، وفرحت، بنيلها المنح من مولانا يسوع المسيح، لأنها إلى جانب المكافأة التي نالتها مع جسد ادموند المعترف، الذي نقل نفسه من انكلترا، لقد فرحت بالحصول على تاج ربنا المصنوع من شوك، وجاء الحصول عليه من القسطنطينية، لأنه في أيام الحاجة، وعندما كانت الأموال غير كافية (وهو الحال المعتاد بشكل عام مع الذين يتابعون الحرب)، بعث بلدوين، امبراطور القسطنطينية رسالة إلى الملك الفرنسي يقول فيها، بما أنه لآمال لديه، إذا ما أعطاه الملك الفرنسي مساعدة مالية فعالة، سوف هو يعطيه — أي الامبراطور — التاج الحقيقي لربنا، الذي نسجه اليهود ووضعوه على رأسه عندما كان سيتألم على الصليب من أجل تخلص الجنس البشري، وأنه سوف يفعل ذلك تقديراً منه لروابط الصداقة القديمة بينهما، ولقرايتهما.

وقام الملك الفرنسي بناء على نصيحة مستشاريه الطبيعيين، فوافق عن طواعية على هذا، وبالوفاق مع أمه، بعث بكرم بمبلغ كبير من المال إلى الامبراطور بلدوين، الذي لحق الإنهاك أمواله بسبب الحروب المستمرة، وهكذا أعاد تجهيز خزينته، فشجع ذلك أعوانه، وجيشه وشعر بلدوين بالثقة والأمل بالحصول على نصر على الإغريق، ومقابل هذا تم الحصول على منفعة كبيرة من الملك، وقام الامبراطور، تنفيذاً لوعوده ولاتفاقاته، فأرسل بوفاء إليه تاج المسيح، الذي هو أعلى قيمة من الذهب ومن الأحجار الكريمة، وبناء عليه جرى استقباله بمهابة وتقوى، وذلك لصالح المملكة الفرنسية، وفي الحقيقة لصالح جميع اللاتين، واحتفي به بمسيرة وسط قرع الأجراس، والصلوات المخلصة

للمؤمنين أتباع المسيح، ووضع باحترام لائق في بيعة الملك في باريس.

الاجتياح التتاري

في هذا العام، حتى لا يستمر السرور البشري طويلاً، وكي لا يطول أمد شعور العالم بالبهجة، من دون أن تمتزج بالنحيب، قام قطع هائل من عرق أبناء الشيطان المقيت، أي التتار، فتدفق أفرادهم من مناطقهم ذات الحدود الجبلية، وشقوا طريقهم بين الصخور التي بدت وكأنها لا يمكن خرقها، واندفعوا وكأنهم شياطين قد تحرروا من تارتاروس Tartarus (ولهذا السبب يعرفون باسم تتار، لأنهم كانوا سكان تارتاروس) واجتاحوا المنطقة، حيث غطوا وجه الأرض مثل الجراد، وعاثوا في البلدان الشرقية ودمروها تدميراً مريعاً، ونشروا النار والقتل حيثما ذهبوا، وجالوا خلال البلدان الإسلامية، حيث اجتثوا المدن إلى الأرض، وأحرقوا الغابات، وهدموا القلاع، وقطعوا أشجار العنب، ودمروا الحدائق، وذبحوا السكان والفلاحين، وكانوا إذا ما أبقوا بعض الناس أحياء، ممن رجوهم الحفاظ على حياتهم، أرغموهم، كعبيد من أدنى الدرجات، على القتال أمامهم ضد أقربائهم، وإذا ما تظاهروا فقط بالقتال تظاهراً، أو قاموا ربما بإنذار أبناء وطنهم حتى يفروا، كان التتار الذين يسرون خلفهم في الساقة يتولون قتلهم، وإذا ما قاتلوا بشجاعة، فإنهم ما كانوا يحصلون على شكر عن طريق التعويض، وهكذا أساء هؤلاء المتوحشون معاملة أسراهم، وكأنهم كانوا من الدواب، والرجال لديهم ليسوا من البشر، ولهم طبائع الحيوانات، أو بالحري تتوجب تسميتهم بالتينات وليس البشر، متعطشين وراء شرب الدماء، وتمزيق أجساد الكلاب وبني البشر والتهامها، وهم يلبسون أنفسهم جلود الثيران، ويتسلحون برماح حديدية، وهم قصار القامة، وأجسادهم شديدة الكثافة، وقوية جداً، لا يشاهدون في المعركة، ولا يمكن هزيمتهم في العمل، وهم لا يرتدون دروعاً على الأجزاء الخلفية من أجسادهم، بل

يدافعون عنها ويحمونها من الأمام، وهم يشربون الدماء التي تتدفق من القطعان، ويرونها شهية ولذيذة، ولديهم خيول عريضة وقوية جداً، تأكل أوراق الأشجار، لابل الأشجار نفسها، وبسبب قصر قوائمهم، من الممكن الاعتلاء على ظهورهم ثلاث خطوات، بدلاً من الركابات، وليس لديهم شرائع بشرية، ولا يعرفون الرحمة، وأكثر وحشية وشراسة من الأسود أو الدببة، ولديهم قوارب مصنوعة من جلود الثيران، ولكل عشرة أو اثني عشر رجلاً منهم واحد يتشاركونه فيما بينهم، وهم بارعون بالتجذيف والسباحة، ولذلك تراهم قادرين على عبور أسرع الأنهار، من دون أي تأخير أو اضطراب، وعندما لا تكون لديهم دماء، هم يشربون بنهم المياه العكرة لابل حتى المياه الموحلة.

ولديهم سيوف وخناجر بحد واحد، وهم رماة ماهرون، لا يفرون جنساً، ولا عمراً، ولا رتبة، ولا يعرفون لغة أية بلد من البلدان، باستثناء لغتهم، التي يجهلها جميع الناس والشعوب، لأنه حتى الآن لم يجرب أحد الوصول إليهم، أو هم أنفسهم قاموا بالاتصال بسواهم، بحيث يمكن الحصول على أية معرفة بعاداتهم أو أشخاصهم، من خلال التواصل العام مع الناس الآخرين، وهم يأخذون قطعانهم معهم، وكذلك يفعلون بالنسبة لزوجاتهم المدربات على القتال، مثل تدريب الرجال، وهم يدخلون إلى أراضي المسيحيين بقوة سريعة كالبرق، فيعيثون فساداً في البلاد، ويقترفون مذابح كبيرة، ويحدثون رعباً لا نظير له، وخوفاً في كل إنسان.

ولهذا رغب المسلمون، والتمسوا السماح لهم بالدخول بتحالف مع المسيحيين، في سبيل زيادة قوتهم، حتى يتمكنوا من مقاومة هذه الوحوش البشرية، ويعتقد المسلمون هؤلاء ذوي الذكرى المقيتة، أنهم من الأسباط العشرة التي تخلت عن شريعة موسى، واتبعوا عبادة العجول الذهبية، وأن الاسكندر حاول أن يجبسهم خلف شعاب جبال

قزوين، بوساطة أسوار بنيت بملاط من القار، ولكن بما أن هذا العمل فوق طاقة البشر، ومن غير الممكن انجازه، طلب العون من رب بني اسرائيل، وبناء على ذلك اتحدت شعاب الجبال أحدها مع الآخر، وصار المكان لا يمكن الوصول إليه، كما لا يمكن عبوره، وحول هذا المكان يقول يوسفوس: «كم من الممكن أن يفعل الرب لعبيده المخلصين، عندما فعل هذا كله للكفار، ومن هذا واضح بأن الرب لم يكن راغباً بخروجهم، ولكن كما هو مكتوب في التاريخ اللاهوتي، هم سوف يخرجون في نهاية الدنيا، وسوف يقتربون مذبحه كبيرة بين البشر»، وانه لأمر مشكوك فيه، فيما إذا كان هؤلاء التتار، الذين ظهروا في هذه الآونة، هم الناس المقصودين بالذكر، لأنهم لا يتكلمون اللغة العبرية، كما أنهم لا يعرفون شريعة موسى، كما أنهم لا يتمتعون، ولا يداونون أو يحكمون، من قبل مؤسسات قانونية، ويردون على هذا، إنهم مع ذلك، من الممكن أنهم هم أنفسهم بعضاً من الذين حبسوا في الجبال، والذين تقدمت الإشارة إليهم من قبل، وبما أنه كان هناك في أيام حكومة موسى عصاة في قلوبهم، ضلوا فاتبعوا طريق الشيطان في التفكير، وبذلك اتبعوا الأرباب الأجانب، والعادات غير المعروفة، ومثل هذا هم اليوم، وبطريقة أكثر إدهاشاً، وبسبب انتقام الرب، كانوا غير معروفين لدى جميع الأمم الأخرى، وكانت قلوبهم ولغاتهم قد تمازجت، وعاداتهم قد تغيرت إلى الطبائع الوحشية والتصرفات الحيوانية غير العقلانية، وهم الآن يعرفون باسم التتار، ونالوا هذا الاسم من نهر اسمة تتار، يجري خلال جبالهم، فمن خلاله اتخذوا طريقهم، وذلك مثلما يطلق على نهر دمشق اسم فرفر.

آلام الأسرى الصليبيين في الأرض المقدسة

وطوال هذه المدة كلها، كان النبلاء الفرنسيون الذين أسرهم سلطاني دمشق ومصر، محبوسين في سجن ضيق، وفي أحد الأيام أمر سلطان

مصر ببعض الأسرى من النبلاء الفرنسيين بجلبهم إلى أمامه، وكان من بينهم الكونت أليمرىك Almeric دي مونت فورت، حيث أمر به للمثول بحضرته، لأن السلطان قد عرف بأنه كان من أكثر النبلاء مكانة بين أسراه، وكان جاهلاً بمراتب جميع الآخرين، ووقتها خاطب السلطان الكونت قائلاً:

«هل هناك أي نبيل آخر من الجنس الفرنسي، أسيراً غيرك؟» وعلى هذا ردّ الايرل بأنه لا يوجد، فهو كان يؤثر بقاء السلطان جاهلاً بدلاً من أن يعرف هذا، لأن اطلاق سراحه سوف يكون وقتها الحصول عليه أسير بكثير، وبناء عليه عمل السلطان بحثاً أكثر يقظة، فاكشف رتشارد عمدة بومونت، وبعض النبلاء الفرنسيين الآخرين من ذوي المراتب، وعلم بوجودهم بين أسراه، ولذلك بات غاضباً جداً من الكونت لأنه كذب عليه، مع أنها كانت كذبة تقيّة، تلك التي أخبره بها، وأمر به فوضع في سجن مضيق عليه في قلعة إسمها المرقب، ومقت الأمرء المسلمون خداع وزيف الفرنسي، وسلطان دمشق الذي كان في حالة حرب ضد أمير مسلم آخر، كان من أقربائه، واسمه أيوب، والذي ضده طلب مساعدتنا، ودخل في معاهدة معنا، بات الآن على الرغم من شروط المعاهدة التي دخل بها مع الصليبيين — كما ذكرنا من قبل — مرتبط بصنع سلام بشكل سري مع الأمير المذكور، وذلك بسبب أنه لم تكن لديه ثقة بكلام أو بمواثيق الصليبيين، ولهذا لحق الخزي بالصليبيين، وتلاشت آمالهم.

ملك أراغون وكونت بريتاني يعقدان سلاماً مع حاكم الناصرة

وعندما غدت هذه الأشياء معلومة، وفي حوالي نهاية السنة، انحدر الشعور الفطري بالنباله في عقول الفرنسيين وتدهور، لأن ملك أراغون، وكونت بريتاني، وبعض الآخرين من النبلاء الفرنسيين في الأرض المقدسة، كانوا غاضبين من ازدياد شهرة الايرل رتشارد، في

حين كانوا هم أنفسهم، بالفعل، جيشاً محطماً، وبقايا حشد قد أصابه التمزق، وقد أثيروا بلدغات الحسد، وقد كرهوا شباب الإيرل مثلما كرهوا أصله الانكليزي، وانعدام خبرته، وكفاءته، ولذلك مضوا بشكل سري إلى الزعماء المسلمين، من دون معرفة الجيش بشكل عام، ولدى تسلمهم مبلغاً كبيراً من المال منهم، منحوهم هدنة لمدة عشر سنوات، ثم إنهم حزموا سراً أمتعتهم، وقاموا وأثقالهم مليئة بالذهب، فمضوا إلى ميناء يافا، وهكذا غادروا الأرض المقدسة بشكل غير مشرف.

موت جون فتز روبرت

ومات في هذا العام جون فتز روبرت، وكان رجلاً من أصل نبيل، وواحداً من البارونات الرئيسيين في المقاطعات الشمالية لانكلترا.

سقوط بناء جديد

وحدث في العام نفسه، في ليلة عيد القديس جورج أن انهار بناء عمل من الحجر، مع بوابة رشيقة، وسقط إلى الأرض، وذلك مع الأعمال الخارجية والناثئة، وكأنه تعرض لهزة أرضية، وكان هذا البناء قد شيده الملك مقابل نفقات وجهد كبير، ولدى سماع الملك بهذه الواقعة، أمر بإعادة البناء المنهار، وأن تكون عمارته أكثر أماناً.

الوقائع المتنوعة للعام كله

وكانت مجريات أحداث هذا العام، غير موائمة لمملكة انكلترا، ومعاكسة للكنيسة المقدسة، وكانت مؤذية للبلاد الشرقية وكذلك للبلدان الغربية، وكان الفصل لمدة ثلاثة أشهر متوالية، هي شهر آذار مع الشهرين اللذين تلياه، جاف ممطر، وكذلك في بقية الأشهر، ومع ذلك أنتج كميات وافرة من القمح والفواكه، لكن الخريف الممطر إلى حد كبير خنق المحاصيل الوافرة، وكان هناك فياضانات في المناطق الايطالية

تسببت من الأمطار، التي انصبت مياهاها وتدفقت من الجبال إلى السهول، وكان ذلك في نهاية هذا العام، ونادراً ما تركت جسراً واحداً سليماً.

معركة مدهشة بين الأسماك في البحر

ومع أنه وقعت حوادث مدهشة لم يسمع بمثلها في هذا العام، رأينا من المفيد والمناسب أن نذكر في هذا الكتاب حادثة أكثر عجباً من البقية، وبما أنه من طبيعة البحر أن يلفظ على اليابسة الأجساد الميتة الملقاة به، فقد جرى قذف حوالي أحد عشر حوتاً إلى جانب مخلوقات بحرية مخيفة على شاطئ البحر في انكلترا، وهم أموات، وكأنهم قد جرحوا في بعض أنواع الصراع، لكن ليس — على كل حال — بهجمات من الانسان أو ببراعة منه، وأعلن البحارة، والناس الشيوخ، الذين كانوا يسكنون قرب الساحل، والذين كانوا قد شاهدوا عجائب الأعماق عندما كانوا يتابعون أعمالهم في المياه الواسعة، ويتحولون إلى البلدان النائية، أعلنوا أنه كانت هناك معركة غير اعتيادية بين الأسماك، والوحوش والتنينات في الأعماق، وقد تسببت جراحات بعضها بعضاً، وعض بعضها بعضاً بموت العديد منها، والذين قتلوا منها قد رموا على الشاطئ، وقامت إحدى الأسماك، وكان لها حجم كبير مرعب، فشقت طريقها إلى نهر التيمز، وتمكنت بصعوبة، ودون أن تصاب بجراح من المرور بين أعمدة النهر، وقد تابعت سيرها حتى عذبة للملك اسمها مورتليك Mortlake، حيث لحق بها عدد من البحارة، وأخيراً تمكنوا من قتلها بعد كثير من المتاعب، وذلك بواسطة ضربات لا تحصى من الرماح، وعلى هذه الواقعة عقب واحد من الشعراء مازحاً:

إلى جنازتها قدمت سمكة عملاقة

قد أرسلت من نبتون لعمل صحن فاخر

النائب البابوي يسعى إلى استخراج المال من الرهبان السيستريسيان

وفي هذا العام أيضاً، قام النائب البابوي، في سبيل استخراج المزيد من المال، ولاشباع نهمه، فطالب بوقاحة بوكالات من رهبان طائفة السيستريسيان، وقاومه هؤلاء بتصميم ورفضوا هذا الطلب، معتمدين على امتيازاتهم، وذهبوا إلى بلاط روما للحصول على مرسوم ضد هذا الاستخراج الشرير، وجلبوا معهم رسائل إلى النائب البابوي، كان محتواها هو التالي:

رسالة البابا

«من غريغوري، أسقف، إلخ، إلى النائب البابوي أوتو، إلخ:

لو أنك تذكرت بشكل صحيح، لقد أرسلنا مؤخراً رسائل بتكليفك باستخراج وكالات من رهبان طائفة السيستريسيان إذا كان الغفران الممنوح إلى تلك الطائفة، لا يعترض على ذلك، ثم إنه ليس في نيتنا —وكما نعتقد ليس في نيتك أيضاً— استخراج وكالات مالية منهم، غير متوافقة أو متعارضة مع غفرانهم، وإننا بناء عليه نأمر بالاكْتفاء بالطعام العادي، من دون أكل سمك، عندما تذهب إليهم —وذلك حسبما تحتويه الغفرانات المتقدمة الذكر— وأن لا تسمح باستخراج وكالات مالية منهم، اعتماداً على سلطات هذه الرسائل».

القديسة اليزابث والقديسة هيلدغاري

تصبحان مشهورتين في ألمانيا

وفي هذه الآونة أصبحت القديسة اليزابث Elizabeth مشهورة ومتميزة في ألمانيا بوساطة عدد كبير من المعجزات، وتدفقت حشود من

الحجاج المسيحيين، من أمم بعيدة وأجنبية، على قبرها، لنيل الاحسان، وكانت هذه القديسة أثناء حياتها، زوجة لواحد من النبلاء، يدعى لاندغريف، ولدى موته كانت ثرية جداً، ذلك أنها كانت منحدره من أسرة نبيلة، حيث أنها كانت ابنة ملك وملكة هنغاريا، لذلك تخلت عن أبهه، وترف، ومباهج العالم، ولهذا أصيب الأساقفة ورجال الدين بالدهشة والاعجاب، تجاه القداسة الكاملة في امرأة.

أما بالنسبة للقديسة هيلدغاري Hildegardis، فقد كانت أولاً ناسكة، ثم بعد ذلك راعية دير، وكانت سيدة ذات قداسة مدهشة، فيها، في أثناء حياتها، وخلال نوم استمر لمدة أربعة أيام متواصلة، غرس الرب روح التنبؤ، ومعرفة كاملة بالحروف، أثناء حبرية البابا الاسكندر، وقد أصبحت الآن مشهورة جداً، وحيث أنها تنبأت بشكل مكشوف، وأخبرت بشكل مسبق بظهور بعض الرهبان الجدد، وبأحوالهم، ومواعظهم ويتقدمهم المفاجيء وغير المتوقع وبسبب صدق نبوءاتها، حيث يشهد على ذلك الوقت الحالي، غدت أقوالها مشهورة جداً في جميع أرجاء مختلف بلدان العالم، وقد تبرهن أنها كلمات نبيلة جداً.

حمل الامبراطورة

وفي هذه الآونة بدأ الامبراطور يشعر بتقدير خاص تجاه الانكليز، رفعهم به فوق الشعوب الأخرى، وذلك من أجل الامبراطورة ايزابيلا، أخت ملك انكلترا، التي لجهاها المتفوق ولأخلاقها نالت الخطوة لدى الجميع، علاوة على ذلك كانت الآن حاملاً، ومجدداً أعطت آمالاً جيدة إلى قرينها الأغسطس، بزيادة أخرى في أسرته، لكن في ظل طالع غير سعيد، سارت الأحداث متحولة باتجاه معاكس لم يكن متوقعاً، حسبما سنحكي ذلك بالتفاصيل.

عام واحد وأربعين ومائتين وألف

كيف وضع الملك النائب البابوي في المقعد الملكي

عام واحد وأربعين ومائتين وألف لتجسيد الرب، الذي كان العام الخامس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد الملك المذكور بلاطه في عيد الميلاد، في ويستمنستر، في لندن، حيث احتفل عدد كبير من النبلاء بعيد ميلاد الرب معه، وقام الملك في يوم عيد الميلاد، بناء على مبادرة من النائب البابوي، الذي اعتاد الملك على بذل قصارى جهده لإرضائه، فأضفى مرتبة الفروسية، على حفيد النائب البابوي المذكور، الذي كان اسمه أدفوكيت Advocate، وأعطاه على الفور دخلاً مقداره ثلاثين باونداً، حيث تولى هذا الفارس المعين حديثاً بيعه، لأنه كان يعلم أن عليه مغادرة المملكة فوراً مع سيده، وفي اليوم نفسه شرف الملك واحداً من أهالي بروفانس بحزام فارس، وأغناه بمورد كبير.

وبعد الفراغ من القداس في الكنيسة، وعندما كان الملك على وشك تناول طعام الافطار في قصر ويستمنستر الكبير، قام دون المبالاة بنظرات الشجب لكثير من الحضور، بإجلاس النائب البابوي، الذي دعاه لتناول طعام الافطار معه، في أعلى المقاعد وراء المائدة أي على مقعده الملكي، الخاص به، الذي كان في الوسط وراء المائدة، واتخذ لنفسه مقعداً على يمين النائب البابوي، في حين جلس رئيس أساقفة يورك على يساره، وأخذ كل واحد من الأساقفة والنبلاء الآخرين مقاعدهم بانتظام، وفقاً لمراتبهم وحسب سلطاتهم، وذلك بناء على رغبة الملك الذي تولى هكذا ترتيب نظام العيد.

وفي اليوم الرابع بعد عيد الميلاد، قام النائب البابوي، المستدعى من قبل البابا للتوجه إلى البلاط الروماني، من دون تقاعس، فأرسل وراء

جميع الأساقفة الانكليز، وقال لهم وداعاً، وبعد ذلك شرع برحلته لعبور الألب، وجرى تشييعه حتى ساحل البحر من قبل الملك، وسط أبهة عظيمة، وذلك مع أصوات الأبواق، وقد رافقه حشد كبير من النبلاء، وعندما كانوا مرغمين على الافتراق، افترق الملك والنائب البابوي بتعابير عن الحزن المتبادل، لانفصالهما هكذا، مع أن النائب البابوي المذكور كان الآن قد مدّد إقامته في انكلترا لمدة ثلاثة أعوام، ليلحق ضرراً بالكنيسة لا يمكن ترميمه.

سفر النائب البابوي أوتو من إنكلترا

في اليوم الذي جاء عقب عيد الغطاس، بعدما تلقى النائب البابوي العناق والقبلة من الملك، أخذ سفينة من دوفر، وبعدما خلع شارات نيابته البابوية أدار ظهره لانكلترا، ولم يترك أحداً حزيناً عليه سوى الملك، والذين كان قد أمنهم على ممتلكات المملكة، ولم يكن قد بقي في انكلترا في ذلك الحين — حسبما أفيد بشكل صحيح — كثيراً من المال، وذلك باستثناء أواني وتزيينات الكنيسة المقدسة، لأن النائب البابوي المذكور، كان قد استصفى أموال المملكة كلها، وهو فضلاً عن ذلك كان قد منح بناء على إرادته الشخصية، أو بناء على إرادة البابا، أوقافاً، وكنائس، وأكثر من ثلاثمائة مورد غني، ونتيجة لذلك صارت المملكة مثل كرم عنب، عرضة لكل عابر، وهو الذي شعته الخنازير البرية للغابات، وتركته في حالة مزرية من الدمار.

وقد ترك كنيسة كانتربري، التي كانت أكثر الكنائس الانكليزية فخامة في حالة من الاضطراب، وآلام الترميل، ومثلها في ذلك كان مثل الكاتدرائيات الأخرى، والكنائس الديرية مجردة من كل راحة ومواساة، وهو لم يمتن أي جزء من الأجزاء الضعيفة للبلاد، كما هو مبرهن على ذلك بشواهد واضحة، لأنه كان قد أرسل ليس لحماية الشياه التي تشردت، بل لجمع محاصيل المال التي وجدها، وبناء عليه، بما أنه كان

مجرداً من الفضائل، وبوساطة الخطط الحسنة الإعداد من قبل الامبراطور، استحق التجزيد من جميع منهوباته، وبعدما كان هو الناهب، صار هو المنهوب، وذلك وفقاً لكلمات النبي الذي قال: «ويل لك أيها السالب، أتظن أنك لن تكون المسلوب؟»، وتحتاج هذه الوقائع لأن تروى أخبارها بشكل أوفى، فيما بعد، في الأماكن المناسبة.

قدوم بطرس أوف سافوي إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة، قدم إلى إنكلترا بطرس أوف سافوي، الذي كان عم الملكة، والذي كان الملك قد منحه إيرلية رتشموند، لأنه تصور أنها بلاد أكثر نفعاً له، وخرج الملك إلى استقباله لدى وصوله، وتلقاه بسرور لا يمكن وصفه، وعهد بنفسه وبممتلكاته لأرائه، وكذلك وسع أراضيه عدة مرات بوساطة العطايا.

عواصف ريح متواصلة

وفي هذه الآونة نفسها، ولاسيما في يوم ختان الرب، ولعدة أيام متواصلة، سبب ريح من الشمال، عنيف إلى أبعد الحدود، تهديماً لا يمكن ترميمه، في كل من البر والبحر، جالباً دماراً للأبنية وللقلع، ومهدداً بمخاطر كبيرة جداً، للذين كانوا مبحرين فوق البحر، وعلى هذا بدت الأحوال المضطربة للأنواء متوامة تماماً مع أحوال الجنس البشري.

تنصيب بطرس سافوي فارساً

في يوم عيد القديس ادوارد، الذي تولى فيه الملك ممارسة مراعاته بتبجيل غير اعتيادي وبتشريف، وفي سبيل أن يعطي لليوم المزيد من السمات الدينية، أضفى مرتبة الفروسية على بطرس سافوي المتقدم ذكره، وعلى خمسة عشر شاباً لامعاً آخر، وكان ذلك في كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وفي اليوم التالي، الذي كان يوم عيد الغطاس، وتشريفاً لبطرس المذكور، احتفل مع عدد كبير من الضيوف، بتنصيبه،

بوليمة غنية ومكلفة، وجرى أيضاً استدعاء بعض سكان لندن، بموجب مذكرة ملكية قضت بحضورهم، وكان من بين الذين وجهت إليهم الدعوة، عمداء المدينة، فهؤلاء قد أرغموا على الحضور، تحت طائلة التغريم بمائة شلنغ، وأن يأتوا إلى هناك وهم يرتدون ثياب العيد، أو كأنهم سيحتفلون بعرس.

انتخاب نيقولا أوف فارنهام إلى كرسي درم

وقام في هذه الآونة، رهبان درم، بعد كثير من الاضطراب، وانفاق كبير للمال، وبعد استقالة رئيس رهبان درم، الذي سلف أن انتخب من قبلهم، والذي بموجب ذلك ألغي انتخابه، قاموا بدعوة الروح القدس، وانتخبوا بالاجماع المعلم نيقولا دي فارنهام Farnham، وكان رجلاً صاحب أخلاق رفيعة ومعارف، واتخذوه أسقفاً لهم، وراعياً لأرواحهم، وكان معلماً للأدب في باريس لعدة سنوات، ومارس بعد ذلك فن الطبابة في بولونا Bologna، حيث غدا مشهوراً جداً، وحصل على مكانة كبيرة لبراعته، وبعدما أصبح معلماً كاملاً في المنطق، وطبيياً، وعالمًا طبيعياً، حوّل اهتمامه إلى الطبابة الروحية، أي إلى اللاهوت، وبذلك أسس نفسه في ذلك العلم بالتعلم وبقراءة الكتب، وبهذا تأهل للجلوس في كرسي الأستاذية الرهبانية.

وعندما صار هكذا خبيراً، وبعدما ميّز نفسه بشكل كبير بمعارفه، وبطريقته المحمودة في الحياة، قام الملك والملكة، بناء على نصيحة بعض الناس المتعلمين، وبشكل خاص بناء على مبادرة من النائب البابوي أوتو، وأسقف كارآيل، وبعض الآخرين من مستشاري الملك السريين، بتوجيه الدعوة إليه، ليتولى المسؤولية عن أرواحهم وأجسادهم، وليكون مستشاراً مقرباً، حيث تصرف بذاته في ذلك المنصب بشكل جيد وبحكمة، حتى جرى انتخابه إلى ذلك المنصب الكهنوتي، غير أنه — على كل حال — لم يوافق على ذلك الانتخاب، لأن الأمر بدا له غير مشرف،

في أن يوافق على الانتخاب، بما أنه كان قبل وقت قصير مضى، عندما جرى انتخابه لأسقفية كوفنتري، قد احتج ضد ذلك الانتخاب، ورفض الموافقة عليه، ولأبأي حال من الأحوال، وفي سبيل اسكات الأفواه المتكلمة بالسرور، التي كان من الممكن أن تقول: «انظروا، أي نفاق هذا، لقد رفض الأسقفية الفقيرة، لأنه توقع أسقفية أغنى»، في سبيل ذلك قاوم العرض بأقصى جهوده، حتى أخيراً تولى ر. R أسقف لنكولن توجيه الملامة إليه بقسوة، لتصرفه على هذه الشاكلة، وتمكن بفاعلية من اقناعه بالموافقة بوساطة الحجج التالية: «اعرف، بأن رهبان درم وكنيستهم قد حرموا من الراعي، وقاموا بدموع منهمرة، بالتماس المواساة، فلماذا — بناء عليه — لا توافق طالما جرى انتخابك بشكل قانوني؟ وإنني أستحلفك بسفك دم يسوع المسيح، بأن تقوم بحمل هذا العبء، وأن تتقبل شرف هذا المنصب، لأن الملك سوف لن يوافق على انتخابك ولا بأي شكل من الأشكال، ما لم يكن مجنوناً تماماً، وإذا لم توافق على الانتخاب سوف يتولى الملك بدسائسه تنصيب رجل أجنبي، وغير جدير، وجاهل أيضاً، في هذا الكرسي في سبيل القضاء على الكرامة اللاهوتية، وتعريض المملكة كلها للخطر، لأن أسقفية درم قائمة على التخوم بين مملكتي انكلترا وسكوتلندا، والقلاع القائمة في أسقفية درم، أي قلعتي نورهام Norham ودرم، موجودتان في ذلك الجزء من انكلترا، وهما الأساس المعتمد عليه ضد هجمات جميع أعدائنا»، وبعدما سمع المعلم نيقولا هذا، قال متنهداً: «إنني أحب فضيلة الطاعة، وفي أسقفيتك أنا مستحوذ على منافع، التي حصلت عليها من خلال إحسانك، ولذلك إنني أطيع أوامرك الأبوية»، وإثر ذلك قام رهبان درم وهم سرورين بتقديمه إلى الملك على أنه أسقفهم المنتخب، وقد قبل بانتخابهم بسرور، لأنه لم يجد أية غلطة منطقية لافي الشخص المنتخب، ولا في الانتخاب، واستقبل الأسقف المنتخب من دون تأخير، وعلى الفور، تثبت فيما بعد كرسية.

تغريم اليهود بمبلغ من المال

وفي العام نفسه، أرغم اليهود على دفع مبلغ ثقيل، بمثابة مال فداء، وكان المبلغ حوالي عشرين ألف مارك، يجري دفعه على مرحلتين خلال العام، تحت طائلة النفي، أو السجن المؤبد.

استعدادات من أجل مبارزات

عقد في هذا العام بطرس أوف سافوي، إيرل رتشموند مباريات مبارزات aloutrance ضد إيرل بيغود، في سبيل أن يتمكن الأجانب من تجريب قوتهم مع الانكليز، لرؤية أيهم هو المتفوق في مباريات المبارزات، وعندما سمع الملك بهذا، بدأ بوساطة الرشاوى والتهديدات في افساد قلوب كثير من الأكثر نبالة وقوة بين الانكليز، والتأثير عليهم، وذلك من الفئة التي تؤيد إيرل بيغود، وذلك من أجل أن يتمكن فريق الأجانب من الانتصار، وكان بين هؤلاء المقدمين جون بيست Bisett المسؤول الأعلى عن الغابات في انكلترا، وعدد كبير من مشاركيه، وغيلبرت باسيت، وكان فارساً هو الأكثر شجاعة، مع أتباعه، وعدد كبير آخر، تعدادهم كبير جداً حتى يمكن ذكرهم، وكانت النتيجة، أنه بسبب دسائس الملك، عندما اقترب موعد عقد المبارزات، وعلى الرغم من ذلك قام غ. G إيرل مارشال وفئة قوية من النبلاء بتوحيد أنفسهم مع بعضهم بعضاً، ومع ذلك ظهر حزب الأجانب هو الأقوى والأكثر عدداً، وتجاه ذلك شعر الانكليز بغضب شديد، وحملوا حقداً عظيماً ضد الذين اقترفوا هذه الدناءات، ومقتوا وسائل دسائس أبناء وطنهم، ثم إن الملك أصغى إلى مشورة حكيمة، وندم لأنه رغب في أن ينتصر الأجانب في مباراة مادية بدلاً من انتصار رعيته، فبعث رسولاً، هو الراهب جون، وكان داوياً، ووكيل الصدقات، وأمره أن يمضي بكل سرعة إلى الفريقين، مع مذكرة ملكية بمنع المبارزات ذات الطالع السيء، والتي كانت على وشك الابتداء.

وفاة غيلبرت باسيت وابنه

وفي خريف العام نفسه، عندما كان غيلبرت باسيت، يصطاد في الغابة سقط فوق جذع شجرة كانت ملقاة في طريقه، فتكسرت عظامه، وأصيبت أعصابه بصدمة، فتسبب ذلك بموته بعد عدة أيام، وإثر ذلك على الفور فارق أيضاً الابن الوحيد والوريث لغيلبرت المذكور، هذه الحياة، في ثمانية عيد صعود القديسة مريم، مما سبب الحزن والأسى لأسرته كلها، وانتقل الميراث إثر ذلك إلى فولك باسيت، عميد يورك، وأخي غيلبرت المذكور.

وفاة جون بيست

وفي تلك الآونة أيضاً، أي في ثمانية صعود العذراء المباركة، فارق هذه الحياة جون بيست Bisett الذي كان المسؤول الأعلى عن الغابات في إنكلترا.

انطلاق بعض نبلاء إنكلترا نحو القدس

ولما كان الموسم وقتاً مواتماً، قام وليم دي فورتيبص Fortibus، وكان إيرل ألبمارل Albemarle وفارساً جريئاً، وبطرس دي مولاك Maulac، وكان بواتياً من حيث المولد، ولقد تعلم لمدة طويلة واستغنى تحت حماية الملك جون، وايفيلين دي روتشفورت Rochfort، وكان بواتياً أيضاً، وجون أنسارد Ansard، و الاسكندر هلتون Hilton، وغيوفري تشانديلر Chandelers، وعدد كبير آخر من نبلاء إنكلترا، كلهم قاموا بتوديع أصدقائهم، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات رجال الدين، وانطلقوا بأبهة كبيرة نحو القدس، وركبوا ظهر البحر المتوسط في الخريف، وأقلعوا في رحلتهم عبر البحر.

ملك فرنسا يعرض صليب ربنا وتاجه على الناس

في هذا العام حدث أن صليب ربنا، الذي بقي في دمياط، بعد أيام صلاح الدين، حتى المعركة غير السعيدة، التي جرى في بدايتها الاستيلاء على تلك المدينة، ثم جرت خسارتها فيما بعد، عندما سقطت في أيدي المسلمين، حدث أن جلب إلى مملكة فرنسا بتدخل من الملك الفرنسي وأمه بلانشي، وبنعمة المسيح الذي دعم رغبتيهما الثقية، فقد دفعاً مبلغاً كبيراً من المال ليتمكننا من الاستحواذ عليه، ففي البداية ابتيع هذا الصليب — بعد جلبه — من قبل البنادقة مقابل عشرين ألف باوند، وكانوا قد حصلوا عليه من ابني ج. ل. ملك القدس، الذي كان بحاجة إلى المال لشنّ الحرب ضد الاغريق، وفيما بعد ارتهنه بلدوين مقابل مبلغ كان أيضاً أكبر، وباعه أخيراً إلى الملك الفرنسي لويس.

وفي يوم الجمعة التالية قبل يوم عيد الفصح، وهو اليوم الذي علق فيه المولى يسوع المسيح بالمسامير، على الصليب المانح للحياة، من أجل انقاذ العالم، حمل هذا الصليب المذكور إلى باريس من كنيسة القديس أنطوني Antoine، حيث كان قد وضع على عربة من نوع خاص، عليها ركب الملك مع الملكتين، أي الملكة بلانشي أمه، والملكة مرغريت زوجته، وبحضور رؤساء الأساقفة، والأساقفة ورعاة الديرة، ورجال الدين الآخرين، وكذلك النبلاء الفرنسيين، وأحيطوا بحشد لا يحصى تعدادهم من الفرنسيين، الذين كانوا ينتظرون هذا المشهد المجيد بسرور عظيم في القلب، ورفع الملك الصليب فوق رأسه وهو يبكي، ووقتها صرخ الأساقفة الذين كانوا حضوراً بصوت مرتفع: «انظروا صليب ربنا».

وبعدما تعبدته الجميع بتبجيل لائق وتقوى، قام الملك نفسه، وكان حافياً، ومن دون حزام، وعاري الرأس، وذلك بعد صوم ثلاثة أيام، مقلداً مثل المنتصر النبيل، الأغسطس هرقل، فحمله داخل صوف إلى الكنيسة الكاتدرائية للعدراء المباركة في باريس، وبالنسبة لأخوي الملك،

فإنهما أيضاً بعدما طهرا نفسيهما، بأعمال تقوية مماثلة، بوساطة الاعتراف، والصوم، والصلاة، فقد سارا خلفه مع الملكتين، وقد حملوا أيضاً تاج الشوك (الذي منحته الرحمة الربانية، كما ذكرنا من قبل، إلى مملكة فرنسا، في العام الفائت) ورفعوه أيضاً عالياً، فوق عربة مماثلة للأخرى، وعرضوه حتى يراه الناس.

وسند بعض النبلاء ذراعي الملك، وأذرعة أخويه، أثناء حملهم لهذا الحمل الثمين، خشية أن يصبحوا متعبين بالاستمرار برفع أذرعتهم، وأن يقعوا تحت هذا الكنز، الذي لا يمكن تقدير قيمته، وتم فعل هذا بكل حذر، بناء على رغبات الأساقفة، من أجل أن يتم تناول هذا الشيء المقدس، باحترام من قبل ذوي السلوك الحكيم، والذين نالوا مجداً عظيماً، محتدين لمثل هرقل، الذي ذكرناه من قبل.

وعندما وصلوا إلى الكنيسة الكاتدرائية كانت جميع أجراس المدينة تقرع، وبعد تلاوة صلوات خاصة بشكل مهيب، عاد الملك إلى قصره الكبير، الذي هو في وسط المدينة، حاملاً صليبه، وأخويه يحملان التاج، والكهنة يتبعونهم بمسيرة نظامية (وهو مشهد كان الأكثر مهابة وسروراً بين جميع ما شاهدته مملكة فرنسا قط) وكان كل واحد منهم، لابل جميعاً، يصفقون آنذاك بأيديهم، ويمجدون الرب، الذي أظهر هكذا محبته الخاصة للمملكة الفرنسية، مؤثراً إياها ومفضلها على الآخرين، ومن أجل منحها مواساته الخاصة وحمايته.

وهكذا بناء عليه، فإن ربنا يسوع المسيح، ملك الملوك، ومولى الموالى، الذي أحكامه ذات عمق عظيم، والذي بين يديه قلوب الملوك، حيث يعطي الصحة لكل من أراد، أعطى في وقت قصير مملكة فرنسا، وأغناها، بهذه الهدايا الثلاثة الثمينة، وهي التاج المتقدم ذكره، وصليب ربنا الذي عنه قد تحدثنا الآن، وجسد إدموند المبارك رئيس أساقفة كانتربري، والمعترف، الذي يشع الآن بمعجزات غير عادية، ولذلك أمر

الملك ببناء بيعة جميلة، تكون لائحة لاستقبال كنزه المذكور، وأن يكون البناء قرب قصره، وبها وضع بعد ذلك الآثار المقدسة المذكورة بكل احترام، وإلى جانب ذلك امتلك الملك الفرنسي، في بيعته الجميلة في باريس الثوب العائد للمسيح، والرمح، أو بالحري سنان الرمح، والاسفنجة، وإلى جانبها آثار أخرى مقدسة، وبناء على ذلك منح البابا غفراناً مقداره أربعين يوماً إلى جميع الذين ذهبوا إليهم في البيعة في باريس، من أجل الصلاة والتعبد هناك.

موت ملك الدانمارك وابنه

وفي هذا العام أيضاً، حمل من بين الناس وأخذ بعيداً وولد مار Waldemar، ملك داشيا، الذي تظاهر بالتجروء على التهديد بغزو انكلترا، وتورط بكلام متعجرف حول ذلك، وجاء موته بعدما حكم لمدة أربعين سنة، ولكي يشعر بتأثيرات صلوات القديس إدوارد، ذلك القديس الذي توجه بأدعيته إلى الرب ليحمي الرب. الانكليز ضد طغيان الدانيين، فإن ابنه الوحيد، ووريثه في كل ممتلكاته، قد غادر طريق الجسد، وبذلك صارت مملكة داشيا كلها بائسة، وكان هذا الملك الداني وولد مار، في سن المائة عندما مات، وقد حكم على الدانيين لمدة أربعين سنة، وطوال حياته كلها، منذ أن كان قادراً على حمل السلاح، استمر في ملاحقة الكفار في سكيزيا، وفريزلاند، وروسيا، وكسب خلال حياته ست أسقفيات كبار، وتدبر العدد نفسه من الأساقفة حتى يجري تكريسهم لهذه الأسقفيات، وبعد وفاته، و وفاة ابنه الأسن، أثار اثنان من أولاده الأصغر سناً ثورة، وهما هنري، والدوق آبل 'Abel، وشرعاً بحرب دموية أحدهما ضد الآخر، وبذلك أصبحت المملكة مقسمة وفي حالة بائسة.

موت وولتر دي لاسي

وفي هذا العام أيضاً، غادر هذه الحياة وولتر دي لاسي Lacy،

وكان رجلاً هو الأكثر تميزاً بين نبلاء إيرلندا، وجاءت وفاته بعدما فقد بصره، وبعدها عانى من كثير من الأمراض الجسدية.

رؤيا ليلية رائعة

وفي هذه الآونة، ظهرت رؤيا ليلية، إلى أحد الكهنة، وكان حكيماً، ورجلاً مقدساً، وقد شاهد فيها رئيساً للأساقفة، مرتدياً أثواباً حبرية، وحاملاً صليباً بيده، فوصل إلى الأسوار التي كان الملك قد بناها في تلك الأيام قرب برج لندن، وبعد فحصه لهم بنظرة غاضبة، ضربهم بالصليب بقوة وبعنف، وهو يقول: «لماذا أعدت عمارتهم؟»، وبناء على ذلك تهاوت الأسوار التي بنيت حديثاً بشكل مفاجئ، إلى الأرض، وكأنها دمرت بوساطة هزة أرضية، وخاف الكاهن من رؤية هذا المشهد، فقال لرجل دين ظهر وهو يتبع رئيس الأساقفة: «من رئيس الأساقفة هذا؟»، وأجابه رجل الدين قائلاً: «إنه القديس توماس الشهيد، الذي هو لندي من حيث المولد، والذي قدّر أن هذه الأسوار قد بنيت لإهانة اللندنيين ولإلحاق الأذى بهم، ولهذا دمرهم، بشكل لا يمكن فيه إعادة ترميمهم»، وعند ذلك قال الكاهن: «أية نفقات وجهود بناء قد كلفوا»، ورد عليه رجل الدين قائلاً: «لو أن فقراء الصناع، الذين يسعون وراء الدفع لأنهم يحتاجون إلى ذلك، قد حصلوا على الطعام لأنفسهم بوساطة العمل، لصار من الممكن بقاء ذلك العمل لكن بما أنهم لم يعمروا من أجل الدفاع عن المملكة، بل فقط لظلم السكان الذين لا يؤذون، ولو أن القديس توماس لم يقم بتدميرهم لقام القديس ادموند المعترف، خلفه، باصرار أكبر فدمرهم واجتثهم من أساساتهم»..

وبعدما شاهد الكاهن هذه الأشياء، أفاق من نومه، ونهض من فراشه، وفي ظلام الليل وسكونه، أخبر برؤياه، جميع الذين كانوا في البيت، وفي الصباح الباكر، انتشر تقرير في جميع أرجاء مدينة لندن، أفاد

بأن الأسوار التي بنيت حول البرج، والتي على عمارتها، أنفق الملك أكثر من اثني عشر ألف مارك، قد تهاوت الى قطع، مما سبب الدهشة الى كثيرين، قد عدّوها نذير شؤم، لأنه حدث في السنة المتقدمة وفي الليلة نفسها، التي كانت ليلة يوم عيد القديس جورج، وفي الساعة نفسها من الليل، أن سقطت الأسوار مع الأجزاء النائية منها، ومع ان سكان لندن دهشوا تجاه هذه الواقعة، لم يحزنوا لوقوعها لأن تلك الأسوار كانت بالنسبة لهم مثل أشواك في عيونهم، وقد سمعوا استهزاء الناس وسخريتهم، الذين قالوا بأن هذه الأسوار قد بنيت لإهانتهم وأنه اذا ما حاول واحد وتجراً، واحتج من أجل حرية المدينة، كان سيسجن في داخلهم ويلقى به السجن، وفي سبيل أنه إذا كان عدد منهم سوف يسجنون، ولكي يسجنوا في عدة سجون مختلفة، جرى بناء عدد كبير من الزنانات فيهم، كل واحدة منفصلة عن الأخرى.

وفي هذه الآونة أيضاً، أخذ الملك بالقوة من عمدة لندن مورداً سنوياً مقداره أربعين باونداً، وهو المبلغ الذي اعتاد كل عمدة، على استلامه سنوياً، أثناء أيامه، من أجل دعم مكانته، وذلك من المصالح العامة للمدينة، وكأنه كان يأخذه من جمهورية، لأنه ألح إليه، أي إلى الملك، بأن عمدة المدينة، كان يقوم بالتظاهر بالقيام بجباية ذلك المبلغ، الذي كان محدوداً ببعض الشروط، فيلقى بيديه بقسوة على المواطنين الفقراء، وذلك أكثر مما هو مسموح له أن يعمل، وبذلك جمع لنفسه المال وأودعه في حافظة نقوده، ولهذا أرغم جيرالد بات Bat، الذي كان العمدة وقتذاك، على أداء يمين انه نفسه لن يجمع ثانية، ولن يتسلم تلك الضريبة، كما انه لن يسمح لأي شخص آخر بقدر ما يستطيع أن يمنع، أن يجيئها له، وقد وقع هذا في بيعة القديس اسطفان في ويستمنستر.

وليس بعد أمد طويل من هذا، تمّ ارغام سكان لندن على دفع مبلغ من المال إلى الملك، وذلك مراغمة لعرف وامتياز المدينة، وعمولوا

وكانهم عبيد من أدنى الدرجات، ودفعوا من دون رضاهم ومكرهين، ولم يكن ذلك تحت عنوان مساعدة طوعية، بل بمشابة مكس، وأنقلهم هذا كثيراً جداً.

الإمبراطور يمنع الأساقفة من الاجتماع في المجمع

وقدر الإمبراطور في هذه الآونة، بما فيه الكفاية من الدهاء، أن المجمع العام إذا ما جرى عقده، وعلى رأسه عدوه المميت البابا، الذي سوف يتأس جميع الأساقفة الذين كانوا ملزمين بطاعته، مثل طاعة الأطراف لرأسها، سيكون في خطر عظيم، ولذلك أخذ يتأمل ويفكر بابتداع إجراءات وقائية لنفسه، ولهذا قال لنبلاته: «إنني قلق ومهدد من كل جانب، ومطوق بمختلف المشاكل، وذلك بسبب المخاطر التي ستحقيق الآن بالامبراطورية، لأنه إذا ما جرى عقد المجمع العام، حسبما يجري الإعداد له، وترأسه عدوي المميت، الذي رؤساء الأساقفة رعية له، وما من واحد منهم يتجرأ على الاعتراض على رئاسته، فإنه سوف يدمرني دماراً لا يمكن ترميمه، ومثل ذلك سوف يدمر الامبراطورية، لأن البابا عدوهم وشره، ومعلن ضدي، وقادر على خلع أي واحد يقف ضد إرادته، من مرتبته، لابل بعد خلعه له التفوه بحكم التكفير، والحرمان الكنسي ضده، وإهائته بعقوبات أشد سوءاً، وعلاوة على هذا أيضاً وأشد خطراً هو أن قضيتنا، وأوضاع الامبراطورية في حالة خطر شديد، وكذلك جميع الأمراء، الذين أنا وحدي ملزم بالدفاع عنهم، وملوك وأمراء العالم الذين أنا المناصر لقضيتهم، لأنني صرت المتكلم بلسانهم، هؤلاء سوف لن يقدموا إذا ما دعيتهم، أو سوف يطيعونني، وهم غير خاضعين لي، لذلك لا يمكنني ارغامهم على القدوم، ولامعاقتهم إذا ماتمردوا، ومادمت يائساً — بناء عليه — من حضورهم ومساعدتهم، هل سوف أعهد بامتيازات الامبراطورية وقضيتها إلى بلاط مشكوك به، وأن يكون أعداءها هم قضاتها؟ لا لن يكون ذلك،

مادمت حياً»، واتفق معه نبلاؤه في هذا العرض المنطقي والحجج، وقرروا وجوب تغيير الخطة الأجنبية، مع أن ذلك قد يبدو سوف يترد بالضرر على سمعتهم، وبسبب الخطر الذي سوف يحدق بالامبراطورية، وهو الذي جرى الحديث عنه، ينبغي منع المجمع الذي كان موافقاً على عقده من قبل، ولذلك قام الامبراطور على الفور بوساطة رسائله، بتحذير الأساقفة بعدم القدوم، ولأبأي شكل من الأشكال، ومن ثم الحضور إلى المجمع العام، بناء على استدعاءات البابا، ومنذ ذلك الحين، إذا كان هناك أية أساقفة ذاهبين إلى البلاط الروماني، وكانوا قد رفضوا إطاعة أوامره، ومروا بأراضيه هم شخصياً، أو كانوا قد بعثوا مندوبيهم، فقد تابع اعاقبة تقدمهم، وهاجمهم، واعتقلهم، وعذبهم، وعاقب بعضهم بعقوبات مميتة مخيفة، وقد وصلت أخبار هذه الأحوال إلى مسامع البابا، فضاعف من لعناته له، وشتائمته ضد الامبراطور، وكدس الحرمات الكنسية ضده، كما جدد تكفيره له.

وبناء عليه فإن النواب البابويين، الذين كان البابا والدهم في جميع المسائل الروحية، والذين كان قد أمرهم بناء على طاعتهم له، بالاجتماع في الفصح المقبل، الذي هو عيد قيامة ربنا، لحضور المجمع الذي كان قد أعد له، وهياً، بناء عليه قد منع هؤلاء من الحضور بشكل أو آخر، وقد خافوا من معيقات الامبراطور، ومن أوامر المنع الصادرة عن المراسيم الامبراطورية، هذا من جانب، وكان هناك من الجانب الآخر سيلا Scylla (صخرة خطيرة من الجانب الإيطالي لمضيق مسينا) ومخاوف التيارات البحرية للكاربيبي، التي كانت تهددهم، وقد طمأن البابا القلوب المرتجفة للأساقفة، ومنحهم قليلاً من المواساة والتهدئة، وردت في كلمات الرسالة التالية:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى الأسقف كذا وكذا،

صحة ومباركات رسولية:

إن قارب بطرس، هو الآن مقهور بثقل أمواج الأشياء الدنيوية، ويتأرجح بعواصف المسائل الملحة للشك والمصاعب، التي تحتاج إلى اليد اليمنى لمخلصنا يسوع، لأنه في الوقت الذي هو مدفوع فيه نحو الأمام بهبات الريح الشمالية العاصفة، يبدو أن الرب نائم، وتلاميذه هم في حال شك، ويخاف البحارة من الريح، ومما سيتمخض عنها، الذي هو غرق القارب، الواقع الآن، والناس خائفون، وبطرس يصرخ منادياً: هل من الممكن لأولادي — مع أن الآخرين صاروا باردين — تقديم العون على الأقل، ومنفعة نصيحتهم السليمة، حتى لا تتمكن الزوابع من قهره، ولا أن يستولي القراصنة المتوحشون عليه، وعلاوة على ذلك، إنه بوساطة تمزق الميثاق الطبيعي، اهتزت الثقة، وازداد الاحسان برودة، وتجمدت أسباب التقوى، وتضاعف الظلم، وكسب قوة ضد الرب، وضد جيران المرء، ومن هذه الأسباب واضح إلقاء معيق في طريق رفع شأن الإيمان المسيحي، وتبع ذلك الخسارة، وتم حرمان حشد تقي من المسيحيين الحقيقيين وإبعادهم عن منافع السلام، وأرهقوا بمختلف أنواع الاضطرابات.

ولذلك فإن المقام الرسولي، في إطار سلطته ومكانته، وبعدما وزن جميع هذه الأمور بميزان الرأي العام، وبعدما بحثهم وتفحصهم، وفي سبيل أن تتمكن الكنيسة التي هي الأم العامة والوحيدة، أن تسهم في سعادة الجميع، قد تقرر، مع سبب صالح، التوجه بالدعوة لطلب العون من أيدي جميع المسيحيين الأقوياء، مثل الملوك، والأساقفة، والمقدمين، وآخرين من ذوي الإيمان الصحيح، من أجل أنها بتكرار الصراخ، يمكنها إيقاظ الرب النائم، ولكي يمكنها بمعونة نصيحة أعداد كبيرة، جعل أعباء الظلم أخف، وأن تتمكن بسعادة من الوصول إلى المرسى المرغوب به.

وبين أشياء كثيرة نود أن نعيدها إلى ذاكرتكم أيها الأخ الأسقف، أننا قمنا بوساطة رسائل رسولية، بتوجيه الدعوة إليكم، بحكم كونكم ابن تقي، وعضو نبيل من أعضاء الكنيسة، بالقدوم إلى صدر أمك، الكنيسة المذكورة، في العيد المقبل لقيامه ربنا، لكن كما علمنا، أن الذي كان مرة الابن الخاص للكنيسة، وذلك منذ أن كان طفلاً، عندما كان في حالة ضعف مطلق، فحمته، ورفعته بوساطة عون الكرسي الرسولي، ونهضت به على كتفي أمه، إلى المقام الامبراطوري، والذي لم يقنع بالمضار التي ألحقها بنا، تعويضاً على إحساننا، والتي بها قاتل عرش أبيه، وسعى لإلحاق العار بأمه، ومن دون أي شعور بالتقوى أراد أن ينتحل لنفسه الامتيازات الأسقفية، وهو الآن يسلح نفسه بدهاء، ليمنع بالرعب الأساقفة الذين دعيوا مؤخراً من قبلنا، من الاجتماع بنا، وبذلك لن تكون هناك حاجة لمطلب اتهام ضدنا، كما أنه لن يسمح للكنيسة بالحصول على المواساة من أبنائها، لتتخلص من الأمراض التي تعاني منها.

وبما أنه بناء عليه، هذه النية هي من أجل المنفعة العامة، التي تولينا حملها بثقة، متوكلين على العناية الربانية، يتوجب عدم اعاققتها من قبل رجل مأكراً، نحن نتمنى عليكم بحرارة، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية، نأمركم بكل دقة، أن تفضلوا الرب على الانسان، وأن تنظروا إليه أكثر من نظرتكم إلى جميع المصاعب المتوجب مواجهتها، وأن لاتتقاعسوا عن القدوم في الموعد الذي سلف تحديده، إلى الكرسي الرسولي، من أجل أن تستمد الأم القوة بحضور أولادها، بحيث يمكن أن يرمى جانباً بكل معارضة قدمها العدو، وذلك بوساطة الحكمة الربانية، وأن تكون هناك بداية لنواياها التقوية للوصول إلى نهاية سعيدة، ونحن برضا الرب، سوف يكون شاغلنا تقديم التسهيلات إلى جميع الأشياء المفيدة لمثل هذه المسائل الكبيرة، حسبما سوف يجري شرح

ذلك لكم من قبلنا. صدر في اللاتيران، في هذا الخامس عشر من تشرين أول، في السنة الرابعة عشرة من حيريتنا.

وبناء عليه أصبح الأساقفة أكثر هدوءاً في عقولهم، واستعداداً من دون خوف من أجل رحلتهم، وهم متوقعون واثقين، بأن البابا، سوف يؤمن لهم بعون الرب، عبوراً آمناً بوساطة البحر، وأما الانكليز، وهم أسقف نورويك وبعض الآخرين، فقد قبلوا بخطط الفرنسيين ورضخوا لها، فذهبوا إلى أماكن آمنة على طريق رحلتهم، وتطلعوا بصمت وحذر نحو نتائج الحوادث.

آلام مدينة فيانزا

وفي هذه الآونة، تمكن الامبراطور، الذي كان يحاصر مدينة فيانزا Faenza منذ وقت، من انزالها إلى حالة من الضيق، أصبح فيها الذين كانوا من قبل هم الأقوى والأغنى من البقية، فقراء وضعفاء، وأرغم الآن عامة الناس من قبلهم على مغادرة المدينة من الأبواب والأبواب الفرعية، حتى لا يتمكن هؤلاء العامة من أكل قمحهم، الذي تناقص كثيراً لديهم، ثم إنهم كانوا يتسللون ويهربون من قبل أنفسهم بسبب الجوع، والحاجة المضاعفة لأشياء كثيرة أخرى، وفيما بعد وجدوا أنفسهم يعانون أكثر من الجوع، لذلك قاموا وهم يتألمون في أفكارهم، فأرغموا زوجاتهم وأولادهم وامائهم بالقوة على مغادرة المدينة، وخيّل للنساء أنهن سوف يحصلن على الرحمة من الامبراطور، فذهبن إليه، ومثلن أمامه وشعورهن منشورة، وسجدن أمام معسكره، وهن يبكين، ويولولن، ورجوه بموجب رحمته الامبراطورية، أن يظهر الرحمة نحو نسائهن، لكن مع أن الامبراطور قد سمعهن، لم يوافق على التماسهن، بل أجابهن بغضب شديد: «دعوهن يذهبن إلى أزواجهن، وإلى أسيادهن الذين تولوا الحكم علي، بأنني خائن أمام الرب وأمام الانسان، وبما أنهم قبل بعض الوقت لم يظهروا نحوي رحمة، إنه من غير العدل بالنسبة لي

تلقاهم رحمة مني، لأنه منذ بعض الوقت، عندما كنت محاصراً في مدينتهم، والأبواب مغلقة من أمامي ومن خلفي، دخلوا فجأة في مؤامرة ضدي، وعزموا على قتلي، وبانحطاط قتلوا رجلاً آخر مثلي، كان مرتدياً دروعاً امبراطورية، كما أنهم قدموا عدم تشريف لأمي، وإهانات مضاعفة لها، وذلك عندما كانت عابرة خلال مدينتهم، وبعدم احترام شوهوا المطية التي كانت راكبة عليها، وبذلك أنزلوا انتقامهم بحيوان، ولم يظهروا التقدير لمرتبتها الامبراطورية، ولا حتى لكونها امرأة، وإنه بناء عليه من العدل مواجهتهم بالانتقام».

وبعدما صرخ مزجراً بقراره هذا ضدهم، أمر بتلك النسوة الضعفاء، واللائي كن يتهاوين من الجوع والحاجة، بأن يسقن عائدات إلى المدينة التي غادرنها، وعندما علم المواطنون بهذه النتيجة، باتوا متأكدين من دمارهم، ولذلك بعثوا بعض الرجال المحترمين بمثابة رسل خاصين، وقد عرض هؤلاء وهم سيكون طاعتهم للامبراطور، ورجوه أن يسمح لهم فقط بمغادرة المدينة، التي تخلوا عنها إلى صاحب الجلالة الامبراطورية مولاهاهم، وهم فقط أحياء يرتدون من الثياب ما يغطي عورتهم، ليتجولوا مثل المتشردين والمنفيين، في فقر دائم، وأن يذهبوا إلى أي مكان من العالم يختار أن يرسلهم إليه، ورد الامبراطور على هذا العرض قائلاً: «بما أنهم في أحوالهم المزدهرة رفضوا العودة إلى ولائهم، وإلى الاعتراف بي سيداً لهم، إنني لن أصغي إليهم وهم يصرخون في أيام اضطرابهم، لأن كل من كان بإمكانه الاعتداء وفعل ذلك بقدر ما استطاع، يتوجب بشكل عادل أن يعاقب بأقصى عقوبة ممكنة»، وعندما سمع المواطنون بهذا غرقوا في أعماق اليأس، وصاروا الآن تحت وطأة أسف أكثر شدة، ومن دون أي أمل في الحالة البائسة آنذاك لمدينتهم.

البلاط الروماني يرتبط بعاهرة

وفي هذه الآونة، ازداد النهم غير المستقر للبلاط الروماني، إلى درجة أنه مزج فيها بين الصواب والخطأ، وجاء ذلك إما بناء على إذن من البابا غريغوري، أو بتدبير منه، وألقى هذا البلاط كل حياء جانباً، وصار مثل الوجه البرونزي للبوق، معروضاً للاستئجار من قبل أي انسان، وقد عدّ الربا ذنباً تافهاً، والسيمونية ليست ذنباً على الإطلاق، وبهذا عدت الدول الأخرى المجاورة، حتى طهارة انكلترا أصيبت بهذه العدوى، ومع أن الأمثلة التي تعرض نفسها على صحة هذا وافرة، لقد رأيت من المناسب، أن أحكي باختصار خبر مثل واحد، لأظهر بعدل، مع أن ذلك جاء متأخراً، أن غضب الرب قد اشتعل ضد البلاط المذكور.

البابا يطالب بمورد مقداره مائة مارك من رهبان بيتربورا

ورغب البابا غريغوري في تقديم العون إلى واحد من المتحزين له، فبعث برسائل إلى انكلترا، كانت وطأتها شديدة على بعض الكنائس، وجرى في هذه الآونة، بعث رسول بابوي مرافق بعدة توسلات وتهديدات، وجاء بعثه إلى راعي دير بيتربورا Peterborough وإلى رهبان الدير، أمراً إياهم بإعطاء البابا مورداً سنوياً يصل إلى قيمة لا تقل عن مائة مارك عن كل كنيسة ورعوية تابعة لهم، وإذا كان المبلغ مضاعفاً، فذلك سوف يزيد سروره، والبابا وقتها سوف يمنح الكنيسة إليهم، للاحتفاظ بها مقابل ضمانه لها، وهي شريطة أن يدفعوا له كل سنة مائة مارك مقابلها، وكل ماتبقى من الممكن تحويله لاستخداماتهم، وفي سبيل أن يجعل الراعي المذكور والرهبان ميالين بسهولة أكثر إلى الموافقة على هذه الاتفاقية، (أو بالحري على هذا الميثاق السيموني الخبيث، والغش السري)، وكأنها ضرورة لمنفعتهم، كتب قداسته إلى بعض الكهنة، الذين كانوا من جانبه من الألب، والذين كان بين أيديهم منافع جيدة في انكلترا، يأمرهم، بموجب السلطة الممنوحة إليهم، بتقديم النصيحة بشكل فعال إلى الراعي المذكور وإلى الرهبان للموافقة

على هذا، وإذا ما استدعى الأمر إرغامهم على ذلك.

وبناء عليه، قاموا في طاعة منهم لأوامر البابا، فذهبوا إلى بيتربورا، واستدعوا الرهبان وقالوا لهم: «انتبهوا أيها الأصدقاء والإخوان، أن هناك منفعة سوف تضفي عليكم، من قبل اليمين القادرتين للبابا، لأنه قد سألكم الآن، الذي كان ينبغي أن تسألوه إياه، وترجونه من أجله بركب جاثية، وبأيد مصفقة، وبتواضع كبير».

وبعدما أوضحوا للرهبان جميع الذي طلبه البابا، قدموا وعداً، وكأنهم ضامين ووكلاء مخلصين للبابا، وباسمه، بأنهم سوف يفون بجميع وعوده، شريطة أن يوافقوا —الرهبان— على الذي سأله بشكل سري، وإبقاء الأمر كما هو، من دون فضيحة، ذلك أنهم قدموا فضيلة الحاجة الضرورية، وأجابهم الرهبان، أنه ليس بإمكانهم فعل هذا، من دون إذن الملك، الذي كان راعيهم، والمؤسس لكنيستهم، وكذلك كنائس أخرى في هذه المنطقة، ومع ذلك رجاهم الكهنة بحرارة في سبيل فعل هذا سرية، آملين بفعل الشيء نفسه في كنائس أخرى، وأن يجعلوا هذا سابقة، ولكن الرهبان لم يرغبوا في أن ينصاعوا لحججهم المخادعة، وطلبوا منحهم وقتاً حتى يعود راعيهم إلى الوطن، لأنه كان غائباً، لكي يعطي موافقته على رضاهم بهذا الطلب، إذا ما رآه موافقاً، ولذلك بعثوا رسالة إلى راعيهم، يوضحون له بها إشكاليات هذا العمل.

وعند ذلك أرسل الراعي، بوساطة كاهن مخلص وحكيم تابع له، اسمه وليم دي بورغ Bourg، رسالة إلى الملك، وطلب نصيحته حول المسألة، وأخبره بالمخاطر التي من الممكن أن تنجم عن هذه القضية، ورأى الملك أن عملاً من هذا النوع من الممكن أن يكون مصيرياً بالنسبة إلى تلك الكنيسة، ومثل ذلك إلى الكنائس الأخرى، وذلك بحكم أنه كان راعيهم، وحاميهم، وحاكمهم ولأنه أبعد الدسائس الخفية، وشره البلاط الروماني، منع بحزم ودقة الاقدام على

مثل هذه السابقة غير النظامية، حتى لايجري تلويث الهواء أكثر مما هو ملوث.

القديس إدموند يصبح متميزاً بالمعجزات

وملأت في هذه الآونة أخبار الاسم المقدس، والذكرى المشهورة لإدموند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، ومعجزات قداسته، بلدان هذا الجانب من الألب، وذلك مع سمعته المجيدة، وبلغ الأمر حداً، أنه بوساطة المعجزات غير الاعتيادية، التي تطف الرب فعلها من أجله، أن أيام الرسل بدا أنها قد تجددت، وانجذب رؤساء أساقفة، وأساقفة، ونبلاء مع حشود لا تحصى من الناس، من كلا الجنسين، برائحة العطر الطيبة، التي صدرت بالفعل من مناطق نائية عن ضريحه في بونتني، لذلك أخذ هؤلاء يسألون مساعدة إدموند المذكور.

وفي انكلترا أيضاً، في دير للنساء في كيتباي Catesby، حيث كان رئيس الأساقفة المذكور قد ترك اثنتين من أخواته بمثابة راهبات، وكان قد أعطى إلى إحداهن هبة تعبّر عن العاطفة، تمثلت بطيلسانه، وقد تلطف بعمل بشكل مدهش عدداً من المعجزات هناك، الحديث عنها ووصفها سوف يتطلب رسائل طويلة خاصة.

رهبان كانتربري يحصلون على تحليل من البابا ويتخبون بونيفيس رئيساً لأساقفتهم

في هذه الآونة، في شهر نيسان، تمكن رهبان كانتربري، الذين أرسلوا إلى روما، لصالح التجمع الديري، للحصول على تحليل من القرار الذي تفوه به رئيس الأساقفة ضدهم، من الرجوع من البلاط الروماني، بعدما حصلوا على وجوب تسلمهم تحليلاً بوساطة طريق التحذير، حيث جرى ندب راعي دير القديس ألبان مع رئيس الشمامسة هناك، مع رئيس رهبان دنستابل Dunstable، من أجل تسوية القضية، لكن

Bibliotheca Alexandrina



0414618